

# أبناء الجبن

مذكرات عن الأكراد ووطنهم



تأليف  
الكاتبة مارغريت كان

E-Pirtûk

ترجمة  
نورا شيخ بكر

[www.kurdme.com](http://www.kurdme.com)

[www.all-kurd.com](http://www.all-kurd.com)

[www.kurdefrin.com](http://www.kurdefrin.com)

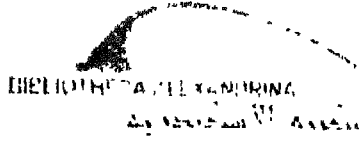


أبناء الجن

حقوق الطبع محفوظة  
لِلناشر  
الغلاف، سعيد الحسيني  
الخطوط، د لبرين  
مطبعة الخلود ٢٢٤٢٧١  
دمشق

**GIFTS OF 2001**

FRIENDS OF BIBLIOTHECA  
ALEXANDRINA ASSOCIATION  
IN NORWAY



# أبناء الجن

مذكرات عن الأكراد ووطنهم

تأليف

الدكتورة مارغريت كان

ترجمة

نورا شَيْخ بَكْر

التدقيق اللغوي

الاستاذ دحام عبد الفتاح

E-Pirtûk

[www.kurdme.com](http://www.kurdme.com)

AYE A/S



[www.all-kurd.com](http://www.all-kurd.com)

[www.kurdefrin.com](http://www.kurdefrin.com)

## إهداء

- إلى أحمد من أجل كل شيء
- إلى أمير لنبضنا الاخوي الجارف
- إلى أبناء الجن

اهدي هذه المساهمة المتواضعة  
نورا

# استهلال

ان كردستان التي تمتد ضمن حدود ايران، العراق، تركيا والاتحاد السوفياتي، تشكل أمة بدون لغة رسمية وبدون حدود أو علم، ولكن كردستان قد وجدت منذ قرون كوطن روحي وجغرافي للملايين.

يشكل الشعب الكردي قومية عرقية، حيث بقيت لغته المتميزة وثقافته حية على الرغم من الاضطهاد الوحشي الذي كانت تمارسه الدول المعتدية. وعلى نحو مغاير عن شعوب أخرى في الشرق الاوسط، الاكراد هم مسلمون سنيون مخلصون، ترتدى نساءهم الالبسة ذات الالوان البراقة ويظهرن سافرات الوجوه. انهم مدافعون جبارون عن الاستقلال الكردي، وهم مضيفون يحسنون الضيافة وجيران لطفاء.

عندما سافرت مارغريت كان الى كردستان سنة ١٩٧٤ لدراسة اللغة الكردية، اتخذت هي وزوجها من تعليم الانكليزية عملا لهما في ريزاي. وهي مدينة تقع في الشمال الغربي من البلاد. وبما ان الكردية كانت محرمة قانونيا في ايران، فان مهمة م. كان تحولت الى متاهة محبطة من المبادرات المزيفة والصمت النمريك عندما حاولت أن تقيم علاقة مع الاكراد. وبيطء وهي تحطم حواجز اللغة والعادات والسياسة، اكتشفت م. ك كردستان وشعبها المتشبه بقوة بتراثه وكذلك بحلمه الحي أبدا في الاستقلال.

وخلافا للنساء التركيات والفارسيات في مدينة ريزاي رحبت نساء كردستان بحماس بالموالفة. ان البستهن ذات الالوان القوس قزحية الصاخبة بالمقارنة مع العبايات السود الخنسية لنساء مسلمات أخريات وطبعهن العملي يتناقض مع تكلف النساء الايرانيات المتمدنيات.

ان م . م . كان ، وهي واحدة من النساء الغربيات القليلات اللواتي كتبن عن الاكراد ، تزودنا بنظرة رائعة عن دور النساء كعضوات في مجالس الحريم وكممونات بالغذاء في قرى ذات أصالة . ترسم مارغريت كان لوحة حية للاكراد من أصولهم التاريخية ، حتى الصراعات المعاصرة الموروثة في العلم التطبيقي ونزعات مساواة تحرر المرأة ، والحياة المدنية .

والكتاب المعنون بأبناء أجن الذي أتى في زمانه ومكانه المناسبين يوضح كيف يعيش شعب مضطهد ، لا يقهر في احدى أكثر المناطق المتفجرة في العالم .

منحت مارغريت كان شهادة دكتوراه سنة ١٩٧٦ ، بعد أن كتبت اطروحتها عن اللغة الكردية . علمت الانكليزية واللغويات في جامعات عدة في الولايات المتحدة وكذلك في ايران ومصر ، وهي مؤلفة " مدخل عن الاكراد " في موسوعة هافسرد للمجموعات العرقية الامريكية . وتقتن السيدة م . م . كان فسي كاليفورنيا مع زوجها وابنها .

## مقدمة المؤلف

منذ قرون خلت ، ألقى النبي سليمان خمسمائة . مسن  
الارواح السحرية التي تدعى الجن خارج مملكته ونفاهم الى جبال  
زاغروس . انطلق هؤلاء الجن في البداية الى اوربا لاختيار خمسمائة  
من العذراوات الجميلات كعرائس لهم ، ومن ثم ذهبوا للاستقرار فيما  
عرف بعد ذلك بكردستان .

هذه مقط واحدة من الاساطير التي نحاول تفسير كيف أن  
أناسا ذوي بشره ناعمه ، وشعر أشقر معروفون بعلاقاتهم الوحشية  
غير المحتمله ، وبعد اوانهم قد أتوا ليعيشوا في الجبال الواقعة  
على نحو منفرج على الحدود التي تفصل بين ايران ، العراق ، تركيا  
والاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر . لغتهم شبيهه بالفارسية ومن  
بعيد تمت بصلة الى الانكليزية وكذلك بالنسبة لاجلبيبة الالسن  
الاوربية . ان الاكراد ولكونهم منغلقيين في جبالهم لم يتزاوجوا  
من العرب والاتراك كما فعلوا مع الفرس . ربما لهذا السبب يبدو  
بعض الاكراد كالأيرلنديين أوحتى كالسويديين أوربما تكسون  
مورشات تلك العذراوات الاوربيات التي أحضرها الجن قديما .

مضيت في بحثي عن الاكراد - لأنهم بالنسبة لي - يمثلون  
مغامرة بعيدة عن الوطن وقضية عادلة أو من بها . كانت لـدي  
تذكره طائفة وعمل ينتظرنني في ايران . ولكن كردستان وليس  
ايران كانت غايتي . لاتوجد خرائط عدا تلك التي رسمها الاكراد و  
اصداقوهم تدرس كردستان ، وطن الاكراد ، لاتوجد اشارات تدل  
على الطريق ، لامكتب للسياح ، ولامرشد ون سياحيون . هناك البوليس  
السري الذي سيوجهك بسرعة وبقوة الى الاتجاه المعاكس لكن كردستان  
هي مكان حقيقي ، لها حدودها ومدنها ولها لغتها ، فـكردستان



هي كامارات سحرية في ضباب الجبال غير الكثيف لها طريقة فسي  
الظهور والاختفاء ، فهي تكشف نفسها للغربية ومن ثم وبشكل محبسط  
تنفلق على نفسها في وجهها .

ان الكثير من الامريكيبين والاييرانيين وجدوا صعوبة فسي  
فهم سب اتخاذي القرار لدراسة الكردية ، فليس فيها كسب مادي  
ولا مجال لتعليم اللغة والأدب بها كما بالنسبة للفرنسية او العربية  
وفي الحقيقة لا يوجد الكثير من الادب الكردي المدون . واللغة الكردية  
بالنسبة للكثيرين من الايرانيين والاتراك والعرب ليست لغة حقيقية  
فهم يعتبرونها مجرد لهجه ريفيه خرقاء يتداولها الأميون وأنها  
غير جديره باهتمام دراسة تعتبر نفسها باحثة حقيقية .

أما الأكراد أنفسهم فلم تكن لديهم صعوبة في فهم  
اختياري لغتهم . فبالنسبة لأناس يقاتلون من أجل حياتهم ، وللسيادة  
على أرضهم ، تعتبر لغتهم الام شيئا عزيزا جدا عليهم . ليس  
كل الأكراد شقرا وذوي ملامح اوربية ، فبعضهم يشبه العرب ، وليس  
كل الأكراد يرتدون سراويلهم التقليديه الفضفاضة أو الالبسة  
المتعددة الالوان ، فبعضهم يعمل في المدينة وآخرون يحضرون  
الجامعات بالبسة غربية الطراز . ولكن الى حد الان فكل الأكراد  
تقريبا المتعلمون وغير المتعلمين ، الشقرا او السمر ، القاطنون في  
تركيا ، ايران ، العراق ، أو الاتحاد السوفياتي جميعهم يتحدثون  
الكردية . فقط في بضعة من العقود الأخيرة المعاصرة ، نجحت  
الحكومات الثلاث في الانتفاص من هذه العلامة الاخيرة والاكثر أهمية  
بالنسبة للهوية الكرديه .

ان طريقة اللباس والحلي والحرف اليدويه ستمبح أسلوبا  
متبعا في ايران بالطريقة نفسها التي سادت فيها الثقافة الامريكية  
الهندية في أمريكا في الوقت الذي لن يعد يشكل فيه الشعب القبلي  
تهديدا للثقافة المهيمنة . وكلما حدث هذا بعجلة أكبر شاعر  
الايرانيين بارتيياح أكبر نحو هؤلاء الذين يريدون دراسة

الكرديّة . لكنني لم ارد أن انتظر حتى ذلك الوقت ، وأملّي هو  
أن ذلك الوقت لن ياتي ولا بشكل من الاشكال .

كان الاكراد قد استقروا في جبالهم لوقت طويل قبل أن  
يتربع شاه الفرس على عرشه الطاوسي أو أن يبني أعمدة  
( أوزيماندياس ) في ( برسيبوليس ) . وقبل ولادة النبي محمد (ص)  
بوقت طويل اعتنق الاكراد العقيدة الزرادشتية مميزين كلا من اله  
الشن واله الخير ، بانين لهما معابد النار ، ومقيمين طقوس النوروز  
" اليوم الجديد " في يوم الاعتدال الربيعي .

عندما قدم العرب أذعن أغلبية الأكراد مثل أغلبية شعوب  
الشرق الأوسط للإسلام . وقد أعطى الأكراد للإسلام واحدا من أعظم  
المدافعين عنه - صلاح الدين الأيوبي - حيث قاتل ريتشارد قلب  
الاسد والمليبيين لاستعادة القدس " اورشليم " سنة ١١٨٧ . وقد كان  
صلاح الدين مخلصا للزمن الذي عاش فيه ، فقد قاتل المليبيين دفاعا  
عن الإسلام وليس من الأكراد ضد العرب .

تبدلت الأزمان ثانية ، وفي سياق الامبراطوريات الاسلاميه  
العظمى بحث الاكراد عن هويتهم الخاصة . كان صلاح الدين منهم ولكنهم  
أعطاهم القليل . وفي ظل تلك الظروف أرادوا الخلاص من ضرائب  
العثمانيين المرهقة ، وأرادوا التعرف على ثقافتهم ولغتهم قبل  
أن ينفهروا من قبل العربية الكلية الوجود . ولكن المثاليين فقط  
مثل الشاعر الكردي العظيم أحمد خاني ، طالبوا بمثل هذه الامور فسي  
تلك الايام المبكرة .

ان أغلبية القواد الأكراد كانوا يتبعون في جبالهم ،  
ومثل الاسياد الاسكتلنديين يقاتلون أعداءهم من الأكراد ، ناسيين  
كلية قضية وحدة الأكراد .

والآن لقد اعيق الاكراد - مثل أسلافهم الجان - ليس فسي  
القمقم ، بل في جبالهم . لقد حرموا من الكثير من مكاسب القرن

العشرين باقين رعاة فقراء ومزارعين پرعون ويعملون في أرض صعبه بأساليب وادوات أجدادهم . ولم ترأية حكومة أنه من المناسب أن تحسن أراضيهم هذه ومثلما كان حال سليمان مع جانه ، تخاف هذه الحكومات من الاكرد ، تخاف مما قد يفعلونه مع حصة وافرة من نتاجات البترول التي تكمن تحت أرض كردستان ، تخاف مما قد يطالبون به لو عرفوا كيفية القراءة والكتابة وكانت لهم الحرية في التكلم بلغتهم الأم واصرارهم على حقهم في أن يبفوا أكراد . والأكرد منذ القدم يشغلون بعضا من أقسى وأصعب الاراضي في المنطقة ، ولكن العراقيين قد نجحوا في ابعادهم خطوة اخرى الى الصحراوات الحارقة في الجنوب . أما ايران وتركيا فقد اعتمدتا على أساليب نفسه للسيطرة على الاكرد ، وهم معرضون ضمن حدود هذين البلدين لخطر دائم للابعاد ، ليس الى الجبال هذه المرة ، بل ليكونوا غير أكرادا ولخطر تجريدهم من لغتهم وحتى من لسانهم الخاص .

كان الأكراد في العقود الثلاثة الاخيرة ، قد أغروا ووعدوا ونكثت الوعود من قبل الانكليز والروس والامريكان . لقد سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا بيادق في لعبة الشطرنج الشرق أوسطية العظمى آملين في الحصول على الحكم الذاتي لأنفسهم كأكراد . فكل قوة عظمى كانت تعدهم بالحرية عندما تتفرغ من مشاغلها وفي كل مرة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة وشرف فقد كانوا يخذلون في قتالهم . وما من دولة - وبغض النظر عما وعدت الأكراد به لحظية قرارها استخدامهم لمصلحتها - سمحت لهم بأن يقاتلوا من أجل أنفسهم ومن أجل حلمهم القومي . وفي الوقت الحالي ، وفي الربع الاخير من القرن العشرين ، وبوفاق الامريكان والسوفييت مع الانظمة في طهران وبغداد ، وأنقره هناك القليل من الاهتمام بالاكرد وبمطالبهم .

ان النضال من أجل حق تقرير المصير الكردي ظل متنقلا مسن تركيا في بداية القرن العشرين الى العراق سنة ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ، والسوى ايران سنة ١٩٤٦ وثانية الى العراق سنة ١٩٧٥ ويهود ثانياً الآن وأخيرا الى ايران .

ان الأكراد المقيمين في هذه الدول الثلاث وكذلك المقيمين في سوريا والاتحاد السوفيتي يزيد عددهم عن سكان الدانمبارك، والنرويج والسويد مجتمعين . ومع ذلك ولأسباب تاريخيه ولانفساماتهم القبليه لم يحفظ الأكراد حقهم أبدا . وفي كل مرة يظهر فيهما انه لم يعد لهم أمل فان الأكراد يشورون المرة تلو الأخرى . وكل حكومة من الحكومات المعنيه تقبض على الأكراد فبصه مميته وعندما تضعف تلك القبضه ولو قليلا فان الأكراد يستعدون للقتال . وكما يقول الأكراد " كردستان بيان نمان " كردستان أو الموت .

وما يتبع في كتابي هذا هو سرد لعصه بحثي عن كردستان ايران السبعينات ، ايران الشاه وبوليسه السريح . عندما عدت من زياره اخرى سنه ١٩٧٨ ، كانت كردستان واضحه اكثر ، الى حد ما ، لأنني عرفت أين ابحث عنها وكذلك لان قوة الشاه كانت قد ضعفت والان وقد أطيح بالشاه ، لا أحد يعرف بالصبط ماذا سيحدث في ايران خاصة في تلك الزاويه العاصفه في الشمال الغربي ، حيث تقع كردستان . ومرة أخرى وكما في أوقات كثيره خلت ، يقاتل الأكراد من أجل الاعتراف بهم ومن أجل حياتهم .

الجزء الاول  
خارج كردستان

## الفصل الاول

ان لباس المرأة في ايران وخاصة لباسها الخارجي هو صومعتها ، هو مأواها ، انه تركيبه تخبر العالم ان المرأة فسي خارج بيتها ليست آمنة ، وأن أمنها الفعلي هو في بيتها الذي تنتمي اليه . والكلمة المرادفة للعباءة هي " الشادر " وحرفيا تعني الخيمة ، والفرق بين أن تكون المرأة بعباءة أو بدونها يمكن أن تعني الفرق بين أن يتحرش بها الرجال أو أن تهمل من قبلهم في الشارع . ان المرأة المغطاة بحجابها والمتحرش بها بطريقة ما ، لها الحق في أن تثور لأنها قد افترضت مظهر الفضيلة بلباسها والمظاهر في ايران هي أهم بكثير مما يكمن في الداخل وفي جوهر الأشياء .

عندما وصلت الى ايران لأول مرة أحاطت بي مجموعة من السيدات من ذوات الخيم السود وهن يتهامن ويحدقن في ، متلهفات لفرصه ليتفحص فيها امرأة أجنبية عارية تقريبا . وكرد على تصرفهن هذا ، أمعنت التحديق فيهن أنا أيضا ؛ واندهدت لروءيبة الكميات الهائلة من مستحضرات التجميل على وجوههن المكشوفة وملامح من أجسادهن من خلال مخاولاتهن المطردة والضرورية للاحتفاظ بالخيام المنزلفة حول جسد كل واحدة منهن . وعلى الرغم من أن النساء الايرانيات قد بدأن بالتحرر من عباءتهن شيئا فشيئا ، ويذهبن الى العمل والمدرسة ويمشين ولو بمهوبة في الشارع سافرات الوجوه ، فان العباءة تشكل الغطاء التقليدي للمرأة الفارسية منذ قرون عدة . وبعيدا عن طهران لبعة كيلومترات فقط الى الشمال الغربي ، وجدت مجموعة كبيرة من النساء لم يرتدين العباءات ، نساء لا تزال تعني لهن كلمة العباءة خيمة فقط ، وهي قطعة ثقيلة من الصوف المنزلي

الصنع التي تحتم عليهن تحمل مشقة حملها عند سفوح الجبال عندما تتحرك القبيلة صوب الربوع المصيفيه . ومن السخرية أن هؤلاء النساء يرتدين ملابس أكثر احتشاما بكثير مما ترتديه العديد من النساء الفارسيات العصريات تحت عباءتهن . ان لباس المرأة الكرديسنة وبمقاييس غربية هو أشبه مايكون بالحصن ، حيث يتألف من طبقة فوق أخرى مع سراويل ثقيلة وقميص داخلي ، وعدة أثواب ، وسنترات ثقيلة ومداره ووشاح أو وشاحين حتى في أيام المصيف الحارة .

ايران شعرنى دائما بأنى مكشوفه . ففى زيارتي الثانية وأنا جالسه فى احدى محطات خطوط الحافلات فى طهران كان العسرق يسهل منى وأنا أرتدى سترة ذات أكمام طويلة وقبعه ضيقة مرتفعة تحت ثوب قطنى ثقيل . ووشاحا كبيرا قد ستر كل شعري ومع كل هسذا فقد كان الناس لايزالون يشددون النظر الي .

من السهل ، فى الولايات المتحدة ، أن تسخر من مجرد فكرة الغطاء ، وأن تقول : أنه لابس للنساء المكرهات من قبل أزواجهن أو آباهن بصورة رسمية لشعور هؤلاء بالعيب . ولكن بما أنك فى ايران تتجشم عناء التحديق بك ، فانك تتشوق الى غطاء أو السى آي شيء يجنبك نظرات الاخرين والى التحديق بحصانة ، لأن يحدق فىك الآخرون .

بينما كنت أنا وزوجى جبرد جالسين ننتظر الحافلة لتعلن عن البرحيل ، رأينا رجلا كرديا يمشى باتجاه المنفذه داخل حجرة الانتظار . ولو انه كان ايرانيا . أو تركيا ، أو أرمنيــــــــــــــــا ، أو آشوريا ، أو يهوديا أو عربيا لربما لم يكن بإمكاننا أن نخمن زيه الموروث ، على الأقل ليس قبل أن يفتح فمه ويتكلم بلغه متمييزة ولكن الأكراد هم على الاغلب ، مميزون دائما فى ايران . والحال هو كذلك مع الأمريكان ، على الرغم من حقيقة ان ايران هى أمم من الأعراب وذات هيفات جسدية مختلفه تتدرج بين عرب ذوي بشرة سمراء الى أكراد ذوي شعر أحمر وأغلب الايرانيين حدقون فى تمهيينـــــــــــــــــ الغربيين .

أما الأكراد فلهم حكاية أخرى ، انهم أمة من بضع مجموعات قومية باقية ترتدي لباسها التقليدي . وبلغة قريبة من الفارسية يقدر الاكراد على الاندماج أكثر من الاتراك الذين يسخر منهم بسبب نبرتهم الفارسية ولكن الكثيرين من الاتراك لايهتمون على وجه خاص بالاندماج .

حدثت أنا وجيرد باعجاب صامت في ذلك الرجل الكردي عندما خطا بعيدا عن المنفذة بارزا في سرواله الازرق الصوفي الفضفاض وسترة متناسقة مع السروال ، وعمامة ملفوفة حول قلنسوة مطرزة ضيقة .

شعرنا بقليل من خيبة الامل عندما سعدنا الحافة ، لعدم وجود أترك فيها . وفي ليلة طويلة متعبة قضيناها وعيون المسافرين متوجهة الى خارج النوافذ ، لم يشغلني شيئا عن الانسياق في تداعياتي فقد حلمت طوال سنتين بالعودة الى كردستان . ومع ذلك فقد ترددت عندما حان الوقت لذلك ، ووجدت نفسي مرتاحة في الشرق الاوسط . ماذا عن محاولات الاخلال بالأمن ، التي كانت تحدث في كل انحاء البلاد ، ومنذ الشتاء الاخير ؟ . ماذا عن الحقد الذي يحمله الكثيرون من الايرانيين للحضور الامريكي في بلدهم ؟ ، ومع كل العنف الايراني المبرر لم أحتج الى أن أمعن النظر في أسباب شخصية اخرى تتعلق بمسألة تخوفي . وحالما بدأت الحافلة بالسير متسلقة الهضبة ، بدأت الذكريات القديمة والشكوك تزحف الى ذهني .

منذ أربع سنوات خلت ، وبعد مرور قرابة سنة أشهر على زواجي أقنعت زوجي على كره منه بالمجيء الى مدينة صغيرة تدعى ريزاي قريبة من الحدود حيث تلتقي ايران بكل من العراق وتركيا . يقطن خمسة عشر مليوناً في تلك الجبال الحدودية والمناطق المحيطة بها وجميعهم يتحدثون بلهجة أو بأخرى من اللغة الكردية . كنت قد ذهبت خصيصاً لدراسة لغتهم ولكنني اخبرت الحكومة الإيرانية أنني قد اتيت لتعليم اللغة الانكليزية في كلية محلية . لم يشجع الاجانب أبداً على أن يقضوا وقتاً مع أقليات متفجرة مثل الاكراد ، وفي فترة اقامتي كانت قد اندلعت حرب اخرى ضمن السلسلة الطويلة من الحروب على الحدود العراقية مباشرة . كان من الممكن دراسة لغة يمكن



بلوغها بسهولة أكثر مثل الإسبانية أو العربية أو حتى الصينية ، لغات لا تتطلب ذرايع للاتصال بالناس الذين يتداولونها ، لغات تستخدمها حكومات رسمية ، مفضلة إياها على تلك التي يستخدمها الهاربون ليلا في اجتماعاتهم الثورية .

نظرت خارج نافذة الحافلة والظلام ينسدل فوق المناظر الطبيعية حيث تهب فيه الرياح الناشطة ، والعشب الاخضر يتموج بين الفينيسية والاخرى الى جانب شجيرات أحنتها الريح ، عروق نابتة في الصخور . ما الذي أعادني الى هذه الارض القاسية الغامضة ؟ ، هـل " البيريز والديفز " التي يقابلها عندنا الجنيات والشياطين هي التي نسجت لي تعويذه ، موازنة بذلك بين الخوف وروعة الاشياء وبين القهر والفرح ؟ ، عندما غادرت ايران منذ ثلاث سنوات خلت ، أفعم رأسي خلال سنة واخذة بعدها بالذكريات التي تبعدني عن النشوة والحيوية ، سنة لاتزال حتى الآن تقاوم بعناد كي لاتوءس في سطور ورقة ما أوحى في محادثة لطيفة . هل أحببت ايران ؟ ، كان هذا سويا معقولا تماما وقد أصبح متوقعا من شفاه العائلة والاصدقاء والمعارف الإيرانيين القاطنين في الولايات المتحدة بعد عودتنا . ولم يتوقع أحد أكثر من جواب لطيف وهو أحبناها كثيرا أو كانت صعبة قليلا . وقد فوجئ أغلب الناس بمعاناتنا الفكرية عندما كنا نحاول أن نعبر عن شعورنا . لقد كان مشهد الذكريات المتغير والمختلف الالوان - البصرية والعاطفية حيويا جدا تقريبا . كنت أتلهف للحدث في تجربة عيشي في ايران ضمن مفاهيم عامة متدفقة لأكون مفهوما عن هذه التجربة غير المريحة ، لأقرر مرة ولتكن الأخيرة : هل أحببت ايران أم كرهتها ؟ .

أشار كثير من الناس الى أن الجو النفسي السائد في ايران هو جو من جنون الاضطهاد والارتياب والعظمة . ومن المحتمل أن يفترض كل شخص تعرفه في وقت ما أو آخر انك انت أو أحد معارفك من الذين بدأت تثق بهم هم من عناصر البوليس السري . انه لشيء مثير للاعصاب أن تشعر أن الناس - من الممكن - أنهم يهزؤون بك ، فهم يدمونك الى منازلهم ويخبرونك أنهم مهتمون بك جدا لمجرد أنه واجب اجتماعي والمفروض عليهم أن يودوه ، وهم ربما يحتقرونك في داخلهم في الوقت نفسه .

من بين مجموع الناس الذين التقيت بهم تلك السنة في إيران  
تكونت لدي ثقة بالاكرد . وهم الوحيدون الذين بدا لي أنهم يثقون  
بي . ومع ذلك فان غياب ثلاث سنين زرع شكتي تلك ، على الرغم من  
أني لم أكتب رسالة واحدة ألا وتلقيت عليها جوابا . والآن وقد  
تطبعتم بسلوك الايرانيين فيما يتعلق بالثقة في معناها الظاهري ،  
تساءلت في نفسي لماذا وثقوا بي على الرغم من كل شيء . لقد ذهبت  
الى هناك والثورة الكردية في أوجها ، حرب كان من المفترض أن يخوضها  
الاكرد العراقيون فقط ، ولكنها جعلت الامل يظلم من جديد في نفوس  
الاكرد في كل مكان :

لدى عودتي الى ايران تأكدت من شيء كنت قد شككت فيه من قبل  
وهو تورط أمريكا الممقوت ، والواسع الانتشار في تلك الحرب . فقد  
تأكد لي بعد ذلك أكثر من أولئك الذين بدأ أنهم كانوا يهركونه .

عندما غادرت ايران في المرة الأولى ، بعد مرور خمسة أشهر  
على انهيار الثورة الكردية في العراق كان الاكرد الايرانيين لا يزالون  
يلقون باللائمة على الشاه لخيانته اخوانهم العراقيين وقد بدا عدد  
قليل فقط من الاكرد العراقيين واعين لدور المخابرات المركزية  
الامريكية الذي لعبته في خيانة مصالح الاكرد . ماذا لو حزم أصدقائي  
ولو على نحو متأخر وبعد كل شيء - أنني كنت جاسوسة ؟ ، بأي ضرب  
من الترحيب كانوا سيستقبلونني عندما أعود ؟

عندما كنت في كردستان كنت أشعر مع الرجال الاكرد براحة  
أكثر مما لو كنت مع رجال آخرين من أي فئة أخرى في المنطقة . ومع ذلك  
فقد كانت تحدث صدامات مخيفة مع الرجال الاكرد في القرى الجبلية  
النائية والمدن التركية الحدودية الصغرى الواقعة بين الغرباء . كان  
جبرد معي هذه المرة كما كان في معظم رحلاتي . ان وجود الاسلحة في قرية  
كردية ، سيجعل ابتغاء النجاح لزوج أمريكي متعب في مهمته أمرا ملحا .  
حدثت خارج النافذة مرة أخرى للاطمئنان فقط ، فرأيت ومضات من النور  
تلوح من بعيد . ففي ايران القليلة السكان تكون الأصقاع الواقعة بين  
المدن ، خالية على الأغلب وقد كانت الجبال لقرون عديدة ، مأوى  
لقطاع الطرق وحتى الوقت الحاضر ، في العقود الأخيرة من القرن العشرين

أتساءل عمن يمكن أن يختبئ هناك ، منتظرا حافلنا لتمرره .  
في داخل الحافلة ، راقبت امرأة جالسة في المقعد الأمامي  
وهي تلف رأسها ، والجزء العلوي من جسدها بعباءتها استعدادا للنوم .  
ومرة ثانية شعرت أنني مكشوفة وبدون مأوى . والقرى التي كنا ننسوي  
البقاء فيها ليست بعيدة عن المدينة إلا ببضعة كيلومترات ، ولكن  
هذه الكيلومترات غالبا ما تكون متعرجة حيث تلتف عبر الجبال فوق  
طرق ترابية . وليس في القرى طاقة كهربائية ولاهواتف . فليس  
بمقدورك أن تخطو إلى حجرة ما وتتصل بالشرطة إذا أصبت بسوء . أعرف  
أنني كنت أترك مخيلتي تسرح حالا ولكن الشياطين كانت تتملكني .  
- أنا خائفة .

استطعت أخيرا أن أهمس بذلك عاليا لجيرد .  
- افترض أنهم لا يريدون رؤيتنا مرة أخرى . افترض أنهم يظنوننا مع  
المخابرات الأمريكية .  
أجاب جيرد موءكدا :  
- أنا لست متأكدا من أنهم لن يريدوا ذلك ، ولكنني أثق بحاج اسماعيل  
فهو صديقنا .

كان الحاج اسماعيل يجيب على رسائلي لمدة سنتين بخطه الرديء  
وبكتابة فارسية تعلمها بنفسه . لم يتح الرجال الاقطاعيون الوقت  
الكافي للالتحاق بالتعليم الرسمي في حياتهم المحمومة في الأيام الخوالي .  
وقد كنت أبذل جهدا أحيانا في فك رموز رسائليهم المكتوبة بالكرديسة  
على الرغم من خبرتي الواسعة بالمراسلة ، لأنه لم يكن أحد منهم قد  
تلقى تعليما في أصول كتابة لغتهم الخاصة وفي مناطق عديدة يقطنها  
الأكراد تعتبر الكتابة عملا خارجا على القانون . ولكن الحاج اسماعيل  
كان يكتب على أية حال ، ويرسل تحيات مجموعة من نساء لايجسدن  
الكتابة . لقد قضوا حياتهم في القرى بعيدين عن أية مركز بريد ، ولكن  
للمسافة لم تكن هي المشكلة فغالبيهم كانوا أميين .

عندما فكرت بالنساء ، وتذكرت أسماهن مثل : مريم ذات الشعر  
الأحمر والعينين الزرقاوين وخديجة ذات العينين البنيتين والأنف الطويل

ونسرين بذقنها " المود بجلياني " وشعرها الأسود الفاحم ، شمسعت  
بالطمأنينة تعود الي . حاولت أن أتخيل ماكن يفعلنه خلال فترة الثلاث  
سنوات التي كنت فيها بعيدة عن ايران . فقد كنت ادون ملاحظات  
المتعلقة باللغة الكردية ، وقد حصلت على درجة علمية ، ودرست وسافرت  
كثيرا خلال هذه السنوات الثلاث . أما هن فقد كان من المحتمل أنهن  
بقيين في القرية باستثناء بعض الرحلات القصيرة مصطحبات معهن مرافقات  
الى المدينه حسب هوى الحاج . ربما كان علي أن أذهب بعيدا وأمسود  
لأدرك كيف أن هؤلاء النساء لم يذهبن الى مكان آخر لآلال فترة الثلاث  
سنوات من بعدي ولافي غيرها ، لربما خرجن من القرية في أوقات الحرب  
والهجرة ، أو بسبب الزواج من أكراد من مناطق أخرى ، هذا بالنسبة للنساء  
غير المحظوظات منهن . وخلال الشتاء حيث تجعل حرافات الثلج والمواقد  
النفطية الحياة تعبسه ، كانت مريم وخديجة ونسرين يستيقظن كل يوم  
ويودين أعمالهن . وخلال الربيع كن يتمشين بين القطعان وبجوار الجداء  
والخراف ذات القوائم الفهيفة . كانت نسرين وخديجة تعملان في كل فصل  
من فصول السنة في ذلك المطبخ المعتم الممتلىء بالدخان في خلفية المنزل  
ونحن الآن في فصل الصيف ، فصل الحصاد ، وجني المشمش والخيار من البساتين  
والحقول . وسيحل فصل الخريف حالا ، وستهطل الأمطار ثانية . وعلى الرغم  
من صداع الرأس وآلام الأسنان والحيش وفثيان الصباح الذي كان يصيبهن  
أثناء حملهن فقد كانت هؤلاء النساء ، يشاركن في تموين أهاليهن .  
ان تحملهن وشباتهن هذا جعلني أطمئن في غمار بحثي الفجري لتحقيق  
الذات . ماكان عليهن أن يتبعن مايرغبن به ، فقد كان السبيل قد  
مهده أمامهن منذ قرون خلت .

قررت البقاء في جناح الحريم وارتداء ملابسهن . ولدى خروجي  
في نزعات الى السهل ومنه الى الجبال سيظن بي على أنني امرأة كردية .  
لقد كان من المعن تمييزي بشعري البني وبشرتي الشقراء عن الكردييات  
وبقدر اقتحامي واديا من جنون الاضطهاد والارتياب والعظمة ، وجدت  
نفسى أحلق ثانية في مخيلتي الى جمالية كوني سيدة كردية .

انقطعت تأملاتي عند هبوط الليل ، وفي الساعة الحادية عشرة  
لدى توقف الحافلة في الاستراحة الأولى ، واندفعنا الى حجرة مزخرفة

مضائة وممتلئة بمسافرين متعبين، يلتهمون من أمامهم كميات كبيرة من الأرز المسمن . لقد كانت معدتي مضطربة بسبب حركة الحافلة والشيء الوحيد الذى أحسست به هو أنني استطعت الجلوس لألتقط من وقت لآخر شيئا من طبق " الشالي كباب" الأرز المطبوخ مع اللحم الذى أمر جيرد باحضاره أما شهية جيرد فقد كانت في حالة سوية .

بعدئذ قفلنا راجعين ووقفنا خارج الحافلة نتحدث مع مسافرين آخرين . كانت واحدة منهم امرأة عجوزا ، قالت انها عملت فسي السفارة الأمريكية في طهران ولكنها لم تكن تعرف التحدث بالانكليزية قط. حتى أن لغتها الفارسية كانت ذات نبرة ثقيلة بسبب من لغتها التركية الآزرية الأم. لمح اليها زوج المرأة ذات الحجاب الجالسة في المقعد الأمامي أن يراى ليست بالمكان المناسب لنا لتقوم بزيارته ونحننا قائلان: على الأجانب أن يبقوا في طهران. أدركت أنه كان يريد التودد اليها وأخبرنا أنه قد درس في فلوريدا ويتمنى الذهاب الى كاليفورنيا حالا لاتمام دراسته. حالما معدنا الحافلة تساءلت بصمت فيما اذا كانت زوجته معتادة على ارتداء الحجاب ، أم أنها قد ارتدته خصيما لهذه الرحلة لمدينة ريزاي المتخلفة .

اندفعت بنا الحافلة بعناد على طول الطريق العام وقد أعميق تقدمها فقط بالتفتيش الدوري في كل ساعة من قبل شرطة الطريق العام فقد كانوا ينظرون الى السرعة المرسومة ببيانيا على ورقة الأسطوانة الموضوعية خلف مقياس السرعة للتأكد من أن السائق لم يتجاوز حدود السوعة المناسبة. وقد ابقتني المواقف المستمرة يقطعة. ولكني سلمت بصحة انخفاض عدد الحوادث منذ أن فرضت دورية الطريق العام النظام العام .

بعد برهة بدأنا نتقدم على طول الشاطئ الشمالي الغربي من بحيرة ريزاي الشبيهة بشكل معين ، وهي بحيرة ضخمة ممتدة مالحة تقع شرق سلسلة جبال زاغروس الواقعة الى الشمال الغربي من ايران .

فتحت عيني عند انبلاج الفجر وحدثت عبر البقاع المالحة حتى البحيرة الضاربة في الزرقة . ولكن بحيرة ريزاي أصبحت ملحية المفضل منذ بدأت بالتجديف لساعات على سطحها أمس الخيار في الماء المالح وأغمسه على مهل بصوت مسموع .

بدأنا بالتدريج نرى علامات تذلل على أن المنطقة مأهولة ، مثل بعض القرى التي يمكن لها أن تصبح يوماً ما ضواحي ريزاي الحقيقيّة . ولدى تقدمنا صوب المدينة نفسها لاحظنا خضرة في أرجاء عديدة وهي دلالات أكيدة على وجود كائنات بشرية في هذا السهل المنخفض . عبرنا مصنع سكر الشندر ومن ثم الطريق الجانبية الموءدية إلى المطير . وأخيراً وجدنا أنفسنا في الساحة الدائرية مع تمثال والد الشاه ، رضا ، الذي أعيد تسمية المدينة بريزاي نسبة لاسمه .

دمدمت الحافلة هابطة بنا إلى شارع عريض ، وعندما شعرت بدنو الجبال ذهبت مني شياطين وجنيات الليلة الفاتنة ، وعند الفجر شعرنا فقط بقليل من الغربة المنهكة . كانت ريزاي صغيرة جداً ، وقد استوفتنا هذه المفاجأة كلينا . عندما كنا نقيم هناك كانت بالنسبة لنا عالمنا كله ، عالماً من الألوان الخضراء والرمادية والبنية التي جانب زرقة البحيرة . تقع المدينة على بعد ساعة واحدة من طهران . وهي مكان لم يشجع الأجانب ، أو الإيرانيين المدنيين على الذهاب إليها بسبب مفرها ، على الرغم من كونها المدينة الكبرى في منطقة أذربيجان الغربية .

عندما أحسست بأن أيقاعات جسدي مرتبطة للأبد بأهتزازات الحافلة ، عند ذلك فقط شارفت الرحلة على الانتهاء . كان أحد سائقي سيارات الأجرة قد استيقظ مبكراً ليلتقي بالحافلة وقد بدأ ميتهجناً على طريقته التركيبية الخشنه عند لقائه فجأة بأجانبين . كنت أخشى ألا أجد أحداً في منزل الحاج اسماعيل ، وقد انتظرت في السيارة مع السائق ، بينما ذهب جيرد ليدق الجرس . لم تكن واجهة المنزل بقرميده الأصفر وقضبانه الحديدية المطلية بالأزرق في كل نوافذ الطابق الأول قد تغيرت . ولكني لمحت زجاجاً مكسراً وطبقة كثيفة من الغبار خلف القضبان ، فشعرت لوهلة بالخوف . لماذا ترك الحاج اسماعيل بيته يبدو وكأنه مهجور ؟

بحيوية مذهشة وإفق سائق التاكسي على أن يمضي بنا عبر الجبال . فمن المألوف أن سائقي سيارات الأجرة يغلطون أن يتركوا

الفولغات الروسية الشبيهة بالدبابة أن تتدبر أمر سيرها عــــــــــــر  
الجبال .

في غضون هذه الفترة كانت الشمس قد أشرقت ولكن الشــــــــــــار ع  
الطويل المشجر كان خاليا من المارة عندما أسرعنا هابطين بروبيــــــــــــة  
مارين بالكلية التي عملنا فيها حتى بلغنا نهاية الاسفلت . فسي  
قرية باند حيث تنتشر المنازل فوق جبل يشرف على واد أخضر خصب .  
ان باند هي قرية بالأصل ، ولكنها تتحول الى ملجأ لفئة السائقين  
في ريزاي .

هبط السائق مبطعا في سيرة عندما ارتطمت سيارته بطريق  
حصوي منحدر . ها نحن الآن نتبع النبع الصافي الذي يتدفق مــــــــــــن  
الجبال هابطا نحو سهل مرگا وار خلال ممر باند ، وعبر سهل آخــــــــــــر  
متوجها الى البحيرة . وقد أدهشني اخضرار الجبال الى يسارنا وامتلاء  
النبع الى يميننا . فقد كان هذا شهر تموز وقد مرت أشهر على موسم  
الامطار . وفي شهر تموز في السنة التي مكثنا فيها في كردستان كان  
الجفاف قد جعل السهل ظمئا وذا لون بني داكن .

ارتفعت الجبال فوق رؤوسنا مباشرة خارج سهل ميرگــــــــــــاوار  
الداثري العريض . والى الاسفل من رقع الثلج كانت قرية دستان تقبــــــــــــح  
مثل زمردة فوق رقعة خضراء مائلة للصفرة من الخضرة الجافة . وقد  
أخبرتنا الاهرامات العالية من القش ، المكومة على طول الطريق عند  
مدخل القرية بأن الحصاد كانت تعمل قبل قليل من الزمن . ولدتجنب  
الجدول المتعرج عبر دستان ، اتبع السائق توجيهاتنا الى المنــــــــــــزل  
الحجري ذي الطابق الوحيد ، منزل مريم خانم زوجة الحاج اسماعــــــــــــل  
الشانبة . لم يبدا أحد في تلك النواحي و شعرت بالفراشة لذلك ،  
فبعد أن قطعت هذه المسافة الطويلة وما أحد يرحب بي أو حتى يلاحظني .  
ومع ذلك فان رغبتني في أن يلحظني أحد ماتعزى فقط الى شعوري النامسي  
بأنى لم أبتعد حقيقة كل هذه المسافة أبدا . لم يكن أي شيء غريبــــــــــــا  
علي ، المدينة ، وادي باند ، النهر ، الجبال ، كلها كانت كما كنا  
قد تركناها ولربما أكثر اخضرارا ولكنها من الممكن أن تكون كذلك

لأن شهر أيار لا يزال قاعما والسهل لا يزال يتشرب من الثلج المذاب . من الممكن أن النوم كان قد أخذنا في هذه المدينة الصغيرة القابعة في حوض الجبال . أولربما أننا قد استيقظنا لتونا وتذكرنا أن لنا موعدا لمقابلة الحاج اسماعيل في دستان .

قبل ذهابي الى كردستان للمرة الاولى ، وحتى قبل أن اقصرر الذهاب ، مضيت في ما يقارب نصف دزينة من الرحلات الفكرية الى هناك برفقة مجموعة تقريبا كلها من المغامرین البريطانيين في غزواتهم لكردستان الموحشة . حيث صورت وبجلاء ، المشقات البدنية التي عانى منها المؤلفون والخوف من قطاع الطرق في هذه الأصقاع . والشخصية الأكثر امتاعا لي كان اندهاش الرجال الغربيين لتمتع المرأة الكردية بحرية نسبية . فبعد مجالس الحريم والاطية السوداء التي لقوها في المدن الفارسية والعربية لم يقووا على الاقتناع بمنظر نساء كرديات بغير خمار يعشن ويعملن جنباً الى جنب مع رجالهن .

كان من المعب عليّ تتبع الكتب وهي تصف الحملات العسكرية المملة أو تسهب في التفاصيل من جغرافية منطقة لم استطع تخيلها . ومع ذلك فقد نجحت في أشياء عدة . لقد كان الاكراد مثل الفرس زرادشتيين قبل أن يعتنقوا الاسلام في القرن السابع الميلادي .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار التربة الجبلية الفقيرة التي نعيش فيها ، استغربنا ترحل الأكراد وعلى نحو تقليدي من مكان لآخر ، يراعون لظعانهم وسوائهم في المكان الذي يعثرون فيه على الكلاً . وقصد تبقيهم الشتاءات الجبلية القاحية في الاحواض الجبلية خلال فصل الثلج وعلى قمم الجبال عندما تصبح السهول حارة فائظة في الصيف .

لم أقرأ هذه الاوصاف عن الرحلات الكردية بالترتيب الذي كتبت فيه بل كنت أقرأها ، كلما وجدتها في الزوايا المغبرة في المكاتب الضخمة . عندما قرأت مجموعة الكتب والاسفار الكاملة عنهم ، لاحظت اختلافا مدهشا ، لافتا للنظر بين كردستان ١٨٧٠ وكردستان ١٩٧٥ ، أسلوب الحياة لم يتغير عمليا ، واللباس والعادات كانت كما هي منذ قرون قبل أن يصفها الغربيون . أن جغرافية المنطقة هي التي فسدت



تغيرت ، ف كردستان القرن التاسع عشر العظمى قد قسمت الى أجزاء  
وأقسام من العائلات والقبائل التي وجدت نفسها في التخوم غير  
المصلحة وكانت هذه قائمة الانقسامات .

على الرغم من أن أجزاء من كردستان قد حكمها في أوقات  
مختلفة، شيوخ قبائل وأمراء أكراد ، فان كردستان لم تتوحد فعلياً  
أبداً . أن الأكراد أنفسهم يرجعون سلسلة نسبهم الى الميديين تلك  
السلالة الإيرانية الحاكمة الممعة في القدم والتي عزت نينوى في  
٦١٢ ق.م ، ثم هم أنفسهم غزوا من قبل الفرس سنة ٥٥٠ ق.م ومنذ  
ما يقارب ٦٠٠ ق.م فما فوق فان المساحة التي تسمى بكردستان حالياً  
كانت قد غزيت بالتتابع من قبل السلوقيين ، البارثيين، الفاسانيين،  
الآرمن، والروم والسبزنطيين والسلاجقة والمغوليين والعثمانيين،  
وفيرهم وعندما كانت تضعف هذه الحكومات الاستعمارية أو يسزول  
كيانها ، كان الأكراد سريعيين في حكم أنفسهم . ولكن مع قسودوم  
الجيوش الحديثة والحكومات القوية للسيطرة عليهم أصبح الحكم  
الذاتي الكردي أقل احتمالاً . وفي سنة ١٥١٤ ثبت تقسيم كردستان  
بين الإمبراطورية الفارسية والعثمانية . ولكن الحدود الجبلية  
المرتفعة في كلا الإمبراطوريتين اللتين لم تكونا تطلق  
تجهيزات عسكرية حديثة ، لم تكن واضحة بعد في الهيئة اليومية  
للأكراد العاديين . وقد حدثت الهجرات حسب الفصول متبعاً لمصلحة  
مناطق الرعي أكثر من أن تكون أوامر من الحكومات المركزية .  
لقد كان المغامرون البريطانيون في القرن التاسع عشر محظوظين،  
وان كان عليهم أن يقاتلوا قطاع الطرق ، فقد كان بإمكانهم  
التجوال في كردستان دون أن يعيقهم حرس الحدود .

بعد الحرب العالمية الأولى وانحلال هاتين الإمبراطوريتين  
وعد الأكراد الذين كانوا تحت الحكم العثماني بدولتهم المستقلة  
من قبل الحلفاء . وفي وقت مبكر من القرن التاسع عشر كان قد  
اجتمع بعض الأكراد المنورين مثل الشيخ عبيد الله النهري - وقد  
التقيت بأحد أحفاده لاحقاً - بالحكومات الأوروبية للتحرر من ضغط  
الأتراك كممثلين عن الأكراد. وبعد الحرب العالمية الثانية انطلق الأكراد

في دعواهم لانشاء دولة كردية على أسس بنود ولسون الأربعة عشر التي أعلنها في كانون الثاني سنة ١٩١٨ . فقد عرض ولسون اقتراحها بموجب اعطاء الفرصة للأقليات العرقية الكبيرة داخل الامبراطورية التركية مشيبي الأكراد والأرمن والآشوريين لإقامة دولهم الخاصة بهم ، ولكن معاهدة سيفر الموقعة سنة ١٩٢٠ بين الحلفاء والحكومة التركية الألعبسية ، تكفلت بإقامة دولة كردية خلال سنة من تاريخه ولكنها لم تترجم عمليا أبدا . فقد رفضها القوميون. الأتراك الجدد بقيادة مصطفى كمال أتاتورك . أما اتفاقية السلام الجديدة - معاهدة لوزان - التي وقعت سنة ١٩٢٣ فلم تذكر الأكراد مطلقا .

وبدلاء من أن يصبح للأكراد دولتهم الخاصة بهم ، وجدوا حريبتهم الثقافية والسياسية تتفلس أكثر من أي وقت آخر . أما الأراض الكردية الواقعة تحت نير تركيا ، تلك الجمهورية الحديثة التي تزعمها أتاتورك ، فلن تدعي بكرديستان مرة أخرى وسيدعى السكان " بأتراك الجبال " وستحرم قانونيا تلك اللغة التي يتكلمها ربع سكان تركيا . التقيت في ايران بعدد لا يحصى من الأشخاص وأحفادهم الذين فروا نتيجة لقمع أتاتورك الوحشي للثورات الكردية في تركيا الشرقية . أما الأكراد في الدولة العراقية الحديثة فلم يصابوا بهذا سوء أبدا . ولم تكن لهم سيطرة على البترول الكامن في أراضيهم ، فالبريطانيون قد عملوا جاهدين للتأكد على أن يبقى في أيدي العرب . ولكنهم على الاقل تمتعوا بالتحدث بلغتهم القومية ، وبارتداء لباسهم الوطني . يشكل الأكراد نسبة كبيرة في العراق وبسبب ذلك ، ولضعف الحكومات البغدادية المتتالية فقد كانوا قادرين على اشعال عدد من الثورات التي لم تنته بهزيمة حقيقية ، بل انتهت في مآزق . لم يكن الأكراد الايرانيون محظوظين بهذا القدر . لقد كانت لهم سنة واحدة مجيدة ، أسسوا فيها دولة كردية صغيرة جنوب ريزاي سنة ١٩٤٦ في نهاية الحرب العالمية الثانية . وعندما تحرك الجيش الروسي الذي كان يحتل على نحو مهلهل القسم الكبير من شمال غرب ايران للانسحاب ، تاركا الدولة الكردية الفتية بدون حماية ، دخل الجيش الايراني مهاباد وهي المركز القيادي للجمهورية الجديدة ، وأعدم القواد ، ولوحق كل من دارت حوله الشكوك بتعاطفه معهم لثلاثة من العقود التالية . وأصبح الأكراد - دون

حكومة ذات حكم ذاتي - مجرد احدى الاقليات العرقية المتعددة في  
ايران .

ان المصادر الرسمية غير الجديرة بالثقة والرديئة السمعة في  
كل الاحصائيات السكانية تكون متذبذبة وعلى نحو خاص عندما يتعلق  
الموضوع بالاكرد في كل دولة حديثة يقطنونها الآن . لقد كانت العراق  
ولسنوات تحاول أن تثبت أن حقل البترول الضخم في كركوك لا يقع حقيقة  
في مركز سكاني كردي . أما الاتراك فلا يحصون الاكرد عندهم نظرا  
لعدم اعترافهم بوجودهم كأكرد . وايران تكره أن تقدم تقريرا  
دقيقا عن قوة أي من أقلياتها المستاءة وحتى لو جرت محاولة من قبل  
أي من تلك الحكومات لاجراء احصاء رسمي دقيق في كردستان ، فإن  
الاكرد سيقاومونها اعتقادا منهم أنها من المحتمل لن تفيدهم . ان  
الاكرد ليسوا أحرارا في كتابة وتداول لغتهم في أي بلد باستثناء  
العراق والاتحاد السوفياتي الذي يشكل فيه الاكرد أقلية صغيرة .

ان افتتاني بهذا الشعب لم يتطلب مني جهدا كبيرا في البحث  
والمطالعة . فقد عرف عن الاكرد موقفهم الأكثر تسامحا تجاه المرأة  
أكثر من أي مجموعة اسلامية في المنطقة . لقد كنت أبحث عن لغة ما  
واللغة الكردية كانت تصرخ عاليا لباحث يدرسها . وبمشروع كهذا لن  
ادع همتي تفتت بالالتصام على المكتبات ، و بحوث الجامعات المملوكة .  
ويتوجب علي الذهاب الى الجبال كي أكتسب ثقة هؤلاء النساء ذوات الأثواب  
الملونه ، واللواتي لايفضن الخمار .

ان طهران محطتنا الأولى ، لم تكن كما توقعتها بالضبط ،  
ولكنها كانت تتراءى فقط على نحو مبهم تحت الطبقة الكثيفة من  
الدخان والضباب اللذين كانا يتخللان جو المدينة برتابة . لم نلاحظ أي  
من الاكرد فيها ولم يتناهى الى سمعنا أن أحدا يتحدث فيها بالكردية  
فقد كان من الصعب سماع أي شيء يعلو صوت حركة المرور ، وقد تجولنا  
فيها لبضعة أيام في مشاهدة محاولين أن نتصور اذا كنا حقا في  
ايران ، بلاد فارس عمر الخيام الاسطورية وحكايات الجن الغربية . لقد  
كنا قد حللنا ما يربوا على ٦٠٠٠ ميل شرق نيويورك ولكنها كانت

تتقدمنا بطريقة ما . لقد كان ذلك شعورا غريبا .

أما مدينة ريزاي فقد كانت أفضل ، على الأقل كانت هنالك عربات تجرها الخيول مع أجراسها ، وجبال تخلو من الدخان والضباب وكان أيضا هنالك أكراد يظهرون في كل شارع . حتى في ريزاي الريفية كان الناس يرتدون ألبسة غريبة أو صورة مطابقة لها باستثناء الأكراد . لم أكن متحمسة لمحاولة الذهاب الى هؤلاء الأكراد والتحدث معهم بكرديتي الجزلة التي تعلمتها في الجامعات الأمريكية ولكنني لم أتوقع أنها ستكون مسألة أيام أو اسبوع قبل أن ألتقي ببعض الأكراد واتحدث معهم باطراد .

سألت كل طلبتي في الصفوف الانكليزية في الكلية المحلية عن الأماكن التي أتوا منها واللغات التي يجيدونها ، وقد ظننت أنني حاذقة ، ولم يمر وقت طويل قبل أن يعرف كل طالب أن للسيدة م . كان رغبة غريبة في دراسة الكردية . والعدد القليل من الطلبة الأكراد أتوا الي تواقين لذلك . ولم يكن أحد منهم من منطقة ريزاي ، كما لم يتكلم أحد منهم اللهجة التي كنت أهتم بها . وموق ذلك فانهم لم يبدوا كالأكراد . لقد نشؤوا في المدن أكثر ممافي القرى ، وكانوا يرتدون البدلات - بدلات الدنيم - اذا كانت لهم القدرة على شرائها . أرادو أن يحصلوا على درجات جيدة في الانكليزية ولكنهم كانوا يرتابون بشدة بدوافعي ، وقد ابتهجت لاني لم أكن أنوي دراسة لهجتهم .

في استعادة أحداث الماضي وتأملتي فيها تحققت من أن لا أحد منهم كان سيوافق على قضاء الكثير من الوقت معي خارج الصف ليعلمني لغة قد حظرتها الحكومة الايرانية . وكما اكتشفت موءخرافلذ كانوا متأكدين - من وجهة نظرهم - من أنني من عناصر المخابرات المركزية الأمريكية .

لم ينتابني شعور باليأس مباشرة فقد كانت لدي أمور أخرى لأقوم بها . ففد وجدنا مسكنا بمساعدة أناس في الكلية وانتقلنا على نحو سريع الى خمس غرف مجردة باستثناء قليل من الأثاث مع شرفة

ونوافذ ضخمة ممتدة من الارضية حتى السقف ولكنها كانت بسـدون  
مدفأة أو شلاجة أو سخانات أو ستائر . كانت الدائر رطبه وجسرداء  
ولكنها كانت مظلية بالكلس ، بحيث أنك لو اتكأت على الحائط فسان  
ملابسك ستغطى بالمسحوق الابيض . أمضينا معظم وقت فراغنا في البازار  
القديم وفي مركز المدينة التجاري ، مواجهين ولأول مرة في حياتنا  
صفقات شراء كبيرة من الحاجات المنزلية . رأينا الكثير من الأكراد  
في البازار ، وفي البداية لم أكن أمير بين المحليين واللاجئين . كان  
قد اخبرنا رجل جالس بجانبنا في الطائفة من طهران الى ريزاي أنه  
قد قدم المساعدة لمعسكرات اللاجئين التي أقيمت في المنطقة لأيسوا  
وتقديم الغذاء لآلاف من الذين مروا من القصف العراقي . ان الثورة القائمة  
حالية كانت قد بدأت في الربيع الذي سبق وصولنا الى ايران ، وكانت  
الحكومة الإيرانية تدعم الأكراد بنشاط ، وتقدم لهم السلاح وتشجعهم  
على جلب عائلاتهم الى حيث الأمان في ايران . كنت اتشوق للاطلاع على  
هذه الحرب ، وخاصة عندما اكتشفنا وجود عدد من الخبراء العسكريين  
الأمريكان ، وقد كانوا يسكنون في ريزاي وكانوا يسافرون على نحو  
دوري الى الحدود العراقية لاعطاء التعليمات عن استعمال الاسلحة .  
كانوا يصرون على التأكيد بأنهم يلقنون التعليمات لعناصر في الجيش  
الايراني ، ولم أضغط عليهم أكثر من ذلك ، فقد كنت مدركة أنني لم  
أحصل على الأذن من الحكومة الإيرانية للبحث في اللغة الكردية التي  
تشكل أهمية أقل بكثير من حرب حدودية سريية .

كانت عائلة كبيرة من اللاجئين تسكن خلف منزلنا. معاشرة  
لقد وصلوا حديثا مثلنا الى ايران وقد كانوا أغراباً في الجوار على  
نحو يلفت النظر. بدأ منزلهم مهتلئاً بالنساء والأطفال وقد كان حبل  
الغسيل المعلق في الشرفة مكسواً بالملابس القوس فزحية وملابس أطفال  
غريبة حديثة. الى جانب البهجة نسائية كردية تقليدية من المخاميل  
والاعمشة المطرزة . كنت أنا وجيزد نحدق بافتتان من نوافذ مطبخنا  
عبر ساحة المنزل الى حجرة جلوسهم ومن حين لآخر ، كنا نلمحهم وهم  
يختلسون النظر الينا بالمثل . وفي أحد الايام علقوا الستائر

ليحبوا عنا روءيتهم وقد واصل بعضنا التحديق في البعض ونحن فسي  
الشارع ولكن لأحد من الجانبين سيبادر بالتحدث أولاً .

كنا نرى الأكراد في طريقنا ، في كل مكان نذهب اليه في  
مركز ريزاي التجاري . كان رجال من الأكراد بعماماتهم المهدبة  
يتجمعون في زوايا الشوارع أو يجلسون عند النوافذ في المقاهي ، كانت  
النساء الكرديات يتجمهرن في البازار وبعضهن كن يرتدين الاغطية فوق  
لباسهن . ولكن خلافا للعباءات الفارسية ، كانت هذه الاغطية مجرد  
زركشات سوداء تكشف عن الالبسة التي دونها ، ونساء أخريات كن  
يمضين دون حجاب وكن مغطيات فقط بطبقات من الأثواب والصناداري  
وسراويل مصنوعة من المخامل والساتين ، مصبوغة بكل لون يمكن تصوره .

لفتت نظري ساحة منزل مأهولة بسكان أكراد مررت بها في  
طريقي من والى الكلية . كانت سيارة لاندروفر خضراء رمادية طويلة  
تقف عادة خارج الأبواب الفيروزية التي توعدني الى الباحة حيث كنت  
أحرق دوما بشابين متوردي الخدين يصفلان واجهة السيارة أو يحملانها  
بحزم أو يفرغانها . كانا يرتديان سروالين خاكبيين مكويين بشكل  
جيد ، ذلك السروال الكردي ذو الساق الواسعة المجتمع أو غير المجتمع  
عند الكاحل ، وذلك حسب عادة القبيلة المنتمى اليها . والبذلة كاملة  
تتضمن وشاحا حول الخصر وعمامة . عندما كانت أبواب الفناء مفتوحة  
قليلاً كنت ألمح أحيانا رجلا ذا وجه نحيل يبخ على رأسه عمامة ضخمة  
سوداء مهدبة . وقد رأيت مرة امرأة قصيرة ممتلئة ترتدي سترة  
فضفاضة من المخمل القرمزي . كانت ترافقها فتاة شابة جميلة ذات  
ضفائر طويلة وفكرت في نفسي أنها تشبه بطلّة من حكايات الجن .

بينما كان الآخرون في المدينة يحدقون في كأمرأة أجنبية  
مكشوفة ، كنت أنا الأخرى أحدق في الأكراد . لقد بدوا معتاديين  
على التحديق أكثر مني . ولكن أحد منهم لم يتكلم معي ، أو حسنتي  
يجيب على نظراتي الباحثة . وكثيرا ما صرح لي الناس الذين أعرفهم  
انه يجب أن أتخذ سبيلا واضحا من هؤلاء الناس الجلييين الالفاظ . وقد

بدأ يتكون لدي تصور أنني لن أقابل أيًا من الأكراد أبداً في ريزاي وقد بلغت درجة تكونت فيها لدي شكوك بأنني لم أختار اللغة المناسبة لدراستها . ليس فقط أن كل القاطنين في ريزاي يتكلمون الأزرية التركية فحسب - وهي فرع من التركية تتصل الى حد بعيد بالتركية - المتداولة في استنبول بالقدر الذي تتصل فيه الكردية بالفارسية - بل أن شفاهم تزم باحتقار كلما ذكرت الأكراد .

يسبب الأتراك مدينة ريزاي في خدمة الحكومة المركزية فسي طهران مثل جميع المدن الإيرانية الواقعة الى الشمال والغرب من المدينة الكردية مهاباد على طول شواطئ بحيرة ريزاي . أن أغلبية الموظفين ذوي الرتب العالية هم من الاصقاع الإيرانية التي تتحدث بالفارسية ولكن مخفر الشرطة والسلطات المحلية والمدارس والبنوك كلها قد زودت بالمساعدين الأتراك . كانت ريزاي تدعى أورميا ، قبل نهوض سلالسة بهلوي الحاكمة في إيران وهو اسم قديم جدا لدرجة انه ما من أحسد متأكد من أصله حقيقة . وقد أعيد لريزاي اسمها القديم بعد سقوط محمد رضا بهلوي الذي كان قد أطلق هذا الاسم على المدينة نسبة لأبيه الممقوت جدا . وبالنسبة لبعض الشعوب مثل الآشوريين المسيحيين الذين حكموا هذا الجزء من أذربيجان الغربية فترة من الزمن ، فلم يعترفوا بأن هناك مدينة تدعى ريزاي او بحيرة ريزاي ، بل فقط - مدينة أورميا وبحيرة أورميا - وهو لاء الآشوريون يتتبعون أنسابهم من بقايا الامبراطورية الآشورية القديمة ، ويبدو أن هو لاء الآشوريين القاطنين في ريزاي وكذلك يهودها كانوا يسكنون المدينة منذ زمن موغل في القدم . ولكن كلا المجتمعين قد انخفض عددهما الى حد كبير في القرن العشرين . اليهود عبر هجراتهم المتتالية الى اسرائيل والاشوريون خلال المذابح الجماعية . وفي او آخر القرن التاسع عشر اجتذب الآشوريون في إيران على الحدود العراقية مباشرة مساعدة البعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية . وفي الحقيقة كانت الكلية التي عملنا فيها في الاصل قد بنيت كمستشفى من قبل الإنريكان الذين أتوا لمساعدة المسيحيين الفقراء المتمسكين بعقيدتهم القديمة وسط الهجوم الإسلامي الضاري . وقد أشار هذا الاهتمام من قبل الغربيين

بعض الشك والغيرة لدى جيرانهم المسلمين ، فكان الآشوريون يذبحون على نحو متتابع وبأعداد كبيرة بأيدي الأتراك والاكرد في بداية القرن العشرين . وبعد ذلك أصبح سهل أورميا يخص الأتراك وحدهم ، على الرغم من الجهود الكردية لنيله ، ولايزال الصراع بين الاكرد والأتراك مستمرا على اورميا . ان طهران التي لاتفيد الأتراك فسي شيء عدا استخدامها اباهم ضد الأكراد ، تتدخل عندما يكون للأكراد اليد العليا ، كما فعلوا سنة ١٩٤٦ وقد كرروا هذا ثانية بعد سقوط الشاه سنة ١٩٧٩ . ولكن خلال اقامتي في ريزاي ، بدت المعسارك الحقيقية كما لو أنها في الماضي . كان الأكراد الذين التقيناهم يفتخرون بتدويمهم الى ريزاي منذ عشر سنوات قبل وصولنا وأنهسيهم قبل الغلقوا المدينة ردا على حارة تركية على قرية كردية ، ولكسين حتى هذا النوع من الحرية المتاحة للجميع قد قمعت بشدة من قبسستد السلطات الحكومية وبشكل موقت على الأقل . وقد تسرب البوليس المسسوري بمراعة الى المدينة التركية وضواحيها من القرى الكردية .

عندما أتينا في البداية ، لم أقدر كم كان عدد اللاجئين والفرويين الذين يمرون بسهولة عبر المدينة من ضمن الاكراد الذين رأيتهم ولم أكن أعرف كم يخاف جيرانني الأتراك هؤلاء النسياسي الجليبين العنيفين الذين تعيط قراهم بمدينة الأتراك وكم يفتخرونهم ولأسابيع عديدة حدثت بحزن وكآبة في لباس الأكراد الملائم لحكايات الجن وهم يمرون أمام ناظري في الشوارع ولكن بعد كل ماعرفت منهم كان من الممكن أن أعود الى امريكا والاحق صفحات من كتاب ماعن رحلة شامضة .

\* \* \*



## الفصل الثاني

في ريزاي لم استخف بما كان يحدث في الشارع أبدا ، فلاشيه  
مما يحدث في الشارع الايراني يمكن أن يكون شخصا أو خاصا . ففي  
الكثير من الاحيان وجدنا أنا وجيرد نفسينا مع جمهور قد احتشد  
ليصفي الى محادثتنا ومجادلاتنا . وعندما كنت أتمشى وحدي كان بعض  
الرجال يتسكعون على مقربة مني تماما . وفي مكان كهذا فان المنازل  
تحتاج الى جدران حولها لحمايتها من الشارع . والعباءات " الخيم "   
هي امتداد لهذه الجدران ليس غير .

لفترة قصيرة سأأقلم مع الشارع متناسية تقريبا أين كنت ،  
وبعدئذ سيحدث شيء ما يعيدني الى اليقظة ، وسأدرك أنني كنت غريبة ،  
وأنني فريسة لكل فضولي وفاسق كان يلاحقني بنظراته . لكن وعلى الرغم  
من عدم شعوري بالأمان في مركز المدينة او في الاحياء الغربية فقد  
أصبحت تدريجيا آثق بالذين يحيطون بي في الوقت الحالي . وبما أننا  
كنا نقطن على مسافة بعيدة تماما عن الشارع الرئيسي ولأن سيارات  
الاجرة كانت وسائل نقل جماعي ، مع مسافرين آخرين متوجهين الى  
أمكنه مختلفة فقد كنت أشادر السيارة عند بداية زقاق أمير فلاح  
وكان علي أن أمشي كل يوم بمحاذاة الجدار العالي الذي يحيط بمنزل  
الأهل أمير فلاح ، ذلك الرجل الغني الذي يشغل منزله المساحة المجاورة  
كلها . وهناك في الزاوية وتماما عبر البوابات الكبيرة الموءدية الى  
باحة منزله كان يقف ثلاث أو أربعة شبان بستراتهم الجلدية والجينز  
المستوردة ، لقد كانوا أولاد رجال أغنياء ، تبدو النظافة عليهم  
على نحو جلي ، وليس لديهم مايقومون به أفضل من التسكع بـ  
المدرسة .

بعد فترة ليست بطويلة من انتقالنا الى هذا الحي ، اقتنى أحد هؤلاء الصبية بندقية ذات رصاصات صغيرة ، كنت بعد ذلك كلما مررت راقبت البندقية ووجهة تصويبها . كانت هذه البندقية تشيسر أعصابي حتى بعد أن قابلت والد الصبي الذي يقتنيها . لم أفهم لماذا يحتاج أحد ما بندقية في هذا الزقاق الاسفلتي المغبر، فقد كانت الطيور كلها داخل جدران حدائق المنازل . يبدو أنه لا يوجد لعبة مثيرة أخرى غير ارباك الناس .

ربما كانت تلك البندقية كناية عن شيء ما ، فالصبي الذي كان يحملها كان قصيرا ونحيلا ، ولكنه ككل الذكور كان يحتاج لظهار قوته في الشارع . كان بعض الناس يعتبرون الغطاء زيا قديما ومع أن والده هذا الصبي لم تكن تضع الغطاء ، فقد كان لا يزال يحدق في كما لو أنه لم ير من قبل امرأة بدون غطاء أبدا .

عندما كنت امشي بمحاذاة جدران منزل أمير فلاح القرميديه ذات اللون الاصفر كنت أجبر نفسي على إلقاء التحية على صاحب البندقية . وبعدئذ استمر بالمشي لأعرج الى زاوية زقاقنا ، مارة بحدو أعالي أشجار الكرم التي كانت تتدلى على جدران حديقة أمير فلاح . كان زقاقنا يقع في منطقة مبنية حديثا ، لذلك كانت واسعة بحيث تكفي لمرور سيارة وقد كانت معبدة أيضا ، فالكثير من الازقة في ايران هي مجرد ممرات ضيقة مع مجاري صرف مفتوحة تلحق بالمركز .

وجدت نفسي فجرة من الجدران بعد الاسويين الأولين من اقامتي في ريزاي . لقد كانت تمنعني من رؤية المدينة على ماهي عليه ، حتى أثناء ركوبي عاليا في الحافلات ضمن المدينة فلم أستطع رؤية الجانب الآخر من الجدران داخل المنازل والحدائق في ريزاي وكل شيء وكل امرىء مختبئ وراءها . كان لمنزلنا أيضا جدار في مقدمته ولكن بما أن زقاقنا كان قيد البناء فان كل بنايي الأجر الذين يعملون في الطابق الثاني في شقة تبني في الجانب الآخر من الشارع كان باستطاعتهم التحديق صوب شرفتنا ومن خلال نوافذنا .

بعض النساء في ايران يفتخرن لأنهن لم يظعن الغطاء أبداً في حياتهن ، على الأقل كن يظهرن ذلك أمامي . ولكن اذا كن من المسلمات الشيعيات فقد كنت أنزع الى عدم تصديقهن . لأنه لابد أنهن قد وضعن الغطاء ولو في مناسبة ما لكي يقدرن على الدخول الى الجوامع الكبيرة أو المعابد مثل ضريح الامام رضا في مشهد . لن أراهن علسي أن أي امرأة قد خرجت مكشوفة فعلا طوال حياتها في ايران عدا المسيحيات واليهوديات أو نساء البهائيين الذين يعتبرن الغطاء عيباً . ولكن علي أن أكتشف ذلك - هنالك درجات عديدة من الأغطية تتدرج ابتداءً من أوشحة رأس بسيطة تربط مسدلة على الجبين بشكل لا تظهر منه أية ملامح جمالية وانتهاءً بالعباءة السوداء العراقية الطراز مع غطاء للوجه وأكمام مفتوحة بشكل طولي . والغطاء المألوف في ايران ، الحجاب ، ليس الاقطة رقيقة من القماش ، وعادة تكون بلون فاتم ، وأحياناً بنقوش صغيرة . ان تعديل القماش جيداً في مكانه المناسب له أهمية كبيرة جداً في تقرير قيامه بالوظيفة كخمار ساتر مفاتن التي ترتديه . وكما ترينني الآن فاتنه بزّي هذا ، فكذاك ستكونين أيضاً بدون هذه الاغطية التي تستر مفاتنك .

خلال عهد والده الشاه الأخير رضا شاه ، كان الحجاب قد حرم في ايران ومثلما فعل أتاتورك في تركيا فقد أراد الشاه أن يجعل بلده غربياً في ليلة وضحاها . ولكن حيث نجح أتاتورك فشل في ذلك الشاه . فقد ظهر الغطاء ثانية كخمار أقل جدية ولا يشمل الجسم ولكنّه كان كلي الوجود . ففي المدن الكبرى والقرى الصغيرة على حد سواء ، استمرت أغلبية نساء الفرس والأتراك في استخدام الغطاء على الرغم من تحقيقات رجال الصحافة الغربيين الذين لم يقوموا بها في الأحياء الأكثر فقراً ، يسود الغطاء على نحو فعلي .

ان الأكراد هم من بين المجموعات الاسلامية القليلة في الشرق الاوسط الذين لا ترتدي نساءهم الغطاء على نحو تقليدي . وفي القرى يسكن الناس في الخيام - الشوادر - عندما يتبعون قطعانهم للرعي في الصيف ، ولا يرتدون الشوادر هذه . أما في المدينة فغطاء النساء الكردييات يعتمد على غنى العائلة وعلى درجة الاحتكاك بالمدينة . فأفقر

معارفي مثلا ، وهي امرأة ثروية تدعى صلحية ، لم يكن لديها غطاء  
وعندما أتت صلحية الى ريزاي حيث كان ولدها طالبا في المدرسة  
الثانوية ، كانت ترفع وشاح رأسها البرتقالي لتغطي عنكها وقمها  
عندما تكون في الشارع ليس الا . ونساء كورديات أخريات في أنحاء  
البازار كن يرتدين أثوابهن الفضفاضة ، وأوشحة روءوسهن كما لوأنهن  
في القرية ، ولكن نساء أخريات أيسر حالا سكن معظم حياتهن في المدينة  
كان غطاءهن متفقا مع العرف الاجتماعي والدوق العام . وعلى الرغم  
من طبقات البستنة العديدة فالكورديات قليلات الحاجة لأغطية أخرى  
ويتحسّن من نظرات الرجال الفرس والأتراك المحدقة فيهن . فمن  
الصعب تماما أن تكوني كورديّة في مدينة تركية دون أن تظهري  
مكشوفة .

حقيقة أن الاغطية في كردستان ليست جزءا أساسيا من اللباس  
النسائي كانت واضحة أيضا من لباس اللاجئين العراقيين . ونساء القرى  
القبلية في معسكرات حول ريزاي لم يضعن الغطاء أبدا سوا في  
المعسكرات أو أثناء زيارتهن للمدن ولكن زوجات وبنات الجنرالات  
وقواد الحزب الديمقراطي الكردي اطلعن حالا على العادات الإيرانية .  
وبعض من النساء العراقيات الأكبر سنا والأكثر تقليدية كن يضعن  
العباءات التي جلبنها من العراق حيث تلبس النساء العربيات الغطاء  
بشكل عام . وفي العراق أيضا بدا أن نساء الطبقة العليا من الأكراد  
المقيمت على نحو دائم في المدينة بين العرب كن يستعملن الغطاء . ولو  
أنه يختلف عما هو في كردستان إيران فان بنات هؤلاء النسوة كن  
يحضرن الى المدارس ويظرن كلا من اللباس الكردي التقليدي والغطاء جانبا  
وأثناء نفيهن في إيران كانت الواحدة تلو الأخرى منهن تجبر من قبل  
ذويها على ارتداء الغطاء . لقد كن يفضلنه على العباءة التي كانت  
تميز مباشرة من قبل أصحاب الدكاكين في ريزاي كعلامة تدل على  
الغريب .

في حينما المأهول على نحو خاص بسكان أتراك منتمين  
للتبئنين الوسطى والعليا رأيت القليل من الاغطية ، وفي الحقيقة رأيت

القليل من النساء . وبدلاً من ذلك فانك تجد السيارات . فالتساءل في هذه الاحياء يقطن السيارات كبديل لارتداء الخمار الذي بطسل زيته . والألبسة المفضلة لدى جارتني شهرزاد والسيدة جام كانت تتألف من جزء علوي وهو عبارة عن جورسيه مقور ، بالإضافة الى تنانير أنيقه نادراما كانت تقلل من اهتمام الرجال في الطريق . وفضط ببقائهن في السيارات كانت تلك النسوة قادرات على أن يبقين محتشمات وماضيات على الطراز الحديث في الوقت نفسه . وباستخدامهن سيارتهن كغطاء فقد كن يذهبن من مدخل باب الى آخر ولو الى قطع مايقارب دزينة من المحلات التجارية المتلاصقة وبعدد تتوقف سيارتهن ثانياً . والسيدة جام الأكبر سناً كانت تخرج فقط لعمل ملح معتمدة على النقود وعلى منزلتها الاجتماعية ، لتجلب الناس الى منزلها . ولم تكن تبرع في قيادة سيارتها المرسيديس ، فقد كانت كثيرة الاصطدام بحواجز الشوارع ، والحواجز الحجرية عند حواف الطرق والجدران وبسيارات أخرى أما شهرزاد فقد كانت تناور بسيارتها اليابانية الصغيرة بشكل أفضل بكثير . وعلى الرغم من اشاعات بذيضة كانت تكثر حول شهرزاد تشير الى أنه كان لها المئات من " الخلان " قبل أن تتزوج وهي في الخامسة عشر من عمرها فقد اخبرتني بأن زوجها هوشنغ يثق بها ثقة مطلقة ، وأنه قد سمح لها بأن تقود سيارتها الى أي مكان تريده .

في المرة الأولى التي رأيت فيها شهرزاد وهي امرأة عامسة الصدر ممتلئة الجسم مفعمة بالصحة على نحو جذاب بعينين تحمّلان أهداباً كثيفة ، وشعر فاحم ، كانت تقف في ممر منزلها مشيرة اليها بالحاح أن ندخل قاعة :

- " بفرماييد ، بفرماييد " .

وهي الدعوة المختلفة الاعراض حيث تشكل المرتكز " حجر العقد " لحسن الضيافة والوفادة الايرانية .

كنت أميل الى الذهاب مباشرة الى بيتها ولكن الايراني الذي كان معنا رفض دعوتها بلباقة . وبدلاً من قبول اعتذاره ألتفت الى الخلف من ذي قبل مشيرة بيدها الى مدخل بيتها المعتم ومتحركة الى الخلف

مع هسهه من شفتيها ، طالبة منا أن نتبعها . رفض الابراي شانيبة بأذب ، ولكن باصرار فأومأت شهرزاد برأسها وخرجنا الى الفنساء ونظرنا الى الاعلى مرة أخرى ، الى حيث شرفة الطابق الثاني الذي كنا نعتزم اشتجاره . قال الرجل الابراي وهو مدرس في الكلية :

- أنت محظوظة ، جارتك ودودة جدا فقد سألتها الموظف الموءجر اذا كانت ستسمح للأمريكان بالسكن في نفس المنزل معها فأخبرته أنها ترحب بذلك . وكما رأيت الان ، فقد أرادت فعلا أن تدخلني الى منزلها .

في غضون الايام الاولى من استقرارنا في مسكننا الجديد كانت شهرزاد تبتسم وتكرر دعوتها لنا في كل وقت ترانا فيه وحالما قدرت على ذلك ، فقد قبلت الدعوة ووجدت نفسي في كرسي منخفض منجسد ومريح ، تقدم الي الشاي والحلويات . ادير مفتاح التلفزيون الموضوع أمامي وقد كنت اتحول بين التحديق في وجه المغنية السمينه الممكيج باتقان ومحاولة التحدث مع شهرزاد ، وفي وقت متأخر قابلت هوشنغ زوج شهرزاد وهو رجل نامي العضلات ربع الغامه ، وقد ارتدى قميصا وسروالا أنيفين . وكان يتكلم القليل من الانكليزية . وكثيرا ماكانا يخبراننا بأنهما يرحبان بنا أنا وجيرد دائما في منزلهما .

لقد كانت أسابيعنا الاولى في ايران محمومة بكل صهوبات اقامة منزل في أرض أجنبية . وشهرزاد وهو شنغ كانا فلقين بشأن المشاكل التي تصورنا أننا نواجهها . فقد سألتني هوشنغ عن كيفية ايجاد الوقت لشراء الغداء واعداد الوجبات نظرا لتواجدنا كلينا طوال الوقت في الكلية ، ولعدم وجود خادمة لدينا ، ابتسمت غير موضحة الموقف وأنا افكر بأن كل ذلك صحيح ، فلم يكن لدينا الوقت الكافي فعلا وكما لو أنه قرأ افكاري ، دعنا هوشنغ مباشرة لتناول جميع وجباتنا معهما . وعندما رأى أن قوائم كراسينا المعدنية كانت تحفر فجوات في الارضية الكلسية اللينة لحجرة جلوسنا الضخمة ، عرض علينا هوشنغ أن يعيرنا بساطين ايرانيين كبيرين مصنوعين آليا . وموءخرا سألتنا هوشنغ متى سنتفرغ لنحل عليه وعلى شهرزاد كضيوف في

النادي الليلي الذي كنا يترددان عليه . نادي ليلى ؟ . لقد قُدمت عرض الوجبات علينا على الرغم من أنها كانت دعوات سخية جدا لقبولها وبسرور أخذت البساطين ولكن هذا العرض الجديد قد ضايقني قليلا فأنا لم آت الى ريزاي لأزور النوادي الليلية . تطوع جيرد قاعلا بفظافة :

– مارغريت لاتحب النوادي الليلية كثيرا .

نظر هوشنغ بفضول . فهو لم يتوقع أن يلتقي بأمريكية لاتذهب الى النوادي الليلية . وقال بلطف :

– حسنا ، لربما تحب أن تذهب في وقت آخر . رجاء أخبرينا

عندما تكونين مستعدة لذلك .

استقرت بنا الاوضاع تدريجيا في الكلية حيث بدأ الدوام في صفوفنا بعد اسبوعين أو ثلاثة ضمن برنامج محدد المواعيد . وقد زود بيتنا بثلاجة ومدفأة وسخانات للشناء وقطع عديدة وغربية من الاثاث الذي أعارته لنا الكلية على مضي بعد أن قدمنا عريضة الى عميدها . والآن بما أننا لم نعد بحاجة للتسوق كل يوم بعد العمل فقد اجبرت على ملاحظة شعوري بوحدتي المتنامية . فهذه المسألة لم تكن نتيجة لعدم تصرف الناس معنا بود . ففي الكلية كان كل امرئ يبتسم لنا ويسألنا عن صحتنا باطراد . وكنا دوما نجد أناسا يجلس معهم خلال تناول الغذاء في حجرة الطعام التابعة للكلية لكن عند التفكير في ذلك كان يخطر في ذهني أنه من المحتمل أننا لم نكون قد فهمنا نظام التشريف بعد ، وقد كنا نجلس مع كل من نريد . وفي الحقيقة ، وبدون علم منا ارتكبنا زلات اجتماعية كافية لتجعل الايرانيين حولنا أن يطبقوا افواههم بانفعال . ومع ذلك فقد ظللنا نقع في تخبطات أكثر . فلم يخبرنا أحد بأننا ننتقص أنفسنا بركوب حافلة المدينة جنباً الى جنب مع العمال والطلاب . ولم ييونا اليانا أحد أنه ليس من الضروري أن نقبل الدعوات التي توجه اليانا من اللحظة الاولى . كنا نتحدث مع الناس حولنا بالالفة الميسورة التي يسلم بها الامريكان ، طانين أننا كنا مهذبين وحساسيين بالمقارنة مع بعض الامريكان الآخرين الذين رأيناهم في المدينة . وعلى

نحو خاص خبراء الاسلحة التابعين لجيش الولايات المتحدة الذين كانوا يأتون أحيانا لتناول الغذاء في الكلية كضيوف على أستاذ إيراني يدعى السيد خشيني . والشئ الذي لم نكن نفهم كنهه هو أن الإيرانيين كانوا يجمعوننا جميعا ، بنظرتهم دون تمييز ، فرقة السلام ، الجيش وبجائفة عن الأكراد و الكردية . ولكنني كنت أرتاب في افتقار الناس من حولنا للشعور الودي . فلم أكن متأكدة منه على الاطلاق .

في البداية تحدثت عن رغبتني في لقاء الأكراد لأناس كنت أظن أنهم غربيون على نحو كاف لفهم مشروع كهذا . وقد عرفت أن هذا يمكن أن يعتبر حساسا من الناحية السياسية بالنسبة للحكومة . ولكن لم يخطر على بالي أبدا انه يمكن أن يكون حساسا من الناحية الاجتماعية أيضا . وعندما كان يجابه بطلبي واهتمامي الغربيين أعضاء مثقفون من الالمان والامريكان في الكلية ، كانوا يبتسمون بأدب فقط ، ويقولون بأنهم سيبدلون جهدهم ليقدموني الى بعض مسن وهنا توقفوا هنيهة وأردفوا قائلين : - من الأكراد .

عندما كان جيرد يعود من الكلية بعد الظهر كان يأخذ سنة من النوم ، أما أنا فقد كنت أنقر من النوم ، لذلك فقد اعتدت على التردد الى الطابق السفلي حيث منزل جيراننا الجعفريين . ولم تتخل شهرزاد أبدا عن ابتسامتها المرحبة ، وطبق الحلويات و تلفزيونها البواق ذي الدوي العالي . تكلمت عن التزامها السفر لتعلم الانكليزية للقيام بأي شئ بالاضافة الى العناية بالأطفال . وعلى الرغم من كوننا من نفس العمر بالخط . فقد تزوجت قبلي بثماني سنوات وكان لديها طفلان . وبما أن لها خادمة متفرغة تدعى نانا ، وأم متفرغة وتسمى مامان ، حيث تعيش مع العائلة وتقضي معظم وقتها في العناية بالأطفال ، فلم أر أن ابنتها وابنتها يشكلان عبئا عليها .

كانت شقة شهرزاد صورة طبق الاصل عن طابقنا العلوي حيث كانت قد لفت بطراز شميين ، فقد بسطت على الارض سجادات من تبريز وكاشان وقد نظمت الخواض بمخمل متناسب مع الطاقم المطلوب من الكراسي المزخرفة المنجدة بالمخمل حيث كانت الموضة الدارجة في ايران . لم



أحد يجلس على الأرض ، فقد فصلت حجرة الجلوس أو ردهة الضيوف عن حجرة غذاء رسمية يستأجر من الأورغنزا موءطرة باتقان وقد أزيحت إلى السوراء .

كانت حجرة الطعام بطرازها الأزرق الباهت المجلوب من كاشان توحى بمنظر مقامرة من الوزن الثقيل تعقد في نهاية كل اسبوع . كان هوشنخ المتعهد الحكومي يملك الكثير من المال ، بحيث لم يكن يسدر ي ماذا يفعل به . لقد كانت النقود تتكوم لديه ، وقبل ثلاث سنوات - على الرغم من عدم إمكاننا اعتبارهم فقراء - كانوا لا يملكون هذه البسط أو هذه الكراسي المصنوعة وفق طلبهم . لم تكن ممتلكاتهم القديمة المكومة في قمر منزلنا مترفة لهذا الحد ، وحاليا ينشئ الجعفريون منزلهم في جزء آخر من المدينة ليثلاثموا مع شروتهم الجديدة .

كان الجعفريون في بيعة مدينة ريزاي يعتبرون منتهكين فلا أحد يعتبرهم حسني الاسلام . فقد كانوا يقامرون ويعاقرون الخمرة ويرقصون . كانت شهرزاد تعتبر امرأة منحلة ، والشء الغريب هو أنهم لو كانوا في أمريكا ، لكانوا يعتبرون عاديين ، ولربما حتى مملين ومحتشمين أيضا . لم تكن لدى شهرزاد فرصة للقيام بشؤون أخرى مع كل استهتارها المتحرر من كل قيد . انه لشيء لا يتصور أن تقضي وقتا مع أي رجل ليس بزوجه أو قريبها الحميم . أنجبت طفلها الأول في السادسة عشرة ، وتعيش أمها الآن وقد كانت توكد على ارتداء الفطء حتى انها أحيانا كانت تلبس ابنة شهرزاد ذات الخمن سنوات الغطاء عندما تأخذها إلى اجتماعات النساء الدينية .

كثيرا ما أخبرنا الجعفريون عن سعادتهم بجبرتنا ، لقد أحبوا أمريكا ويأملون في زيارتها ، لقد أرادوا أن يستكملوا الانكليزية معنا ، ورجبوا أن نريهم آخر صيحات الموضة في الألبسة والرقص وسبل المعيشة . لقد توقعنا منهم أن يخبروني عن العساسادات والتقاليد الإيرانية التي استمرت عبر القرون . لقد كانت هذه اهران التي أهتم بها ، وليس اهران ذات السيارات المستوردة وحفلات

السكر التي تعج بالكلام المتملق الحسن . ولكنني أدركت بالتدريج كم كنا على أهداف مفترقة . لذلك ترددت في الحديث عن مشروع المتعلق بالأكراد لشهرزاد . ان القدر الذي كانت تعرفه فقط هو أنني قسدت قطعت مسافة مايقارب نصف محيط الارض ليس الالتعليم الانكليزية في كلية ريفية صغيرة وغامضة . بدا هذا غريبا لها ولم يمر وقت طويل حتى سألتني عن ذلك قائلة :

- لماذا تختار اجنبية ، أمريكية أن تعيش في مكان مثل ريزاي ؟ . ماذا يمكن أن أفعل في مكان متخلف مثل هذا ، حيث لا يوجد فيه سوى ناد ليلي واحد فقط ؟ أخذت نمسا عميقا وأخبرتها:  
- لقد أتيت لأدرس الكردية ، وأريد أن أوّلف كتابا عن قواعد اللغة الكردية :

تظاهرت كما لو أنها لم تسمعي وبدأت تتحدث عن رغبتها في ذهاب ابنها الى مدرسة داخلية في انكلترا ليتعلم التحدث بلغتي بطلاقة سألتها :

- ولكن ماذا عن ابنتك ؟ ألا تريدان ارسالها هي أيضا ؟ . رمقنني شهرزاد بنظرة مشدوهة ، أولا الأكراد والآن هذا .. حتى النساء ذوات المظهر الحديث مثل شهرزاد لا يفكرن في أن تكن فتياتهن مستقلات . ماذا سأقول أكثر من هذا ؟ أفضل من أن ارتكب في قسول شيء خطأ آخر ، أغلقت فمي بينما استمرت هي في الشرثرة .

واظبت على روعي لشهرزاد ، فقد بدت متشوقة لقضاء وقت معي على الرغم من برنامجها الاجتماعي الممتلئ . كنت أعرف أنني لن أتقرب من الأكراد بانفاق الساعات من وقتي دون أن أقوم بجهد وأنا جالسة أمام خزانة تلفزيونها الضخمة أحتمي الشاي وأكسل الحلويات ولكنني على الاقل كنت أحسن لغتي الفارسية والشاي الأكثر أهمية اني كنت اتجنب الوحدة في أرض غريبة جدا عني .

كان الأكراد دوما في أعماق ذاكرتي لدى تحدثي مع شهرزاد ربما كانت تعرف بعض الأكراد ولم تكن تخبرني ، وربما عندما نعرف بعضنا أكثر أتمكن من اشارة الموضوع ثانية ، وفي ذلك الحين

حاولت أن أزيد ثقتها بي بعدم التحدث عن السياسة أو عن نزاعات  
تحرر المرأة أو عن الأكراد .

لقد تعلمت الحذر ليس مع شهرزاد فقط ، بل مع أي شخص يمكن  
أن أطلب منه أن يقدمني الى الأكراد . ولكنني بدأت أدرك أكثر من ذي  
قبل أنني لن أقابل الأكراد فقط بمصادفتهم في الشارع . وفي الكلية  
دأبت على طلب هذا من زملائنا المدرسين والاداريين والطلاب . وذكر  
الكثيرون انه هناك مدرس كردي بيولوجي في الجامعة من منطقة ريزاي  
ذهبت الى مكتبه وصافحت رجلا نحيفا مرتديا سروالا أنيقا جسدا  
متناسقا مع قميص أنيق و ربطة عنق حول رقبته . كان لا يكاد يتحدث  
الانكليزية قط بما أنه قد أمضى الخمس سنوات الاخيرة من دراسته في  
باريس ولكنه أكد لي أن لغته الأم هي اللهجة الكردية التي أهتم بها .  
وبعد عدة عبارات مهذبة ودعوات متلهفة لزيارة منزله ، ألقاها في  
مزيج من الانكليزية المتكسرة والفرنسية ، أخبرني أخيرا عن مكان ولادته  
فهولم يكن خارج المنطقة التي اهتم بها فحسب ، بل حتى أنني بسدت  
أسأل في نفسي بعد قضاء نصف ساعة في مكتبه اذا كان يقدر على  
التحدث بأي لغة غير الفرنسية . لم تكن لدى بعد الخبرة الكافية  
لأدرك أن ربطة عنقه الحريرية وسيارته البيجو الجديدة ذات الملامح  
التجارية وطريقته المداهنة تنم عن غربة طويلة عن الحياة الريفية  
وقد بدت عليه خيبة الأمل ، عندما نهضت فجأة لأستادن بالمضادة .  
فسألني :

... ولكن أين تأتي الى منزلي ؟ .

... ربما في وقت ما .

قلت ذلك على نحو غامض مندفعة من جو مكتبه المغلق والمعطر .

كنت كل ليلة في مسكننا ، أصغي السمع الى أصوات الكرمانجيين .  
اللهجة التي كنت أنوي دراستها ، المذاعة من محطة راديو ايرانية .  
لم أكن أستطيع فهم كل الجمل ، ولكنني كنت اجلس الى جانب مدياننا  
أنتم بالكلية التي أميزها . من أين كانت تأتي هذه الاصوات ؟ . لقد  
كانت الاشارة واضحة تماما بحيث أنني أدركت حالا انه من المعتم أن

الكرمانجية تذاغ مباشرة من ريزاي ، ولكن الناس القليلين الذين سألتهم بدوا أنهم لا يعرفون الكثير عنها ، لابل أنهم لم يستمعوا الى البرامج الكردية في الراديو أبدا . ولكنني واصلت الاستماع اليها ولو أن موجات الصوت كانت واضحة فقط لكنت تتبعتها حتى مصدرها .

على الرغم من عدم قدرتنا على اللقاء بالأكراد ، فقد كان هنالك أناس آخرون يريدون التعرف علينا . وكان على رأس القائمة اداريو داترا الجيش الامريكى ومفتربون آخرون . ولكن وجهات نظرهم الموءيدة للشاه وكرههم الشديد للايرانيين جعلنا حذرين . حتى ولو كانوا من أكثر الناس حذقا والاكثر وعيا من الناحية السياسية فلم نكن نرغب أن نمضي وقتنا مع متحدثين بالانكليزية والفرنسية أو الالمانية . فاذا لم أقدر على التحدث بالكردية ، فالفارسية كانت أفضل . ولكن على الرغم من أن جميع متحدثي الفارسية الذين كانوا يلقون علينا السلام أو يسألون عن صحتنا كل يوم فقد بدا أنه ليس لدينا أصدقاء حقيقيون سوى الجعفريين . كل من التقينا به كان بالنسبة لنا آغا أو خانما ، سيد أو سيده . حتى الناس الذين كانوا في نفس عمرنا ومكانتنا كانوا يعطوننا فقط أسمائهم الأخيرة عندما كنا نتعرف عليهم ، لذلك كنا نضطر أن نخاطبهم بشكل رسمي . وأوضح لنا الجعفريون هم فقط ، منذ البداية بأنهم يريدون أن نناديهم بأسمائهم الأولى بدون ألقاب . وقد كانوا الوحيدين أيضا خارج نطاق أصحاب الدكاكين الجريئين في استخدامهم الضمير " TO " الراجع للكلفة عند مخاطبتنا وهو المرادف الفارسي للفرنسي " TU " وذلك عندما التقينا للمرة الأولى . وقد انتظرونا أن نرد بمثل هذه الابعاء الدالة على المودة ولكننا لم نقدر ، ليس لأننا لم نرغب بذلك ، بل لأننا ماكننا قد تعلمنا الشكليات أبدا . ولدى عودتنا الى الجامعة في الولايات المتحدة كان مدرسا الفارسي قد حذرنا بأننا كغريباء من المحتمل أننا لن نتمتع بامتياز مخاطبة أي من الايرانيين بالشكل المألوف . حتى العديد من الاطفال الايرانيين لا يستخدمون " TO " عندما يتحدثون مع والديهم . وعندما لم نرد بـ " TO " التي استخدمها الجعفريون ، اشتقلوا بسرعة الى الضمير " YOU " الاكثر رسمية .

كانت هذه التبادلية مشكلة بالنسبة لنا ، ليس فقط فيما يتعلق باللغة ، بل أيضا فيما يتعلق بحسن الوفادة وكرم الضيافة . فقد استمر الجعفريون بتقديم الطعام لنا ، ولكننا عندما كنا ندعوهم للغداء كانوا يوضحون وبالحاح بأنهم لا يشتهون ما كنا نطبخه ، وقد كانت شهرزاد تدفع طعامها من جانب لآخر في طبقها ببساطة ، بينما تحاول اطراءنا بأن طعامنا لذيذ جدا ، وبعد فترة قصيرة وقلنا على احتذاء ما يرغبون به في قبول دعواتهم بدون أن نقلق أنفسنا بكيفية رد فعلهم هذا . أخذنا اخوهوشنغ وهو عازف جيتار في جولة بالسيارة لنرى للمرة الاولى البحيرة التي تقع على بعد عشرة كيلومترات من المدينة . وقد اصطحبنا شهرزاد وهوشنغ في احدى نزهاتهم في ايام الجمع الى قرية باند .

خلال زيارتي اليومية لشقتهم ، كنت أعقد محادثات طويلة مع ابنة شهرزاد ذات الخمس سنوات ، حيث كانت قد بدأت للتو بتعلم الفارسية من والديها . لقد كانوا يريدونها أن تعرف شيئا مما بالاضافة الى لغتها التركية الأم قبل أن تبدأ بالذهاب الى المدرسة التي كانت تُدرس رسميا بالفارسية فقط . كنت أنا وجيرد غالبا ما نسأل نصائح هوشنغ وشهرزاد عن العادات والاصراف الاجتماعية لسي ايران ، وفيما اذا كنا نرتكب خطأ في قبول دعوة بسرعة كبيرة أو أننا نوضح آراءنا بصراحة شامة أو أننا نلبس على نحو منصف للدوق ، ولكنهم كانوا دائما يبتسمون ويؤكدون لنا أننا كنا نقوم بكل شيء على ما يرام . وعلى الرغم من تأكيدهم كان الشعور بالقلق وبعدم الراحة يتنامى لدي اكثر فأكثر . فاذا كنا نتصرف كما يجب ، فلماذا كان يحدث فينا كل شخص في الزقاق ، في الكلية في الحافلات العامة ، بهذا الشكل غير الودي اذن ؟ .

ان الشغل المثالي للمرأة الايرانية هو أن تقضي وقتها مع قريباتها ، او اذا كانت أقل تغليدية مع صديقاتها ، تقتل وقت العصر بالشرشرة وأقداح لانهاية لها من الشاي مع المعجنات وطبيعي

أن مثل هذه المرأة لديها خادمة تمكث في المنزل تنعش الغبار عن الوسائد أو كما في حالة شهرزاد تستخدم المكنسه الكهربائيـة لتنظيف البسط الثمينة . والجدة تعتنني بالأولاد . كان أطفال شهرزاد يدعون جدتهم بماما ، الكلمة الفرنسية التي اتخذتها الطبقات العليا والوسطى في ايران بدلا من كلمة " أم " و كانوا ينادون أهم الحقيقية باسمها الاول .

ان لم تتواجد شهرزاد في دكان السلع النسائية أو عند مزيني الشعر أو الخياطين فأنها تكون مع أصدقائها وأقاربها . وذات يوم بينما كنت أمر من أمام باب منزلها دعمتني للدخول ، التفت حولي وأدركت حالا أن سروالي المخملي المهدب وفميصي ذا النقوش المربعة لا يلائمان المناسبة . لقد كنت محاطة بنساء مرتديات تنورات تصل حتى منتصف الساق ، وأحذية عالية الساق أو كما في حالة شهرزاد حيث كانت مرتدية فستانا أسود مقورا ، معدا للمساء . عندما قدممتني شهرزاد اليهن توقفن عن الحديث مع بعضهن ليمنحنني ابتسامات عذبة جدا ، وكلمات ترحيب بالفارسية ، وبعدئذ تحولن الى التركية ثانية ، جلست هناك ، محاولة أن أتصرف كجزء من هذه المجموعة ولكنني شعرت فقط بالغباء والبلادة . فالنساء الايرانيات كن يشعرنني بالحالة الآتية : أنني مرتدية على نحو أقل منهن ، وأني ذات تعليم مالي ، وعموما يدعنني في حيرة . وماذا بهم اذا كانت العديسات منهن لم ينهين الشانوية أو أنهن قد سلمن أطفالهن للجدات ليقدرن على أن يقضين أوقاتهن في حفلات الشاي عصرا ، أو أنه ليس بينهن من لديها أدنى فكرة من السياسة أو الاقتصاد في البلد ؟ لقد كن يشعرنني بالدونية . وقد كنت أشعر بها فعلا ، وذلك لعدم قدرتي حتى على التحدث بلغتتهن . وقفت في حيرة بينما احتشدن جميعهن فسي غرفة نوم شهرزاد ، حيث كانت آلة تمرين مستوردة ، غير مستعملة تقف في احدى الزوايا . تتبعتهن الى الغرفة وراقبتهن ، وكسل واحدة منهن تخطو على حدة فوق ميزان شهرزاد ، فصدرت عنهن مهممات مفرجة ، لقد أصبحن بدينات جدا حيث أن كل هذه الملابس

المستوردة التي يرغبن فيها رغبة شديدة ستبدو مخيفة عليهن. ماذا بإمكانهن أن يفعلن؟ كانت المسألة تُناقش بالتركية ، لذلك لم أتمكن من تتبعها ، وقد تذكرن التحدث معي ثانية عندما هممن بالمغادرة فقط ، حيث تحولن الى الممارسة ثانية ليودعنني بصيغ مسرفة في التعبير العاطفي .

في اليوم التالي ناولتني شهرزاد رزمة من الحبوب كانت قد اشترتها من الصيدلية المحلية ، حيث كان يباع كل شيء من الأدوية المخدرة الى حبوب منع الحمل بدون وصفات طبية . وكانت شهرزاد تريد أخذ هذه الحبوب لتحميها من السمنة ، وكان طبيبها قدنصحها بتناولها . ولكنها كانت لاتزال متخوفة قليلا ، فالحبوب قوية جدا وربما تسبب لها أعراضا جانبية . هل لي أن أقرأ النشرة المرافقة - وقد كانت بالانكليزية - وأوضحها لها ؟ .

نظرت في النشرة واستنتجت وبدون معرفة أي شيء يذكر عن علم العقاقير أن هذه الحبوب تعطى للذين يعانون من اضطراب في الخلايا الحية التي تسبب السمنة . وبالقدر الذي يمكنني قوله فإن سمنة شهرزاد لم تكن تعزى الى أي اضطراب في الخلايا الحية بل وبشكل محض الى أكل الحلويات والارز طوال اليوم بدون القيام بأقل مايمكن من التمارين . ولكني قررت أن أترجم كل المكتسوبات بالانكليزية وبذلك يمكن لشهرزاد أن تقرأ وتقرر بنفسها . وقد وافقت طالبة في سنة التخرج مجتهدة في الانكليزية والبيولوجيا أن تزودني بترجمة مكتوبة ، واضحة اياها بحروف عربية صرفة في صفحة من دفتر الملاحظات الخاص بي . وقررنا معا أن ننصحها بعدم أخذ هذه الحبوب . وقد كتبت الطالبة في أسفل الترجمة : عليك أن تتمرني بدلا من أخذ الدواء . بعدئذ نقلت الي هذه الطالبة - التي كانت في طريقها للدراسة في أمريكا - موقف شهرزاد الساخر .

ففي العهود الغابرة بقدر ماتكون المرأة بمدينة مثلما كانت

عليه شهرزاد فان ذلك لم يكن يعتبر غير ذي جمالية ، بل أن هذه البدانة كانت تشير الى الغنى والى حقيقة أن زوج المرأة لديه المال الكافي لاطعام عائلة على نحو جيد . وفي فترة تقارب الجيل كان كل شيء قد تغير ، كل شيء عدا اسلوب الحياة الذي ينتج مثل هذه السمنة . ان تمرينا حقيقيا في الهواء الطلق للمرأة مثل شهرزاد كان شيئا مستبعدا عن التفكير . فحتى انها لن تخرج من سيارتها أو تتمشى . عندما عدت الى المنزل ، قرعت جرس مسكن شهرزاد واخذت صفحة الترجمة من دفتر ملاحظاتي وأعطيتها اياها فأخذتها بشغف ولكنها حالما شرعت بالقراءة بدأت ملامحها تتجهم وعندما أتت على نهايتها رمقنتني بنظرة غريبة وشكرتني ببرود . ومن ثم لم تذكر لي موضوع وزنها مرة أخرى أبدا .

مع شهرزاد وايرانيين آخرين كانت قشرة الحضارة الغربية التي تعطي الاشياء رونقا وجمالية موضوعة بكثافة . حيث لم أقدر أن أميز أين تنتهي الا في وقت متأخر . ففي البداية لم أصدق أن تكون لدى شهرزاد أو السيدة جام آراء مسبقة محففة يمكن أن تمنعهم عن فهمي واحترامي . وبالطبع كانت حياتنا مختلفة تماما ، ولكنني شعرت أن ذلك كان عرضيا فقط ، فقد كنت أنا وهي في نفس العمر ، ولكنني اعتبرت عدم انهاؤها للدراسة الثانوية مجرد سوء حظ . لم يخطر ببالي أن أحتقرها كما كانت تفعل السيدة جام لعدم حصولها على الدبلوم بالمراسلة . والسيدة جام وعلى الرغم من أن لديها ثقل اولاد صغار وزوجا لتعتني به عندما كانت في السادسة عشر فقط واصلت دراستها وتخرجت . ان ذلك لم يدخل الكثير من التغيير على حياتها كامرأة متزوجة من الطبقة الراقية في المجتمع ، فهي وشهرزاد كانتا تلاحقان نشاطات متشابهة ، والاختلاف الوحيد كان أن السيدة جام أكثر تقليدية نسبيا ، فهي التي كانت تقوم بتربية اولادها وليس أمها . وهي التي كانت تطبخ بنفسها تاركة خادماؤها وخدامها يقومون بالأممال الروتينية . ولم يحدث لي أن شككت في أن كلا من شهرزاد والسيد جام كانتا تريان نفسيهما أفضل مني أنا ،



تلك المرأة المسكينة ، المضطرة للخروج الى شارع ممتلئ بالرجال بدون سبارة لكي أكسب عيشي . لم أكن أرثدي الازياء العصرية وقلمسا وجد أثاث في منزلي . في البداية لم أحلم حتى كيف أنني كنت أخبأ أمل شهرزاد ، عندما أخبرت موءجر العقارات أنها سعيـدة بقدوم عائلة أمريكية فقد كانت تنطلق من وهم أننا أمريكيان حقيقيون ، أمريكيان يشربون ويترددون على النوادي الليلية حيث يمكنهم أن يقدموا خمسة وسبعون دولارا ليومنا الدخول في لعبة الرومي . وعلى كل حال كان من الصعب أن نعتبر أمريكيان بهـذه المقاييس ، ولكن ربما كانت شهرزاد قادرة على قبول حتى هذا الشكل اذا لم يكن خارجا على العادة . فكل ماكنت أهتم به هو الأكراد .

كنا جالستين بالقرب من التلفزيون عندما قررت أن أخبر شهرزاد بأني أجد صعوبة في ايجاد الاكراد ، وبما أن ذلك كسان يشغل تفكيري كل الوقت فلم أقدر أن أتجنب التحدث منه أكثر من ذلك ، وفي كل يوم لأجد فيه فرصة للاتصال بالأكراد كان يدفعني الى التساؤل عن سبب مجيئي الى ايران . خيم الصمت لبرهة ومن ثم قامت شهرزاد بجهد محموم كي تبدو ودودة ، فقالت :

– ان زوجي يعرف بعض الأكراد ، فهو يعمل في مهاباد . أصبت بالدهشة لدى سماعي هذا ، فشهرزاد لم تذكر قط أن زوجها يعمل في مدينة كردية . وكل ماكنت أعرفه هو أنه كان يكسـدس مبالغ ضخمة من النقود من بنائه بعض المنشآت الحكومية . ولم يخطر ببالي أبدا أنه يمكن أن يقوم بذلك في العاصمة الحقيقية لكردستان ايران . ان مهاباد ليست عاصمة رسمية ولا تقع في المقاطعة التي اختارتها الحكومة لتسميها بكردستان . ولكن كل من قرأ أي شيء عن التاريخ الكردي يعرف أن مهاباد هي مركز النشاط الثقافي والسياسي الكردي ليس فقط في ايران ، بل أيضا في كردستان الكبرى برمتها .

لسبب ماشرت بوجوب الاشارة الى شهرزاد أنني حقيقة لم أكن

أبحث عن أكراد من مهاباد ، لأنني لا أدرس لهجتهم السورانية بل للهجة الكرمانجية التي يتداولها سكان منطقة ريزاي وإلى الشمال منها . أومأت شهرزاد برأسها متشككة ماذا تعرف هي عن اللهجات الكردية وماذا فيها لكي تشير اهتمامها ؟ لقد بسدت سعيدة لأنني لم أكن أرغب في أن ازعج نفسي بأكراد مهاباد على كل حال . فسألتنني وهي تعرض على نفسها فستان مخمل أخضر ريزفونسي ، منتظرة أن أبادي اعجابي به :

- مارغريت ، ما رأيك بفستاني الجديد ؟ .

كل ماكنت أستطيع التفكير به هو مهاباد ، مهاباد . وماذا لو أنني أدرس اللهجة الخاصة بها ؟ فعندما يتعلق الأمر بالأكراد كنت أهتم بما هو أكثر من اللهجات . قلت :

- ولكنني أريد أن أراها .

فسألتنني :

- ماذا ؟ ترين ماذا ؟

أجبتها :

- مهاباد .

بدت على محياها امارات الخيبة والكآبة ، ولكنها ابتهجت بعدئذ وقالت :

- أوه ، حسنا ، لم لا ؟ ان هوشنغ يذهب الى هناك كل

يوم ، يمكننا الذهاب جميعا . وسنلهو قليلا .

كانت شهرزاد باهثة تماما وكان هذا واضحا على محياها .

عندما أتى هوشنغ الى المنزل رُحِبَ كل شيء تلك الليلة على ان نسافر الى مهاباد خلال يومين . وحتى الآن لم أكن أعرف على نحو كاف شبيها من العلاقات بين الاتراك والأكراد لأدرك اني سأزور مدينة كردية برفقة العدو . عندما قالت شهرزاد ان هوشنغ يتحدث القليل من الكردية صدقتها ، وعندما قالت أنها ستستمتع برحلة الى مهاباد فأظن انها كانت توهم نفسها بتصديق ذلك . فلو سميت المدينة باسمها القديم الذي كانت تسمى به قبل الشاه بسوج بسولاق

لكانت ترددت . ولربما تذكرت أحداث ثلاثة عقود خلت قبل مولدها بقليل ، تلك الأحداث التي غيرت مهاباد وبقية ازربيجان الغربية . فحتى ذكرما كان قد جرى في الايام الخوالي تلك ، يمكن ان يعتبر شيئا منظويا على الخيانة . لربما شهرزاد قد نسيتها . أو أنها لم تخبر بها أبدا . حتى في فترة بقائنا في ايران كان الشاه مايزال مشغولا في اعادة كتابة التاريخ من خلال آتته الدعائية ، ليحول عدم قيامه بأي دور في انسحاب الجنود الروس من ازربيجان الى انتصار مذهل .

بعد الجلوس على كراسي منزل شهرزاد المدثرة كان من الصعب تصور الموقف في نهاية الحرب العالمية الثانية ، تلك الحرب التي أرا د رضاشاه دخولها الى جانب الالمان . في تلك الايام كان هنالك القليل من الآلات ذاتية الحركة في ازربيجان . فقد كان الناس ينتقلون بين المدن والقرى بالعربات أو على ظهور الاحصنه . لم يكن هنالك كهرباء ولا مياه جارية غير موءدية ، ولا تليفونات . والاثاث الاوربي كان أقل انتشارا بكثير ولم يكن أحد قد سمع بعد بألة التمرين . وبفح من النساء كن يتجولن في الطرقات ، وتقريبا لأحد سوى المسيحيات واليهوديات كن يمضين سافرات .

ومع ذلك وعلى الرغم من الظروف البدائية السائدة حينئذ ، فان فترة جمهورية مهاباد تذكر بفرح ليس فقط من قبل القاطنين في مهاباد بل أيضا من قبل كل الاكراد في كل مكان . والنسبة للجغريين كانت مهاباد منفذا صغيرا يعوزه الاشراق والحيوية مغبرة أو موحلة ، وهذا يعتمد على الفصل . لم يشرهنا الجغريون الى المعالم البارزة في مهاباد عندما ذهبنا الى هناك . فقد كانت بالنسبة لهم مدينة بلا ماض . وقد كان ذلك يقع على عاتقنا أن نميز أهمية مدينة كانت ذات يوم تخص الأكراد وحدهم فقط .

## الفصل الثالث

ان الاسماء في كردستان لها دلالاتها الخاصة . ان نسبة وفيات الأطفال مرتفعة في كل من ايران ، تركيا والعراق . ولكن في كردستان الجبلية فهي مرتفعة جدا ، وقد التقيت مرة بكردية من تركيا كان يدعى " ميثان " الضيف . كان الملا المحلي الذي كان يستشار في هذه الامور قد اقترح هذا الاسم . من الواضح أنهم قد استعطفوا الله بامارة الخنوع هذه ، حيث ان الطفل بالفعل قد كبر الى أن اصبح رجلا . ولكن الحكومة التركية هي أيضا يجب أن تستعطف ، ففي الكردية الضيف هو " ميثان " وفي التركية هو " مسافر " وفقط في المنزل وما حوله بين الاصدقاء الأكراد يبقى " ميثان " . أن أكراد تركيا معتادون على مثل هذه الازدواجية . فالمدينة التي كانت مسقط رأس الميثان كان لها أيضا اسمان مختلفان ، اسم فرضته الحكومة واسم قد استخدم منذ زمن غابر بقدر ماتسع المرء الحيلة في التذكر . ففي المحادثات غير الرسمية خارج مسمع الحكومة والبوليس السري يستخدم الناس دائما الاسم القديم على الرغم من أنه قد محي من الخرائط الرسمية منذ سنوات عديدة .

تماما مثلما كانت أورميا قد غيرت من قبل الشاه الى ريزاي كذلك كانت سوج بولاق قد قلبت الى مهباد ، والاختلاف يكمن في أن مهباد كلمة حميدة نسبيا مع الاصول الايرانية ، بينما رسزاي قد أعيد تسميتها بهذا الاسم نسبة لرضا ، الوالد الممقوت للشاه الاخير . ولكن على الرغم من كون اسم مهباد حميدا فان سوج بولاق قد بقيت بثبات سوج بولاق وهو اسم تركي يعني الماء البارد . ولمجرد حقيقة أن الحكومة هي التي قد فرضت الاسم الجديد عليهم فان ذلك كاف لجعل الأكراد يرفضونه . لقد كانت سوج بولاق وستبقى سوج بولاق .

ان أول من صحح استخدامي لمهاباد كان أحد تلاميذي الأكراد الذين أتوا من تلك المدينة . وكان يقال أن هذا الطالب ذو القامة الفارعة والوسيم هو متحدر من سلالة أحد قواد الجمهورية الكردية التي أسست سنة ١٩٤٦ . ومثل طلاب أكراد آخرين في الكلية كان قد افتتن لدراستي لغتة الأم . وفي أحد الأيام وبعد انتهاء المحاضرة تحدثت بلهفة عن رغبتني في زيارة مهباد ، ذلك المشروع القابع في ذاكرتي منذ وصولي الى ريزاي . ومهاباد تقع عند النهاية الجنوبية للبحيرة على بعد ثمانين كم فقط .

- نعم انها مدينة جميلة .

أجاب طلابي الأكراد على نحو جماعي بينما كانوا واقفين حـول مقعدي . فكرت في نفسي : أن هذه هي الفرصة المناسبة كي أسأل اذا كانوا يعرفون كردبا يدمى حسن قد التقيت به في الولايات المتحدة وكانت بلدته مهباد . ولكن وجوه طلابي توجهت لى ذكرى اسمه فأشار أحدهم قائلًا .

- لقد قتل السافاك أخاه .

- ظننت أنه قد غرق في الرحلة المعسكرة في منيسوتا .

قلت ذلك وأنا أشعر بحيرة ازاء افتراض أن البوليس السري الايراني كان قد نفذ حكم الموت بأخي حسن . ربما لم يسمع هؤلاء الطلاب قط بالتفاسيل الحقيقية . صرح أحد الطلبة :

- ان الذي يجيد السباحة لا يمكن أن يغرق . لقد قتل السافاك . أوماً الآخرون بروءوسهم موكدين ذلك ، وهم يحدثسون في مشككين . هل أنا مبعوثة من السافاك لأنهم بغير ذلك ؟ .

هذا ما كان يتعلق بطلابي الأكراد . وهنا في ايران حيث لا توجد جريدة تنشر أخبارا موثولة ، كانت لديهم أخبارهم المستمعة من مصدر موثوق . أما أنا وبعد التحدث الى حسن في أمريكا فتسدد

تصورت أنه كان مجرد حادث مأساوي، ماهي حقيقة الامر؟ طالما هي مرتبطة بالسافاك فلن نعرفها أبدا . فكل الحوادث الأليمة في إيران يلفها ضباب كثيف . ففي غضون اقامتنا هناك انهدم سقف مبنى مطار طهران تحت ثقل ثلج الشتاء . وقد قتل فيه المئات من المسافرين ، وذلك اعتمادا على المصدر الذي أعلن عن الحادث . وكان الطلبة في إيران لسنوات عديدة يقومون باضرابات يحيون فيها ذكرى اليوم الذي يقولون أن أربعة وأربعين طالبا في جامعة تبريز قد قتلوا فيه على يد الجيش . ومع ذلك فان شهود عيان يدعون أنه لم يكن هناك قتلى .

انبعثت حقيقة صعبة من خلال مناقشاتي مع طلابي المهاباديين فلم يخاطر أحد بنفسه كي يريني المدينة . وقمت أنا وجيرد بمحاولات عديدة لأخذ الحافلة الى هناك لوحدها ، ولكننا كنا نفشل فيها . فقد رفض الموظف الجالس في مقعد في محطة الحافلات الصغيرة القسوة ، الواقعة قرب بازار ريزاي أن يعطينا مقاعد مستقلة فمن الواضح أنه لم ير في حياته أجنبيين بملابس حسنة يريدان الذهاب الى مكان مثل مهاباد بالحافلة . والآخرون في حجرة الانتظار كانوا يرتدون أسمالا بالية وكانوا جميعا يتحدثون فينا بينما كنا نتفحص الجدران بحثا عن لائحة أو قائمة أسعار ولكن بدون جدوى .

والآن وبعد مضي شهر على وصولنا الى ريزاي وجدنا أخيرا وسيلة للوصول الى مهاباد . وحقيقة أننا كنا ذاهبين برفقة الاتراك لم تزعجني . لقد كنت سعيدة جدا لكوننا سنذهب على كل حال . راجعت في ذهني ماكنت أعرفه عن المدينة . كان أصدقاء لنا قد خدموا هناك في فرقة السلام قبل ثماني سنوات ، وقد وصفوها لنا على نحو شامل ولكن من الواضح أن الاشياء قد تغيرت منذ ذلك الحين . كان أصدقاؤني قد نصحوني بأخذ ملابس خاصة لأرتديها في شوارع ريزاي . ولكنني لاحظت مباشرة أن ارتداء السروال كان قد أصبح دارجا لدى المرأة الإيرانية العصرية . قالوا اننا لن نجد ماء نقيا ولاثلجة ،

أو سخانة ماء حيث حصلنا عليها مباشرة . وكانت هنالك جشتان  
معلقتان هي سوق مهباد في يوم وصول أصدقائنا اليها قبل ثمانيني  
سنوات . وقد كانتنا جثتي كرديين اتهمنا بمعارضة السلطات . كان  
الأكراد خلال اقامة أصدقائي هناك مايزالون يناضلون ضد الحكومة  
علنا ، وكانت الحكومة تمثل بالأكراد في السوق . في الوقت السذي  
وصلنا فيه كانت هذه الاساليب قد بطلت . كانت الزنانات الخفيفة  
للسافك وقوات الدرك الريفية النشطة تسبتر الى حد ما على  
المناطق الريفية .

اذا كانت للأسماء في كردستان حياة خاصة بها ، فان الاسم  
الرنان المنتسم بالطهارة " چارچرا " ويعني حرفيا القناديل الاربعة .  
هو احياء لذكرى اثنين من عمليات الاعدام ، فقد كان قد نفذ حكم  
الاعدام في اثنين من قواد الجمهورية الكردية هناك . وموعـخـسـرا  
كانت ساحة " چارچرا " المستديرة بقناديل شوارعها الاربعة عند  
نقطة التقاطع المغبرة قد ازيلت ، والشوارع الموءدية اليها قد أعيد  
تسميتها وبسبب مهباد فان طهران لن تشق بالأكراد أبدا . فالأكراد  
جميعهم أعداء والخيانة كامنة في نفوسهم وهم مخربون بالنسبة  
للدولة التي تحكم من طهران . وبالانسحاب سنة ١٩٤٦ يستنبط الفرس  
بأن الأكراد قد قضاوا على أنفسهم الى الابد . كانت مهباد بالسبب  
للساه وللايرانيين بمختلف قناعاتهم السياسة مثالا لما يستطيع أن  
يفعله الأكراد وما سيفعلونه ثانية ، اذا أتاحت لهم الفرصة .  
وكذلك فان تبريز هي رمز لأحلام القوميين الأتراك و اضهادهم .  
ولكن قصة الجمهورية التركية متعلقة هنا بالمحيط الخارجي .

في سنة ١٩٤٦ كانت كردستان ايران قد حررت على نحو غير  
متوقع من قبضة رضا شاه المحكمة ، الذي كان قد استخدم أساليب  
وحشية ليسيطر على الأكراد وعلى غيرهم من المجموعات القبلية  
المقاتلة . ومن جملة ما قام به من اعتداءات ، أنه اعتقل قواد  
قماثل في طهران ، فرّق أراضيبهم ، وحرّم اللباس التقليدي عليهم .

في أواسط الحرب العالمية الثانية احتل البريطانيون ايران الجنوبية قرب حقول النفط بينما تحرك جنود الجيش الروسي نحو الشمال الغربي على طول الحدود التركية الروسية وكان ذلك - وعلى حد زعمهم - للتأكد من أن رضا شاه لم يدخل الحرب الى جانب الألمان . ولكن في الحقيقة كان لكلا البلدين مخططاتهما في ايران . وعلى نحو خاصي مطامع في نفطها . بما أن حضور الجنود السوفييت قد منع الجيش الفارسي على نحو فعال من فرض النظام القائم حينذاك على كردستان فقد مضت مهاباد أو " سوج بولاق" بثبات أكثر تجاه الحكم الذاتي . والروس الذين كانوا أكثر فعالية بين الأتراك في الشمال رفعوا القيود عن الأكراد .

واخيراً - في سنة ١٩٤٦ وبتشجيع من الروس ، انبثقت دولتان من بقية ايران وأعلنتا استقلالهما . وكانت جمهورية ازربيجان الكبرى الاثنتين قد أسست في تبريز التي تقع على بعد ١٨٠ ميلاً الى الشمال من ريزاي . وكان يديرها الأتراك الذين جعلوا من لغتهم التركية اللغة الرسمية في الجمهورية . حتى ذلك الحين كانت الأزرية لغة لا قواعد لها ، مهملة رسمياً من قبل طهران ومحظـر تداولها العام . وقد شجع الروس الأتراك الأزرين وساعدوهم على اعلانهم عن الاستقلال الثقافي والسياسي عن طهران . وكانت الحكومة الجديدة لجمهورية ازربيجان قد قولبت باحكام على شاكفة التفكيـر والعمل والسلوك السوفييتي مع منظمة بوليس سري محكمة .

على نحو أبعد الى الجنوب ، وبدعم أخف من الروس كانت الجمهورية الكردية الأصغر ، وكان يديرها قواد مجتمع يتمتعون باحترام بالغ من مهاباد مع ممثلين عن المناطق القبلية المحيطة . لم يكن هناك بوليس سري والتوجيه الروسي كان يتصف بالقلية نسبياً وكان جيش الجمهورية الكردية مشكلاً على نحو رئيسي من أتباع قواد القبائل المحلية المختلفة ، ولكن ، كان من الصعب أن يكفي لصد هجوم منظم . كان على الجمهورية أن تدافع عن نفسها عاجلاً أم آجلاً. ولكن عند ما أنجبت مهاباد جنرالها الاول الحقبلي لم يرحب به بسأذرع



## مفتوحة .

في الوقت الذي أسست فيه جمهورية مهباد ، تسلم رئاسة قبيلة البرزاني في شمال العراق قائد قبلي جبار ، متوسط العمر ، سدى ملا مصطفى البرزاني . كان البرزانيون مقاتلين مشهورين فبالإضافة الى محاربة أعدائهم التقليديين مثل قبيلة زيباري ، كانوا في وقت قريب جدا يحاربون البريطانيين . وردا على ذلك فقد تصفت القوى الجوية الملكية مقاطعة برزان وأجزاء أخرى من كردستان وقد حاءت جمهورية مهباد في وقت احتاج فيه الملا مصطفى للخروج من جبال برزان ، حيث كان يجتذب بأناة الى فخ نصبه الانكليز . بالتواطؤ مع قبائل معادية مجاورة . في ١٩٤٠ كان البريطانيون قد قرروا فرض النظام في كردستان العراق بأية وسيلة . وقد رأوا في اتباع البرزاني القبليين نهديدا مباشرا لخططهم لنقل زمام السلطة في العراق الى العرب مبعدين بذلك كلا من الأكراد والآشوريين . وعلى نحو مغاير من العراق كانت ايران قد قسمت وسادت فيها الفوضى خلال الحرب العالمية الثانية ، مقدمة بذلك أرضية مثالية للأكراد الراغبين في حكم أنفسهم بأنفسهم . قرر البرزاني أن يعبر برجاله الحدود ، وأقام مركز القيادة في مهباد . في البداية استقبل البرزاني بحذر ، وعلى الرغم من أنه كان قد هرب لتوه من الأسر البريطاني ، فقد كان يرتاب فيه على أنه عميل بريطاني ممن وجهة نظر أذربيجان التي يشرف عليها السوفييت . وموخرافق عندما تحرك الجيش الفارسي على مقربة من مهباد تثبتت براءة البرزاني وقواته بمآثرهم الشجاعة .

على الرغم من أن الدولة الكردية كان يتوفر فيها القليل من الديمقراطية ، فان هذا القليل كان يمثل تقدما كبيرا عما كان يسبقها فقد طرد البوليس الفارسي والبوليس السري والجيش من المدينة ورفع العلم الكردي ، وقد رقص فعلا سكان المدينة في الشوارع ، وظهرت الجرائد والكتب بالكردية مباشرة ، وقد استخدمت الكردية في المدارس ،

وفي دور العدل والقضاء التي كان يديرها قضاة مسلمون تقليديون ، وكان القاضي محمد رئيس الجمهورية الصغيرة نفسه واحدا ممن هوءلاء القضاء .

على الرغم من أن الأكراد كانوا قد تمتعوا بحكم ذاتي فعلي لسنوات عديدة خلت ، فان الجمهورية الحقيقية استمرت قرابة سنة واحدة . خلال ذلك الوقت وعد الروس بدعم كلا الجمهوريتين الكردية والازربيجانية . ولكن القوى العربية التي لم تكن تريد أن ترى الجمهوريتين المحميتين من قبل روسيا في ايران سعت جاهدة لازالة القوى الروسية . وأخيرا انسحب الروس من الجمهوريتين الفتيتين اللتين شجعتهما مع قليل من التحذير أوحى بدونه أيضا وأصبحت الجمهورية الازربيجانية أسطورة بين عشية وضحاها - وعهد الازهاب يقول شيئا والحلم القومي يقول أشياء أخرى - وواجه الأتراك عقدا من المجاعة ، وكان سوء المناخ وندرة المحاصيل سببا في ذلك جزئيا . ولكن في فترة اقامتنا في ايران ، وبعد مايفارب ثلاثة عقود كان الناس يقولون : ان طهران لن تسامح تبريز أبدا . تلك التي كانت أكبر مدينة في ايران ذات يوم وكانت عاصمة السلالة الحاكمة ، وقد تركت لتبلى في غبارها ، وأصبحت منسية عندما وضعت الخطط الصناعية فاضطر سكانها الى الهجرة الى طهران بحشا عن العمل .

في مهاباد ، في النهاية الأخرى من البحيرة ، كان مصير الأكراد أكثر دموية ، لاعتقادهم أن الايرانيين لن يقوموا بأي عمل انتقامي ضدهم . لم يكونوا على علاقة متينة بالروس ، ولم يرتكبوا تجاوزات الأتراك في الشمال منهم . مع ذلك ، وبعد معارك عديدة وبعض المفاوضات مع الحكومة الايرانية ، اعتقد البرزاني أنه من الحكمة الفرار مع جيشه ، وقد عرض عليه اللجوء الى ايران ولكن بشرط أن يسلم هو ورجاله كل أسلحتهم وأن يستقروا في مكان بعيد من مهاباد . ولكنه قرر مغادرة ايران هو ورجاله في ظروف بالغة القسوة جنبا الى جنب مع عائلاتهم ، وكانوا يطاردون في الجبال على

طول الطريق حتى الحدود الروسية . من ضمن الأكراد الإيرانيين كان هنالك من لا يضر الحب للبرزاني . فاحدى القبائل على نحو خاص وهي قبيلة " الهركيين " تعاونت مع جيش الشاه بالقيام بغارات متكررة على البرزانيين وهم يفرّون الى الشمال . ومرة أخرى انقسمت كردستان الى اتجاهات قبلية وكل مجموعة تحاول أن تستفيد على حساب الأخرى . يبدو أن هذا هو بالضبط ماتريده الحكومات من الأكراد أن يفعلوه . وبعد مرور ثلاثين سنة بداواضحاً أن الشاه لم ينس موقف الهركيين ذاك ، حيث تتفاخر قري الهركيين بالمستودار والمستوصفات التي تفتقر اليها القبائل الأخرى .

قبل أن تسقط جمهورية مهباد مباشرة وقبل أن يتقدم الجيش الإيراني نحو الداخل ، ذهب البرزاني الى القاضي محمد الرئيس ليسأله اذا كان يريد الذهاب الى روسيا . لكن القاضي .

— أما لبساطته وأمانته البالغة — اختار البقاء فسي مهباد . فقد شعر بعدم قدرته التخلي عن الناس الذين مضوا معه في هذه المجازفة الجريئة من غير اعتبار للحكومة الإيرانية ، ومن المحتمل أنه لم يصدق حقيقة أن الحكومة ستكون غيبية ، لتجعل منه شهيداً . ولكن وقبل مغادرة البرزاني بثلاثة أسابيع كان القاضي واثنان من أقربائه قد أعدموا في ساحة " چارچرا " القناديل الأربعة في سوج بلاق . ان كلا الاسمين — چارچرا وسوج بلاق لم يعودا يعزيان لأي مكان في ايران . ومهباد كغيرها من المدن أرهقت بحمل اسم شارع بهلوي وبتمثيل الشاه البهلوي ووالده البرونزية العديمه الذوق . لكن أهالي مهباد لن ينسوا ماحدث لهم أبداً .

حتى بعد قرائتي لتاريخ الجمهورية الكردية كنت لاأزال أدرك مضامينها فقط على نحو غامض فيما يخص العلاقات بين الأكراد والأتراك في ايران في الوقت الحاضر . في سنة ١٩٤٦ قاومت دولتان طهران وتحدثت الحكومة المركزية بالقيام بأي شيء فدها .

وكان كل من الاتراك والاكرد قد تلقوا الكثير من التشجيع من الروس ليتعاونوا معا ، ومع ذلك فطوال الأحد عشر شهرا من وجود جمهورية مهباد ، كان الكثير من الاكرد في شمال مهباد ، في منطقة ريزاي يرون الاتراك الازربيجانيين - وليس فرس طهران أعداء حقيقيين . والازربيجانيون من جهتهم كانوا قد تجاهلوا الاكرد قدر استطاعتهم . وبما أن المدن الواقعة الى غربي البحيرة و ريزاي وحوالي تبريز كانت تقطنها الأغلبية التركية ، فقد شعر الازربيجانيون الاتراك بالامان عند منعهم الجماهير الكردية التي تشكلت كما ضحما في القرى المحيطة من أن يمثلوا أنفسهم ، أو أن يؤخذوا بعين الاعتبار . وهذا الوضع لا يزال مستمرا حتى هذا الحين . ويشكوا الاكرد من أن المدرسين والطلاب الاتراك يتحدثون التركية في المدارس العامة في ريزاي ، حيث من المفترض أن تكون الفارسية هي اللغة الرسمية ، ويقول الاكرد بأنهم سيتذكرون طالما فيهم من لديه القدرة على التذكر أن الاتراك لم يتجاوبوا معهم على الوجه الاكمل . الا أنني احتجت الى فترة من الزمن لكي أدرك ادراكا كاملا عمق التعصب العرقي في ريزاي . كان جميع جيراني اتراكا بينما كان معظم زملائي في العمل من الفرس . وتاماما مثلما لم أشك بماهية شعور الجفرين تجاه الاكرد ، كذلك لم أكن اعلم ولوجزفيا كم كان الاساتذة الامريكيين والاوربيين في الكلية يحتفرون جيرانا . كانت رحلتنا الاولى الى مهباد رحلة لشخصين بريئين ، مثلما كانت لقاءاتنا الاولى غير المتوقعة والعديد في ايران . وصلنا الى مهباد عن طريق عام كان لا يزال قيد الإنشاء ، هذا الطريق المعبد يوصل تبريز بكرمنشاه في الوقت الحاضر . لم نرى شيئا لعدة أميال سوى سهوك موحلة ممتدة الى جانب البحيرة وفي احدى البقاع شاهدنا قطيعا من الجمال لايفسر وجوده هنا على اعتبار أنه ليس من الحيوانات المألوفة في أذربيجان الغربية . وحالما هادرنا السيارة في شارع بهلوي في مهباد وسط منطقة الجزء الأدنى من المدينة شعرت بأنه كان لزاما علينا عبور

الحدود . أن النساء في الشارع المهابادي لا يبعن الغطاء . فهن  
لا يحتجنه - ففي مهباد القليل من الأتراك والفرس ، والشوارع مزدحمة  
بالرجال الأكراد المرتدين العمامات الضخمة والسراويل الفضفاضة التي  
تضيق عند الكاحل . وقد اكتشفت حالا ان الأكراد لا يحدقون فسي  
بطريقة الأتراك المتغطسة . على الرغم من أن مهباد بطبيعتها  
محاطة عند حوافها بالجبال أكثر من ريزاي القابعة فوق سهل واسع  
فان مهباد التي تقع في واد الى حدما ، هي أكثر اشراقا واضاءة .  
لربما كان تفسير ذلك هو غياب العبايات .

عندما خرجنا من السيارة لاحظت أن شهرزاد لم تظهر لتفاسمني  
حماسي لهذه المدينة الكردية . فقد لغت شالها الاسود المحببوك  
بشكل جيد حول جسدها بعصبية عندما قادتنا على نحو سريع الى  
دكان تذكارات يقدنيه ويديره تركي من ريزاي . قضينا فترة الصباح  
هناك حسب ارشاداتها . وبعد ان قمنا ببعض المشتريات عزمنا على  
الاتصال بعائلة حسن المهابادي الذي التقيناه في امريكا . وحالما  
ذكرت اسمه تغير جو المحل ، فأوحى اليينا صاحبه ان اخا حسن ربما  
يكون - وعلى ما هو شائع - في السجن . ولكنني رفضت أن يثبطوا عزمي  
وبذلك ساعدتني شهرزاد على مضي كي اهتف الى منزل عائلة حسن .  
وحيث ظهر رجل بدين لا يشبه حسن في شيء عند مخزن التذكارات راودني  
الشك فيه ، فتساءلت فيما اذا كان هذا حقا ، أخو حسن أم أنه من  
عناصر السافاك . لم تكن هناك وسيلة لمعرفة ذلك . لماذا كانوا  
يفكرون في وجوده في السجن ؟ هل كان مجرما ؟ فأننا لم أقم  
المدة الكافية في ابران لأمير بين المقياس الامريكى والابراي فسي  
أسباب الاعتقال . اعطانا أخو حسن رقم هاتفه مكتوبا بأرقام  
انكليزية مشكلة بطريقة غير متقنة وبعدها مضى بعيدا مما أراح  
شهرزاد كثيرا . لقد اراد أن نتصل به ونجتمع في المرة القادمة  
في مهباد عندما نحضر اليها ، ولكننا لم نفعل ذلك أبدا .

ان تاريخ حسن واخوته الى حد ما هو نموذج لما كان على

المقيمين في مهباد أن يعانوه في غضون سنوات . ففي سنة ١٩٥٠ . وبعد فترة ليست بطويلة بعد سقوط الجمهورية ، كان هنالك أخ آخر لحسن وقد كان في الثلاثين من عمره آنذاك ، حين جمع مع شباب آخرين وحجزوا في كوخ صغير لمدة اسبوع وكان البوليس قد غطى أرضية الكوخ بالماء بعمق قدم وقال حسن أن اخاه ذاك لم يشف من ذات الرفة التي اصيب بها أثناء التعذيب . كان قد اتهم بنشر مواد تحريضية وبعدئذ أفرج عنه . لقد تضررت رفته فقط ، أما الآخرون فلم يكونوا محظوظين مثله . كان ذلك في الزمن الذي يعتبر فيه الادب الديني عملا تحريزيا . وحسن نفسه وأخوه الذي قتل في احدى المخيمات العسكرية كانا فعلا قد رتبا امرهما للذهاب الى الولايات المتحدة ، زاعمين انهما سيذهبان للدراسة ولكنهما حكيمة وقبل كل شيء أرادا أن يبقيتا على حياتهما . وبعد عودتي من ايران ، ولدى روميتي لحسن عند ذلك فقط ، افهمني وأنا في امريكا سبب افتراض تلاميذي المهاباديين مباشرة ان السافاك قد اغتالوا أخاه . ان حوادث موت اناس من مهباد غالبا ماتكون غير طبيعية ولا عرضية .

عندما سرنا مع شهرزاد الى فندق " مامون سراي " الحكومي ، المحلي ، الصغير ، القينا نظرة خاطفة على المدينة . كان دربنات من الرجال الباطعين المتجولين ينادون على بضائعهم التي تضم راديووات ومسجلات وبضائع مستوردة اخرى على طول الطريق الرئيسي . لقد كانت مهباد مشهورة بكونها قبلة البضائع الغربية المهربة ، وبما أن الاتراك على جانبي الحدود كانوا يتعاملون مع بعضهم البعض بيسر ليجتنبوا الجمارك من غير ريب ، فان سلطة التهريب قد كسرت عندما استخدمت الحكومة العراقية النار وجردت عناصرها لتحدث ما يبلغ امتداده خمسة وعشرين كيلو مترا من الارض المحروقة بين قراها الكردية والقرى التابعة للبلدان المجاورة لها في ايران وتركيا .

بعد أن تناولنا الغذاء في غرفة خاصة في فندق مامون سراي - حيث لاتأخذ النساء غذاءهن في حجرة الطعام العامة - تجولنا أنسا وجيرد لوحدا عبر الازقة الصغيرة الموحلة وعلى ناصية الشارع الرئيسي وقوت الازقة الملتوية والمنازل المبنية من الطين شعورنا بأننا كنا فعلا في بلد آخر . كان منزلنا الخاص مبنيًا من الاسمنت مع قطع صغيرة من الزجاج الملون ، وكانت مرايا مكسرة تبرز في الواجهة . وفي وقت لاحق ، عندما سرنا الى موقع الانشاء الذي يعمل فيــــه هوشنغ ظننت ان مهباد ستفخر حالا بمنازل مثل منازلنا . كانت منازل هوشنغ تبني في صفوف مستقيمة ، طويلة وكثيية . والانابيب تتدحرج في تلك الانحاء بين غبار الشارع غير المنتهي ، وكــــأن للمنطقة مظهر اعزل ، كثيب ، مغاير تماما للمتاهات التقليدية للازقة بجدرانها المنخفضة وحداثتها الصغيرة . غامرني شعور بانني ساتلى بسعادة عن سخانه الماء والثلاجة لاعيش في مهباد القديمة .

امضينا يومنا في مهباد على عجل ، وانتهى هوشنغ من عمله ، وتحررت شهرزاد من حملها المقبوت لترينا تلك الانحاء . كنا نتتبع مجرى النهر خارج المدينة ، عندما انعطف هوشنغ وبيدون سابق اندار من الطريق الرئيسي الى شارع مستقيم منحدر ، ومفروش بالحصى بشكل حسن . بعد بضعة كيلومترات ادركنا ساحة مستديرة ، وكانت تشبه تلك الساحة التي تشير الى بداية مهباد تماما ، الا أن هذه ، تتميز بعدم وجود تمثال للشاه او والده ، وانعدام العشب في وسطها . داخل هذه الساحة المستديرة كان يقف مجموعة من الرجال بعضهم كبار وبعضهم شباب ، وجميعهم مرتدون البسة ملوثة وممزقة من الطراز الغربي . لم أر زوجا واحدا من السراويل الكرديــــة الفضفاضة او حتى عمامة . كانت شهرزاد تستشيط غضبا في المقعد الامامي عندما تزل هوشنغ وبدأ بالحديث مع زمرة من الرجال. قررنا انا وجيرد ان نخرج أيضا ، ونلقي نظرة على تلك الانحاء .

حالما خرجنا من السيارة ، اندفع بقية المتجمهريــــين

باتجاهنا ليمعنوا النظر فينا عن كثب . القت الشمس التي كادت تأفلـ بسـرعة بظلالها الوارفة على المشهد بشمولية تامة ، جاعلة وجوه الرجال الملوحة بالشمس تبدو أكثر سمرة . بينما كانوا يحدقون فينا ، شعرت بعداء قاهر موجه للباسنا النظيف غير الممزق ، ولوجوهنا الشاحبة المحمية ، ولفضولنا غير المخفي . وفجأة قال جيرد :

— الا تلاحظين شيئا غريبا في هذا المكان ؟

صدمت بسمة الاكتشاف المميزة في صوته وتجهمت ملامحي لذلك . ممن الواضح أن المكان كله كان غريبا جدا ، لقد كنا محاطين بمجموعة من الرجال الاتراك الفقراء مقرء مدقعا والعدائيين ، حيث كانوا يقفون في الطريق يحدقون في زوحين غربيين عنهم .

في الجانب الآخر من هذه الساحة الدائرية الطينية المحاطة بطريق مفترش بالحصى كانت هناك مجموعة صغيرة من المخازن الشبيهة بالاكواخ تباع الفاكهة والخضار وبعضا من البضائع الجافة المعبـرة، هتف جيرد قائلا :

— لاتوجد سيارات هنا . انهم ينشئون هذا الشارع المشجر وهذه الساحة الدائرية السخيفة في مكان لاهمية له . فلا احد ممن هؤلاء الناس يقدر على شراء سيارة . ان الحكومة تنشئ طريقا لن يعود عليهم بفائدة .

وقبل ان يمضي جيرد في تفصيلاته اكثر ، رأينا هوشنغ يرجع ويدخل سيارته . أسرعنا نحن أيضا بالدخول ووبختننـي شهرزاد بعدد قائلة : أن الرجال هنا ليسوا معتادين على روية النساء . اقترح هوشنغ في محاولة منه لتلطيف الجو ، أن نقوم برحلة جانبية الى واد آخر لروية بعض من البقايا الاثرية الممتعة ، وتجادل الاثنان لبيع دقائق ، وبعد ذلك اقر هوشنغ أن القيادة لن تكون مأمونة الجانب حول الجبال في الظلام . لقد بدأ أن الطائرات العراقية كانت تحلق على مقربة دانية ، من الروءوس ،



تقصف القرى الكردية في الجانب الايراني وكذلك في الجانب العراقي من الحدود . وقد فحك هوشنغ كما لو أن هذه كانت نكتة بارعة . عند هذا شعرت بقشعريرة تسري في بدني .

اليوم الذي تلى رحلتنا الى مهباد ، احتفل فيه بالعيد ، اشارة الى انتهاء رمضان ، بعد فترة صيام المسلمين لمدة شهر . سمعت اصوات الضيوف في يوم العطلة هذه ، بينما كنت أمر بباب الجعفر يبين نصف المفتوح . فعرفتني على ابن عمها الذي كان يعمل في مهباد كمرقب على التبغ .

- مهباد مكان بغيض .

قال ذلك استجابة لاجبار ذهابي الى هناك منذ فترة قريبة جداً . أوماً بقية الاثراك الموجودين في الغرفة بالموافقة على ذلك ، والحت شهرزاد في كلامها قائللة :

- لكن مارغريت تحب مهباد ، اليس كذلك ، يا مارغريت ؟

- نعم .

قلت ذلك بينما كان يحدق في الجميع .

بعدئذ انفجرت شهرزاد قائللة :

- كما تعرفون ، ان مارغريت تحب الاكراد ، وتريد أن تتعلم الكردية .

عند ذلك جحظت عينا ابن عمها ولم يصف احد آخر اي شيء . ابتسمت شهرزاد وهي تقول موضحة :

- الغرباء يهتمون بمثل هذه الاشياء .

ومن ثم غير احدهم موضوع المحادثة .

بعد رحلتنا الى مهباد ، نظرت الى قطعة الورق المجمدة

المكتوب عليها رقم هاتف الرجل الذي ادعى انه اخو حسن عندما كنا في مهاباد . كان يلح علينا ان نهاتف له حالما نتمكن من ذلك . ولكن كيف ؟ لقد ترددت في طلب الهاتف من شهرزاد لاستخدمه بعدئذ اخبرني احدهم ان الهواتف في مهاباد لم توصل بعد بتلك التي توجد في مدن ريفيه اخرى . لم اعرف ما الذي سأصدقه ؟

كنت على وشك استخلاص هذا الدرس في ايران ؛ انه عندما يرفض احدهم أن يعطيك معلومات عن كيفية الوصول من النقطة " أ " الى النقطة " ب " - كما حصل معنا في محطة الحافلة عندما حاولنا للمرة الاولى ان نذهب الى مهاباد - او عندما يقول : انه من الممكن الاستطيع الاتصال من مدينة باخرى ، فانه يحاول قول شيء مغاير . وعندها قلت شهرزاد لنا في مهاباد : انها لاتعرف أي مكان آخر لتأخذنا اليه سوى دكان التذكارات لصاحبه التركي ، فقد كاثت تخبرنا بأنه علينا الا نكون في أي مكان آخر سواه . لقد كانت هي وهوشنغ يحاولان بحذر ان يحصرنا زيارتنا هناك داخل سيارتهما فقط ، وفندق مامون سراي - الحكومي وكان يفتنيه تركي . عندما اخترقنا الحواجز التي وضعوها لنا مصرين على روية حسن ، وذهابين قسي جولات قصيرة ، وخارجين من السيارة في الساحة المستديرة ، كان من الطبيعي لهم ان يضطربوا لذلك . مع انهما يعرفان اكثر منا أي مكان يمكن تواجدها .

كل امرئ في ايران له مكانه ، فالخدم والعمال لهم اماكنهم في حافلات المدينة التي يكلف الركوب فيها ثلاث سنتان فقط . الموظفون وعمال آخرون ذوو الياقات البيضاء ، لهم اماكنهم في حافلة هيئة الاساتذة ، التابعة للكلية ، او الحافلات المزودة من قبل مكاتب الكلية . هذه الحافلات حرة . والمشتغلون بمهن تقتضي ثقافة مثلنا ، من المفروض عليهم ان يفتنوا سيارات ، حيث كانت اجرة الركوب في زمن اقامتنا مايربو على ٥٠٠ر من الدولار . ان هذا الحس بالمكانة قوي جدا ، لدرجة انه عندما افطر زميل لنا لبيع سيارته تحت ضغط ظروف مادية ، كان يمشي عدة اميال بدلا من أخذ حافلة

المساعدين .

للاكراد مكانهم ، خارج مدينة ريزاي . كان ذلك جزءاً من الامور المزمجة جدا من اللاجئين . لقد كانوا يصرون على كونهم اكراد على نحو علني في مدينة تركية . اما مهاباد ، فقد كانت العكس تماما . فهناك لاينتمي اليها الاتراك . ربما كان ذلك هو السبب في أن الحكومة كانت تنشيء مدينة صناعية ، في ضواحي مهاباد لتجلب اليها الاتراك والفرس وتجعل المنطقة أقل كردية على نحو فعلي ، فكلما اصبحت كردستان اكثر اختلاطا ، فان سكانها سيجدون صعوبة اكثر في الانفصال عن الحكومة المركزية ثانية . لقد كانت الحكومة العراقية تستخدم هذا الاسلوب لسنوات ، لتقلص من مساحة كردستان التابعة لها .

كان الزمن ينقضي على نحو غير معروف لحكومة الشاه ، وكان قد تأكد بشكل قاطع ان المجندين في الجيش من كردستان ، أوفسيي الحقيقة ، من أي من المناطق العرقية المكثفة ، لن يركزوا بين الشعب المنتمى اليه . كانت الحكومة قد ارسلت حكاما ومحافظيين مهيبين في طهران ، وموثوق فيهم بانعدام اي قاسم مشترك كاللغة والشعور بالتعاطف بينهم وبين هؤلاء الناس الذين تحسنت ادارتهم ، وكانت قد افرت روموساء القبائل واستخدمتهم لقيام مبلغ من المال . لكن حلم الجمهورية والاسماء سوج بـ ولاق وچارچرا تواصلت بين الاكراد ، على الرغم من جهود الساشاك القصوى لاجتثاثها .

## الفصل الرابع

كنت مضطجة على اريكة طويلة باتجاه بعض الستائر الفينيسية نصف المفتوحة ، محاولة النظر الى الوجه العريض والودود للسيد جوهر خانة ، اكثر من خطوط النور المضطربة ورائه . لكن بقيسة الحجرة ، كانت تغشاها ضبابية اما بسبب عدم تجميعي الاشعة فسبب بوءة واحدة او بسبب عصيتي . لم استطع ان احدد ذلك . كان يراقبني ثلاثون طالبا وأنا او اظب على اخذ درسي الكردي ثلاث مرات في الاسبوع . وكمتخصصة في مجال اللغويات فقد اعتدت على تحمّل مسؤولية تنظيم وتمثيل وتركيب أي لغة يمكن ان احتاجها حرفيا . اما في محطة الاذاعة فقد كنت اشعر غالبا كما لو أنني كنت اسحب الكردية من فم استاذي اكثر مما لاحد ما أن يفتلع سنا . كانت هذه الدروس المتعبة جدا تعطى في مكتب مدير اذاعة ريزاي - التي بالاضافة الى برامجها الرئيسية بالفارسية - كانت ، تذيع برامج اذاعية اخرى بالآزرية التركية ، والكرمانجية والتركية ، والآشورية . وعلى الرغم من أن هذه البرامج كانت تستلزم ضمنا المصادقة عليها لتثبت تسامح طهران تجاه اقليتها العرقية ، فان بعض الناس كانوا يحتجون على ان اللغات غير القياسية كانت تحول الى فارسية على نحو مسدروس في الاذاعات . حتى الناس الذين لم تكن لهم علاقة بالمسائل اللغوية ، ميزوا ذلك الجانب من الموسيقى ، فالبرامج الكردية كانت وعلى نحو رئيسي وسيلة للدعاية التي يستخدمها الشاه .

في أسفل التسلسل الهرمي لمحطة الاذاعة كان الرجل الذي يقدم الشاي يقف منتصبا وساكنا في أبعد نقطة من جوهرخانة فسبب الحجرة ، منتظرا الفرصة ليتقدم نحو المقعد حاملا أكوابا كانت تطلق فوق أطباقها . أعطى جوهرخانة تعليماته بأن يقدم الشاي الي أولامع الوجهاء الاخرين في الغرفة وهم يأخذون الشاي بانتظام

حسب أهميتهم ، كان على معظمهم الذهاب بدونه ولكنهم لم يشعروا بالخيبة لذلك بما أنهم كانوا قد اتوا للتسلية وليس لشرب الشاي . كنت أنا نفس المرأة التي كانت قد ذهبت الى المحطة في الاسبوع الماضي مع رسالة تعريف من مدرس ايراني في الكلية . كان السيد جوهرخانة قد اثار بقوة هيئة المساعدين باعلانه انني يجب ان أعلم اللغة الكردية . لذلك تولفت اقسام اخرى وفي اوقات محددة في ايام السبت ، الثلاثاء ، والخميس وذهب كل واحد الى مكتب مدير المحطة ليراقب ويعضف ويبيدي الملاحظات بهمس .

وجدت نفسي ثانية بين الاتراك الاحق دراستي للكردية ، ولو انه كان يوجد بعض الاكراد . كان السيد اسياي ، رئيس مجموع المساعدين للبرامج الاداعية الكردية هو نفسه نصف كردي ونصف تركي . لقد كان رجلا قويا ، معتدا بنفسه ، وذا تسريحة معنسة في القدم . كان يفضل الكنزات الضيقة ، ذوات العنق الطويل . كان من الواضح انه يستمتع بدور المعلم امام جمهور كهذا . كان يرد اجوبته الدقيقة على كل اسئلتى السمجة عن صيغ الفعل وترجمات مواد المفردات بصوت عال . لقد كان مغرورا جدا وكان يركز على نحو واضح على مايقوم به اكثر من كونه ينقل معلومات ، حيث بدأت مباشرة بالشك بالكردية التي يعلمني اياها . أما السيد جوهرخانة ، مدير المحطة فلو لم يكن تركيا ، لكان معلما أفضل بكثير من السيد اسياي . في حين أن اسياي كان ينزع الى الضجر والسفسطة ، فان السيد جوهرخانة ، كان مباشرا ومتحمسا ، متحمسا جدا لدرجة انه في الحقيقة كان يشجع طموحي لتعلم الكردية . وكملك لمحطة الاذاعة فقد اشرف على دروسي ، وكان يبدي تعليقاته لدرجة انه خلص الى نتيجة أنني ذكية جدا ، وكان يلفظها " زكية " . كان متأكدا من انني سأكون قادرة على تعلم كل شيء يمكن تعلمه من الكرمانجية ، اللهجة الشمالية الكردية في أقل من شهرين ، في أي وقت ، وكان يرمي الى أنني استطع ان استمر لاصل الى شيء اكثر تعقيدا وفائدة . وانا من جهتي شككت بأنني سأتعلم اللغة يوما ما وأنا اعمل في ميدان كهذا .

في احد الايام انشغل السيد اسياي ببعض الاعمال الاخرى  
 فحدد لي السيد جوهر خانة درسا لأخذه مع اخت السيد أسياي  
 وهي الشخصية الثانية في التسلسل الهرمي للبرنامج الانساني  
 الكرمانجي . كانت حاملا وكان حملها يبد وضعا ، وهي امرأة ذات  
 عيين داكتين وقد بدت قدرتها على التحدث بالكردي وكأنها قد  
 ضمرت من قلة الاستعمال بسبب من السأم المفرط ، وهي مثل السيد  
 اسياي نصف كوردية ، وما انها كانت متزوجة من فارسي لذلك لم  
 تكن تستخدم الكوردية وفي المرة التالية التي اتيت فيها الى المحطة  
 نقلوني الى السيد جاهي وقد كان ذا مظهر افضل واكثر كياسة من  
 السيد اسياي . لقد كان السيد جاهي سريع الحركة ، وحسن الفهم  
 ان تعليم الكوردية لم يكن في قمة قائمة الاولويات لديه ولكن بما ان  
 السيد جوهر خانة كان قد كلفه بذلك ، فقد بذل جهدا للاجابة  
 على استلتي . كان السيد جاهي ، الرجل الكودي الاكثر فقرا .  
 ذو ثقافة فرنسية وميلا لها اكثر من أي رجل آخر التقيته في الكلية  
 وبدون فوائد الثقافة والتعليم الفرنسي او " البيجو " كان السيد  
 جاهي يحاول ان يخلف حياته الريفية الماضية وراءه . وكان يحتمل  
 ليخذ عني بقصصه عن الشرب وهو يحوم ثلا حول المدينة وحيد او من  
 المحتمل انه لن يخذ احدا آخر . جلس في مقعده طوال اليوم  
 بقرب الهاتف صارخا " قرباناته " في سماعة التلفون ، وتعني حرقيا  
 اموت من اجلك ، ولكن السيد جاهي يستخدمها على نحو طليق  
 ليظهر لسامعيه كم كان رجلا رائعا ، رطب الصدر .  
 وأخيرا أعاد علي صبري بالفائدة ، فقد التقيت في المحطة بالشخص  
 الوحيد المهتم بالكردي . وعندما وجد السيد جاهي نشاطات  
 اخرى في المحطة ليشغل وقته بها حولت الى السيد خليلي السذي  
 كان يرغب دائما في ان يكون مدرسي . اقترح مباشرة بأن نغادر  
 مكتب مدير المحطة وان نعمل لوحدا في الغرفة المجاورة .

لقد اثبت السيد خليلي انه مدرس مذهب بالمقارنة مع الذين سبقوه . فهو لم يكن يهتم فيما اذا تعلمت شيئا صحيحا فحسب ، بل انه كان يحب لغته . كان قد جمع كل انواع الآثار الادبية السريية التي طبعت بالكرديية . وموخرأ علمت انه كان يفرض الشعر بالكرديية . على الرغم من أن الكردية لم تكن قد ميزت على انها لغة رسمية في ايران او تركيا ، فان عدد الاعمال التي طبعت سريا هناك كانت مثيرة للاعجاب . والكتب الكردية المطبوعة في العراق على نحو قانوني ، كانت تهرب ايضا عبر الحدود ويحرص عليها بغيرة فسي القرى الايرانية . كان السيد خليلي قد نجح في احراز نسخة لسي من مموزين باخبار احد القرويين بأنه قد فقد النسخة الخاصة به . كان راديو ريزاي يذيع على نحو دوري اشعارا غنائية من هذه الملحمة الكردية العظيمة مع موسيقا مرافقة لها ولكن وكما اشار السبد خليلي لم يكن هناك مجال للتفكير في وضع السمات القومية الخارجية بوضوح وبدون تحفظ . أن ملحمة مموزين ، هي قصة عاشقين فُرق بينهما على نحو مأساوي كروميو وجولبيت ، وهي حليقة ، قصة رمزية تعبر عن مصير الاكراد المأساوي ، ووحدهم الممزقة والمستنكرة من قبل الاتراك والفرس وغيرهم ، وكذلك تعبر عن اقتتالهم القبلي الداخلي ايضا . كتب ملحمة مموزين احمد خاني في القرن السابع عشر وقد اعيد طبعتها عدة مرات في كردستان التركية والعراقية والسوفيتية . والكتاب الذين اتوا بعده عالجوا مواضيع تتراوح بين جمال الحب وجمال الجبال الكردية . لكن احدا منهم لم يكف عن ذكر الطموحات القومية الكردية . والكتابة بالكرديية هي نفسها عمل يجسد التحدى . فقاموس موسى عنترالكردي - التركي مرفوض من قبل الحكومة التركية ، مثل كتابة "برينا رش" الجرح الاسود ، وهو مسرحية تعرض مرض وموت العديد من القرويين بسبب آخذهم بذورا قسسد عولجت كيمياوبا سلمتها لهم الحكومة .

حاول السيد خليلي ان يعلمني الكردية الاساسية وقد اثارنسي ذلك في البداية ، ولكنني شعرت بالاهباط تدريجيا ، لاني لم استطع

ان اتقدم على نحو كاف لاجاريه . لقد ارادني ان اكون قادرة على قراءة الشعر وعلى فهم الكنايات الشعرية العميقة ، بينما كنت لا زال اعمل بجد لتعلم تصريف الافعال . لقد درست بعض الكردية في الولايات المتحدة ، ولكن بما انه ليس لكردستان لغتها القياسية الوحيدة ، فهي مقسمة بين اختلافات عديدة في اللهجات ، فكل ما تعلمته من قبل كان عليه ان يحول الى اللفظ المحلي ، وكان لا يزال هناك الكثير من الكلمات التي لم اكن اعرفها . كنت اخشى احياناً من أن الصيغ التي علمني اياها السيد خليلي هي ادبية بحتة وانها معرفة مكتسبة من الكتب اكثر مما ينبغي بالنسبة للغة كالكردية . ان اللغة الكردية وعلى نحو اساسي ، هي لغة شفوية وليست لغة مكتوبة ، يتداولها القرويون ، الذين يعبرون بها عن حياتهم اليومية ويستخدمونها على نحو متسم بالابداع في قول النكت ، وتأدية الاغاني ، وسرد الحكايات الطويلة . ان الكلمات العربية والتركية والفارسية الدخيلة على اللغة الكردية هي جزء اساسي من اللغة ، تماماً كما هي الكلمات اللاتينية والفرنسية بالنسبة للانكليزية لكن السيد خليلي الكردي الوطني كان يحاول دائماً ان ينقي لغته التي يعلمني اياها . فهو يستبدل جذور كلمات كردية اصيلة لا يعرفها احد سواه بالكلمات الفارسية والعربية التي يستخدمها الآخرون . كنت قد بدأت ادرك انني لو اردت لغة كردية حقيقية وواقعية ، فانه علي الذهاب الى قرية ما والتحدث مع اناسها هناك . اقترحت هذا على السيد خليلي ولكنه اثناني عنه قائلاً اني لست مهيئة لذلك بعد .

بعد ذلك بفترة ليست بطويلة ، قرر السيد خليلي فجأة أن يأخذني الى قرية ما . والآخرون من مساعدي معدي البرامج في ريزاي ، جلسوا يسجلون البرامج ويحتسون الشاي . ويذهبون لمنزلهم في فترة ما بعد الظهر ، لأخذ وجبات الغداء المتبوعة بسنات من النوم . كان مطلوباً من السيد خليلي من جهة اخرى ولكونه الرجل الادنى درجة في هيئة المعدين ، ان يقضي كل يوم



في قرية بجمع المزارعين في جلسات منعقدة في الهواء الطلق يتداولون فيها مسائل الزراعة وشؤونها اسبوعيا . بعد أن طلب مني ان اسرع في المجيء ، سألتني مشيرا فيما اذا كان جيردا سيحضر هو ايضا ، وقد اقلقتني نبرة صوته وتساءلت عما يجب - في رأية - ان افعله . فانا والسيد خليلي كنا مسبقا نتعرض لنظرات غريبة في المحطة لأن دروسي كانت تعقد في مكان منعزل، عندما عرفته اكثر ، تأكدت انه لم يقض وقتا لوحدته مع امرأة ابدا سوى زوجاته .

لقد كان جيرد متفرغا ، حيث لم تكن لديه دروس في الكلية في اليوم الذي حدد فيه موعد هذه البعثة ، لذلك احضرتة معي ، بموافقة السيد خليلي المسبقة . كان السيد خليلي وهو مُرتد كالمعتاد بذلته السوداء ، وقميصه الابيض مع ربطة عنق سوداء ينتظرنا برفقة اخي السيد جاهي ، السائق الرسمي ، ولدى ملاحظتي لهيئة السائق العابثة ، سررت لكوني لست وحيدة .

اتخذنا طريقا غربيا خارج المدينة ، طريقا لم نسلكه ابدا ، ابعد من قرية باند ، ويمكن الوصول الي مدينه مها باد التي تقع الى الجنوب منه بوساطة شارع مريض تكثفه الاشجار حيث يتحول الى طريقين فرعيين ، يتجهان من قرية لاخري ، امسبا الطريق في الجهة الغربية ، فهو مختلف تماما . مرنا عبر وادي باند الغصب ، ولكن مشهد الطبيعة كان مجدبا وشبيها بالصحراء ، وذلك لاننا كنا في تشرين الاول ، النهاية الاخيرة لفصل الجفاف .

فندما نظرت الى الخارج الى الهضبة المطوفاة بالجبال شعرت وكأننا نسافر على وجه القمر ، لهذه الدرجة كان هذا المشهد مختلفا وغريبا عن أي منظر رأيتنه من قبل . مرنا برعاة اكراد ، كانوا السى جانب الطريق ، يتحدثون بالتناوب في سيارتنا الجيب وقطعان ماشيتهم . عبرنا عائلات محتشدة ، منتظرة الحافلة الريفيه ، وتقريبا لم نعبّر شيئا آخر سوى صخور ، تاركين غيمة ضخمة من الغبار وراءنا .

وعندما نظرت الى الخلف تساءلت ، كيف يمكن لنا ان نجد طريق العودة عبر هذا السهل المجذب بصخوره المتناثرة .

حالما انحرفنا الى الطريق الثانية ، خلال الجبال التي تفصل سهل ميرغاوار المنحني الاول عن سهل تيرغاوار المنحني الثاني ، لاحظت زيادة طفيفة في حجم الخضرة هناك . كانت قرى تيرغاوار الحجرية قد سكنتها قبائل مسيحية لوقت مضى ، حيث كانت قد تقاسمت الجبال والسهول مع الاكراد لفترة من الزمن . كانت تلك هي القبائل الآشورية . وهوؤلاء الآشوريون الى جانب الارمن ، كانوا قد اعتنقوا الديانة المسيحية قبل بقية معظم العالم المسيحي بفترة طويلة . لقد عاش الآشوريون في وضع متقلقل مع الاكراد ، لسنوات عديدة ، ولكن الاحداث العالمية - كاهتمامات الجيش الروسي الذي احتل ازربيجان تقريبا في فترة الحرب العالمية الاولى والبعثات التبشيرية الغربية - قلبت فضب جيرانهم المسلمين على رؤوسهم . لا يزال قاطنوا بعض القرى الواقعة الى الغرب والجنوب من ريزاي أغلبهم من الآشوريين ، اما سهل تيرغاوار فقد رحل عنه الآشوريون واجبروا على الخروج منه أوذهبوا بطريقة وحشية ، بينما استولى الاكراد على الاشجار والكنائس .

لقد سيطرت قبيلة الهركيين على تيرغاوار ، وهي واحدة من اضعف القبائل في كردستان اليوم وتتألف من حوالي ٣٠,٠٠٠ فرد متوزمين في ايران والعراق . ويقطن جزء من القبيلة هنا في القرى المسيحية القديمة ، بينما يقطن جزء آخر في العراق ، قرب مدينة اربيل " هولير " كما يسميها الاكراد . ولكن وعلى الرغم من انفصالهم الجغرافي ، فقد ظلت المجموعتان متحدتين الى حد بعيد ، وفي كل السنوات التي تواجه فيها الجيش العراقي والایراني ، على طول حدودهما المشتركة ، كان قد سمح للهركيين - نوعا ما - أن يعبروا الحدود ، ليرعوا لظلمتهم في جبال ايران ، كل صيف . بينما كانت قبائل اخرى قد اضطرت الى ان تختار احد البلدين ، او أن تظل

منفصلة الى الابد ، وكان قد سمح للهركيين بالعيش مثل اسلافهم ،  
يعسكرون في قرى مستقرة في الشتاء ، وفي الخيم فوق قمم الجبال  
في الصيف ، غافلين عن الحدود القومية بابتهاج . وقد شهدت تلك السنة  
التي اتيت فيها الى كردستان انتهاء هذا النمط من الحياة ، حتى  
بالنسبة للهركيين المتمتعين بالامتيازات ايضا . لقد كان مقدرا على  
المتركزين على طول الحدود ، ان ينتظروا بدون جدوى الربيع القادم  
ذاك المنتظر كهيئة اولى للقبيلة وقطعانها لتقوم برحلة طويلة ،  
شاقة من العراق .

على الرغم من أن جميع الاكراد ، كانوا قرويين منذ قرون  
تقريبا جعلت بعض القبائل على امتياز العيش مثل الهركيين ، ففي  
الوقت الذي وصلت فيه الى كردستان ، كان معظمهم قد حجزوا في القرى  
مع بعض المحوظين ، دائمي الاستقرار في المدن ، حيث استطاعوا ،  
بفضل تعلمهم ، او حنكتهم ، ان يوفروا لاولادهم مستقبلأ أفضل مما  
قد توفره حياة القرية . غالبا ما يتوقف هؤلاء الاكراد ، واحفادهم  
عن التفكير بانفسهم ، عندما يتعلق الامر باصولهم القبلية ، ولكن  
في القرى الايرانية ، لاتزال هذه القبائل كلية القوة ، حيث تهيمن  
بولائها وتكتلها القبلي اكثر من هيمنة الحكومة الايرانية . يوجد  
في ايران فقط ، ما يقدر بستين قبيلة ، ويتراوح عدد عائلات كل  
قبيلة بين ٥٠٠ الى ٣٠٠٠ عائلة ، وتتفرغ بعض القبائل الاكثـر  
ضخامة الى طوائف او عشائر والعائلة بامتدادها ، هي الوحدة  
الاجتماعية الاصغر في كردستان والساعدة اكثر من الفرد الواحد .  
وبعض من القرويين القليلين جدا يعتبرون غير منتمين الى قبائل ،  
ويدعون بالكرمانج وعندما يحط من قدرهم اكثر يطلق عليهم " دودي  
بودي " وهي مرادفة الى حد ما لما يدعى عندنا بـ " هوي بولـوي"  
" أي " الرعاع " وهوؤلاء " الكرمانج " ملازمون للقرى ولمالكي  
الاراضي كفلاحين او كأقنان . وعلى الرغم من انهم قد يقاتلون من  
أجل قبيلة معينة فهم لا يرتدون اللباس الخاص الذي يميز قبيلة عن  
اخرى مثل العمامم الحمراء او البيضاة التي تميز البرزانيين  
أو الاحزمة الخضراء المميزة " للسباد " المنتمين لآل البيت .

ان " الشيخ " في كردستان ، هو اللقب الذي يتفرد به رئيس القرية أو العشيرة ، أو القبيلة ، على الرغم من أنه يمكن أن يستخدم بمعناه الاسلامي المألوف على نحو أكبر لقائد ديني . وهناك ألقاب اخرى يستخدمها وجهاء الاكراد مثل : " البك " و " الآغا " و أصل كلا الكلمتين تركي ، وكذلك اللقب المنغولي " خان " وقد فقد كل من كلمتي " بك " و " آغا " بعضا من صفاتهما المميزة خارج كردستان ، بما أن كلمة " آغا " في ايران وكلمة " بي " في تركيا هما اللقبان المألوفان للرجال ، مثل كلمة " السيد " . وقد حرم رضا شاه ، والد الشاه الاخير لقب " الخان " لأنه اراد ان يكون الخان الوحيد في البلاد . ويبدو ان الاكراد قد تجاهلوا ذلك المرسوم من بين آخرين عديدين ، وهم لا يدعون بعضا من قوادهم خانا فحسب بل وعلى نحو مغاير للشعوب الاسلامية الاخرى يلحقونه بأسماء نساء ورجال مميزين أيضا . لم ابصر سوى المشاهد الصخرية المنتعشة بجدول صغير هنا ، او بقرية او رقعة ارض مشجرة هناك وذلك لجهلي الشام بماضي ومستقبل تيرغاوار وكذلك لمعرفتي القليلة بالتسلسل الهرمي للقرى والقبائل الكردية . حتى اني لم اقدر بدقة تفوق القرية التي كنا ماضين اليها . لقد كانت قرية مانوا ، مركز القيادة الرئيسي لرشيد بك العظيم ، وهو واحد من القواد الهركيين ، في الوقت الذي لعبت فيه هذه القبيلة دورا غريبا ومتناقضا في تأسيس وحل جمهورية مهاباد . وبالطبع فان السيد خليلي لم يذكر لي شيئا من هذا ابدا . كان قد احبرنا فقط اننا نساغر الى قرية كردية نموذجية حيث سأشاهد للمرة الاولى كيف يعيش سكان القرى " الاكراد الحقيقيون " وكيف سيكون باستطاعتي التحدث مع النساء وفهم شيء ما عن حياتهن . كنت قد اغرقت في القلق لتخليتي كيفية ردود فعل هؤلاء النساء الكرديات اللواتي تصورتهن طوبلا وهن امامي . كما اغرقت في التساؤلات حتى عن كيفية فهمهن لي ، بكرديتي الفضولية المكسرة ، ولم يخطر ببالي التفكير بما كان اخو السيد جاهي والسيد خليلي سيفعلانه ببذلتيهما القاشمتين ، ويربطتني عنقهما السوداوين في قرية " نموذجية ، مغبرة " . حتى السفوف المعدنية

البراقة للمستوصف والمدرسة الواقعين خارج مانوا تماما ، لسم  
بينبآني كم كان مُنمما على هذه القرية على نحو غير مألوف . فكل  
ظني ان اسباب الراحة هذه متوفرة في جميع القرى . اصيب مضيغونا  
بالهلع لخلو فناء الدار الذي استقبلنا ونحن نندفع نحو الطريق  
الداشري الخاص الموادي الى مضافة رشيد بك الواسعة والمعتمه والسسى  
جناح الحريم ، تعلقني شعور متنام بالخوف والقلق حول حشد من  
الاطفال الرشي الملابس حيث كانوا قد تجمعوا ليحدثوا فينا اثناء  
نزولنا من السيارة . لقد بدوا فقراء وغبين جدا . لم اكن  
أعرف انه حتى اطفال القواد القبليين الاكثر ثراء يتجولون في  
شباب رثة كصبية مهملين ، تملو وجوههم المظيرة الملوطة بالشمس طبقة  
داكنه من الاوساخ . ومن السخرية ان اول ما ادهشني كان فقر وقذارة  
مانوا التي تعد واحدة من اغنى القرى في كردستان الشمالية .  
وتحدث الي السيد خليلي بلطف ولكن بصرامة قاشلا :

— عليك ان تذهبي مع النساء .

نظرت حولي وتساءلت اين يمكن ان يكون مكانهن . وعندما رأيت  
فتاتين يافعتين مرتديتين بذلتين من الطراز الكردي ، انيقتين  
وجديتين الى حد ما ، تقتربان مني وهما خارجتان من احدى البنايات  
ذات الطابق الوحيد والمواجهة لي . راح السيد خليلي والسيدجاهي  
يأخذان جيرد بسرعة في اتجاه آخر ، وثركت لوحدي وقلبي يخفق  
بشدة . كررتا عبارة " توخير هاتي به " — قدومك سعيد — عدة  
مرات لكي اعرف انه قد رحب بي في منزلهما . ومن ثم اشارتا الي  
ان اتبعهما الى الداخل ، ومعنا درجات صخرية خشنة الى الطابق الثاني  
واخرجت احدهما مفتاحا هيكليا ضخما وفتحت بابا خشبيا غير  
متقن الصنع .

كانت الحجرة في الداخل مضطمة بالألوان على نحو متباين  
مع القاعة الخالية القذرة . وقد ذكرتني الوسادات ومعلقات الجدار  
واغطية الاسره بالادوات المصنعه يدويا التي رأيتها في مهاباده . ولم  
تترك حتى واجهة واحدة خالية . وكان لكل من ذراع تدوير آلية

الخيطة والمذياع المسجل الموضوعين فوق الرفوف على نحو متقاطع مع الحائط اغطية مدروزه . وكان يقبع في احدى جهات الحجرة سريــــر مزدوج عال مع كومة من اغطية الاسرة المصنعة يدويا ، وفي الجهة الاخرى كانت طاولة زينة منخفضة مغطاة بقوارير عطرية مزخرفة وكانت امرأتان مسنتان بشعرهما الاسود القاتم وبملابسهما الزرقاء مع صدارتهما السوداء جالستين على سجادة بجانب الطاولة . وقد نهضتا عندما دخلت مع الفتاتين وكان قد جرى وراءنا حشد من الاطفال من فناء الدار .

" توخير هاتي به " قالها الجميع ، وبسرعة قدموا لي صحناً من التفاح الصغير وكان يبدو مسوسا . ولشعوري بوجوب تناول بعض منها التقت واحدة ونزعت قشرتها واكلتها بينما كن جميعهــــن يراقبنني . وحالما انتهيت من أكلها احضرت احداهن كومة من اللباس وبدون ان ينبهنني ، تجمعن حولي ، وبدون وساطة اللفة استوعبت الفكرة نوعا ما ، لقد كن يردن ان ارتدي زي امرأة كردية فتساءلت بقلق للحظة فيما اذا كان علي ان اخلع بنطالي المخملي الففاض وكنزتي ، اللذين ارتديتهما خصيصا للقرية . اقلت احداهن الفستان الاول الابيض الحريري المذهب فوق رأسي ، كما لو أنه كان جوابا على تساؤلي ، واتبعته ببقية اجزاء البذلة بسرعة . وفي غضون دقيقتين اثنتين كان جسدي قد لف بكاملة بزي كردي . و بعدئذ رفعت المرأة قلادة ذات سلاسل ذهبية وحلي صغيرة من حــــسول عنق احدى الفتاتين اللتين رحبتا بي ووضعتها حول عنقي . نظرت الى الاسفل ، الى الذهب متسائلة فيما اذا كانت السلسلة ذهبا حقيقيا ، فقد كان هنالك الكثير منها . وبعد ذلك لفن رأسي بكوفية مزينة الحواف وقد علفت بها خصلات من شعري ، واخيــــرا حاولن ان ينزمن نظارتي ليكحلن عيني بتلك المادة السوداء المستخمة على نحو تقليدي في كل انحاء الشرق الاوسط ككلم للعين . عند هذا صددتهن ورفضت ان يجلنني ووضعت نظارتي ثانية ، وقد تنهدن عندما اخبرتهن اني لا استعمل مساحيق التجميل ابدا . واني لامضي بدون

نظارتني ابدا . بعدئذ ادرنني صوب مرآة طاولة الزينة وهن يراقبنني بتلهف ليرين رده فعلي على ذلك .

حدقت في صورتني المنعكسة في المرآة ، شاعرة وكأنني فـي حلم . فمنذ لحظة كنت واقفة في الباحة المغبرة يتفحصني حشد من الاطفال . والآن بدوت كما لو اني قد انضممت الى مهرجان من القرون الوسطى ، بالاكمام الطويلة ذات النهايات الدقيقة ، الملفوفة حول رسغي والاغطية الثقيلة التي لف بها رأسي . ولكن وقبـسـل ان اعلق بسخرية حول مطهري ، اخذتني مضيقاتي الى مكان آخر . فامسكت بالاجزاء السفلية من الفستان باحكام لآتجنب التعثر عند نزولنا فوق الدرجات المخزية . وتحت الشمس المشرقة في الخارج تراجعت الفتاتان الى الورا . وهما تمسكان باوشة رأسيهما وتسحبان جزءا منه لتضعاه فوق فميهما ، بينما بدأت أنا بالمشي باتجاه جبرد ، حيث كان جالسا على طاولة لعب ورق مع الرجال تحت الاشجار في الفناء .

انحنى لي الرجال احتراما عندما تقدمت نحوهم ، ولكنهم لم ينهضوا . ففي القرى لا يقف الرجال للنساء الا اذا كن نساء مهمات جدا والرجال غير مهمين . نظر الي " السيد خليلي مستحسنا لباسي وقد اخبرني جبرد موعرا ان الرجال كانوا يلمحون له ان مفاجأة قد اعدت له .

كان ذلك من ضمن طقوس ادخالنا الى واحدة من قوامـ الضيافة التي يقدمها الاكراد للنساء الغربيات اللواتي يأتين لزيارتهم . حتى النساء الفارسيات من طهران اللواتي كن يقضين عطلتهم في ريزاي كان يكمن لهن من قبل اصدقائي الاكراد فـي البازار ويؤخذن الى المنزل ويلبسن الالبسة الكردية ومن ثم توخذ لهن صور . لم استطع ان احدد بالضبط الطرف الذي كان يتسلس اكثر ، الملبسات ام الملابس . وبما ان المور كانت عنصرا اساسيا في هذا التقليد ، فقد اعطيت آلة التصوير لجبرد ليلتقط بعض

المصور ، ولكنه عندما دنا من المنزل ، حيث كانت تقف الفتيسات ،  
ابتعدن على نحو عفوي عن آلة التصوير واوشحتهن فوق افواههن .  
قفلت عائدة الى الرجال ، وسألني السيد خليلي :

– هل تقضين وقتا ممتعا ؟

نظرت اليه ومن ثم الى جيرد وبعدئذ الى الرجال الآخرين . هل  
كنت اقضي وقتا ممتعا ؟ ببساطة كان من المستحيل تقييم أي  
نوع من الوقت كنت اقضيه . فقد كان كل شيء يحدث على نحو  
سريع جدا ، وكل ما استطيت ان افعله هو اني اتساءل عما سيفعلونه  
لي في الخطوة التالية . ولكني بالطبع اخبرت السيد خليلي انسي  
كنت اقضي وقتا رائعا . فابتسم لي بابتهاج . منذ ذاك نظر الي  
جيرد بغرابة ، وتساءلت عن كيفية قضاء وقته . واكتشفت موعرا  
ان الرجال كانوا يحاولون اقناعه باتخاذ زوجة اخرى له . وقد  
احدث العرض حماسا اكثر عندما اخبرهم عن رغبته الشديدة في تعلمي  
الكردية . فأجابوه برد منطقي الى حد ما وقالوا :

– اذا كنت تريد زوجة نتحدث الكردية ، لم لاتأخذ واحدة  
تعرف اللغة حقيقتية ؟ فبامكانك ان تتخذ احدى فتياتنا كزوجة  
شانيه لك .

بعد ذلك اوضح لهم جيرد انه من المهم ان تعرف زوجته  
الانكليزية . واخيرا قال جيرد : انه يجب أن يتصادق مع زوجته  
قبل ان يتزوجها . وقد اربكهم ذلك ، فالزوجات والازواج الاكتراد  
لايتصادقون ، وخاصة ليس قبل أن يتزوجوا .

في غضون ذلك قررت مفيقاتي اخذي في جولة في القرية ،  
فأمسكت بآلة التصوير بيدي والاجزاء السفلية الطويلة من الفستان  
بالاخرى على الرغم من انهن كني ينصحنني باستمرار بافلات حاشية  
الثوب وترك حواف اللباس لتتجر على الارض . تجاهلت ما اعتقدت انه  
عرض مهذب وبقية ممسكة بالحرير الابيض المذهب ولم اتركه ينسحب



على الارض . لم اتمور ان اترك مثل هذه الملابس الجميلة تغطس  
بالتراب . كان علي أيضا أن امهم جيدا حقيقة ان هؤلاء النساء  
يرتدين مثل هذه الالبسة كل يوم وانه ليس لديهن الوقت للقلق  
من هذا التراب القليل . فلا عجب فالقرية برمتها بدت كأنها مغطاة  
بالطين . ومرة اخرى اشار الفقر والغرابة دهشتي عندما تمشي  
خلف المباني الفرميدية الضخمة . حيث تسكن مضيفاتي . هنا في  
الممرات الملتوية رأيت الاكواخ الطينية المخروطية السطوح ، وافنية  
دور عميقة وتراءت لي دزينات من العيون تحديق في من وجوه  
ملوحة بالشمس .

انتشرت الاكواخ المخروطية الشكل بسقوفها القشية على مقربة  
منا بشكل غير واضح ، وقد رفعت الاجزاء السفلية من اللباس السي  
اعلى قليلا لأعبر جدولا صغيرا في طريقنا وقادتني مرافقتي  
المرتديتان على نحو افضل من كل من كان في الحشد ، قادتانني  
الى امرأة مسنة فقدت اسنانها ، كانت تنسج على نول غير  
متقن في الغناء امام كوخها . توقفت امامها وتفحصت تشكيلة الصوف  
الاسود الخشن وسألت عما يمكن ان يكون .

- انه شادر .

جفلت ونظرت حولي . هل أنا لاشرقية لدرجة ان افشل في ملاحظة  
القرويات وهن يرتدين الاغطية ؟ كانت روعوس معظم النساء الواقفات  
على طول العمر مغطاة بالاولوحه فقط ، وليس بينهن من ترفع الخمار  
بطوله الطبيعي الكامل .

- شادر ؟

كررت ذلك بصيغة سواء . رمقتني المرأة بنظرة ، وبدون شمسك  
متسائلة فيما اذا فهمت لغتها وازافت :

- انه للجبال .

بعدئذ فهمت ماكانت تريد توضيحه . انه الشادر بمعناه القديم  
" خيمة " وليس بالمعنى الشائع في المدينة كعباءة .

ان الشيء الوحيد الاسود في كردستان وبالاضافة الى صادرات  
بعض النساء > هو الخيم التي تنصب فوق قمم الجبال عندما يسمح الجو  
دافئا بشكل كاف في الربيع ، لاخذ الحيوانات الى هناك للرعي .

في طريق عودتنا الى منزل مضيفتي رأيت امرأة حبلت  
تغزل قطننا فوق مغزل مدلى . لم ترغب في التقاط صورتها ولكن  
مضيفتي تغلبت علينا . لقد استفدت من معرفتي القليلة  
جدا للكردية ، ولكوني جاهلة تماما عادات القرية ، لم أشعر بالذنب  
حول الفوز بموافقته المكرهه . ولكن بعد هذا لن اقدر ان اصور  
نساء غريبات في القرى بهذه السهولة .

على مقربة من المنزل ، مررنا برجل اصلع يقطع الخشب  
بفأس . كان سعيدا بالتقاط صورة له اثناء مروري واخذي صورة لهذه  
الشخصيات الغريبة - النساجة العديمة الاسنان ، والمرأة الحبلت التي  
كانت تغزل ، والحطاب الاصلع ، لم استطع التغلب على شعوري بأنني  
كنت في حكاية من حكايات الجن . صور جميلة ونقوش صغيرة لحياة  
غريبة أو مضتها أنا ولكن كيف لي أن اعرف اي شيء عن طريقة  
معيشة هؤلاء الناس ؟ لقد كنت برفقة اميرتي القرية ، وكان  
بيتهما غريبا الى حد بعيد ، ولكنه كان يحتوي على اشياء مألوفة ،  
مثل الاسرة وآلات الخياطة ونوافذ قد وضعت على زوايا مستقيمة .  
ماذا يكمن خلف عتبة الباب الطينية لمنزل تلك المرأة النساجة ؟

بعد جولتنا الى ابعد من اكواخ القرية الطينية ، نظرت الى  
المنزل الذي كانت مضيفتاي تقطنانه بنظرة جديدة ، فالقرميد الاصفر  
المصنع ، واطارات النوافذ المعدنية والطابق الثاني ، كلها كانت  
عادية جدا عندما رأيتها لأول مره . فهناك الآلاف من مثل هذه  
البنائيات في ريزاي ، والعديد منها في حالة أفضل . امافي مانوا

فقد كانت توجد هناك اثنتان فقط وكانت كل قطعة قرمييداً وحدييد  
قد نقلت عبر الممرات الجبلية في طريق ترابية . كان رشيد بك  
قد بنى هذه المنازل واسكنها بذريه زوجاته وزوجسات ابنه  
أمير خان .

دلفنا الى داخل المنزل من باب الخلفي ، مرات بزوييصة  
الحيوانات في الطابق السفلي ، وكان من الصعب علي أن أرى أي شيء  
الى أن رجعنا الى مدخل الدرج حيث توجد فيه نافذة في أعلى الجدار  
خلعت ملابس المستعارة بسرعة داخل الحجر التي كنا فيها من قبل  
واسترحت من قلق توسيخها ثانية . ومن ثم اخذنا اماكننا فسي  
الجلوس متقابلات واخيرا حفظت اسماوهن عن ظهر قلب وبشكل صحيح .  
كان اسم الفتاة السمراء الممتلئة الجسم شيرين أو " حلوة " بينما  
كانت بروانه " فراشة " مثل اسمها تماما ، فقد كانت  
شعراء وبالغة الرقة . بادرت شيرين اصغر الاثنتين بالسؤال قائله :

- هل عندك اولاد ؟

- لا .

- ولم لا ؟

- آه ، لم يمض على زواجي وقت طويل .

- اذا سيكون لديك طفل في وقت قريب ؟

سألت وهي تنظر الى بطنني .

- لا ، لا أظن ذلك .

- وكيف تعرفين ؟

جلست متعجبة من كيفية سير المحادثة وبهذه السرعة ، كم  
كان عمر هاتين الفتاتين ؟ الى أي درجة من التفاصيل تتوقعان  
ان اعطيتهما عن شكل منع الحمل الذي اتبعه ؟ صورت بدقة الحجاب  
الحاجز وهي حيلة غير معروفة في كردستان الايرانية وحاولت  
ان استجمع الكلمات لاصفها . واخيرا قالت بروانه وهي تحثني  
على الكلام :

- هل تأخذين حبوبا ؟

فأجبتها بالفارسية :

- تقريبا .

وتقريبا تعني حرفيا " على نحو تقريبي " وهي كلمة عربية تفيد في اعطاء اجوبة غامضة في كل ارجاء الشـــــرق الاوسط .

والآن جاء دوري لتوجيه الاسئلة . ولكوني متحفظة فسي السوال عن الاشياء الخصوصية جدا فقد اقتصرت مواضيعي في الحجرة على الاسماء الكردية فقط . ولعبنا هذه اللعبة لفترة قصيرة بنجاحات متفاوتة . لقد كنت افهم القليل من الكردية ، على الرغم من تأكيدهما بأدب ولباقة اني اتكلم لغتهما بطلاقة ، وكانتا تواصلن التحول الى الفارسية . وبما انهما تابعتا الدراسة حتى الصف الخامس فقد كانتا تعرفان القليل جدا عن اللغة القياسية وقد افترضنا انه بما انني غربية متعلمة ، فأنني سأعرف بالطبـــــع اللغة الفارسية أفضل بكثير من لغتهما غير المدونة . وقد بدا انني لم استطع ان أفهمهما ان اللغة التي ادرسها في الولايات المتحدة هي تلك اللغة الكردية عديمة القواعد وغير المعتمدة وانهما ليست الفارسية .

مضت مضيفتي بدون أي توضيح للتحدث مع الخادمة في الرواق ، وبعد ذلك دخلت الاخيرة الى الحجرة وهي تحمل طستا معدنيا وابريقتا بلاستيكيا ذا مصب فيق . واخرجت احدها من قطعة مستطيلة من الصابون من الخزانة وناولتني اياها وعلى نحو غير بارع مددت يدي الى الامام قليلا ، بينما صبت عليهما الخادمة الماء . بعدئذ ارغيت يدي بالصابون وغسلتهما برفق مع مزيد من الماء المصبوب . ومن ثم جففتهما بالمنشفة .

بينما كانت الفتاتان تغسلان ايديهما ، اوضحت لي بروانه

: نائلة :



الا صفر سنا كن يقمن على خدمة الاخوات الاكبر منهن . وحتى  
الشيخ الرجل الذى يمثل اعلى درجة في القرية ، يمكن ان يقوم على  
خدمة اى شخص ، اذا كان ذلك مناسباً . والرجال الاكسراد  
الارستقراطيين المدللون منذ الصفر من قبل النساء والخدم حولهم،  
كانوا يتحولون الى مضيفين محترمين جدا ومراعين لرغبات ضيوفهم اذا  
لم يكن هناك احد غيرهم ممن يقوم على خدمة الضيف ، ولكن الخدمة  
في كردستان هي علي نحو رئيسي " ضمن العائلة فقط " . لأنني عندما  
حاولت ان اجد امرأة كردية مفضلة اياها على امرأة تركية لتعمل في  
بيتي ، أخبرت ان الكرديات لا يعملن لدى الغرباء .

بعسا انني لم اقم بزيارة الى قرية من قبل لم استطع ان اقدر كم  
كانت الوجبة ممتازة وسخية عندما اعد لنا الغذاء . وحتى لم يخطر  
ببالي ان اتساءل كيف تتناول مضيفاتي اللحم غالبا ، وما يتعلق بها  
من القيام بعمل الرعاة وعمليات ذبح الماشية ومشكلة التخزين في  
مكان ليس فيه ثلاجات وكل ذلك دون ان نذكر مسألة التقطيع  
والتنظيف . لم يكن طعامنا المطهو يحتوي على لحم الضأن فقط بل  
أيضا على خضروات منتجة منزليا . وكان هناك أيضا رقائق بطاطس  
مقلية على نار غير مكثفة ولا غازية . واخيرا كان الخبز ، حيث كن يبذلن  
جهدا في خبزه كل صباح ، وكان مصنوعا من الدقيق المطحون في  
الطاحونه ، التي سمعتها تهتم عندما تجولت خارج القرية وبالطبع  
لم يكن لدى العديد من القرى طواحينها الخاصة بها .

بعد اخذ وجبة الطعام حاولت شيرين وبروانه ان توحيا الي أنني  
تعبة ، وانه علي ان اضجع قليلا وآخذ قسطا من النوم . ولكنني  
شعرت اني متيقظه تماما . وبالإضافة الى ذلك لم ادر كيف سأمدد  
قدمي بلباقة امامهما ، بعد ان كنت قد قرأت في كتاباته من المعيب  
جدا في الشرق الاوسط ان توجه قدميك صوب احدا . وبينما  
جلسنا جميعا القرفصاء على الارض . احدنا مقابل الاخر ، فهمت  
انهما تتسائلان كيف ستقدمان

على تسليتي . لقد اصبح الحاجز اللغوي مضجرا اكثر فاكثر .  
واخيرا لمعت عندها فكرة تعليمي الرقص . وقفزت بروانسه  
وانزلت المسجلة من فوق الرف ، ازاحت غطاءها ووضعت فيها شريط  
تسجيل . وبينما بدأت المسجلة المحدثه صريرا بالعزف ، شبكت  
الفتاتان ايديهما وببطء بدأتا بالدوران في الحجرة في أداء  
رائع من الرقص التقليدي الشرق اوسطي ، والذي يشكل صفا طوليا .  
لقد كانتا تتوازيان اولا على قدم واحدة وبعدئذ ترتكزان على  
الاخري ، ومن ثم تجران القدمين معا على الارض جانبا .  
ونزولا عند الحاحهما نهضت وحاولت ان اتبعهما . وبعد بضـع  
دقائق من الرقص غير المتقن جلسنا جميعا ثانية . وتساءلت  
فيما اذا كان ذلك كل مافي الرقص الكردي . بعدئذ بحثنا  
عن شيء آخر ، فأخرجتا دفتر صورالعاشلة ونظرت في الواحدة تلو  
الاخري من صور الاكراد العنيديين العبوسيين . قلبت الاوراق بادب  
محاولة ان اكون مفهوما ماعن جميع هؤلاء الغرباء ، ولكنني  
كنت افشل . بعد ذلك سألتني شيرين :

٨  
- هل ستأتين الى حفلة زفاف بروانه ؟

نظرت اليها بفضول محاولة ألا ازيد من آمالي ، فقد كنت  
قد سمعت عن الاعراس الكردية الخرافية والمبالغ فيها وكنت  
اتحرق شوقا لأن ادعى الى حفلة منها . ولكنني لاحظت أن بروانسه  
قد احمرت خجلا وتجهمت ملامحها .

- أنا لست مقدمة على الزواج .

قالت الفتاة الشقراء وهي تحديق بغضب بقريبتها .

- بلى ، ستتزوج .

أكدت لي شيرين .

نقلت نظري من واحدة لأخرى ، وأنا لا زال آمل نوعا  
ما في ان هذه الدعوة حقيقية لعرس كردي حقيقي ، ولكنني في

نفس الوقت شعرت بأنه من المحتمل الا يكون هناك عرس اذا رفضت العروس المزعومة ذلك . لربما كان ذلك طقسا آخر من الطقوس والعادات مثل تزييني . كأن يدعون ضيوفا اجانب على سبيل الدعابة الى اعراس لم تدرج في موعد ما للقيام بها .

- كم عمرك ؟

سألت الفتاة معتقدة ان ذلك يمكن ان يزودني بمفتاح اللغز فينا اذا كانت بروانه مقدمة على الزواج فعلا أم لا .

- أربعة عشر عاما .

كشرت بروانه ، بينما حثني شيرين قائلة :

- اذا ، ستأتين ؟

فقلت متشككة :

- لا اعرف .

في تلك اللحظة ظهرت الخادمة عند مدخل الباب ، فنهضت كلتا هما لدى سماعهما الاخبار بأن السيد خليلي قد دعاني . فبعد كل هذا العناء معي ستقدران على اخذ قبيلولتهما لفترة بعد الغداء . وبعد ان شكرتهما ووافحتهما ، كتبت لهما عنواني في ريزاي على نحو سريع وحثثتهما على زيارتي عندما تأتين الى المدينة . وكانتا قد اخبرتاني في سياق الحديث انهما غالبا ماتأتين الى ريزاي . وقد تخيلت ببساطة انهما كانتا حرتين في مفادرة مكان اقامتهما اينما كان ، وبالتجول أو اخذ سيارة اجرة الى منزلي .

قادتني الخادمة لدى نزولي عبر الدرج الصخري ومن ثم اشارت الي ان اذهب الى الرجال . ومرة اخرى تفحصتني العديد من العيون الرجالية الجسورة . شعرت بالعدوانية والاحتقار في



تحديثهم ، على الرغم من اني لم اكن اعرف بعد انهم قد  
عرضوا زوجة اخرى على جيرد . وسألني السيد خليلي مرة ثانية  
فيما اذا قضيت وقتنا طيبا . وفتت متوقعة لكل واحد منهم  
ان ينهض لكي يغادر ، لكن احدا لم يتحرك : فسألت جيرد  
بالانكليزية :

- ألن يغادر ؟

- لا أظن . فالسيد خليلي اراد فقط ان يرى كيف كان  
الحال معك .

حدقت الى الخلف الى مدخل دار الحريم ، الخالي من  
الاطفال والفتيات في شمس الخريف الحارة . والآن كان علي أن  
اعود ، لاني لم استطع الاستمرار في الوقوف ، وهولاء الرجال  
يحدثون بي . ويبطء مضيت بعيدا صاعدة الدرج لوحدي ، الى أن  
فتحت شيرين الباب فجأة ناظرة الي بفرع ، فالضيوف في القريسة  
من المفترض أن لا يتركوا لوحدهم أبدا .

ويتودد استعدت شيرين وبروانه لتكونا مضيفتي حتى  
ساعة اخرى أيضا . احتسينا كوءوس الشاي الواحدة تلو الاخرى  
وحاولنا ان نبقى الحديث متواصلا ، لكن كل واحدة منا شعرت  
بالراحة ، عندما حضرا خيرا طفل واخبرنا انه قد حان موعد  
رحيلي . ودعنا بعضنا ثانية ولكن في هذه المرة ، رافقتني  
الفتاتان طول الطريق نزولا على الدرجات وحتى الخارج لتتأكدنا  
من مغادرتي فعليا . لدى عودتي الى سيارة الجيب التي كانت  
تلفها غيمة من الغبار تحت أشعة الشمس المحرقة لفترة بعد  
الظهر تماما ، علمت ان مسجلة السيد خليلي السويسرية المنوع  
الفاخرة لم تكن تعمل جيدا لتسجيل أي شيء . فبالنسبة لسه  
كان اليوم مجرد لهو وتسلية . سألت جيرد .

- لماذا بقينا طويلا هكذا ؟

فأجابني :

- لقد بقينا لأجلك .

قال السيد خليبي مبتسما :

- تعرفين الآن شيئا عن حياة القرية .

أومات برأسي بلباقة موافقة على ذلك .

كانت مشاهد اليوم قد تجمدت في ذاكرتي مثل صور سينمائية غير مترابطة في فيلم سينمائي غريب . الغبار ، الالبسة البراقة ، المغازل المتدللية ، الاكواخ الطينية ، الوجوه الملوحة بالشمس ، اللبن اللاذع المذاق ، والغبار والغبار والمزيد من الغبار . كنت قد جلست حتى آلمني ردفاي ، محاولة التحدث مع الفتاتين . ماذا كانتا تفعلان في غيابي ؟ ليست لىدي ادنى فكرة عن ذلك . لم يخطر ببالي ان اتساءل ، لماذا كانوا يجعلونني اتسلى مع فتاتين في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما . وقد افترضت انه لابد ان والدتيهما كانتا تقومان بأشياء مفيدة اكثر من تسلية ضيوف اجانب . ولكن اين كانتا ؟ كانت نظرياتي حول مايفعله الناس - وخاصة النساء - في اوقاتهم لاتزال وعلى نحو ميئوس منه مرتبطة بالولايات المتحدة وببيضة لاتحمل اي صلة بهذه القرية . سألت السيد خليبي في المرة التالية التي رأيتة فيها :

- هل فعلا بروانه مقدمه على الزواج ؟

نظر الي السيد جاھي الذي لم يكن يتحدث في الهاتف هذه المرة . وضحك بصوت مرتفع للنظرة المندهشة على وجهي وقال :

- لقد تزوجت ، في الثلاثاء الماضي . بروانه رمت

نفسها في النار .

تصورت العادة الهندية لحرق الزوجة عند المحرقة الجنائزية لزوجها واتضح اني لم اكن بعيدة جدا عن الحقيقة . ووضح السيد خليبي :

- نقول : انها القت بنفسها في النار لأنها تزوجت  
من رجل عجوز . و اضاف السيد جاهي مع ضحكة خافته :  
- رجل عجوز وله زوجتان .

واصلت الوقوف هناك ، مدركة لحقيقة انني كنت ابدو متجهمة  
جدا وان الرجلين قد كونا مفهوما عني ، على انني نمودج  
المرأة الغربية الشائرة . والآن عرفت لماذا احمروجه بروانه  
لهذه الدرجة وقلت :

- لقد اخبرتني شيرين ان بروانه مقبلة على  
الزواج ولكن بروانه نفت ذلك . فقال السيد خليلي:

- نعم ، هذه هي العادة . فعلى عرائسنا ان يكن  
خجولات .

كان والدها هو الذي نظم العرس ، وكان ذلك هو السبب في  
عدم وجود احد في القرية في اليوم الذي ذهبت اليها ، لقد  
كانت جميع النساء قد اتين الى ريزاي للتحضير للحفلة .

حدثت فيهم ، متعجبة كيف اني كنت غافلة لهذه الدرجة .  
لماذا اختار السيد خليلي الذهاب الى مانوا ؟ من كان والسيد  
شيرين وبروانه ؟ ولماذا اختار ان يزوج ابنته لرجل عجوز  
اطرش وله زوجتان ؟

كان ذلك غريبا جدا ، وقاسيا جدا . لم اتصور  
کردستان مهاباد على هذه الشاكلة ابدا . لقد ظننت أن  
الاکراد مختلفون ، فساوهم لايفعن الاغطية ، ويعملن جنبها  
الى جنب مع رجالهن . اين هي المفاهيم الديمقراطية  
لجمهورية مهاباد ؟ .

عدت الى روتين محطة الاداعة لأدرس مع السيد خليلي حسب  
البرنامج الذي كنا قد اتفقنا عليه . كان احيانا يذهب  
طوال اليوم في رحلة يقوم فيها بتحقيقات ميدانية ، وكنت اما

ان اتساءل من سبب عدم اخباره لي اوكنت انزع الى الانزعاج  
اكثر بسبب عدم دعوتي للذهاب معه أنا ايضا . كان يعطيني  
المواعيد السخامضة ولكنني كنت متأكدة من انه لن يأخذني  
ابدا ثانية لأجلس مع النساء . هل حصل ان اربكته او ازعجت  
مضيفاتي في مانوا ؟ فكرت مليا في احداث ذلك اليــــــــــــــــوم  
وراجعتها في ذهني متسائلة عن انطباعات شيرين وبروانه عني  
ورأيهما في .

كانت تصل اكوام من الرسائل الى محطة الاذاعة كل اسبوع.  
رأيته متراكمة فوق مقعد السيد اسياي . وسألت عما تكون  
تلك . انها اسئلة وتعليقات من المستمعين في القرية . وكلما  
كانت تتطور كرديتي اكثر ، كنت اصبح اكثر قدرة على متابعة  
برامج الاذاعة وقد تحققت ان جزءا مهما من البرامج كان  
ترجمة للاخبار تحضر وتختصر الى العناصر الاساسية خصيصا  
للكراد : " ان الشاه هو حاكم عظيم ومجيد " " ان الجيش  
الابراني قادر على غزو كل الاعداء " " ان البترول سيغني  
افقر قروي في كردستان " " ابق جهازك مو لفا على الاذاعة  
الكردية واستمع للموسيقا الكردية " وكان العديد من القرويين  
يفسطون اجهزتهم على الاذاعة ويحتشدون حول اجهزة الاستقبال  
العاملة بالبطارية التي كانت تعتبر وسيلة اتصالهم الوحيدة  
بالعالم الخارجي . تسألت : كم من الاخبار يصدقون ؟ وماذا  
فعل السيد اسياي بهذه الرسائل ، ماذا خرج السيد خليلي  
منها متحققا : رية .

كلما كنت افضي وقتا اطول مع السيد خليلي ، كنت  
ادرك أن غموضا ما يحيط به . كان رجلا يبدو عليه الاسى  
على نحو لافت للنظر فقد تراءى على التوالي حزينا ومعتدل  
الصحة اكثر من ذي قبل وخلال السنة التي قضيتها في ايسران .  
وقد اخبر جيرد مرة انه لم ينم طوال الليل وانه قد فقد  
الكثير من وزنه لانه فقد شهيته للطعام ، وبدت البسته واسعة

عليه وفي بعض الايام بداجلده شاحبا كشحوب الموتى . كان في بعض الاحيان يقرأ الشعر ويحكي القصص ويسجلها في مسجلتي ولكي اجعله يتحدث بدون رسميات ، سألته ذات مرة ان يسرد لي حدثا تعرض فيه للموت . وعندما سمع هذا الطلب شحب لونه اكثر مما كان مألوفنا وقال : انه لو اذعن لطلبي ، فانه سيفطر الى ان يحيي ثانية تجربة رهيبه لن تدعه ينام لأسابيع .

كان السيد خليلي جادا في مجال عمله . لو انه فقط قد ر على قبول اعادة معالجة الدعاية الحكومية وتحويلها الى الكردية . ولو انه فقط استطاع اعتبار رحلاته الى الارييف كنزهات حيث يمكن فيها ان يبسط اهميته على القرويين ليحوز على عطفهم وعربون محبتهم .

علمت اخيرا من كثرة اصغائي للبرامج الليلية ان السيد خليلي كان من المفترض انه ينشر تعليمات حول الزراعات بواسطة جلسات المناقشة والمداولة التي كان يسجلها على اشربة تسهيل في مساجد ومدارس القرى . لكن هذه الحملات كانت مثل ذر البذور في تربة الجبال الصخرية والجافة والقاحلة . لم يفكر احد من المسؤولين الحكوميين تفكيرا جادا فعليا ، اوفسي توظيف النقود في مسألة كيفية التأثير في هؤلاء الفقراء ليغيروا من اساليبهم الزراعية وينتجوا اكثر . ببساطة كان السيد خليلي الحلقة الاخيرة في سلسلة تنتهي الى لامكان - اضحوكة هابطة لسياسات الشاه الزراعية الغامضة . وقد حكى لي انه عندما قبل هذا العمل في البداية ، كانت لديه آمال كبيرة لعمل شيء ما لأبناء بلده . ومجرد التفكير في مفاهيمه السابقة كان يجعله يضحك بمرارة . لقد اشبع غروري ذلك المدى السذي اختاره للبوخ من مشاعره في فترة يكون فيها المرء وبمثل هذه المشاعر قد وقع في موقف خطر جدا . ولكن ربما أن السيد خليلي قد واجه الخطر مسبقا . وربما انه كان قد اعتقل وعذب من قبل . ان تجربة كهذه كانت من الممكن أن

توضح قلقه المرعب . ولكنني لم أسأله ابدا ، فقد كان حديثنا مقتصرًا على ماهو جار وعلى ماهو محتمل حدوثه في الحسب سرب الكردية الحالية لسنة ١٩٧٤ ، التي تثير التفاؤل .

كلما تحدثت مع الناس في الكلية ، كنت ادرك اكشسر ان كل شخص في ايران كان مفعما بالخوف . وكان من النادر ان تجد من يرغب في تداول السياسة . منذ ان فكرت - ولاول مرة - في الذهاب الى محطة الاذاعة ادركت اني سأعرض نفسي على نحو صارخ للبوليس السري . كسان هناك رجل شرطة . يحرس باب المحطة وكان واضحا من الاصغاء الى الاخبار المساعية انه لم يكن هناك تفريق بين مؤسسة الصحافة والاعلام وبين الحكومة ؛ لقد عرضت نفسي لخطر السوءال عن نوع الرخصة والمصادقة التي قد حشرت عليها لدراسة هذه اللغة شبه المحظورة او الاسوأ من ذلك لخطر اعتباري جاسوسه او عميلة قد جاءت لتثير المشاعر القومية بين الاكراد في ايران وكامرأة تعلم الانكليزية في الكلية فقد بدوت غير موعذية بما فيه الكفاية ، ولكن لم يكن هناك ما يدل على ذلك . افترض اني قد خلقت لنفسي مدوا . افترض أن السيد جوهر خان ، التركي ، تضايق جديدا مني كأجنبية ارادت تعلم الكردية بدلا من التركية افترض وافترض . لم يكن هناك شيئا محسوسا لاصاب بالقلق بسببه ولكنه سيكون بعد حين .

## الفصل الخامس

لقد احتجت الى وقت طويل كي ادرك مدى وضوحى كأجنبية في ريزاي . كنت قد اعتدت على العيش على نحو غير منظم في مدن كبيرة مثل نيويورك . ولكن حتى اقامتي المؤقتة لم تهينى للتفحص الذي ساقاسيه كأجنبية في ايران . ان عدد سكان ريزاي الذي يبلغ حوالي ١٥٠,٠٠٠ نسمة قد ازداد خلال فترة اقامتي بسبب تدفق الاكراد اللاجئين من العراق . وسط هذه الكثافة من السكان الاصليين كان هناك عدد ضئيل من الاجانب - لربما خمسون من الالمان والامريكان والفرنسيين والبولنديين وكذلك بعض الاتراك والمصريين ، الاجانب الاقل لغتنا للانظار، بالإضافة الى عدد من الاجنبيات كن زوجات للايرانيين الذين كانوا قد درسوا في اوربا وامريكا ، وقد لاحظت مباشرة ان جميعهن تقريبا كن يلتزمن البقاء في منازلهن بالقدر الذي يستطعن ذلك ، معتمداً على الخدم او الأزواج لتسويق حاجاتهن .

ان امكانية البقاء في المنزل لم تخطر ببالي ، على الاقل ليس خلال الشهور الاولى القليلة في ريزاي . لم تكن لدينا سيارة ، لذلك كنت اذهب كل يوم الى الشارع الرئيسي وانا مستوقفة سيارات برنقالية ، واذهب الى سوق الفاكهة ، والبازار ومحطة الاذاعة والكلية . وحالما كنت اسير من الرقاق الخالي نسبياً والذي يقع فيه منزلنا الى الشارع الرئيسي ، كانت النداءات تبدأ " مرحبا هيسوز، كيف حالوك " حيث يرجع صداها خلفي حتى بعد ابتعادي لمسافة ليست بقليلة ومضيق في الشارع . في البدايات كنت انظر الى الناس ، وكان معظم الذين يصرخون بي من

الرجال والاطفال . كانت الذئبي يقطبتين لترحيبات محتمله من اصدقاء حقيقيين وحتى النبرات الاقل قريبا من الانكليزية وكذلك النظرات الغرامية كان يمكن أن تلفت انتباهي . وبأناة تعلمت المشي بثبات وبدون أن ابتسم أبدا حيث كنت اتغاضى عن سماع أي شيء ، لقد احتلت بأحفاء نفسي داخل فطساء نفساني كثيف جدا لدرجة انه اذا سلم علي صديق ما فسنبي الشارع ، وكانت الفرصة متاحة كنت اتجاهله ، واتحقق مسن انه كان شخصا ما ، اعرفه ، فقط عندما تفوتني الفرصة . وقد حزم مهندس بولندي كان يعمل في احد المكاتب الحكومية فني المدينة اني شخصية غير ودودة ابدا ، لانه كان قد القى علي السلام ثلاث مرات في الشارع وانني كنت قد تجاهلته في المناسبات الثلاث كلها . لم يكن تجاهل اتصالات غير مريحة متسمة بالطابع الشخصي مع الايرانيين سهلا كتجاهل مضايقات الشارع . فلم نكن من قبل - ابدا - قد خضنا تجربة نُسأل فيها بصراحة من قبل اجانب فعليين :

— كم من المال تكسبون ؟ لماذا ليس لديكم اطفال ؟  
فالكثير من الايرانيين الذين تعرفنا عليهم ، كانوا يسألوننا هذه الاسئلة في احاديثنا الاولى معهم . لقد كانوا يطرحون الاسئلة ببساطة لم نكن نعرف فيها كيف سنفهم الناس ان ذلك ليس من شأنهم دون أن تبدو فظين على نحو لايمدق . وبدون أي معرفة تهدينا ، افترضنا انه لابد ان الايرانيين يسألون بعضهم البعض نفس الاسئلة وانهم يجيبون على بعض منها . ان الفارسية هي لغة متطورة جيدا لمعالجة الفروق الضخيلة التي تكاد لاتدرك لكل التفاعلات الاجتماعية . ولسوء الحظ ، أننا لم نكن نعرفها المعرفة اللازمة لاستخدامها لصالحنا ، لذلك فقد كنا نترك معقودي الألسن دائما ، او كنا نغضي بمعلومات اكثر مما ينبغي بحيث لاتضمن لنا الراحة ، او كنا نهيين



سامعينا على نحو سخيـف بجهودنا غير الفعالة لنتهرب من اسئلتهم .

ذكرت هذه المشكلة مرة لزوجـة المدرس الذي كان قد ساعدنا في ايجاد شقتنا . وقد ادركت مباشرة ماكنت اتحدث عنـه وقالت :

– نعم الناس هنا " فزوليون " فضوليون جدا .

ان الاتراك بغيضون بأسلوبهم الذي يتحدثون به ويتدخلون في شؤن الآخرين فالطريقة التي يسألونك بها عن أي شيء لا تنم عن اخلاق حميدة على الاطلاق . لقد جاءت من مشهد ، وهي مدينة تقع بعيدا في الشمال الشرقي من ايران ، وككل الناس الذين تحدثت معهم ممن لم يكونوا من السكان الاصليين بسـل مضطربين للاقامة فيها ، كانت تكره هذا المكان . فسألتهـا محاولة ان اتعلم الكلمة الجديدة .

– تسمين الناس فزولييين عندما يسألون مثل هـذه الاسئلة ، فأجابتنني :

– نعم .

– هل هي كلمة مهذبة ، اعني ، هل يمكنك ان تسمي الناس بتلك الكلمة بدون ان يضايقهم ؟

كنت قد بدأت احذر من قوة معاني الصفات في ايران ، فالاجابة يمكن أن تكون محيرة بالنسبة لامريكية قد اعتادت على قول وتلقي الاهدانات العرضية . وقالت :

– اذا كان الناس فزولييين ، اذا سامكانك ان تسميهم بذلك . كتنت الكلمة وحفظتها لاسـخدام مستقبلي وكررت تلك الـلغة المحادثة كلها لحـرد .

" فزول " كرر حيرد مع نفسه ، متعلما تلك الكلمة التي  
تمصف بعضا من سلوك الايرانيين الاقل استحسانا لدينا .

كنا احيانا نتحد نفسينا سرفقة ايرانيين كانوا يريدون  
الحصول على معلومات منا ، وكانوا يعرفون كيف يحصلون عليها  
بأساليب اكثر دقة واحكاما . لم نكن قد انجمنا مع  
السمات الاجتماعية المقبولة والضرورية من اجل البقاء في  
دولة البوليس . ويدرك بعض الايرانيين جيدا مدى بساطة وجهل  
الاجانب - خاصة الامريكان - في مجتمعهم المعقد ، والكثيرون  
منهم قادرون على استخدامهم هذا الادراك والمعرفة لصالحهم  
الخاص .

في احد الايام كنا جالسين حول طاولة ، في محل  
حلويات محلي عندما انضم اليها كردي . قائلان : انه كان  
صديق حسن ، صديقنا من مهباد . بطريقة او بأخرى اخبرنا  
هذا الغريب بذلك بأسلوب لم يخطر فيه ببالنا ان نتساءل  
مباشرة كيف عرف اننا نعرف حسن . وقادنا صديق الطاولة  
الجديد الى محادثة استغرقت حوالي عشرين دقيقة ، حيث توجهت  
بدعوة لمرافقته الى منزله . في تلك الايام التي كنا نتلقى  
فيها القليل من الدعوات وكنا نعرف القليل جدا عن فـسـن  
المجاملة الايرانية كان حافزنا الاول والغامر هو القبول دائما .

وجدنا نفسينا واقعين في مطبخ منزله الصغير حيث كانت  
زوجته تعد الشاي واذا به يسألنا مباشرة كل انواع الاسئلة  
حول حسن . كان كما لو انه قد خدرنا حتى هذه اللحظة -  
حيث هدأنا وتدرج بنا لمطاولته على نحو غير مشكوك فيه  
وذلك بدعوته الكريمة ومناوراته الكلامية البارة . وبعد  
ان استدركننا نفسينا نجحنا في التخلص من هذه المحنة بعد  
شرب كأس الشاي المقدم لنا . بعد ذلك اندهشنا لاستفراقنا

هذا الوقت الطويل لكي ندرك ان هذا الرجل هو بدون شك عميل للبوليس السري ، ربما لانه كان كرديا واننا لم نتوقع أن نجد كرديا في السافاك . ولم نكن نعلم ان فرع ريزاي كان يترأسه كردي من كرمشاه كان يُظن انه على علاقات طيبة مع ارستقراطي مانوا .

جيراننا الجعفريون هم الوحيدون الذين لم يزعجوننا بأسئلتهم ولكنهم كانوا يبدون فضولهم حول مقدار المال الذي نكسبه ، ولكن كان من الواضح انهم يكسبون اكثر مما نكسب بكثير ، بحيث ان هذه المسألة لم تكن محرجة عندهم . مهما يكن ، فلوانهم طرحوا علينا اسئلة ، قمنا الطبيعي اننا كنا نشعر بالراحة تماما عندما نسألهم بالمثل . فقد بدت العلاقة على قدم المساواة . مرت فترة قصيرة قبل أن الالحظ انهم ينتبهون الى كل شيء نقوم به . فقد لاحظوا ونقدوا تكرار مجيء وذهاب الناس الذين كانوا يقومون بزيارتنا . ونقدوا حتى النبرة الصوتية المشددة بجرسها المختلف التي كنت اكتبها في لغتي الفارسية . وفي أحد الايام انفجرت شهرزاد بالفحك عندما لفظت كلمة فارسية عامية . فقالت على نحو متسم بالاثهام :

– تخلفين انطباعا لدى المرء بأنك كردية .

لقد كان ذلك صحيحا ، فالكردية والفارسية لغتان قريبتان من بعضهما البعض لدرجة أنه كان من الصعب جدا علي أن افصل بينهما ، وخاصة عندما كنت احاول تعلم كليهما في نفس الوقت . وضحت ذلك شهرزاد ولكشها لم تبد أي تأثر لذلك . كان المغربي من ذلك ان النبرة الامريكية مفضلة على النبرة الكردية عند التحدث بالفارسية . وقد جعلني ذلك اشعر بضرورة الانتباه اكثر اثناء التحدث اليها ، ولكنني مازلت على عدم شك في الشعور الودي الذي يكنه الجعفريون نحونا . لم اقدر تقديرا

صحيحا ، وبدقة كم كانوا يوجهون نشاطاتي من كثب ، لأنني لم استطع ان اتخيل انهم مهتمون بي بهذا القدر . لقد كان مجرد وهم من اوهامي انني كنت امضي في ريزاي كشخصية منعزلة في عمل خاص ، غير ملحوظه ولايسخر منها السكان المحليون .

لقد كنت في طريقي لأن اصبح مشهدا غير جدير بالملاحظة في محطة الاذاعة ، حيث ان الشرطي الذي يحرس عند الباب كان يكاد لا يرفع رأسه لدى دخولي . وبما اني الآن لست تحست المراقبة المشددة ، فقد وفرلي ذلك الفرصة للانتباه اكثر للزوار الآخرين . لم تكن الرسائل هي وحدها التي تصل المحطة من القرى الكردية ، بل كان يحضر اليها اناس ومعظمهم من الرجال أيضا . كانوا يتسكعون حول الغرفة التي يجلس فيها أعضاء هيئة معدي البرامج الكرمانجية على مقاعدهم المعدنية ، واعتمادا على اهميتهم الواضحة من لباسهم ، اما انهم كانوا يتجاهلون دوما اويقدم لهم الشاي مراعاة لهم . وبدا ان بعض الرجال المسنين ، بملابسهم الرثة كانوا ينتظرون لساعات واقفين امام السيد اسياجي كي يرفع بصره عن المكرفون او الاوراق ليسمع النماسا ما . وآخرون ذوو البسة حسنة ، قواد قبليون متوسطوا الأعمار ، كانوا يحتكرون محادثة هيئة المعدين لساعات فسي وقت واحد ، ولكن لغتي الكردية لم تكن جيدة بعد بما فيه الكفاية كي اتابع كلمة كلمة عما تدور حوله هذه الاحاديث . وقد تصورت من وجهة نظر ريفية ان لابد ان السيد اسياجي وحتى السيد جاهي والسيد خليلي انهم يبدون مثل الرجال المهمين قادرين على تقديم كل انواع الخدمات التي لايمكن تصورها .

في احد الايام رأيت رجلا ببذلة رمادية ذات لمعان وعمامة سوداء ، والعديد من التيجان الذهبية فوق اسنانه يجلس في المحطة . وقد تعرفنا الى بعضنا بكلمات مختصرة ومن ثم عاد

الى حديثه الخصوصي مع السيد اسياى . وموعرا التقبت منه  
صدفة مرة ثانية عندما قام السيد جاهي بتوصيلي الى الكلية  
بسيارته . وقد بدا أن كلا الرجلين قد انتهيا كثيرا لكونهما  
وحيدين في سبارة مع امرأة اجنبية ، وقد سمعت الرجل ذا البذلة  
الرمادية يسأل جاهي كل انواع الاسئلة عني . وعندما قاطعته  
وأجبتنه بالكردية كان قد اندهش لذلك . فأخبر السيد جاهي  
وكما لو اني استطع التحدث ، ولا اسمع :

- اذا فهي تتكلم الكردية . اين تعلمتها ؟

واجابه جاهي :-

- لقد علمها اللغة في امريكا ، كردي من تركيا .

وبدأ عقل الغريب يعمل على نحو سريع وسأله :

- هل كان شابا ام فتاة ؟

توقف جاهي ونظر الي . وبما ان الكردية ليس فيها الجنس من  
حيث التذكير والتأنيث وحيث أن " هو " و " هي " تؤديان بضمير  
واحد ليس بمذكر ولا مؤنث ، لم يكن هناك سبيل لدى السيد  
جاهي لمعرفة ذلك ، لأنني لم اذكر اسم معلمي ابدا .

ولتلهفي للمشاركة بفعالية في المحادثة فقد اخبرتهم  
بسرعة وبدون تفكير :

- لقد كان شابا .

- آه .!

واومأ برأسيهما ايماءة ذات مغزى ، لم ادركها فسي  
حينها ، ولكن صورة سمعتي كانت قد ثبتت الآن في فكر السيد  
شيخ زادة ، حيث كان ذلك هو اسم الغريب المتعجرف - شيخ زاده ،  
انه من ذرية الشيوخ ، واتضح مباشرة انه كان قد اتى لمحطة

الاذاعة هذا اليوم. ليدعوا هيئة معدي البرامج الكرمانجية الى مأدبة في قريته . وقد ضمنى الآن الى هذه الدعوة بحسن ذوق مني . وقبل ان احببته ، اقحم السيد جهاهي كلامه بلطف مفصحا اني متزوجة . وشمل شيخ زادة جبيرد ايضا ، على الرغم من أنه لم يصدق اني كنت متزوجة حقاً كما علمت مؤخراً . وقد قبلت على الرغم من نظراته الخبيثة ، وبعد صمت السيد خليلي المبهم حول هذه النقطة كان علي ان اقبل دعوة من أي شخص كان تقريبا لأقوم فيها بزيارة قرية كردية .

بزغ فجر نهار يوم الولاية مشمساً وجافاً ، تقريبا مثل كل الايام منذ مجئنا الى ريزاي في ذلك الخريف . وعندما اتجهنا الى جبيرد ناحية محطة الاذاعة ، رأينا العديد من الناس يتنزهون على طول الطريق .، على الرغم من أنه كان رسمياً يوم حداد " وفاة " علي، وهو ولي شهيد من المسلمين الشيعة ، فقد بدا أن كل شخص يستمتع بوفته . لاحظت في المحطة أن السيد اسياهي ينظر الى لباسي نظرة ناقدة ويغمغم لجاهي قائلًا :

— انظر ، انها تلبس فستانا للقرية ، بينما ترتدي سروالا في المدينة .

بعد تجربتي في مانوا ، حاولت ان احتذي نموذج الملابس الكردية قدر استطاعتي مع ملابس المصنوعة على عجل وبدون اتقان نسبي . وقد جمعت بذلتي الكردية المزيفة مع جزء سفلي من فستان طويل وثقيل مطرز الحواف ، وقميص خارجي فضفاض وصدرية محبوكة .

غادرت بنا سيارتان من المحطة الى قرية شيخ زاده ، لأنه بالإضافة الى الهيئة النظامية الموهلة من ثلاثة رجال كان هنالك قريب لاسياهي واخو السيد جهاهي . ولكوننا ضيوفا اجانب فقد دعينا مباشرة ويلبقة للركوب في سيارة اسياهي الاجنبية

الصنع ، بينما كان على الباقيين ان يتحملوا الصدمات في سياراة الجيب . انطلقنا هابطين في احد الطرق الرئيسية في المدينة الى أن بدأ الطريق وكأنه اختفى في واد مستو غير محروث ، او مرعى ترتع فيه الاغنام . وبدون التوقف عند هذا المنعطف المتعسدر اجتيازه على ما يبدو ، انحرف السيد اسياي الى اليمين وبدأنا بالسير على طول ممر ترابي بجانب بعض الاشجار . ولو اننا لم نسر عليه لما عرفت ابدا انه كان طريقا .

في اطراف المدينة كانت اشجار البساتين تتساقط اوراقها ، وحدائق محروثة قد تركت بدون زراعة لاراحتها ، داخل حدود جدران صخرية منخفضة على جانبي طريقنا . بعد ذلك ظهرت قري بكاملها ، بيوت طينية محاطة بجدران طينية .

بانك قرية شيخ زاده بعد أقل من ستة كيلومترات من المدينة عبر طريق مستقيم منحدر ومفروش بالحصى على نحو لافت للنظر ، حيث كان يعدُ بشيء اكثر من القرية الصغيرة ذات الطين الجاف التي التفت بها اعيننا عندما انحرف السيد اسياي بسيارته الى الطريق الترابي المحدد ، الذي يقع بين الجدران المحيطة بالمنازل .

ظهر كلب الراعي الضخم ، لينبح صوبنا ، وبعدئذ رأينا السيد شيخ زاده نفسه في ممر الباب يبتسم ابتسامته العريضة التي تكشف عن اسنان ذهبية . كان مرتديا على نحو رسمي كما كان في اليوم الذي رأيتة في المدينة ببدلته الرمادية ذات اللعان والقائمة اللون ، وتوقفت سيارة الجيب الممتلئة بالضيوف الآخرين خلف سيارة السيد اسياي مباشرة . وعندما نزل الجميع بدأنا محنة عبور ممر الباب بالترتيب المناسب .

وبما اني كنت المرأة الوحيدة الحاضرة بينهم فقد ادخلت انا أولا . كان جيرد المدعو الثاني للدخول ، لكونه ضيفا

أجنيبا، ولكنه رفض متذرعاً بسلوك تقليدي تماماً، فبعد وصولنا مباشرة إلى ريزاي، كان جيرد قد أدرك النظام الإيراني لفن المجاملة المعروفة بـ "التعارف" أي الشكليات والرسميات وقد وجد في طريقة عدم تقدم طلابه عليه أبداً عبر ممر الباب شيئاً مسلماً للغاية، وكان يسر في دفعهم أمامه أولاً ليزيد في أربابهم. كان جيرد قد استوعب بسهولة واحداً من المبادئ الأولية لنظام الشكليات؛ إنه ليس ذا أهمية كم أنت رجل مهم، وكم هو واضح لكل امرئ أنه ولهذا السبب عليك أن تكون الأول فواجبك دوماً أن تدع من لارادة الذين من حولك. ولسوء الحظ لم يكن جيرد قد تفهم المبدأ الثاني لنظام الشكليات وهو أنه على كل امرئ في النهاية أن يذهب بالترتيب المناسب. وكان قد فشل أيضاً في إدراك الأمور الأساسية والخطيرة لهذا التقليد الفارسي الغريب. فبالنسبة لجيرد كان كل ذلك مجرد لعبسة، أما بالنسبة للإيرانيين فنظام الشكليات هذا هو أسلوب فسي الحياة. وقد كان جيرد هذه المرة وبخلاف ما كان أثناء تواجده مع طلابه، قليل الخبرة بين إيرانيين أكبر سناً وأكثر خبرة منه وبعد مقاومة ودية قهيرة كان قد أجبر أن يمضي وفق ما يريدون، فجاء بعدي عبر ممر الباب، وتلاه اسيايي، الذي تبعه جاهي مع البقية وهم يدخلون في نظام ثابت معروف لديهم فقط. ولكون السيد شيخ زاده هو المضيف فقد كان آخر من مشى.

سرتنا كرتل ونحن لازلنا في نفس الترتيب عبر الحديقة معوداً على الدرجات الاسمنتية حتى دخلنا منزلاً قرميدياً. وداخلاً الرواق المركزي خلعنا أحذيتنا واحداً تلو الآخر وبعد ذلك مررتنا عبر ممر آخر موّدة إلى الحجرة الواقعة على يمين المدخل. جلسنا جميعنا هناك فوق سجادة فارسية مزهرة ذات أرضية حمراء، ومن ثم جلست بنظري في أشات الحجرة. وقد دهشت لدى رؤيتي تلفزيوناً وسألت فيما إذا كان في القرية كهرباء. وبما أنها كانت تقع على بعد ستة كيلومترات فقط من ريزاي، لم يكن



وجودها شيئاً شامضاً ، ولكنني كنت قد سمعت ان سياسة الحكومة كانت تمنع الكهرباء عن كل القرى واثبتت قرية شيخ زادة انها ليست استثناء بعد أن اتضح ان تليفزيونه كان يعمل بقوة بطارية سيارة . كان منزله في الشتاء يدمأ بمدفأة تعمل على النفط مع انبوب يرتفع ممتدا الى روافد المنزل المكشوفة . وقد علفت على الحائط صورة عفى عليها الزمن للشاه وزوجته اخت الملك فاروق ملك مصر ، وكان هنالك أيضا صورة اكثر حداثة بكثير للشاه يقدم فيها ما يشبه المكافأة لمضيفنا . تساءلت في نفسي : ماذا كان قد فعل ليستحق عليه ذلك ؟

جلسنا انا وجيرد في احد جوانب الحجرة بينما جلس السيد شيخ زاده وهيئة المساعدين في الجانب الاخر في مواجهتنا . لم تظهر نساء او اعضاء من العائلة عدا فتاة ممتلئة الجسم ، ذات خدين ورديين ، علمت موعرا انها ابنة السيد شيخ زادة . كانت تدحل وتخرج على نحو نشيط ، تقدم الشاي بنظرات مسدلة نحو الارض وبدون ان تتفوه بكلمة امام كل هؤلاء الرجال .

كرس السيد شيخ زاده اهتمامه بي في البداية ، وقد انار شعاعا من ضياء الشمس المقة التي كنت اجلس فيها وكنت احقدق فيه بعينين نصف مغمضتين ، بينما كان يمتحنني بالسؤال عن المعردات الكردية الواحدة تلو الاخرى . وقد اكتشفت حالا أنه يعمل كناظر مدرسة القرية ، وهو عمل غير عادي لأي كردي قروي . كان يدبر معظم مدارس القرى جنود في الجيش ، ما يدعى بسلك تعليم القراءة والكتابة ، الموءلف من جنود شبان . ان التعليم الجامعي اوحتى تعلم المدارس الثانوية احيانا كان كافيسا لتأهيلهم لتعليم اطفال القرية الكتابة والقراءة . ان الفكرة من حيث المبدأ ربما لم يكن يعيبها شيء ، ولكنني لم اسمع ابدا ان احدا من الاكراد المهتمين بأمور التربية والتعليم يقدرها . وبما ان المجندين الجدد كانوا قد ارسلوا على نحو مدروس ومقصود الى اجزاء من ايران بعيدة عن المكان الذي نشؤوا

فيه ، لم يكن أحد من الذين عينوا في كردستان يتحدث الكردية وبالطبع لم يكونوا مدرسين مدربين . لقد بدأ ان القرويين كانوا يحتملونهم تسامحا معهم وليس ترحيبا بهم . وحتى انهم كانوا يُقتلون في بعض الاجزاء من ايران . تصورت ان طلاب قرية شيخ زاده يشعرون بأنفسهم كأنهم محظوظون لوجود شخص ذي خبرة مع الميل الواضح نحو علم اصول التدريس لديهم . ولكنني تساءلت فيهما اذا كان يستخدم الكردية في صفه ام لا .

قطعنا السيد اسياي فجأة على نحو نفذ فيه صبره وسقط جلسة الاسئلة والاجوبة وقال شيئا بالتركية . ومنذ ذلك الحين استمرت المحادثة كلها بالتركية . كان اسياي ، شيخ زاده جاهي واخو جاهي ، وقريب اسياي كلهم يتحدثون بحبوية بلغة لا جيرد ولا أنا كنا نقدر على فهمهم . وبدأ ان احدالم بلا حظ ذلك سوى السيد خليلي الذي لم يكن يتفوه بشيء هو الآخر . وكما شعرت بدا متضايقا ، ماذا كنا نفعل في قرية كردية مع مجموعة من الاكراد يتحدثون بالتركية مع بعضهم البعض ؟

وبعد ان تجاهلونا لبضع دقائق ، ادركت فجأة انهم قد شملونا ثانية وتحول السيد اسياي هذه المرة الى الفارسية ليخاطب جيرد بطريقة بدا فيها متعجرفا وقال :

— كم تعطى في كل شهر ؟

اضطربنا انا وجيرد للحظة . اذا كانت المسألة نتعلق بالرواتب ، فالافعال في الفارسية تقلب مضامينها عما تتوقعه من مفاهيمها في الانكليزية ، فالفعل " يعطي " - يعني " يحمل " والعكس بالعكس . وقد صعقت عندما ادركت ماكان بريد معرفته . لماذا كان يريدنا اسياي ان نحدد رواتنا امام هيئة الاداعة كلها في قرية نحن غرباء فيها ؟ شرحت السوء ال لجرد بسرعة وخيم الصمت على الحجرة بينما حدق فينا الجميع ، يستطرون ردا .

نظرنا انا وجيرد الى بعضنا . ماهو الشيء المتوجب قوله ؟ نهـص  
جيرد معترضاً ، معبراً عن فكرة فظة على نحو غير سوي بقدر ما  
كانت تسمح له لغته الفارسية غير المتقنة وسأل :

ـ ماذا تعني كلمة " فزول " ؟

نظرت الى اسبابي وميزت رد الفعل الذي رأيتـه على وجه موظفـ  
الفندق الذي حاول وعلى نحو يعوزه الذوق ان يخدمنا في أول يوم  
لنا في ريزاي . وكان جيرد قد اجاب على اكاذيب الموظف بهذاءة  
فارسية معتدلة تعلمها من بعض الطلاب الايرانيين في الولايات  
المتحدة . وقد شـحـب وجه اسبابي مثل الموظف تماما . جذبت الي  
نظر جيرد وعبست في وجهه : لماذا علمته كلمة " فزول ؟ نظـر  
جيرد متحيراً للتعبير المرسوم على وجهي . كان بمقدوره أن يقرأ  
الغضب عليه ، ولكنه لم يلحظ اي تغيير على وجه اسبابـي .  
لماذا كنت اجهم ملامحي ؟ خيم الصمت المربك للحظات وشـعـر  
اسبابي بنظرات مرافقيه الاقل مكانة اجتماعية منصبـة عليه ،  
انه ملزم بالمواجهة بتحد . فقال لجيرد :

ـ أنا متأكد اني اكسب مالا اكثر مما تكسبونه بكثير .

فأجابه جيرد موافقاً :

ـ وأنا أيضا متأكد من ذلك .

وبعد ذلك غيـر اسبابي جلسته بحيث لم يعد يواجهنـا  
وعادت المحادثة الى مجراها الطبيعي الى حد ما . طنت اذنـاي  
ولم اعد اعرف فيما اذا كانت المحادثة تجري بالتركيـة أو  
الفارسية . لو أن جيرد كان قد استوعب لعبة " التعارف " اسـرـع  
مني ، لكان ادرك مقدار الاهانة بعجلة اكبر . لقد احسست  
بطريقة مامند اللحظة التي دخلنا فيها ايران ان الناس يبـسـدون  
كأنهم ينتظرون ان يتخذوا موقف الهجوم . فلو انك اهملت إلقاء  
السلام على البقال عند دخولك المخزن ، فانك تعرض نفسك لعـدم

تلبية طلبك . واذا لم تسأل عن صحة احد ما فقد يظن الناس انك كنت تعاملهم بازدراة . لقد اصحت اعتبر العديد من الاشياء اللطيفة اسوأ حالا مما هي عليه ولكنني تأكدت من شسبيء واحد منذ اللحظة التي رأيت فيها ملامح وجه موظف العندق وهو أن الالهانة لايجنب احراجها بالضحك في هذا البلد .

كان رد الفعل في هذه الحجرة بيّنا بالنسبة لي - كان كما لو ان كل شخص حاضر قد احتبس في نفسه . ويتساءل : من اين جاء هؤلاء الامريكان لكي يظنوا انهم يقدرّون ان يتحدثوا بهذه الصراحة مع رجل مهم مثل اسيابي ؟ لقد سبق كل امرئ عبر المدخل عدا الضيوف الاجانب . والآن اهانه هؤلاء الضيوف الذين شرفهم . لم نكن نعرف بعد اصل وتاريخ كلمة فضول . ولكن ذلك هو مجرد نقطة تفصيلية . وفي وقت متأخر سيكتشف جيسرد ان إخطار خادمته بأن كلماتها هراء وباكثر الكلمات اعتدالا، سيعطيها مبررا لأن تغادر منزلك حالا وبدون ان تعود اليه ابدا .

استمرت المأدبة بطريقة ما ، وبديء بتقديم الطعام ، حيث وضعت الابنة طبقا ، ومن ثم تلتته بأخر ذي رائحة ذكية فوق الغطاء البلاستيكي الذي كانت قد فرشته وسط ارضية الحجرة . بقيت استرجع في ذاكرتي رد فعل السيد اسيابي على كلمات جيسرد . ربما كان ذلك في خيالي المفرط الحساسية فقط . وربما ان غضبه قد زال ، فلامحه لم تكن تسجل شيئا عندما نظرت اليه .

كان من الواضح ان واحدة مامنهن ، ربما ( الابنة ؟ الزوجة اونساء لم ارهن ؟ ) كانت قد امضت وقتا طويلا في تحفيسر وجبة شنية ومنوعة كهذه . وقد نسيت تقريبا الجو غير المريح عندما حدثت في الدجاج والخضرة المحشوة بالارز المعشب، واللبن المعفى و المخللات ، " والبيلاف " ، وقد توقفت المحادثة

عندما شرع كل شخص محاولاً أن يملأ طبقه . عندما بدأت بنزع قطع من اللحم من الفروج المخصص لي وجدت أنني قد نزعنت معظم الترقوة . وفي محاولة لتلطيف الجو خطر ببالي أن أسأل عن لعبة كردية كنت قد قرأت عنها . هلا فعلاً يلعبها الناس ، أم أنها كانت شيئاً مختلفاً من خيال أحد المغامرين البريطانيين؟ سأعرف ذلك جالاً .

لمعت عينا السيد اسيايبي عندما رفعت العظمة . . جناح . . . . .  
سمى اللعبة العديد من الموجودين في الحجرة حالا . وقال السيد اسيايبي :

- أنا سألعب . بماذا سنعد بعضنا البعض؟

لم أفهم أنه كان يحاول أن يحدد شيئاً نراهن عليه . ولكن طلب أسيايبي مضي غير ملحوظ في فوضى اخباري عن قواعد اللعبة من قبل كل الحاضرين وبدأنا اللعب بدون أن نعرف ماذا سيربح الفائز . ان غرض اللعبة الذي يقترح بمجرد كسر عظم الترقوة من قبل كلا اللاعبين هو أن يناول أحد الشخصين الشخص الآخر شيئاً ما وعلى هذا ان يقبله . التقط السيد اسيايبي مباشرة فلمسي ذا الرأس الكروي الذي كنت استخدمه في تدوين كلمات كردية وحاول أن يناولني اياه . كنت سأقبل ، وبذلك أخسر اللعبة ولكن السيد خليلي ذكرني . وقد أهملت اللعبة بعد محاولات عديدة قام بها السيد اسيايبي . حضرت الابنة وقادتني الى بيت الخلاء الخارجي ومن ثم أرجعتني الى الداخل الى الحجرة الواقعة في الجانب الاخر من المنزل . في غضون ذلك بدأ السيد اسيايبي بممارسة لعبة جديدة أكثر خبثاً مع جيرد . لم تكن هذه لعبة كردية . ، بسأل لعبة معننة في القدم كانت تمارس في ايران لقرون عدة . ومما لا شك فيه أن لعبها مع أجنبي مبتدئ مثل جيرد فيها من المتعة المزيد بالنسبة لاسيايبي .

بينما شرعت ابنة مضيبي باخراج مجموعة من ملابسها لكي ارتدي شيئا منها ، بقي معظم الرجال في الحجرة الاخرى عدا السيد خليلي . وتساءلت موعخرا فيما اذا كانت المناقشة ستكون هسي نفسها فيما لو ان السيد خليلي لم يقرر الذهاب في جولة حينذاك حيث بدأ السيد اسيايبي بالتحدث وسأل جيرد بدون أي مناسبة للموضوع حالما غادر السيد خليلي :

- هل تود المجيء الى منزلي لتدخن بعضا من " الترياق".  
حدق فيه جيرد مفكرا : في البدء سأل عن روايتنا والآن يعرض علينا المخدرات . ان نظريات السيد اسيايبي عن الامريكان بدت مقولبة ونمطية كآراء واحد من القرويين الاكثر جهلا وفضاظسة .  
هز جيرد رأسه . قائلا :

- لا ، شكرا ، أنا لاهتم بتهاطي المخدرات .

فواصل السيد اسيايبي باصرار :

- لم لا ؟

تتململ جيرد متفائقا . وكان الرجال الآخرون يراقبسون كل شيء من كئيب . واجاب ببساطة :

- لأن البوليس يمكن ان يأتي .

فقال اسيايبي على نحو هادف :

- ان البوليس لاياتي الى منزلي ابدا .

تأمل جيرد اسيايبي بقلق ، عندما سحب هذا الاخير بطاقة من جيبه وعرضها امام الامريكي ليراها . لقد كانت ضربا من " ID " واعلن اسيايبي قائلا :

- أنا ضابط في السافاك .

لم ينبس احد ببنت شفة عندما اتضح لجيرد بأن امر مسا يجري بطريقة خاطفة . كان السيد اسيايبي يعرفه بأعنف طريقة ممكنة انه عنصر من البوليس السري الايراني المرهوب الجانب . ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ تمنع جيرد بوجود كل الحاضرين . لقد

كانوا ذوي شخصيات غير واضحة او مميزة الملامح . ماذا كان من المفروض عليه ان يقوله ؟ . لقد بدا ان الموضوع تلاشى بنفس السرعة التي اثير فيها ولكن لواننا كنا نعرف التحادث بالتركية لربما قضاوا بقية مترة الظهيرة وهم يعسلقون بطريقة ساخرة منا وكم كنا مغفلين .

خرج الرجال من الحجرة جملة وكان قد انضم اليهم السيد خليلي . حكي لي جيرد بسرعة ما حدث . حينذاك كنت قد لبست بذلتي المستعارة التي لم تكن جميلة مثل البذلة التي اعطونيها اياها لارتديها في مانوا . كان ينقصها الجزء الاعلى من مئزر ذهبي والسترة المصنوعة بالماكنة بدلا من صدرية صوفيسسة سوداء . وعلى الرغم من ان شبخ زادة كان الاكثر ثقافة وثراء من أي شخص آخر ساهدته في قرينته ، لم يكن على نفس مستوى رشيد بك .

تجولنا على طول الجدار الطيني المهيباً للانهيار ، الذي يحبط ملكية شيخ زادة وقد كانت قطعة ارض جرداء وجافة في هذا الوقت من السنة . وعلى بعد مسافة كنا نستطيع رؤية ريزاي كواحة ممتدة ، وخضرة اشجارها وحدائقها المروية تتلاشى في زرقة البحيرة الواقعة خلفها . لدى تحوالتنا في حقل شيخ زاده مررنا بنساء يغسلن الالبسة بايديهن في جدول ماء . هبت الريح على تنورتي بحركة خاطفة ، بينما اخذ جيرد صوراً لكل الحاضرين ، وقد اراد السيد اسياي ان يظهر في جميع الصور واندفع شيخ زادة بانتباه الى الامام الى جانب رظييس البرنامج الاداعي الكرمانجي . كان اسياي يتصرف بطريقة يعامل فيها مضيفنا بتنازل ، ولكنني بعد ذلك لم اشهده يعامل الناس حوله بدون تفضل . ولكنه لم ينجح في جعل جيرد يلتزم بهذه القاعدة التزاماً شديداً . فقد حاول اسياي ان يهين الاجنبي بطلبه معرفة راتبه امام مجموعة من الغرباء

وانتهى الى ارباك نفسه . وبالنسبة لرجل مثل اسيايي كان هذا شيئا لايطاق وتساءلت عن المدى الذي من الممكن ان يمتضي فيه ليسوي هذا الموقف الجسارح .

شعر الرجال بالبرودة حالا ببذلاتهم الغربية الطراز وهم في الخارج في مهب الريح . فذهبنا الى الداخل ، التقطت اسيايي فنجانا من الشاي من فوق الطبق وحاول ان يناولني ايماه . ولكنني رفضت ، فلوانسي ربحت لعبة " الجناح " فاني سأربح هذا اليوم كله ايضا من اسيايي . ومن ثم اتخذت المناقشة منحى آخر يوجهه اسيايي . فقد قرر هذه المرة أن يناقش مسألة " التعارف " أي الشكليات والرسميات .

ان التعارف ، ذلك النظام الذي قاد كل واحد وفق الترتيب الذي كان عليه ان يطبقه اثناء مروره في الرواق ، هو كلمة فارسية مقتبسة من الفعل العربي " عرف " ان صيغة " تعارف " في العربية تعني شيئا مثل " المعرفة " او " الادراك " بينما اتخذت في الفارسية مضمونا مختلفا نوعا ما ، على الرغم من انها ما تزال تتعلق بمسألة المعرفة بمعنى من المعاني . ان التعارف في الثقافة الايرانية ينتظم كل التفاعلات الاجتماعية عدا تلك التي بين اصدقاء حميمين جدا وبين العائلة . وحتى في هذه العلاقات الاخيرة فباستطاعتك دوما ان تبعدا عن نفسك بالارتداد الى الشكليات . ان التعارف هو طريقة لتنظيم الناس والمواقف مع الحد الاقصى من الكياسة والحد الادنى من التعرض للتجريح والانتقاد واحيانا يشبه الرقص ، في لحظة باردة الى حد أقصى لايتلامس فيها المشاركون أبدا ، ولكن كسل شخص منهم يوءدي مهمته على احسن وجه ، على الاقل من جلسي بعد . ونزولا عند قواعد " التعارف " عليك ان تعرض كل شيء على الملأ حتى حياتك الخاصة . وبذلك فان اللازمه التي يتقونها جاهي في الهاتف في مكتبه باطراد ، هي عبارة



مأثورة في الشكليات . وكذلك كلمة " بفرماييد " أي  
تفضلوا ، هي العبارة التي كانت تستخدمها شهرزاد عندما  
كانت توجه لي الدعوة للدخول الى شقتها . وفي افضل معانيها  
يمكن " للتعرف " ان يكون كرم ضيافة غامر ، وعروضها  
لانهاية لها من الشاي والحلويات وطاولات تثن تحت عرض  
مجتهد فيه لمزيد من الغذاء الغني . وحسن ضيافة يستمر حتى  
ساعة متأخرة من الليل طالما ان الضيوف قد اختاروا البقاء .  
ولامضيف يتشأب ابدأ . والمنعشات لاتنتهي حتى لو ان الخدم  
واعضاء العائلة اضطروا الى التسلسل من خلفية المنزل في بحث  
صامت عن الغذاء والشراب ليستكملوا نقص ماتم استهلاكه .

ولكن هناك جانب آخر للشكليات وهو الثقل الذي تتضمنه  
كنتيجة للتلقي . فكل امرئ يريد في ان يقدم ولا أحد  
يرغب في القبول . فاذا قال لك احدهم " قرباناته " من  
الممكن أن توميء " برأسك بأدب وتقدم نفسك قربانا له  
بينما ليس لدى احد منكم الشعور الواهي او أي اعتبار للآخر .  
ففي المبالغة القصوى لمفهوم " التعارف " لاالمقدم نفسه  
ولا الرفض يعينان مايفولانه على الاطلاق ، عدا ماتحتسويه  
من مجرد مجاملة بحتة . ربما يقدم لك احدهم وليمة عظيمة  
بينما لا يوجد في بيته سوى الخبز التفة المذاق . وبالطبع  
ستجيب بأنك قد اكلت لتوك حتى لو أنك تشعر بالجوع وتعوزك  
النقود لشراء الغذاء .

كان الايرانيون الشباب قد ادعوا ونحن في امريكا أن  
الشكليات هي مظهر كاذب مهجور ، وانه عاشق للصدقة . وقد  
اخبرنا الاكراد ان عادة الشكليات هذه غير سائده بينهم .  
ولكن كان علينا أن نكتشف بأنفسنا الى أي مدى وبأية  
أساليب ومواقف يمارس الناس نظام الشكليات في ايران .

احيانا كان نفس الذين يستنكرون نظام الشكليات هذا ، هم أنفسهم الاكثر اعتمادا عليه . وعلى ذكر التعارف علق جيرد مباشرة :

- لا يوجد نظام شكليات في امريكا .

وكان يعني بذلك انه ليس مهما من يسبقك عبر البسباب ، أن الناس عادة يقبلون الدعوة من المرة الاولى ، لان الامريكيان بشكل عام يعنون دعواتهم التي يقدمونها لتواريخ محددة وانهم لا يتصرفون بطريقة ايحائية . وفي وقت متأخر وبتقييم صادق من ثقافتنا الخاصة كان علينا ان نعترف بوجود مؤكسد لنظام الشكليات في امريكا . وفي المرة الثانية سمعنا امريكيين يقولون :

- ببساطة علينا أن ندعوك للغداء .

وعندما عرفنا انهم لم يكونوا عازمين على دعوتنا ادركنا أن الامريكيان أيضا قادرين على ممارسة الشكليات ان تعليق جيرد بصدد عدم وجود شكليات في امريكا كان تماما ما يريد السيد اسياي ان يسمعه . ومنذ ذلك الحين بدأ اسياي وعلى نحو يتفاخر فيه يسبق جيرد خلال الرواق، يأخذ الشاي قبله وبشكل عام يتصرف بنفسه على نحو يبسطه فيه كأنه ابراني استثنائي . وفي كل مرة يتجاوز فيها احدى القواعد ، يعذر نفسه بقوله :

- لا يوجد نظام شكليات في امريكا .

واخيرا وعلى نحو لطيف شارفت نزهات النهار على نهايتها . وقف السيد شيخ زاده في مدخل الباب ليودعنا بامنيات الطيبة بينما اثنى عليه المتحدثون من ابناء بلده لحسن ضيافته ، وقد سمح لي اسياي ان امر عبر البسباب أولا ، ولكنه حرص فيما بعد على ان يسبق جيرد . ومرة أخرى

وجدنا انفسنا في سيارة اسياي وبما انه كان يقود السيارة  
فقد نجحت في ان اناوله سبجارة مشتعلة وبذلك ربحت لعبسة  
الجناح هذه المرة .

سأل اسياي ابن عمه الجالس معه في المقدمة :

- ماذا اعطيها ؟

- لربما فستانا أو شيئا ما .

ولدى سماعي ذلك ظننت ان الخصومات قد انتهت .

عندما عدنا الى المدينة دعونا كل الحاضرين لتتناول  
الشاي ، وقد قبل اسياي الدعوة مباشرة واشقا من انه "لاتوجد  
شكليات بين الامريكان " ولكن تحت تأثير مسحة ايرانية .  
وقادنا اولا الى دكان معجنات ليقدّم لنا الهدية الالزاميية  
لكونه حل ضيفا علينا للمرة الاولى .

كان اسياي في منزلنا لطيفا وحتى ودودا ولكن  
ايضا بدا مزهوا بنفسه ولفظا اكثر من العادة . فقد مكث  
يردد :

- لاتوجد شكليات في امريكا . ومن ثم لا يأخذ  
مسائل الشكليات بعين الاعتبار . وبالنسبة للمعايير الامريكية  
لم يكن يعتبر غير مهذب ولكنه كان يعتبر فظا للغاية  
حسب المعايير الايرانية . بقدر ما يمكن ان يسعني التعبير  
فان اسياي كان ايرانيا بسلوكه اكثر بكثير من أن يكون  
امريكي . ومع ذلك فقد بدا ان اليوم سينتهي على نحو  
أفضل بكثير مما توقعت ، حيث تقبل اسياي حسن ضيافتنا  
وحتى انه جلب لنا علية من كعك محلى . لم استطع أن  
أدرك انني كنت لازال افسر سلوكه حسب ثقافتني الخاصة . وكان  
الكعك المحلى مجرد ايماءة عن الشكليات . فلربما كان لدى

اسبابي اسبابه الخاصة ليأتي الى منزلنا الذي لا يوقع في النفس شعورا بالرضا والابتهاج . ففي ايران يقبع الشكل على السطح مثل الاغطية التي رأيتها في مطار طهران . أما ما يكمن في الداخل فليس سهلا على الاجنبي رؤيته أبدا .

في المرة التالية التي قدمت نفسي فيها في محطة الإذاعة أو ما الشريطي برأسه كالعادة ومشيت نحو الحجرة التي جلس فيها مجموع معدي البرنامج الكرمانجي . الشيء الاول الذي لاحظته هو كيفية انشغال كل شخص بعملية تنويع للبرنامج كانوا يقومون بها لدفع السأم ، فالسيد اسبابي والسيد خليلي كانا قد عُمرنا بالاوراق التي تخصهما ، بينما كان السيد جاهي قد انشغل باستخدام الهاتف . لدرجة ان أحد لم يلاحظ انني كنت واقفة هناك واخيرا انصرف اهتمام السيد جاهي عن الهاتف وقال :

— أنا آسف مارغريت خانم ، ولكن السيد خليلي مشغول جدا ولا يستطيع العمل معك هذا اليوم .

وفي تلك اللحظة نهض استاذي الكردي النحيف ، ذو النظرات القلقة واندفع خارج الغرفة ، وبصعوبة لمحني عند ما مر بي . تجهد قلبي وحاولت أن الفت نظر السيد اسبابي ولكنه كان مشغول اكثر من الجميع بترجمة اخبار اليوم الفارغة " التي لا أخبار فيها " حيث كان قد اعدّها خبارة الدعايسة والاعلان في طهران وارسلوها الى ريزاي . من الواضح ان هذا ، كان العمل الاكثر اهمية لدى الهيئة الكرمانجية . فقد كان اسبابي يجلس على مقعده وينقل الترجمة شفويا الى المذياع المسجل الضخم ومن ثم ينسخ ترجمته لترسل الى طهران ولتندفق من قبل السلطات .

واصلت الوقوف في المكتب ، غبر واشقة مما سأفعله

في الخطوة التالية . وقد كان وجودي هناك وبدون ان يلاحظه أحد تجربة جديدة عليّ . قبل ذلك كان يتواجد دائما صصف من الناس المنتظرين الذين يرغبون في لفت انتباهي او يرغبون أن يسألوا سوء الا ماعن الانكليزية أو عن الولايات المتحدة ، يريدون أن يظهروا انفسهم انهم موجودون . والآن صسرت أنا الشخص غير المتواجد والموجود . لم اسمع مداعبة او مغازلة أو ترحيبا . اكتسى وجهي حمرة من الارتباك وشعرت بالدموع تلسع جفوني . فبدأت بالمشي صوب الباب ولكن السيد خليلي الذي كان قد عاد من مهمته العاجلة لبضع دقائق مضت ، قسال لي :

ـ تفضلي بالجلوس مارغريت خانم .

بعد ذلك قدم لي الخادم كأسا من الشاي . ومربي رجسـل غير مهم وحياتي . عندما انتهيت من احتساء الشاي نهفست وفادرت الحجرة دون أن ينتبه الي احد أو حتى يرفع احد بصره لينظر الي .

قررت أن اقوم بزيارة اخرى الى المحطة ، لأنني كنت مرتابة من قدرتي على فهم الاشياء في ايران . انتظرت عدة أيام لآستجمع شجاعتي وبعدهذ عدت ثانية . ربما كانوا فعلا مشغولين يوم زيارتي لهم . ربما أن بعض التوجيهات قد اصدرت اليهم من طهران اضطرتهم فعلا الى تبني سرسة مكثفة في سير العمل . ربما كنت حساسة جدا . ربما أن كل شخص منهم قد ألفني ولم اعد مركز الانتباه ، فليس باستطاعتي أن ابقي مركز ميدان ثلاثي الحلقات الى الابد .

وفي المرة الثانية لم اخطئ في حكمي على ماكان يجري فقد اخبرتني شخصية ليست أقل أهمية من السيد جوهر خسائه ان السيد اسيايي قال ان الهيئة الكرمانجية مشغولة بحيث

لاستطيع أن تقدم لي المساعدة في عملي في الكردية . وكان السيد جوهر خانة نفسه ودودا ولكنه كان مشغولا . وبسبب انه لا يحمل أي ضغينة صدي ، ولكن موقفه كان : انه اذا اعتقد السيد آسيابي أنني غير مستحقة لوقت أي شخص أكثر من ذلك ، فمن المحتمل انه محق في ذلك . على أية حال ، مهما كانت مشاعر جوهرخانة تجاه آسيابي ، فانها لم تكن تستحق لديسه لحظة يقع فيها في مجابهة معه لأجل امرأة اجنبية تريد تعلم الكردية . ومرة اخرى بدا وكأنه قد قدّر علي الا تعلم هذه اللغة التي اتيت من أجل دراستها من على بعد خمسة آلاف ميل .

بدأت الكتابة والشعور بالاضطهاد بسيطران علي حالاً فصبت جام غضبي على جبيرد حيث اتهمته بالاغراق في الانانية على نحو لا يمكن تسامحه في رد فعله لسوء ال آسيابي . وبما أن القاء مسوءولية اختلاق الموقف كله على آسيابي كانت بلا جدوى فقد ألقيت اللوم على زوجي وتساءلت فيما اذا كان سيتعلم التكيف مع الاعراف الاجتماعية الايرانية يوماً . والشيء الذي لم اكن اعرفه ، هو أن العضوين الاخرين في هيئة معدي البرنامج الكرمانجي الاداعي في الحجرة كانا يلقيان باللائمة على آسيابي فقط . وانهما كانا وأساليبهما الخاصة ينتظران الدقيقة الملائمة عندما لا يكون فيها آسيابي على مقربة منهما لأخباري من شعورهما الحقيقي .

كان لنا الاول مع جاهي ، حيث كان يركب

سيارته في الشارع قرب منزلنا في احد ايام الجمع وقد لمحني مصادفة . صاح ملقيا النحبة بصوت عال ولوحت له بيدي وواصلت السير في طريقي عائدة من عند البقال الواقع في الزاوية . ولكن جاهي صاح ثانية :

- لماذا لاتأتين لتتناولي الغداء معي ؟

- لا ،شكرا .

صحت مجيبة عليه ، متأكدة من أن الدعوة هي مجرد شكليات ، وانها ليست حقيقية . فسألني :

- هل تناولت غداك ؟

فأقتربت منه لأجيبه :

- لا .

- اذا لماذا لا تأتيين ؟

سألني وقد بدا وكأنه يعني دعوته حديا .

- ماذا عن جيرد ؟

- دعينا نذهب ونحضره .

اجاب جاهي بذلك ، تاركا باب مقعد السيارة الامامي مفتوحا . سرنا حول صف من البيوت لناخذ جيرد ، وتأكدت انه قد عنسى دعوته فعلا .

أخذنا السيد جاهي الى النادي الليلي الايراني وقد كان في قمة فتنته وسط تجمع العائلة في وقت الاصيل، حيث بيننا اول افرادها الكباب والارز مع البيض النيء وفي النهاية أصر على دفع الفاتورة وهذا أمر مقضي في ايران بما انه هو صاحب الدعوة . لقد اشار عدة مرات قائلًا : انه قد احب جيرد كثيرًا . لقد ذلك خلال الوحبة وثانية عندما رجع بنا الى مسكننا . لقد كانت الرسالة حاذفة ، كما تنزع كل الرسائل الفارسية اليس أن تكون كذلك . فيدون ذكر اسبابي ابدا او الاشارة الى الحسادت

في قرية شيخ زادة ، عرفنا الآن ان السيد جاهي قد أخسذ  
جانبنا .

كان السيد خليلي بالانسجام مع طبيعته أقل حدقا . فقد  
التفتت به مرة وأنا امشي هابطة نحو الشارع المشجر حيث كانت  
تقع المحطة . ناداني كي انتظره ، وقال بلين بعدان لحق بي  
وبعد ان تبادلنا التحيات المطلوبة :

– السيد جيرد يقول الحقيقية .

تبادلنا النظرات ، حتى ان السيد خليلي كانت له حدوده  
فهو لم يكن ينوى أن يصرح برأيه بشكل مباشر بأن اسيابي  
كان " فزوليا " فضوليا . وانتهزت الفرصة مع السيد خليلي  
وحاولت توضيح ماحدث في قرية شيخ زادة . فقلت :

– لقد انزعج-اسيابي حقيقة من جيرد لماحدث في القرية  
وفي الحقيقة لايزال منزعجا حتى الآن . فنظر الي السيد خليلي على  
نحو بدا فيه متضايقا وقال بهدوء :

– لاليس غاضبا متكلم .

– بالطبع هو كذلك ، فقد دعاه جيرد فضوليا .

وقد عرفنا موءخرا ان كلمة " فضول " التي تعني " نوسي"  
بالفارسية قد اقتبست من كلمة عربية ترادف كلمة " شيبست "  
عندنا وهي كلمة تفيد في التحقير .

ولكن السيد خليلي تجاهل مسألة عدم ملائمة استخدام الكلمة  
وركز على شيء آخر .

– لايقدر أن يتضايق ، طالما انه جاء الى منزلكم  
واحتمى الشاي معكم .

كان السيد خليلي يشير الى قاعدة كردية من قواعد حسن



الوفادة : ضيف في بيتك لايمكن ان يكون عدوك .

مع ان السيد خليلي كان قد امضى عدة سنوات فسي المدينة فقد كان عقله لايزال في القرية ، مع مجموعة القواعد الكردية التقليدية واسيايي من الجهة الثانية كان قد ولد وترعرع في المدينة ، لقد كان تركيا اكثر منه كرديا .

لم استطع التوقف عن التفكير في اسيايي على الرغم من تأكيدات جاهي وخليلي . لماذا تطرق لنقطة مثل هذه ، كالادعاء انه عنصر من السافاك ؟ . لنفترض انه ملزم برفع تقرير يقول فيه اني جاسوسة وانني دخلت ابران واقيم في ريزاي تحت ذرائع مزيفه ؟ لقد حدد عقدي مع الحكومة الايرانية انه يمكن اقالتي من الكلية مباشرة عند تعاطي عملا منظما ضمن أي نشاط مهني غير تعليم الانكليزية ، ولن يكون هناك سبيل قانوني أو أي أيضاحات حول ذلك .

بدأنا تدريجيا بالتماس آراء الناس الآخرين فسألنا

رملاءنا :

- هل من الادب واللباقة ان تسأل احد كم يكسب من

المال ؟

.. لا .

كان ذلك الجواب الاشمل تقريبا .

- اذا لماذا يسأل عنه العديد من الناس ؟

- لأنهم لايدركون اكثر من ذلك . انهم فيسر

متعلمين .

كان يأتني هذا الجواب مرتبكا قليلا . من الواضح انه لم يكن السبب الحقيقي ، لأن بعضا من هؤلاء الناس المثقفين ، جيدا هم انفسهم كانوا قد سألونا عن رواتبنا . وعلى كل واقننا

الناس الذين سألتناهم على نقطة وحيدة : ان على السر ان لا يستخدم كلمة فضول ابدأ لعنصر من السافاك . و النتيجة الطبيعية الواضحة التي لم يقلق احد نفسه بتوضيحها بتعابير لا لبس فيها كانت : لا تستخدم كلمة فضول لأي كان ، لأن اي شخص يمكن ان يكون من السافاك .

بعد البحث مباشرة في مسألة اسيايي ، نزل جيرد وتحدث طويلًا مع هوشنغ الجعفري . وقد استتبط كلاهما بعد جهد جهيد اعتذاراً رسمياً للسيد اسيايي وقد كان تقريباً شبيهاً كهذا : أستمحك عذراً . تعرف اني لا اعرف الفارسية جيداً ، واحياناً لا اعرف ما تعنيه الكلمات ، فقد خلطت الكلمة التي استخدمتها بكلمة اخرى اعترمت استعمالها ، ولكن اذا كانت قد بدرت مني الاساءة فأرجوان تسامحي .

أكد جيرد لهوشنغ انه كان يعرف الكلمة ، وقد عيبيني استخدمتها ، ولكن هوشنغ اخبره بحزم ان اي اعتذار آخر غير وارد . وطبعاً عرف اسيايي جيداً انهم لم تكن غلطة ، ولكن تلك لم تكن هي النقطة المهمة ، بل ان الاسلوب والشكليات كانت هي المهمة . ولحسن الحظ ، واحترام الذات النابع من ثقافتنا لم تتح الفرصة التي تمكن جيرد من تقديم هذا الاعتذار بسهولة . لم اذهب الى محطة الاذاعة بعد ذلك ابدأ ، ولم تصادف اسيايي على الطريق ابدأ . وبدأت ادرك ان الاعتذار لن يفيدني في شيء . فقبل الحوادث كانت دروسي الكردية قد اصبحت مضللة اكثر مما تكون مرضية ، حتى مع السيد خليلي في غرفة الادارة . فغالباً ما كان السيد خليلي يتغيب على الرغم من تأكيده انه سيحضرن في موعد حسب اتفاقنا ، واتضح لي انه كان متعباً من سمدل تقديمي البطيء نسبياً . وقد ازدادت رغبتني في التحدث مع النساء الكرديات كثيرًا . نساء لم تتغير لغتهن الكردية بنظريات مزيفة من التعمد بل . لقد حثت الى كردستان معتقدة أنني سأكون الاولى التي تتحدث الكردية ، فبالنسبة لأي شخص مطلع ، من الجائز ان يلاحظ .

ان النساء الكرديات يتحدثن بلغة مختلفة تماما عن لغة الرجال . ففي قبيلة هندية أمريكية ، يستخدم الرجال والنساء أشكال نحوية مختلفة وقد صرحت - محددة في أطروحتي المفترضة - اني كنت مقدمة على المقارنة بين كلام الرجال والنساء . ولكني لم اتحدث مع امرأة عدا اخت السيد اسهابي حيث لم اعد انظر اليها ككرفية حقيقية تماما كنظرتي الي اُخيهما .

كنت قد بدأت - وحتى قبل رحلتنا القصيرة الي مأدبة القرية - بطلب المساعدة من السيد خليلي ليجد امرأة متكلمة لاتحدث معها . ولكن جوابه كان اقل ما وعد به . فقد قال :

- انا لا أعرف نساء كرديات . ربما كان ذلك الشيء اللبق المحتم ان يقوله في مجتمع كهذا يفصل بين الجنسين ، ولكن ، كلانا عرفنا ان ذلك شيء مضحك . فالرجل لديه زوجتان والعدد يد من القريبات . وقد تعجبت اين خبأهن جميعا .

النساء الكرديات يظهرن في الشارع ولأنهن كرديات ، فهن أكثر النساء ظهورا في الشارع . والعدد يد من القروبات واللاجئات كن يخرجن سافرات الوجوه ، ولكن حتى هو لا كن يظهرن محتشمت ولم يكن يتأقن علي نحو يتفاخرن به . راقبتهن تواقا اليهن اكثر مسن أي وقت مضى . لن أشعر بالارتياح ابدأ في الجلوس في حجرة يملأها الرجال ، وانما في مطبخ احدى هو لا النساء . تصورت نفسي جالسة ببساطة ودفتر الملاحظات في يدي ، اتعلم أشياء كثيرة وليس فقط أشياء عن اللغة . نظرت ثانية الي العائلة اللاجئة التي كانت قد انتقلت الي جوارنا ولكن كانت تعلق وجوههم تغابير كومة ، لا يمكن الوصول اليها . حيث كانوا يسرعون زهابا وايابا في الشارع المشجر بسيارتهم اللاندروفر المضروبة . وكنت أخشى التحدث اليهم .

اتكلت مرة على حسن ضيافة جيراننا الجعفرين . كان هناك امريكيون آخرون في المدينة ، ولكنهم كانوا قد فصلوا رأيهم فينا بأننا منبذون لأننا لم نكن نقضي ليالينا في مركز قيادة الجيش السابع للولايات المتحدة ، نشرب ونشاهد الافلام السينمائية الأمريكية . كنا

على الاغلب نعتك وحيد بين في السليبي نسام من بعضنا البعض و مسن  
فشلنا ، ولكننا كنا نأبى الذهاب الى الامريكيين و اظهار عدم نجاحنا  
اما مهم . وكان الجميع قد اخبرونا انهم قد سقوا من المحاولات  
الكثيرة لتكوين صداقات مع الايرانيين . وعند ما لم يكن البرنامج  
الكرمانحي ذو الستون دقيقة يُهتِك ، كنت احاول ان اضبط المذياع  
على اذاعة ( السبي . سبي . سبي ) . وكل الروايات ذات الاغلفة  
الورقية التي احضرتها معي كانت قد قرئت .

ما كنا نحتاجه هو الاصدقاء . ولكننا كنا لا نزال نلقى صعوبة  
بسبب المشكلات و ما هو أسوأ من ذلك . اردنا ان تناقش انطباعاتنا  
و شعورنا عن ايران . وقد بلغنا حداً يائساً بحيث احتجنا السبي  
استرجاع كل ما كنا نقوم به و النظر فيه من جديد .

كنا نتلقى الدعوات و الابتسامات من الجعفرين . و من الايرانيين  
في الكلية كنا نتلقى الابتسامات ، و قد صعب علينا كثيراً استرجاع  
ذكرياتنا مع شخص كنا نشق به و نستطيع التحدث معه بحرية ، حيث كنا  
قد التقينا به منذ مطلع اقامتنا في ريزاي في شهر ايلول و كسان  
يصغي اليها بانداما اكثر من مجرد توزيع ابتسامة ، شخص عرفناه  
بعيدا عن الجعفرين ، و عن المدرسين في الكلية . و الوقت الذي  
اضيناه معه كان بعيدا عن اجواء ايران . كان في عالم خاص بنا ،  
لأننا لم نكن نشعر بالطل مع أمير ل مجرد انه بصحبتنا ، و لم نكن  
نعزل بعيدا كما كان الحال مع معظم الايرانيين الذين عرفناهم .  
وعلى الاصح كنا قد سُحرنا من قبل سبي كان قد حُببك  
حولنا رقبة سحرية كردية .

## الفصل السادس

كان امير ، الشاب الفارع الطول ، النحيف السدي  
اتي من بؤكان هو املنا لبلوغ كردستان اكثر من الجعفريين،  
اكثر من السيد خليلي واكثر من أي شخص آخر كنا قد التقينا  
به منذ مجئنا الى ايران . كان امير واقفا قريبا مع  
الطلاب الآخرين عندما تحدثوا عن كيفية قتل السافاك اخصا  
صديقي المهابادي في امريكا . وكان واثقا من انه قد اغتيل  
ولكنه لم ينسحب بعيدا عني مثل الآخرين . بدلا من ذلك وعندما  
استعد جميع الطلاب وهم يتحدثون بنبرة هادئة ويعبرون عسن  
شكوكهم لبعضهم البعض كان امير قد تبعني الى مكثبي وعرض  
علي تعلم الكردية ، لهجته السورانية الاصلية ( الكردية  
الجنوبية ) ولكنها مع ذلك تبقى كردية . وقد اخبرني انه  
يعرف قلبا من الكرمانجية ( الكردية الشمالية ) وانه سيكون  
قادرا على تعليمي الاختلاف بين اللهجتين . لقد جاء أمير  
من مدينة كردية تقع جنوب مهباد واقترح مباشرة انسه  
علي ان اسافر اليها معه والتقي بعائلته . لم يستطع امير  
التوقف عن الحديث عما سنفعله معا ، كيف سيعلمني الكردية  
وكيف سيأخذني الى اماكن في كردستان . حدثت فيه متعجبة ،  
كيف كان لطالب في السنة الدراسية الاولى من مدينة كردية  
صغيرة ان يتعلم التحدث بالانكليزية بهذه الطلاقة ؟ ولمماذا  
سعى هو الي بينما تراجع الطلاب الآخرون ؟ .

عندما زارنا امير في بيتنا للمرة الاولى كان ذلك  
يوم الجمعة ، يوم عطلتنا الاسبوعية . وقد عرض علينا ان  
يرافقنا الى مهباد ولكنني كنت مصابة بالتهاب القصبات  
الهوائية واخبرنا قائلًا :

- أعرف مهاباد تقريبا مثلما أعرف بوكان .  
شعرت بسعادة وأنا أذكر بالذهاب حالما أمثال للشعفاء .  
ولكن أمير لم يقدم عرضه ثانية اسدا وذهبنا الى مهاباد  
برفقة الحفريين .

اعتاد أمير المجيء الى مكسي ، وهو حجرة معتمدة  
بمقعد ذي غطاء مطاوي ومدفأة داكنة بلون الرماد نعمل على  
النفط ، قابعة في الزاوية . لم يطرق سابي احد من الطلاب  
الآخرين ابدا الا عندما كانت تعطى الدرجات ، كانوا بتجاهلون  
اعلاناتي المتكررة عن ساعات التواجد في المكتب . ولكن امير لم  
يكن مثل البقية منذ البداية . لقد كانوا بعديين واحيانا  
عدوانيين بينما كان هو ودودا ومتحمسا . لم تكن انكليزبتهم  
تنفع لمحادثة حقيقية بينما كان امير يتحدث بانكليزية لم  
تكن عامية تماما ولكنها كانت تنزلق بسهولة من فمه . وعلاوة  
على ذلك كان امير كرديا . كان قد جعل من نفسه مزمماري  
المتعدد الالوان لكردستان ، يوما بعد يوم قادني الى مقربة  
منها وهو يرقص فوق طريق منشور بورود حيالية ويخبرني عن  
جمال بوكان وعن الشعور الودي لعائلة تجاه الآخرين ، والاروع  
من ذلك انه كان يحدثني عن الافكار والتطلعات السياسية  
للاكراد . اصبح امير جزءا من حياتنا دون أن ندرك كيف  
حدث هذا . فبالاضافة الى عرضه لتعليمي الكردية ، كرس نفسه  
لمساعدتنا في معالجة تعقيدات الاستقرار في ايران . فاذا  
احتجنا للحصول على شيء من البازار كان يقول انه مستعد  
للذهاب معنا . انه يستطيع أن يترجم لنا ويرشدنا ، ولكن  
الاهم من هذا وذاك انه بإمكانه أن يقضي وقتنا معنا ، ذلك  
الوقت الذي كان يمضي احيانا على نحو متعاقب بسرعة شديدة  
ومن ثم ببطء شديد .

فالاسبوع الذي تعلمنا فيه تسوق الغذاء والحاجات

المنزلية قضى على كل وقت فراغنا . لم يكن صاحب الدكان احيانا ، ونحن أيضا لم نكن نفدر احيانا على مهمه . وعلى كل حال فان الوقت الذي أمضيته في تعحص الاشياء وعــــدد المشتريات التي قمنا بها كان قلبلا . اعددنا جداول ولوائح لأواني التنظيف ، التوالل ، الصابون ، واشياء اعبرناها من الاساسيات - ولكننا لم نستطع أن نجد نصفها . كنا نجد انفسنا فجأة في أيام الجمع عندما كان البارار ومعظم الدكاكين تغلق ، بدون أي شيء نقوم به ، لا احدنزوره او نتحدث اليه . جعل أمير أيام الجمع محتمله او حتى مسليه . فقد تجولنا معه مرة أو مرتين في مركز المدينة ، ولكنه وعلى نحو مألوف كان يجلس ببساطة في منزلنا لساعات ، يفعد في مواجهتنا عن قصد على المنفدة المعدنية ويقشر بعصية بذور عبــــساده الشمس والبطيخ ولب الفستق ، ويتكلم ويتكلم وكنا نحن أيضا نستجيب لاحاديثه . كان يريد معرفة كل شيء عن امريكا ، وكنا نحن نريد معرفة كل شيء عن كردستان . ماذا يعمل والده ؟ ومثل ماذا كانت مدينته ؟ كم لديه من الاخوة والاخوات ؟ هل هناك مدارس ثانوية في مدينته ؟ ماذا يفعل الناس فــــسي الشتاء ؟ ماذا يأمل الناس في مدينته عن الحرب الكردية فــــسي العراق ؟

جعلنا نشعر اننا نستطيع ان نسأله عن أي شيء والفرق بين اجوبته - حيث كان بعضها صريحا ودقيقا وبعضها ملتبسا فيه وغامضا - كان قد اصبح ضبابيا بسبب افتتاننا بأي شيء يختاره للقول - وكان يسر لقول اشياء منطرفة ومبالغ فيها فقد وصف لنا مدينة في الربيع والجبال مكسوة بالزهور ، وقد توقعنا ان نذهب معه الى هناك اما في الخريف أو في الشتاء واكد لنا ان الحرب الكردية هناك لم تكن على الاطلاق مثلما كنا نفكر فيها . فقد قال :

- ان الاكراد لا يقاتلون العرب . ان الاكــــراد

يعاتلون الاكراد .

كان يدعو السرزاني ، الشيخ القبلى والفاضل العسكري الذى دافع ذات يوم عن مهاباد بالاميربالي ، العاشق الذى ساع سعبة للحكومة الامريكية بنعديمه السنرول للامريكان، معله بلقى الدعم للقضية الكردية . فال أمير :

— أن الاكراد الحقيقين يعاتلون على الجبهة الثانية واخرنا انه كان يستمع الى كل محطات الاذاعة التي تدبـع بالكردية من ابران والعراق والاتحاد السوفياتي . لقد كان مفتتنا بالاتحاد السوفياتي .

اخبرناه بما كنا قد سمعناه عن الاكراد في امريكا، فقد قلت له انه حالما يملني صندوق كئبي الذي ارسلناه بالشحن الحوي من سوسطن ، سأريه ماذا طبع عن الاكراد والكردية في بلدي . بدا أن الساعات كانت تضييق بنا بحيث لم تكن تكفي للتحدث معه بينما كان الآخرون الذين التقيناهم مقلين فسي الحديث عن السياسة وعن الاكراد ، صامتين في استجابتهم للمشاعر التي كنا نعبر فيها عن كوننا اجانباً ، فقد كان أمير مصدرا للمعلومات ، وردود الفعل والمشاعر . كان يبقى لتناول وجبات غذا في منزلنا حيث كنت قد بيست من أن احدا من الايرانيين سيحل ضيفا علينا يوما ماعدا زيارة الجعفريين . انتقـد طعامنا بصراحة وعلى نحو ظريف . لم اشعر بالاهانة . كيف يمكن أن اشعر بذلك ؟ فاسلوب امير في طرح الاشياء كان رائعا جدا .

— كأنك تمفخ هلكة ، اليس كذلك ؟

ادلى بملاحظة ، بينما كان يجهد نفسه في طحن قطعة من اللحم المسلوق حيث كنت قد طبختها فقط لثلاث ساعات بدلا من الساعات السبع التي كانت تتطلبها . فحكنا لذلك ، واخبرنا أن طبخ والدته مشهور ، وسنكون قادرين على تذوقه بأنفسنا بعد أجل قصير .



كنا ندعو كل إيراني التقينا به عدا هوشنغ وشهرزاد بلقب ، بالاضافة الى اسمهم الاخير . حتى طلابنا ، كنا ندعوهم بالسيد فلان والسيدة فلانة . عندما كنا نتحدث بالفارسية كنا نستخدم الصيغة اللقمة " انتم " مثل الفرنسية " VOUS " وبما أن امبر كان طالبنا - وحسب فن المجاملة الايرانية - كان من غير الوارد ان بسمينا باسمنا الاول . ولكن عندما التقينا للمرة الاولى لم نكن نعرف ذلك وقد اختار هو ان يتجاهل ذلك فقد بدأ مباشرة بمناداتي بـ " دادا مارغريت " مستخدماً اللقب الكردي الجنوبي للاخت ، وكان يخاطب جيرد بـ " كـاك " أو الاخ الاكبر . وكنا نحن نناديه باسمه الاول دائماً .

لقد بدأت علاقتنا مع امير ضمن شرنقة ، فـقـد امضينا وقتاً معه لوحده بعدد من الايرانيين الآخرين . لايمكن ان نقارن احداً مع امبر في حميميته ، ربما عدا الجعريين فقط . كان هذا الشاب يطفح بالحيوية و الحماس برأسه الكبير اكثر من المعتاد وعينيه البنيتين الواسعتين الموءطرتين بأهداب طويلة وكثيفة . اخبرته ذات يوم قائلة :

— اهداك حميلة .

فأحاسني حذبة مزيلا نظارته عن عينيه لاستطع رؤيتهم — بشكل أفضل :

— اوه ، نعم انا مشهور بعيني في مدينتي .

كانت امه مشهورة بطبخها ، أما هو فقد كان مشهوراً بجمال عينيه . لقد كان من وجهة نظر امبر ، كل شيء وكل شخص فسي عائلته و مدينته مشهور . لقد كانت كردستان مكاناً سحرياً ولم يكن عليه ان يفتنني بذلك . ألم آت من على بعد ٥٠٠٠ ميل لأنني اعتقدت نفسي الشيء ؟

في استعادة للاحداث نحد صعوبة في تحديد سبب وقوعنا تحت سحر أمبر وكيفيه حدوث ذلك ، فقد كان عادياً في الكثير

من الشواحي ، ومراهقاً غير محبوب ، مفعماً بالغرور والافكار  
المحنونة . كنا نعرف انه ببالغ ، وبدأنا ندرك انه كان  
يتهرب من العديد من اسئلتنا . ماذا يعمل والده ؟ لايجيبنا  
بالخفيقة ابدا . كيف تعلم الانكليزية بهذه الجودة ؟ بدا انه  
شيء غير وارد ان يكون قد النقطها من سياح امريكيين يمرون  
من بوكان على نحو عرصى ، كما كان يدعي . اين كان يسكن  
امر عندما كان يحضر الى الكلية ؟ لم تتوضح لنا هذه الامور  
ابدا . . ولكن محادثانا لم تتخللها فجوات مربكة . كان  
الفرق بين امير والجعفرين لغويا وعاطفيا أيضا . فبينما  
كنا نجهد مع حيراننا بفارسية مكلفة ، كان امير قادرا على  
ان يصب كل مافي قلبه لنا بالانكليزية . وكنا نحن أيضا  
بدورنا نفعل ذلك . اخبرناه عن كل شيء عن حياتنا في امريكا  
عن آمالنا وخيبة آمالنا في ايران ، عن مشاعرنا في البعد  
والغربة المطلقة عن المشهد الايراني الاجتماعي . وعندما  
تجولنا معا في الشارع ادببت شكواي من كيفية تحديق الرجال  
في والنظرات العداوانية المزعجة و الجربشة تلوح في عيونهم .  
شعرت وكأنهم سيسلبونني ويقتلونني اذا سحت لهم الفرصة .  
قال امير انه يفهم ذلك . وتحدث عن الانحراف في الاخلاق  
بين جماهير الطلبة والطريقة التي تهتف بها الفتيات للشبان في  
المهاجع ليلا ، وهن يتوسلن اليهم ان يخرجوا معهن .

قال امير مرة :

- انه لشيء مشير للاشمزاز . أليس لهؤلاء الفتيات  
اخوة ليقوموا بحمايتهن واخبارهن عما هو صحيح ؟  
كنا انا وجيرد نتسلى بذلك . فليس هناك ادنى شك  
في أن امير كان جنسياً ولكن كان فيه شيء مايسمه بالبراءة  
والعنف الى حد بعيد . حتى انه صرح انه مشمئز من " غوغوش"  
المغنيه الاكثر شعبية في ايران التي كانت قد ابهجت  
الأخرين جميعا :

- انها فتاة سيئة بالسلوك الذي ننهجه .  
كان ذلك حكمه عليها . تساءلنا انا وجيرد فيما اذا كان كل  
الشباب الاكراد على هذا النحو من التزمت ؟ .

كان امير شخصا غريب الاطوار ، في وسط الفسق الكامن  
داخل المظهر الخارجي لكل اللقاة ات بين الرجال والنساء في  
ابران . فقد كان برفض البقاء معي ولو للحظة لوحدنا في منزلنا .  
فاذا توجب على جيرد ان يخرج من البيت فامير أيضا سيغادر  
المنزل . ولكن في وقت لاحق وعندما ازداد ادراكي للامور  
بدأت مناداته لي باسمي الاول تبدو كعلامة على العلامة الخاصة  
التي ستوجه اليها الانتقادات في الكلية . واخيرا بدأت النظرات  
المحرجة تستقر على علاقتنا مع امير . واولها كانت من حانب  
مدرس في الكلية كان يسكن على مسافة منا في نفس الزقاق  
وسأل بعد أن رأى امير معنا وهو يخرج من منزلنا :

- انتم أصدقاء هذا الشاب ؟

فقال جيرد :

- نعم ، نحبه كثيرا .

تفحص المدرس وجه جيرد للحظة وقال :

- ان أمثال هؤلاء الشبان خطرون .

فسأله جيرد :

- ولماذا ؟

فقال المدرس وهو يلقي نظرة عجلى وغامضة علي :

- لأنهم يريدون الكثير من الحب . اعرف هذا الطالب  
انه يريد كل شخص ان يحبه . مثل هؤلاء الشبان خطرون على  
النساء .

تخلصنا انا وجيرد من شعورنا بعدم الراحة الذي هاجمنا  
للحظات بالفحك . عرفنا منذ ذلك الحين ان لأحد من المدرسين

الاخرين يحلم بأخذ أي من طلابهم الى منازلهم . كان الحاجز  
الاجتماعي بسى الطلاب والمدرسين في الكليات الايرانية فائما .

واخرا عندما وصل الصندوق المشحون من امريكا وكان  
جاهزا لأحذه من الجمارك بعد وصولنا الى ريزاي بحمسة أسابيع  
توجهت كالعادة ، الى امير . عزمنا على مغادرة الكلية  
والذهاب لاحضار الشحنة ~ وقبل ان نغادر اخبرت اميرا أن جميع  
كتبي عن الكردية وكردستان كانت داخل الصندوق . نظر السى  
وخوف غامض تتسلل من نظراته :

— لكن السافاك سبهاذرون جميع كتبك .  
— لماذا ، فأنا امريكية ، وبالإضافة الى ذلك لسن  
يعرفوا ماهيسه هذه الكتب . انها بالانكليزية .

كان امير يشك في ذلك ولكنه اتى معي كما كان فسد  
وعندي بينما كنت انتظر في الخارج ، أدار احد السائقين  
سيارته البرتقالية في وسط الطريق امام الكلية واتى مباشرة  
وبأقصى سرعة باتجاهي . قفزت متقهقرة لابتعد عن طريقه  
وقدماي تتحركان بخوف وعلى نحو يعوزها الرشاقة في الحركة .  
ظل امير متمسرا في مكانه . واصر التاكسي صوتا طويلا  
وحادا عندما توقف على بعد انشين من المكان الذي كنت فيه .  
قال وهو يضحك مني :

— ما الامر ، دادا مارغريت ؟ هل خفت من محرد تاكسي  
يجب الاتخافي من الموت . أنا لاخافه ابدا .  
انتظر امير معي في مكتب الانتظار ، بينما قام  
موظفو التفتيش بفتح غطاء الصندوق ، وقد بدت على وجوههم  
الخبية عند رؤيتهم ثمانية ازواج من جوارب جيرد وقد حشرت  
في اعلى الصندوق . وبسرعة تفحصوا مادونها من الكتب .  
وبدؤوا بالحديث مع بعضهم بانفعال ، عندئذ تدخل أميير  
لهدؤوا بعد ذلك مباشرة ، وسلموني قطعة من الورق لأوقسح

عليها ثم اعيد الي الصندوق شانه . فسألت أميرا ؟

– ماذا حدث ؟

– ارادوا أن يبعثوا الكتب الي مكتب السافسك  
ليتفحصوها ولكني احسرتهم انها تخص عملك في الجامعة ،  
وبذلك فقدوا اهتمامهم بها .

تساوم أمير مع سائق سيارة لنقل الصندوق الثقيل  
الي منزلنا وقد ساعده السائق على حمله على السلالم عندما وصلنا.  
كان أمير قد اصّر على دفع الاجرة عند ذهابنا ورجو عنا من  
الحمارك . وعندما غادرنا سائق التاكسي تعقبت أمير وهو ينزل  
فوق الدرج محاولاً ان اصح في يده المبلغ الذي دفعه للسائق .  
واخبرنا نجحت في وضعه تماما في جيب قميصه . حدثت فيسه  
متعجبة من كرمه الزائد هذا . كان امير قد قال لي انه يريد  
ان يستعير بعضا من كتبتي ولكي عندما قدمتها له ، ردها  
الي قائلا انه بخشى ان تشاهد معه .

ذات يوم وبعد ان جلبنا معا الصندوق بفترة قصيرة ،  
سمعت امير في مكتب رئيس القسم الانكليزي يوضح : انه لسن  
يحضر الي الصف لشهر او اثنين . ماذا كان ذلك ؟ اصغيت اليهم  
ولكني لم استطع ان اكتشف سبب ذلك . وفي وقت لاحق جابهته  
بكيفية قدرته على ترك الجامعة بعد مجرد ستة اسابيع مسن  
الدوام في سنته الاولى في الكلية ؟ نظر الي بغموض وقد بدت  
عيناه الواسعتان اكثر اتساعا بكثير لجديته .

– لاستطيع اخبارك ، دادا مارغريت .

– لم لا ؟

– لا اريدك ان تقلقي .

تناقشنا انا وجيرد حول الموضوع لعدة ايام . وضعت  
تصورا بأن امير كان ماضيا للانضمام الي المقاتلين فسي  
العراق . الم يتحدث في احبان كثيرة عن كيفية تحقيق رغبته

ليان يكون في المكان الذي يريد ؟ . سألته :

- هل انت ذاهب الى العراق يا امير ؟

نظر امير الى الارض بحزن وقال :

- لاستطيع ان اخبرك ، يجب الا تعرفي .

ولعدة ايام وكلما كنت اشاهده كنت أسأله عن سبب مغادرته وكان دائما يضحك بحزن ويرفض الشدح عن ذلك . وقد رفض رئيس القسم الانكليزي وهو امريكي معتد بنفسه كان قد نبهني عدة مرات بأن امير " ودود جدا " ، رفض هو أيضا أن يخبرني قائلًا بأن امير قد وضح له السبب ولايجوز الافشاء به لكونه مسألة شخصية بحته . تألمت لعدم ثقة امير بي ولكنني كنت أيضا مهتمة وقلقة على نحو فظيع . اعتقدت أن امير كان رومانسيا وعنيدا بما فيه الكفايه ليقوم بشيء خطير بالفعل . وفي الحقيقة اقنعت نفسي بأنه ماضٍ للقتال حقا مع " الاكراد اليساريين " ضد البرزاني في العراق .

اخيرا كشف لي عن السبب في مكثي . لقد كان ذاهبا الى طهران لاجراء عملية في مستشفى ما . فقد كان يعاني من وجود حصي في كليته . سمحت لنفسي هذه المرة ببعض من الشك والارتياب . ولماذا فخم الموضوع لهذا الحد ؟ لماذا تصرف بهذا الغموض ؟ لقد كان امير قادرا حتى على جعل حصي الكلية تبدو كمأساة سوداء . وصرح لنا في المرة الاخيرة التي قُام فيها بزيارتنا قبل ان يرحل :

- لا اعرف ما سيحدث لي ، وماذا ستكون نتيجة هذه العملية ؟ فأكدنا له من غير تكلف :

- سيكون كل شيء على مايرام .

بدا متألما من ردة فعلنا الخالية من الهم وقال :

- انتم لاتعرفون المشافي الايرانية . لاتعرفون

الاطباء الايرانيين . فهذه ليست امريكا .

بعد ان غادرنا تلك الامسية كان قد نجح في افزاعنا نحن أيضا  
وتساءلنا فيما اذا كنا سنراه ثانية يوما ما .

حصلت لنا اشياء واشياء في غهاب امير ، ولكن  
أي منها لم يبد حقيقيا تماما . لأنه لم يكن معنا لثناقشها  
معه . وكما بقولون بالفارسية ، فقدنا طعم الحياة ولذذة  
المحادثة ونشوة الافكار . فهو لم يكن موجودا عندما رجعنا من  
مانوا او عندما نذتني هيثة الاذاعة . واخيرا اصبح فقدان  
امير ذا اهمية بالغة بسبب عدم وجود احد من الأكراد على  
الاطلاق ليتحدثوا معي . في الوقت الذي غادرنا فيه أمير، كنا  
قد اقتنينا اسرة ، ومنضدة ، كراسيا ، شلاجة ومدفأة ، بالاضافة  
الى السجادات التي اعارنا اباه هوشنغ . ولكننا كنا لانزال  
نبحث عن بعض الاغراض في المخازن . لقد كان التسوق بالنسبة  
لنا حديا متقدما باستمرار ، حيث كنت اتوق اليه فقط عندما  
اكون في مزاجي الاكثر استرخاء للتحدث بالفارسية . وحتى بعد  
ذلك لم يكن من الهزل التواجد لوحدى بين الحشود . فالمسألة  
الذكور كانوا يحدقون في باطراد ، وكانوا سيلمسونني اذا سئحت  
لهم الفرصة . ولم اعادر دكانا تقريبا دون أن يخامرني  
شعور بأنني قد غششت لأنني اجنبية من قبل الشاجر هناك . وعندما  
كانت للمشتريات قيمة اكبر حاولت دائما ان أجد احدا ما من  
المحليين ليرافقني .

تصرفت زوجة جارنا الذي كان قد حذر جيرد من امير  
بودمعي . لذلك سألتها يوما فيما اذا كانت ستذهب معي  
الى البازار لتساعدني في شراء بساط صغير لمناسبة عيد ميلاد  
جيرد . وقد وافقتني على ذلك . وفي اليوم المحدد للسوق مضيت  
مبتهجة الى منزلها ، متشوقة للتجول في البازار برفقة شخص  
ما يعرف ماذا يجري فيه . كنت في مزاج صاف حتى اني لم اكمل

الاحظ، ان نازي لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد ، حين وصولي . لعبت مع طفلها وابديت اعجابي بسجاداتها الحميلة بينمــــا كنت انتظرها لتجهز نفسها . واخيرا ارتدت ثوبا خاصــــا بالشارع وسترة غلظة . وسلمت الطفل للخادمة وخرجنا من الدار . وبينما كنا نمشي نحو الشارع اخبرتها عن رغبة جبرد الملحسه في اقتناء واحدة من هذه السحادات وأي مفاحاة ستكون لــــه عندما يراها . اوقعت سبارة اجرة مجأة وبدون ان نتفوه بشيء بينما كما في منتصفالطريق الى ساحة المدينة . نوقمت السيارة وصعدتها و اوصحت من خلال النافذة ان لبس لديها الوقت لتساعدني بعد كل ذلك . بعدئذ سارت السيارة باتجاه البارار وتركنني مبعوقة الى جانب قناة صرف مكشوفة . لم استطع تخيل ماحدث سوى اننا وقل ان نغادر كما نتلقى المصايفات المألوفة من جميع الذكور المتسكعين في الشارع . فـشعر ناري المصبوغ بالاحمر وعيناها الخضراوان الطبيعينيان بالاضافة الى فستانها القصير والمقور الصدر على نحو مثير كانوا قد اعدوها لنبدو غريبة على نحو مطابق للزي الحديث . من المحتمل ان الرجال حسبوهــــا اجنبية هي أيضا، وقد سألتني متهمة ، تماما قل أن تفر هاربة: - هل يفعلون ذلك معك دائما ؟

توصلت الى انطباع غير مشكوك فيه انها قد اعتقدت أنها غلظتي ، وانني قد قمت بشيء مالاشارة المضايقة التي اضطرت للمشاركة فيها .

كنت لا ازال افكر بفضافة نازي خانم عندما بســــدا الجعفريون بالتحدث معنا عن حفلة زفاف يمكن أن تقام ضمن عائلتهم ، فقد كان اخو هوشنغ ، وهو مهندس متوسط العمــــر، قد انتقى فتاة تبلغ ثمانية عشر عاما من بلده لتكون عروسا له قبل ان يمضي في رحلة عمل الى اليابان . وانشاء غيبته ظنست شهرزاد ان محمود الاخ سيفسخ الخطوبة عند عودته ، مدركا انه يمكن ان يجد أفضل من هذه الفتاة القليلة الاشارة التي



من بلده ، وقد لمت لي شهرزاد انها مميزة في الدرجة الاولى  
بشعرها الاشقر فقط . مهما يكن فقد قرر محمود وبمعمنويات  
نعوزها الحبوبة ان يمضي في اقامة مراسيم الزواج وكما قال  
كان تعنا من المكوث وحيدا في ريزاي . وحالما حدد تاريخ  
العرس اكد لنا الجعفر بون بأننا سنستمتع كثيرا بروعية  
عرس ابراني ونحن بدورنا عبرنا عن فرحتنا بالدعوة . وقد  
تمنيت على نحو خاص آلا ينهي موقف العريس الاحتفالات .

على كل حال ، انضح ان كل شيء بهيج جدا واوربي على  
نحو مدهش ، ابتداء من حمام منزل والد العريس الذي يتفاخر  
بوجود مرحاض وحوض استحمام افرنجي فيه ، وصولا الى كميات  
الجن المحظورة والغالية الثمن والتي كانت تسكب بسخاء فسي  
كؤوس طويلة لمعظم الذكور وبعض الاناث الحاضرات . بسدت  
العروس الساحرة في ثوب زفافها الاوربي بحواشي الطويلة ،  
مستمنعة تماما بحفلة عرسها وقد ادت رقصة هز البطن اللطيفة  
امام الصيوف المجنميين .

وفي آخر المساء ، اخرج رجل ثمل جيرد ، فقد طلست  
منه بانزعاج ان يعرف :

- كم تدفع لكم الحكومة الايرانية مقابل عملكم  
هنا ؟ انتم امريكيون اغنياء . نحن لانحتاج اليكم .  
بقي الرجل ممسكا بمرفق جيرد الى أن اتى هوشنغ واجبره على  
أن يقدم اعتذاره . ووضح قائلًا :  
- لم يكن يعرف مايقوله .

أومأنا برأسنا بالموافقة على ذلك ، وقد ابدينا اللباقة ظاهريا  
ولكننا كنا مرتابين في داخلنا . فهذه حالة من غياب الوعي  
والشمال الحقيقية .

حتى تلك اللحظة كنا نشعر بالترحاب في حفلة الزفاف  
فكل شخص كان يعنني بنا بافراط ، يقدم لنا الغذاء و الشراب،

بأتي لتحدث معنا ، وبينسم لنا باستمرار ، فهجان الرجل  
الشم لم يفسد أمستنا ولكنه جعلنا ننساءل عما كان يدور  
في فكر هؤلاء المينسمين جميعا . فكلما طال نقاوعنا في  
ايران كنا نعلم النظر الى ماوراء الانسمات اكثر . ولكن  
لم يكن امبر هناك لنناقش معه هذه الحوادث التي بشير الكآسة  
في النفس . لم يكن هك مجال لننظر في امر احتمال ارسال  
السيد اساسي بفريرا عنى للسماك ، لم نكن لدينا وسيلة  
اختبار ما او موجهة صوت ، ولاطريقة نشرح فيها صدورنا من  
تراكم اضطراباتنا واحراننا وسوء فهمنا . فقد كنا أننا  
وحيرد قد حزنا في رنزانة نفسية مع بعضنا البعض ، ولم تكن  
علاقتنا تنمو ضمن عزلتنا هذه .

في نهاية احد الشهور ارسل البنا امر رسالة حارة  
من منزل لاماربه في طهران . وقد اجبت عليها مباشرة ، واخبرته  
عن مدى افتعادنا له ، وعن الاشياء التي حدثت لنا ، وعن  
حاجتنا للتحدث معه . وبعد عدة اسابيع وقبل حلول الشتاء  
والمطر كان امير يصف تحت ضوء الشمس عند مدخل ساحة دارنا .

" امبر " صرخت وعانفته وانا اعرف ولكن بدون أن  
اهتم بأن الرجال والنساء لاينعانقون امام الناس ابدا في  
ايران ولابتعانقون في أي مكان آخر اذا لم تكن بينهم صلة  
قراءة قريبة جدا ، أما بالدم او بالزواج . نزل حيرد على  
السلام وعانقه هو أيضا .

كان اجتماعنا الثاني في فترة الغذاء ولكن لم يكن  
لدينا الوقت الكافي لنتفوه بكل شيء كان يجول بفكرنا . فقد  
كان علينا جميعا ان نعود الى الكلية لنراه معها . والآن وقد  
عاد امير ، شعرت بأن كردستان بكل رومانستها وامكانياتها  
يمكن أن تفتح صدرها لي .

بعد انقضاء ليلتين على عودة امير من طهران . جاء

ليتناول الطعام معنا . كان اللحم هذه المرة قد نضج تماما .  
كان كل شيء معدا حسب الذوق الايراني لأننا في غياب امير كنا  
قد استأجرنا رجلا تركيا ممتازا ليطبخ لنا ثلاث مرات في الاسبوع  
فقد اعتقدنا بأننا بهذه الطريقة يمكن لنا ان نسنقبل ضيوفا  
ايرانيين بدون ان نطبخ بخيبة روية الغداء دون ان يمسسه احد .  
بينما بدأنا انا وعزيز نضع الاطباق فوق الطاولة اتى امير  
الينا وسأل :

— هل سينناول عزيز الغداء معنا ؟

نظرت الى عزيز مضطربة وقد بدأ الشعور بالاثم بالنفاذ السني  
قلبي المتسامح .

— لا ، انه لا يفعل ذلك ابدا .

— اذا سأطلب منه ذلك . هل انت موافقة على ذلك ؟  
ذلك ما قاله طالبي وهو يذهب الى المطبخ خلف عزيز بدون  
أن ينتظر ردي .

— طبعا أحبته بفتور .

جلس عزيز المضطرب والخجول معنا على الطاولة وتظاهرسر  
بتناول شريحة من اللحم والسلطة . انه يعرف امير من الكلية  
حيث عمل عزيز لايام في مطعم الطلاب ، حسب القواعد الايرانية  
لنظام الشكليات كان من غير المقبول أبدا أن يجلس طالبا  
ومدرسه متماثلين ، ولكن الشيء الذي لا يصدق مطلقا هو أن  
يتناول طالب جامعة ايراني ومدرسه والخدام طعامهم معا على  
نفس الطاولة .

حتى أنا كأجنبية أحسست بذلك ، ومع ذلك فان امير وكما هو  
دائما كان قادرا على أن يجعلنا ننزل عند رغبته حتى لمجرد  
ابداء اقتراحه ، فقد أعلن أن نظاما اجتماعيا جديدا هو على  
وشك الولادة في ايران ، ولثقتة بتأثيره علينا كان قد قرر أن  
يدشنه في منزلنا .

شعرنا أنا وجيرد بالغرابة . فقد اندفع عزيز بعيدا عن الطاولة وأمير يحاول أن يتحدث معه قبل أن يقدم الشاي . لا أعرف حتى فيما اذا كان أمير قد لاحظ كم كان عزيز متضايقا .

دخلنا مرة أخرى في علاقة نمطية مع أمير . فغالبا ما كان يقوم بزيارة قصيرة الى منزلنا عند المساء وفي نهاية الأسبوع . وثانية كنا نجلس نحن الثلاثة لساعات ونحدث . ولكن الامس كانت قد تغيرت نوعا ما ، ليس مع أمير ، بل معنا فبعدها يقارب ثلاثة أشهر من وجودنا في ايران كنا قد أصبحنا أذل بساطة وأكثر تشككا . ولم نكن متفائلين جدا حول توقعاتنا في خلق أصدقاء جدد لنا . وكنا قد بدأنا نغير انتباهنا أكثر للفروق الدقيقة لما نقوله نحن للناس الآخرين وما يقولونه هم لنا . مع ان أمير ذاته لم يتغير وكان احد اصدقائنا الاولين والوحيدين . كانت انكليزيتته فد وهنت قليلا في طهران ، ولكنها قوية جدا بتأثير المحادثات . لم يعلمني الكردية ابدا على الرغم من أن هذا كان السبب الأصلي للقائنا كنا ثلاثتنا احيانا نتحدث بالفارسية ، ولكننا كنا ندرك أن اميرا قليل الصبر مع جهودنا . وقد اتهمه جيرد مرة بعدم رغبته بتعليمي الكردية ، فارتسمت على وجه أمير تعابير الألم المميزة عنده ، حيث برزت شفته الى الامام واطالت عيناه التفكير . وبالطبع كان يعتزم تعليمي الكردية ولكن ، كان من المهم جدا له ان يتعلم الانكليزية . كل شيء سيأتي في وقته المناسب . ولشهورنا بألم اللوم في عينيه تراجعنا عما قلناه اضافة الى ذلك ، فثمة مسألة اخرى ، وهي زيارة مدينة أمير بوكان . متى سياتينا اليها ؟ لقد انتظرناه طويلا ببساطة لكي يفتتح علينا وقتا مناسباً لذلك . ومن ثم وبعد عودته من طهران اشرنا الموضوع نحن بأنفسنا . ولكن أمير كان يوجع ذلك دائما . الآن ليس الوقت المناسب . ستكون الجبال مغطاة بالثلوج ولكن أمير اخذ الحافلة هو نفسه الى هناك مرة او مرتين ، وكان طلاب آخرون من بوكان يذهبون الى بلدهم بين الفينيسية

والاخرى . لماذا لانقدر على الذهاب الى هناك نحن ايضاً ؟  
ولماذا فقد امير اهتمامه بالذهاب معنا الى مهاباد؟ فقد كنا  
قد اخبرناه عما حدث لنا مع الجعفرين وعن رغبتنا في  
الذهاب ثانية برفقة كردي ، ولكن امير اوضح لنا بأسلوبه  
المراوغ بأنه لن يأخذنا أبداً . وبعد عدة اسابيع أعلن اميرا  
أن والده سيأتي في زيارة الى ريزاي . وعندما رأى الاهتمام  
على وجهي ، اضاف مباشرة :

– اريده ان يلتقي بك . لقد اخبرته كل شيء عن

مدرسي، كك جيرد ودادا مارغريت .

واخيراً رُتب الامر على أن اميرا سيعد لنا طبخة ايرانية في  
منزله واننا سنذهب لتناول الغذاء مع والده . وفي اليوم الذي  
دهانا فيه امير وصل الى دارنا قبل الوقت بثلاث ساعات ، فسألته  
محدقة في أسفل الدرج لأرى فيما اذا كان احد ما واقفا هناك :

– ماذا فعلت مع ابيك ؟

فقال امير :

– اوه ، لقد ذهب الى البيت ثوا .

– ولكن ماذا عن الغذاء الذي كنت ستعده ؟

– اوه الطعام، هل هو مهم لك ؟ سأعده هنا في منزلك .

نظرت الى امير ببرود . ما الذي كان يشغله ؟ بالتأكيد لقد ادرك  
انني ماكنت اهتم به هو مقابلة والده وليس تناول الطعام .  
فسأله جيرد :

– ما الامر ؟ الا تريد ان تأتي الى مسكنك .

– حسناً . انه ليس مكاناً لطيفاً ، ليس لطيفاً بالقدر

الذي يليق بمدرسي .

لم يمكث امير طويلاً ذلك اليوم ، بعد ان شعر وبدون  
شك بالاسئلة التي تجول في فكرنا . فجأة بدأت المراوغات  
حول تعليمي الكردية وزيارة مدينته ، وكل الاسئلة فيسّر

المجابهة عن والده ، من يكون وماذا يعمل ؟ حتى الاسلوب الذي كان يتبعه امير في تجنبه اخبارنا اين يسكن ، كل ذلك بدأ يظهر الى الوجود ويشغل حيزا من تفكيرنا . لم يكن قد قام بأي اجراءات لتعليمي الكردية . والآن كان قد عرض علينا ان يقدمنا الى والده وبعدها وبدون أي توضيح سحب الدعوة . سألت جيرد :

— لماذا تظن انه لا يرغب في ان نرى والده ؟

فأجابني :

— لاأظن ابدا ان والده قد اتى الى ريزاي .

— اذا لماذا اخبرنا انه قد جاء ولماذا اصر على

دعوتنا ؟

فأشار جيرد :

— لقد دعينا الى اماكن عديدة قبل هذا ولم يكن

الناس يعمنون اخذنا فعليا .

ذلك صحيح . فالشكليات كانت ترفع رأسها المنافق في كل مرة كنا نقدم فيها دعوة او نتلقاها . لقد كنا قد توصلنا الى النقطة التي لن نسمح فيها لأنفسنا بأن نظهر لهفتنا لأي دعوة ، مهما تكن مغرية ولم نقدر ان نتأكد ابدا فيما اذا كان الناس الذين ندعوهم سيلبون الدعوة أم لا . كان موقفنا هو الانتظار ومشاهدة ماسيجري عندما كانت الساعة المحددة تقترب . كان امير على الاقل يأتي دائما الى منزلنا عندما كان يقول انه سيأتي وكان ذلك ، قياسا مع الناس الآخرين ، أفضل بكثير بما فيهم الجعفريين . كان الجعفريون يفضلون ان يكونوا الى جانب تقديم الدعوات اكثر من أن يكونوا الى جانب هدف تلقي حسن الوفادة من جانبنا . اما امير فقد بدا على العكس من ذلك .

ان سلوك امير الضامف نزع اعترافا من جيرد . فلو ان اخبرني ان الكتابة والحزن كانا قد أخذنا من نفسه موقعا في الفترة

الاخيرة ، لأن واحدا من تلامذته المفضلين في الكلية ، وهو زميل  
لامير ، كان قد اخبر جيرد بأنه سيعلمه الكتابة المسمارية  
وبعدئذ وبعد ان أخذ درسا ممتعا رفض الطالب أن يلتقي معه  
شانية . والسبب في ذلك هو أنه سيفقد كل اصدقائه اذا شوهد  
يبتسكح مع مدرس امريكي . وقد اقر جيرد احتمال ان امير  
قد شعر بنفس الشيء . وبعد ان فكرنا قليلا تذكرنا انه على  
الرغم من عروضه فان امير كان قد تجول معنا في الطريق فقط  
لعدة مرات في بداية علاقتنا . ومنذ ذلك الحين كان ينكث  
بعهده اويتجنب كل الدعوات والعروض لروءيتنا في أي مكان  
سوى داخل منزلنا وعادة في الليل .

لم يقم أمير بزيارتنا لمدة اسبوع تقريبا وبعدئذ  
ظهر فجأة في احدى الامسيات في الساعة التاسعة ، فسأله جيرد  
بملاحظة :

- أين كنت ؟

لقد كنت مشغولا جدا بالبحث عن مسكن جديد ، عن مكان  
افضل بحيث يكون مناسباً اكثر لدعوتكما الى الغداء .  
فقال جيرد :

- هاه . .

بدا امير متضايقا من ذلك . وتابع جيرد قائلاً :

- انت لا تريدنا أن نأتي الى منزلك لتناول الغداء  
أو بالاحرى ، لماذا تتردد علينا ؟ هل أنت من السافسك ؟  
شحب وجهه أخيراً ، ولم يتفوه أحد منا بكلمة لمدة دقيقة  
فشعرت بقوة خارجية تحثني على تغيير الموضوع ، كيف وصلنا  
الى هذه الدرجة من عدم الثقة ؟ . ماذا جرى لكل ذلك الحسب  
والدفع ؟

حدثت في امير الذي لم يقل شيئاً يدافع به عن نفسه أو شيئاً  
يعيد الطمأنينه اليه . فتركت جيرد يواصل ذلك .

- لماذا دعوتنا لمقابلة والدك بينما لم يكن هنا ؟

- أنا اسف جدا لذلك ، فقد كان عليه ان يعود  
فجأة الى البيت . ولاكون صادقاً معكم فأنا ووآلدي لسنا على  
مايرام في علاقتنا معا لقد تخاصمنا فقرر المغادرة . فقال  
جيرد :

- لاأصدقك .

اخفض أمير نظره الى الاسفل وقال ببساطة :

- لااصدقك هي عبارة قاسية اينما كانت .

في ايران حيث يلوث الكذب عجلات التفاعل الاجتماعي على  
نحو روتيني يكون السؤال الصريح عن صحة اقوال احد مسأ  
شيء غير وارد ابدا .

التمع في ذهني تصور كان يفكر فيه امير فقلت :

- لاأظن أن امير يصدق ماقلوه نحن أيضا .

فسأله جيرد .

- هل هذا صحيح .

- انت لاتصدق اني فعلا قد اتيت الى ايران

لاكتب رساله الدكتوراه عن الكردية اليس كذلك يا أمير ؟

نظر الينا امير وقال وهو مغمم بالامل تقريبا :

- حسنا انت صغيرة جدا لتحطلي على شهسادة

الدكتوراه .

- لقد اخبرتك ان عمري خمسة وعشرون عاما .

فقال أمير بشفوة :

- عمرك لم يبلغ خمسة وعشرين عاما . فلا أحد من

الطلاب يصدق انك في سن الخامسة والعشرين تهدين أصعسر

بكثير .

فسألته بالحاح :

- ولماذا اكذب ؟ ولماذا اتظاهر بأنني أكبر

مما أنا عليه ؟ رفض أمير ان يجيب على سوء الي او حست

أن ينظر الي .

- انت لاتصدق اني ادرس الكردية أيضا اليس

كذلك ؟ .



- لاء حسنا لريما تدرسين الكردية تقولين انك تهتمين بالكردية ولكن هل يمكنك أن تقومي ببحث وانت بعيدة عن جامعتك ؟ ان الطلاب يقومون بالبحوث في احدى الجامعات وانت الآن في ايران . لذلك من غير معقول انك تعديين بحثا .

دار في خلدي احتمال تقبل امير حكابتنا مؤقتنا كنت قد توقعت أن اشك فيها بعض الشيء ولكني بدلا من ذلك وجدت عدم تصديق كلي وانكارا لكل ماكنت قد وضحته عن نفسي ، عن كل شيء كنت قد ابدت اهتمامي به على مدى الاشهر الثلاثة الاخيريه واخبرته عنه . كنت قد حدثته على نحو متواصل عن عملي الاكاديمي ، عن خطتي للبحث ، وقبل كل شيء عن اسباب رغبتني في المجيء الى ايران . كل حديثنا ذاك ، كل كلمة منه حاكما هذا الشاب ابن المدينة الصغيرة ، ومن الواضح انسه رفضها بعد دراستها في عقله . قاومت دافعا يملي علي تلمس وجهي لا طمئن على حقيقة وجودي . لقد بدا امير في تلك اللحظة قبيحا وحتى مرعبا . فكيف لي أن استمر بالحديث معه ؟

سأله جيرد بهدوء :

- هل تظن اننا من عناصر ال ( سي . آي . اي ) ؟

فقال امير :

- لا ، لا اظنكم منهم .

- اذا ماذا نحن ؟ ماذا تظن ؟

نظر اليها امير وقال مدافعا عن نفسه :

- لم يمر وقت طويل على معرفتي بكم . لا اعرف مسن

انتم . ان التعرف على شخص ما والثقة به يتطلب وقتا طويلا .

- ولكن كيف لك ان تعرفنا اذا كنت لاتصدق شيئا مما

نقوله ؟

لم يجبه امير على ذلك . ولم ينصرف مباشرة على

الرغم من اننا ، انا وجيرد شعرنا - ودون ان نقول شيئا - باننا نكاد لانستطيع البقاء جالسين وننظر في العينين الواسعتين

المتألمتين والشفة السفلى البارزة للحظة اخرى . كان كما لسو  
اننا كنا قد اتخمتنا انفسنا بالفستق وحتى ان مجرد روعيته  
تجعلنا نمرض . لم يكن أمير ، ذلك الذي كنا نراه امامنا ،  
بل بساطتنا المجسدة وسهولة انخداعنا ، وقابليتنا للتجريح  
والتفليل . لم يكن شك أمير وارتيابه فقط ، قد ولد فينا  
ذلك الشعور ، بل ايضا تخلص نازي مني بالمكر واهانات الرجل  
الثمل ، وغضب السيد اسيابي وتحفظ السيد خليلي . كان الاكرا  
والاثران قد قابلونا على نحو مماثل . واطلقوا علينا حكما  
ولفظونا ، مغرقين في ذلك . وهأنا ذا اتفحص خيطا ملحولا  
بعناية اكثر ، الخيط الاخير على ملهه . ذلك الذي سيفودنسي  
الى كردستان .

استمر أمير في الجلوس على طاولتنا ، يحدق فسي  
احدنا ثم في الاخر . لم يصدق حقيقة اننا قد تحولنا ضده  
على هذا النحو الكلي . كان قد احتفظ بشكوكه لنفسه ، جالسا  
بصمت كل هذه الساعات ، وكل هذه الاسباب التي افشينا له  
فيها عن مكنونات قلبينا . لماذا اجبرناه على قول ما كان  
يفكر فيه ؟ فقد كان كل شيء مبهما جدا . لقد كان يتعلم  
الكثير من الانكليزية . لماذا كان الامريكيون متبلدي الذهن ،  
مديمي الحس وحاسمين لهذه الدرجة ؟ نظرنا اليه بوجوه خاليه  
من التعبير وأخيرا نهض ليفادر والدموع تلتصع وراء نظارته .  
كنا أنا وجيرد ننساقش بين الفينة والاخرى احتمالية كون  
أمير عنصرا من السافاك الذي كان قد عين ليكتشف ماذا كنا  
نعمل في ايران وكدفاع اخير ضد غضبنا أوحى الينا أن ثقته  
قد تداعت ضد رغبته ، وانه كان قد خاض تجارب رهيبه كانت  
قد ظهرت الى حيز الوجود في بوكان واننا كأمركيين  
لانستطيع تصورهما .

- ماذا ؟ ماذا ؟

عاجلته بالسوء ال هذه المرة ، ولم يقدر ان يبقي غامضا . قال  
انه كان قد استدعى من قبل البوليس السري لنشره جريسة

طلابية في مدرسة ثانوية . وكان والده قد استدعى من المنسزل  
ليقف معه ويستجوب هو أيضا . وسألته دون أن أبدى أى تعاطف  
معه : - هل عذبت ؟ هل سجنت ؟  
فأجاب معترفا :

- لا ، لا شيء من هذا القبيل . ولكنني روعت حتى  
الموت . لكن اعتراف امير جاء متأخرا جدا وفي نهاية جلسات  
اعترافات عديدة اخرى . لم اعرف ماذا اصدق . لقد كان  
كرديا ، كان يتجول مع الطلاب الاخرين ، وكان يتكلم الكرديية  
هذا كل ما عرفته ولم اقدر أن ادرك اكثر من ذلك . من الذي  
كان قد ظفر باخلاصه المتذبذب ؟ هل هي النقود التي حملته على  
ذلك أم الخوف ام الحس الوطني الكردي ؟ اذا كان لا يثق بنا  
فلماذا كان يرغب باصرار في مناقشة الامور السياسية ؟ لقد  
كانت تلك علامة سيئة في ايران ، حيث كان من المعروف ان عناصر  
السافات فقط يتحدثون عن مثل هذه الامور .

بقبنا الآن لوحدنا ومعزولين حقا . فلم تكن هذه  
مثل الحادثة التي جرت مع السيد اسبابي . لاننا لانستطيع  
الاعتراف للناس عن نوع العلاقة التي كانت تربطنا بهذا الشاب  
فمثل هذا الاعتراف سيسبب ضررا اكثر . لم نستطع أن  
نناقشه مع امير صديقنا الحميم سابقا . لمت في نفسي  
الناس الذين طلبت منهم افكار تمهيدية عن الاكراد . فكرت  
في الجعفرين ، بهيئة الاداعة ، في المدرسين في الكلية ،  
واقصيتهم جميعا عن تفكيري . كان من السهل في أمريكا الاتحال  
بالاكراد القلائل الذين كانوا يقيمون هناك قبل ان اغادرها  
فقد هتفت لهم ببساطة وقدمت نفسي لهم . ولكن في ايران النسي  
لم تكن فيها الهواتف عمومية ، لن يجدي ان اذهب الى منازل  
الناس واقول لهم انني ادرس الكرديية . فبدون الاتصالات المناسبة  
ويدون الاعتماد على سنوات من تعزيز الثقة ، كانت وسيلة  
الاتصال وجها لوجه بغير معنى . كان مثل محاولة صرف شيك  
في مصرف في مدينة امريكية بدون " ID " .

كان انعدام الثقة سيننا وبين امير مثل حدوث تصدع في الحقيقة . فمذ الآن وصاعدا ، اصبح لكل كلمة وكل فعل معنى مضاعف وخفي . اصبحت الآن اكثر يقظه لملاحظات الناس بكثير مما كنت عليه في أي وقت مضى . فعندما اخذنا احدهم من الكلية الى المنزل بسيارته وقال في نهاية الرحلة : متى ستشترى سيارة ؟ ادركت من كلامه ان كل عنصر في الكلية يمتلك سيارة سوانا نحن، وان اعضاء الكلية الآخرين يمتعضون من توصيلنا وفي نفس الوقت يشعرون بأننا خاشنون لمنزلتنا الاجتماعية لأننا ركبنا حافلة المدينة مع العمال والطلبة .

لم أعد متشوقة الى قبول أي دعوات ، لأنني لم استطع ان اميز بين الدعوات الحقيقية وتلك التي كانت مجرد حركات ايمائية وفي الحقيقة بدأ ينتابني احساس ، كلما عرض احدهم شيئا ما علي بأنه مقصور علينا فقط بقصد الازعاج . فقد كانت تلك الدعوات والابتسامات والترحيبات التي لاتعني شيئا تبدو لي مثل مضايقات بحتة .

ظهرت حواجز غير مرئية في كل الجهات ، وبدأت افقد القدرة على رؤية الاشياء وفقا لعلاقتها واهميتها الصحيحة والنسبية وأيضا الثقة التي كنت املكها يوما في مجتمع كنيست اعرف كيف اتصرف فيه وكيف اجد المعلومات عندما كنت اريدها . بدأت امطار الشتاء بالهطول ، فبدت السماء والجبال اكثر قربا ، ما جعلني اشعر وكأنني مطوقة بداخلها . ايسن كانت كردستان ؟ نظرت باتجاه الجبال حيث كان الثلج المنساقط مبكرا قد حول القمم الى اشكال مخروطية بيضاء . هل الاكراد موجودون في الجانب الآخر فقط من هذه الجبال في العراق وتركيا؟ لا بل انهم هنا بالقرب مني تماما ، تحت السماء ذاتها . ينظرون الى الجبال نفسها . دأبت في البحث عن الشخص المناسب الذي سيعرفني بالناس المناسبين وعن الكلمات السحرية لأقولها والتي ستجعل الجن يظهرون .

الجزء الثاني  
على محور كردستان

## الفصل السابع

ان تكون وحيدا في ايران ، فهذا يعني انه قد حلت عليك اللعنة . في البداية سيفسق عليك الناس ولكنهم اذا ظنوا انك تتجنب أناسا آخرين عن قصد فانهم سيصبحون شكاكين حالا . على النساء - على نحو خصوصي - الا يبقين وحيدات ، فكلما كان يذهب جيرد ليمارس التحدث بالفارسية مع الجيران ولم اكن معه ، كانوا يحثونه على العودة الى منزلنا لأخذي . وبعد ان اوضحت لهم اني اعلم في فترات المساء فانهم وللتحقق من هـالمعلومات ، كانوا يحدقون من نوافذهم باندهال ، يراقبون المرأة الامريكية المجنونة والمنعزلة وهي تعمل على الآلة الكاتبة الخاصة بها .

وكغرباء فقد علمنا حالا بأنه لايمكن لنا توقع قضاء وقت مع الناس وهم مرادى . وفي كل مناسبة تقريبا كنا ندعوا فيها شخصا مالمذهب معنا الى مكان ما فقد كان يظهر شخص آخر اضافة الى الشخص المدعو على الاقل . كان ذلك من الاسباب التي حدثت بي للمضي لروية النساء الكرديات - حيث قابلتهن اخيرا - والذي كان يشير اعصابي . لقد كن دائما على شكل مجموعات بينما كنت انا لوحدي وماكنا نقدر ان نحدد مواعيد للقضاء في محل عام او مطعم مالتناول الشاي والطعام . فالنساء لايرين ابدا في المحلات العامة ، وقد كن يذهبن الى المطاعم فقط برفقة ازواجهن أو آبائهن . لذلك كان امامي خياران : أما أن اقدر على الذهاب الى منازل هؤلاء النسوة أو أن تعامل معهن جملة ، او الا اراهن على الاطلاق .

بالاضافة الى عدم وجود والدتي او أي شخص آخر من اقاربي

ليشكل مصدا دفاعيا اجتماعيا ، كانت ثمة حقيقة مدهشة أيضا وهي انه لم تكن بيني وبين جيرد صلة قرابة قبل أن نتزوج كان الاكراد دائما يسألون عن هذا ، متعجبين من كيفية لقائنا كان يجب على الاقل ان نكون اقرباء بحكم الزواج وبذلك فسان قريبا لنا يمكن ان يكون قد ذكرني لام جيرد ، حتى قدرنا على اللقاء ضمن هذا التقليد الاجتماعي اللائق معتمدين على العلاقات العائلية على وجه الخصوص . وبدلا من ذلك فقد التقينا لوجدنا ، بعيدين عن عائلتنا ، وفي جامعة ذات اجواء موضوعية تماما حيث لايمكن لأحد ان يعرف كيف كان سلوكنا قبل أن نتزوج .

بعد طول انتظار ، قرر السيد خليلي ان يعرفني الى امرأة كردية . فقد هتف الى مكثبي في الكلية لينبئني بالاجراء وليحدد موعدا لنا لنذهب الى منزلها سوية . صبرت على الانتظار بصعوبة . درست صفوفي واسرعت في القيام برحلات قصيرة الى البازار ، ومضيت الى النوم ومكثت افكر طوال تلك الليلة بالمرأة الكردية هذه .

عندما ظهرت عند فدخل غرفة الهيئة الكرمانجية فسي اليوم التالي التقط السيد خليلي الهاتف وطلب رقما واخبر شخصا في النهاية الأخرى اننا في طريقنا اليه . لم يقل السيد خليلي شيئا عن المنزل الذي كنا ذاهبين اليه . وكل ماكنت اعرفه كان اسم المرأة التي تكلم معها على الهاتف وهو مريم اوبلباقه اكثر ، مريم خانم ، السيدة مريم .

دخلنا الى شارع بهلوي وقد كنت اعرفه ، وهو أحسن الطرق العاقبة الرئيسية في المدينة . نادني السيد خليلي الى منزل يقع خلف بقالية غالبا ماكنت اتعامل معها ، وصعدنا السطح الاعلى حتى وصلنا الى باب معدني ازرق باهت ودق جرسه . اجابتنا امرأة ذات وجه وردي وخصلات من شعراشقر قد فرت من تحسنت وشاحها البرتقالي الزاهي . وبعد ان اخبر السيد خليلي المرأة

ذات الوجه الوردى من اكون ودعنا وهم بالمفادرة . حدثت بفزع في شخص ذي بذلة سوداء يتمشى بعيدا في الشارع . ممن سيقدمني لمريم خانم ؟ فقد احسست ان المرأة التي بالسباب ليست مضيفتي ، ولكن من تكون ؟

قبل ان تتاح لي فسحة من الوقت لاصاب بالذعر امسكت المرأة ذات الوجه الوردى المبتسم بيدي وقادتني الى الداخل . اغلق الباب المعدني بصوت مكتوم ومن خلال ضوء خافت ميّزت قاعة خالية من الاثاث ومعتمه وفي داخلها زوجان من الحمامات الرمادية الاليفة تطوفان ارجاء الغرفة ذات الارضية المكسوة برقاقات الفلين وهما تهدلان . وبرشاقة مدت المرأة يدها ورفعت حقيبتى وآلة التسجيل الثقيلة عن كتفي . ماكنت قد سجلت بعد شيئا منذ محيىي الى ايران وفي الحقيقة كنت قد سنتت لنفسي مبدأ بآتي لن احاول ان اسجل لأحد الى أن يعرفني وبثق بي ، مع ذلك ، حملت الالة معى وكنت قد بدأت اخشى الابرغني احد اوبثق بي . ربما كان علي ان ابدأ التسجيل كلما سنحت لي الفرصة .

وحالا اشارت الي المرأة الكردية ذات الوجه الوردى بلباسها الكردي المتألق ان اتبعها الى الاعلى . وقد كانت الدرجات هي ايضا جرداء وكانت تكسوها رقاقات فلينية وسخه . مثل ارضية الرواق ، وكان يغطي زجاج النوافذ الخشن خطوط من الوحل وقد كانت مظه على الشارع على طول بيت الصدرج . وصلنا رواقا آخر عند نهاية الدرجات وكان يحتوي على ثلاثية ضخمة . ومن ثم وجدت نفسي واقفة فجأة في مدخل حجرة حيث كانت قد وضعت مجموعة من الاجذية والخفاف المطاطية فسوق حمير . سمعت هسهبة فتيات ودمدمة اصوات ، وبدون أي انذار وجدت نفسي وجها لوجه امام حجرة ممتلئة بالنساء الكرديات . لقد كن جميعهن واقفات ينتظرنني كي ادخل . وبحركة غير رشيفة انحيت لأفك رباط حذايي الطويل ، فصاحت العديديات منهن



كى لا اخلعه ولكنى لم ارواحدة اخرى قد ابقت حذائها حتى داخل  
الحجرة وعندما دخلت بقدمي المكسوتين بالجوارب ، لاحظت ان  
الحجرة كانت قد دثرت وزينت كأنها عليه جواهر . ركضت احداهن  
الى الزاوية لتحضر كرسيها مطويا ولكنى رفضت هذا ايضا فلم تكسن  
أى منهن جالسة على كرسي .

كنت اقف وسط حلقة من السيدات - سيدات حقيقيات بملابسهن  
الظويلة القضاضة وطبقات من الاثواب والسراويل والجوارب القصيرة  
المحاكة يدويا . وفي مخدع مستلج بالالوان المميزة ، وكل جهة  
منه مزينة بمناديل معبوكه واقمشة مصنعة آليا مزدانه بالرسوم  
والصور . كانت مرايا وقوارير عطور متقنه الصنع ، ممتلئة بسوائل  
مختلفة الالوان قد احتلت مكانها فوق طاولة زينة قابعة في  
الزاوية . بهرني كل ذلك . كانت احداهن تدفعني الى مقعد  
تحت الخافذه واندفعت واحدة اخرى الى عدة من صناديق  
الملايس وانتزعت من فوقها وسادة مغطاة باطلس واقمحتها خلف  
ظهري عندما حاولت الجلوس . رغبت بشدة في النزول لاجلس  
على الارض ، عندما ادركت ان كل الانتباه كان موجها نحوى  
وفي النهاية ربت وضعي وفق رضاهن ومقيت احاول تغطية ركبتى  
العاريتين بقميصى البني القصير . كان لزاما علي الان ان افتح  
فمى واتحدث . فساد الحجرة صمت منطوعلى توقع للحدث

قدمت المرأة الجالسة بجانبى ، المرتدة ثوبا خارجيا باهتا  
بلون الماء مع طبقات من ظلال اخرى من البسة زرقاء كانت تلسوح  
من تحته ، قدمت نفسها بهوت خافض واحن على انها مريسم  
وببطء وهدوء شديد س شعرت انهن سيفقدون صبرهن فاجبتهن  
على اسئلتهن ، من اكون وماذا افعل فى ايران ، الى اى درجة  
احببتها وفيما ادا كانت ابرار اسئل ام امرى . لم استلسع  
ان ازيل نظرى عن مريسم ففقدت كالمعادى . بان ذهبيمة

في مقدمة فمها . كان شعرها احمر . ربما بسبب الحناء ، ولكنـه كان يناسب بشرتها الشاحبة تماما . كانت عيناها اصفى وأكثر زرقة من أي الوان زرقاء في لباسها ، وكان حنكها يبرز الـ الامام ، فيسم وجهها بمظهر رجالي متناسب مع هيئتها الصارفة وصوتها المنخفض . ربما انها كانت مضيفتي فقد افترضت انها صاحبة المنزل . سيقدم لنا الشاي الآن ، فالمرأة ذات الوجه الوردي آتية عبر المدخل وهي تحمل طبقا عليه كؤوس صغيرة ممتلئة بشاي أحمر بني شديد التركيز وثمة امرأة اخرى مرتدية ثوبا حريريا رقيقا احمر اللون مزركشا بفراشات مزبنة بنشار معدني لماع كانت قد ذهبت الى خزانة الثياب الخشبية القابعة في الزاوية واخرجت اربع علب صينية خزفية ووزعتها في ارجاء الغرفة فوق البساط . كانت العلب تحتوي على قطع من "القاند " السكر لتوضع بين الاسنان عند رشف الشاي . حدثت في كتل السكر ، محاولة ان التقط المقـسـدار المطلوب . وفي عجلة شديدة اخترت قطعة ضخمة وحاولت بعد ذلك وبحركة غير بارعة ان اقطعها الى اثنتين . استمرت النسوة يراقبني وفي ثوان قلبلة صرخت احدهن للخادم كي يحضر ملعقة ، فاعترضت على ذلك بحماس والحاح لدرجة ان الملعقة لم تجلب .

السكر اساسي نصر عندما شربت الشاي ، الكأس تـلـو الآخر فحلما كنت اتهي كاسا كانت الخادمة أو المرأة ذات الفستان الاحمر تأتي و، ملوئه ثانية .

— هذه عروسي .

قالت مريم هذا وهي تضع يدها حول خصر المرأة ذات الرداء الـالـحـمـر التي كانت قد قبلت لي الشاي للتو . حدثت فيها متسائلة عما كنت ستفان يعني ذلك . كنت اقول ان كلمة " بولا " تعني العروس ، ولكنـه كيف يمكن أن تكون عروس مريم ؟ لم اكن اعرف بعد أن العرائس في كردستان لسن — ولدقة الحديث — خاصة ازواجهن ، بل ايضا خاصية عائلة ازواجهن وعلى نحو خصوصي امهات ازواجهن .

كنت قد قرأت أن أكثر الانماط شيوعاً للزواج في كردستان هو الذي يحدث بين اولاد اخين ، ما يدعى بزواج الـ " فابرودا " وهذه العادة مناسبة من وجهتي نظر : انها تحتفظ بالارض لتبقى ضمن العائلة وتهدف الى تخفيض مهر العروس الذي يمكن ان يكون مبالغاً باهها . تساءلت وانا امعن النظر في مريم وخديجة فيما اذا كانت بينهما صلة قرابة قبل زواج خديجة من ابن مريم . لقد بدت من الناحية الجسدية مختلفين تماما ، وكان من المستحيل بالنسبة لي ان اطلق حكما عن ماهية شعور احدهما تجاه الاخرى في هذا الموقف المتمم بالوسميات البالغة . ولكنني كنت قد احسست مسبقا بشباب خديجة الممتلئ حماساً وحيوية بالمقارنة مع صرامة مريم المسيطرة .

اعتبرت مريم انه من الاساسيات اخباري ان خديجة ، كنتها وهي ايها ستسعدني في تعلم الكردية ، فقد بدت مريم متحمسة تماماً لعزمي على تعلم لغتها . بينما سألتني النساء الاخريات بشغف عن حياتي الشخصية ، هل انت متزوجة ؟ ابن هو زوجك ؟ هل لديك اطفال ؟ ولم لا ؟ كانت مريم قد اعدت نفسها مباشرة لمهمة التأكيد من اني عرفت الاسماء الكردية لكل الاشياء الموجودة في الحجرة .

ان صدى عدم براعتي في الكردية بلغ حد سمعي . وقد كانت مريم مهذبه ولبقة جدا معي ، تنتظرني بصبر حتى اصحح اجوبتي وتكرر الاشياء اذا بدوت مرتبكة . ولكنني استغرقت من الوقت دقيقة او دقيقتين اضافيتين لكي اعالج بسلسلة من التكرار حتى ابسط الجمل . وسيكون متحدثاً نادراً في أي لغة ذلك السدي يستطيع أن يهمد مع هذا طويلاً . فانا نفسي كنت قد اخبست طلابي في الكلية بأنني لن ابطء في كلامي اليهم لان ذلك لن يكون انكليزية حقيقية .

ولكن هؤلاء النساء الكرديات - ولا أظن أن أي منهن كانت قد خاضت ليوم واحد تجربة تدريس رسمي في حياتها - كن

صابرات بما فيه الكفاية ليتحدثن لي بكردية دقيقة .

كنت استخدم الرموز اللفظية لأنسخ كل الكلمات التي علمتني اباهـا مريم ، وآلة تسجيلي تتبع عاطلة عن العمل . ارادت احدى النساء الحاضرات أن تعرف اذا كان بمقدوري فعلا أن انطق الكلمات الكردية تلك بنفس الطريقة التي من المفترض ان تلعظ بها . قرأت عليهن الكلمات التي كنت قد دونتها واحده تلو الاخرى . دمدت النسوة فيما بينهن فغد لاحظن أنني لم أكن استخدم الالف بـاء الفارسية . كيف كان لللفاظ ان تخرج بهذه الدقة بأحرف أجنبية غربية ؟ لقد كنا قد شاهدنا آلات التسجيل من قبل ، لقد كانت الكتابة كتدوين ورسم للصوت هي التي ادهشتهم . فبقدر ماكن يعرفه هو أن لغتهم لا يمكن أن تكتب . فهي لم تكن تستخدم في المدارس ، ولم يكن ثمة قواميس قياسية للتهجئة . بدأت النساء تدريجيا بتقليل الحديث معي والتحدث مع بعضهم البعض أكثر . كنا قد ارفقنا انفسنا ببذل الجهد للابقاء على التواصل . لم يكن هناك الحاجز اللغوي فقط لنقاومه ، بل ايضا كان الحاجز الثقافي موجودا فحتى هذه اللحظة كان بمقدورنا فقط ان نجلس ونطرح على بعضنا البعض الاسئلة . كان قد هالني ضخامة عددهن لذلك لم أسالهن عن شيء سوى لغتهن . ولكن على الرغم من فتسرات الصمت الذي سأقبله على انه امر سوي عندما نعرف بعضنا على نحو أفضل فقد استمر التواصل . لقد سمح الوقت لهن أن ينظرن الي بانتباه وبتسمن ولكن خديجة كنة مريم كانت تبتسم لسي ابتسامة عريضة باستمرار تقريبا . تخيلت حماسا مسليا في هاتين العينين الرماديتين المطوقتين بالكحل الاسود ، وتمنيت لو أنني مع خديجة لوحدا ، لم تكن معبة مثل مريم ، وحكها لم يكن يبرز الى الامام ولم تكن تلفت النظر ببشرتها المكسوة بالبشرات وأنفها المعقوف . وقد بدت لي أكثر الموجدات ودا وأكثرهن امكانية في الوصول اليها ممن في الحجرة . وبطريقة ما وبدون أن أعرف ، خالطني شعور بالرباط المشترك بيننا . فقد كانت خديجة العروس الجديدة لا تزال غريبة مثلي في هذه الحجرة .

مضى بنا الوقت والشاي لايزال يقدم ، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية وقت التدفق الذى كان ينصب في كأسى . أصبحت اشعاعات ضوء الشمس تميل بشدة أكثر فأكثر صوب الحجره جاعلة نشار الألوان أعمق وأكثر تنوعا عندما بدأت أتأمل الساعة الضخمة التي تعمل بقوة البطاريات وهي تدق على الحائط ، لقد مضت ساعتان فقط منذ وصولي . ولكن التعب قد أنهكني ورأسي يضج بغمغمات مختلطة بسبب الكافيين الموجود في الشاي . كيف يمكن لي أن استأذن الرحيل ؟ بدأت أشعر بالقلق حول الكلمات التي سأحتاجها لاخلص نفسي بأدب من هذه الحجره التي بدأت تعتصم وترتفع حرارتها وتحبس الانفاس أكثر ، وعلى نحو غير بارع اندفعت واقفة بعجلة فسألت مريم متوقفة في منتصف محادثة أخرى كانت قد بدأتها .

– ماذا تفعلين مارغريت خانم ؟

– على أن أذهب الى المنزل الآن .

قلت ذلك بطريقة غير متقنة ، مدركة على نحو متأخر بأنه لن يكون لي ثمة مخرج لبق . ببساطة لم أكن أعرف كيف أجد لي مخرجا . وصاحت بعض النسوة الأخريات :

– ابق ، ابق .

وكررت مريم قائله :

– نعم يجب ان تبقي .

فقلت :

– ولكن علي أن اذهب الى المنزل لاجهز الطعام .

فأجابت مريم :

– تناولي غذاك معنا .

– ان زوجي ينتظرني

– اذهبي وأحضري زوجك لتناول الغذاء .

هل كن جادات في دهوتهن رجلا ؟ اين سينتهي تفهيف هذه الدعوات ؟ لم تهد الدعوات وكأنها من ضمن نظام الشكليات

ولكن ماذا اعرف عن ذلك ؟ وككل مرة أغريت بالقبول . ولكنني كنت قد تعلمت اخيرا واخذت درسا، لن اقبل أي دعوة اخرى ثانية أبدا بمعناها الظاهري .

ـ شكرا جزيلاً . ولكن علي أن اذهب .

قلت ذلك شاعرة بالابتسامة وقد ارتسمت على وجهي ، عرفت انهن قد قبلن رفاضي ، لان جميع النساء قد نهضن الآن في دمدمة وصخب عظيمين . اجلت بنظري باهتياج شديد في ارجاء الحجرة راغبة في اخذ آلة التسجيل والذهاب بسرعة كي لأيمضين في الوقوف أكثر . ارجعت خديجه جهازي الي قبل ان اصله ومن ثم تبعتنني الى خارج الحجرة . وقبل ان نقدر على النزول عائدتين معا فوق الدرجات حتى الباب الامامي ، كان علي ان انحنى ثانيا عند ربط حذائي الطويل الذي كنت قد تركته فوق الحصير . جميع النساء الموجودات في الحجرة لبثن واقفات يودعنني مرات عديدة قبل أن اعتدل في وقتي وعند الباب في الطابق السفلي ناولتني خديجة حقيبتني ومسجلتي وودعنني بأمنيات طيبة .

خرجت الى ظلمة اول الليل الكثيبه . كان الرجال ببذلاتهم الغامقة الرثة يسرمون الى المنزل بعد عودتهم من العمل ، بينمسا كانت النساء المحجوبات عن النظر بأغطينهن السودا . ينتقلن من دكان غداء صغير الى آخر ، وهن يدسن سلالهن تحت عبائتهن . كانت الالوان الحيوية لفترة بعد الظهيرة قد تلاشت ولكنني عندما التفت ورائي ونظرت ، رأيت خديجة بفستانها الاحمر ولفاعها البرتقالي تنكس خارج مدخل المنزل مثل جنية وقد انبثق نصفها من المصباح .

اكدت لي مريم ، اجابة على اسئلتي الخرقاء أنها سعيدة لمساعدتي في الكرديية . فعرفت انه علي العودة الى منزلها حالا لكي اجعلها على المشروع في تنفيذ عرضها ولكنني ترددت، كانت هذه هي اتصالاتي بالمجموعة الاولى والحقيقية للنساء الكردييات، اللواتي

كن يقمن على بعد نصف دريئة من المباني من منزلي ، وقد كن ودوات ومرحبات بي كأى مجموعة من الناس كنت قد القيت بهاء ، ومع ذلك فقد كنت اخشاهن . لربما انهن قد ابديين اللباقة فقط . فمن المؤكد أن لديهن اشياء افضل للقيام بها بدلا من الجلوس طوال فترة بعد الظهر يحتسين الشاي ويعلمن الكردية لأجبيئة . لقد كانت الفكرة الاخيرة هي التي اوقفتني واستمرت في توقيفي لأشهر ، لى ان ادركت ماذا تفعل نساء الطبقة العليا الكردية حقيقة في ايامهن ، مع او بدون امرأة غربية تراقبهن .

وبقليل من التشجيع من جبرد ، قررت ان احمل نفسي الى المنزل في شارع بهلوي بعد عدة ايام ، حيث وجدت مريم جالسه مع امرأتين اكبر سنا منها في مهباد . لم تكن الحجرة محتشدة مثلما كانت في يوم الاول ، فبالاضافة الي والى خديجة كانت هناك اربع نساء اخريات . كان لباس النساء المهابديات يختلف عن لباس مضيقاتي . فقد كن يرتدين سترات قصيرة واحزمة مريضة ملتفة عدة مرات حول خصرهن مما تجعل اجسادهن تبدو ممثلة اكثر مما هي عليه .

بالاضافة الى الاختلافات الواضحة في اللهجة بين الكرمانجية الشمالية والسورانية الجنوبية ، يمكن التمييز بين الاكراد بسهولة في لباسهم وخصوصا النساء . ان التقسيم الشمالي والجنوبي للعدادات واللغة الكردية ينقسم في جزئي العراق وايران بينما يتكلم جميع اكراد تركيا ، سوريا ، الاتحاد السوفياتي الكرمانجية . وعلى الرغم من أن القومييين الاكراد يرغبون في قول أن هذه الاختلافات تافهه فقد ابدى العديد من الاكراد الشماليين ملاحظاتهم لسي بوضوح ، وهي ان لباس النساء الكرديات الشماليات هو اكثر جاذبية لان النساء الكرمانجيات لايبغفن الاحزمة الضخمة حول خصرهن ، وزيهفن يعطيهن مظهر ساعة رملية جذاب . ولكن حتى ولو ان الاكراد الشماليين يأتون في المقدمة في اسلوب زيهم ومن الناحية اللغوية فقد لحقهم الضرر في العراق على الاقل ، فعلى الاطفال جميعهم في كردستان العراق ان يتعلموا القراءة بالسورانية على الرغم من

حقيقة انها بالنسبة للبعض مختلفة جدا عن الكردية الشمالية المحكية في المنزل . لقد بذلت جهدا بالغاً لفترة ، لفهم نبرات هؤلاء النساء المهاباديات . هذه المرة قامت خديجة الجالسة بجانبني بأشياء أكثر من مجرد الابتسام بصمت . فقد التقطت خصلات من شعري وابتدت اعجابها بها . وثم امعنت النظر في وجهي واعلنت بصوت عال :

— اليست مارغريت جميلة ؟

كنت صامته ولكن بدا أن خديجة كانت غير منتبهة الى ارتباكي على الاطلاق ، واستمرت — في شروذ ذهني — تتلمس شعري وتنظر الي كما لو أنني طفلة . لم تبد مريم والمرأتان المهاباديتان متحمسات جدا ، بعد اسراف خديجة في التعبير عن عاطفتها . ولكنهن لم يكن غير ودودات ايضاً . ارادت المرأتان المهاباديتان مثل كل ضيفات مريم ، ان تعرفنا التفاصيل الاساسية : ماذا كنت افعل هناك ، الى أي درجة احببت ايران وفيما اذا كنت متزوجة أم لا ، وما ان تحول الموضوع عني هذه المرة وكنت قد شربت ثلاث او اربع كؤوس من الشاي ، قررت المغادرة . احثتني مريم على البقاء ولكن ليس بالاصرار الذي عهدته في المرة الاولى . مضيت بعيدا متسائلة من حقيقة شعورها تجاه زيارتي غير المتوقعة . تركت اسبوماً أو اكثر يمضي قبل أن اذهب الى منزل مريم للمرة الثالثة . رحبت بي خديجة كئنة مريم في عصر اليوم الذي عدت فيه اخيراً الى المنزل الواقع في شارع بهلوي . تمنيت أن تكون خديجة لوحدها لنقضي فترة العصر في الحديث لوحدنا لدى وصولي الى مدخل حجرة جلوس النساء في الطابق الثاني . فقد كانت الحجرة محتشدة بالضيقات . ترددت في الدخول ولكن خديجة كانت ورائي تدفعني برفق لداخل الحجرة . وعندما انحنيت بحركة غير رشيدة لأفك رباط حذائي الطويل ، نهفن جميعهن عدا امرأة ذات عكان خشبي كان الى جانبها .

— " تسه خير هاتي يسه " قدومك سعيد .

رحبت بي جميعهن في انسجام فاسرمت في الجلوس في المكان الذي



اشرن اليه ليجلسن هن أيضا . كانت جارتى هي المرأة المقعدة .  
كنا انا وهي الوحيدتين المزودنتين بالبطانيات والوسائد ،  
والاخرىات جميعهن كن يجلسن على البساط المجرد من أي اثاث .

عرفتني مريم الى كل امرأة باسمها ، وحاولت ان اذكرهن  
من لباسهن وملامحن ولكن كان من الصعب التركيز على أي شيء وأنا  
اعرف بأن جميعهن كن يحدثن ويتها من مع بعضهن البعض بأحاديث  
عني . قُدم لنا الشاي ، وبعد ان سُألت الاسئلة المألوفة عما اذا  
كنت قد احببت ايران ام لا ، وهل لدي زوج واطفال ام لا . عادت  
المحادثة الى مجراها الطبيعي . كان العديد من النساء حاضرات بحيث  
لم يكن باستطاعتهن الجلوس بصمت بينما تلقي احداهن علي الاسئلة .

بينما كنت احتسي الشاي بصمت محاولة ان التلظت كلمة  
من هنا وهناك دخلت الى الحجرة امرأة نحيفة ذات بشرة شاحبة  
جدا وشعر اسود .

- مارغريت هذه زينب . لقد عادت لتوها من طهران  
بعد ان عالجت اسنانها .

ابتسمت لي المرأة ، فلمحت لمعان الذهب في فمها . وحالما  
بدأت مريم بالحديث مع امرأة اخرى التفت الى جارتى وسألتها :

- من هي زينب ؟ هل هي اخت مريم ؟

فنظرت الي المرأة ذات العكاز الخشبي غير مستوعبة ومن ثم بسدت  
بالضحك وقالت :

- انها زوجة الحاج .

فرمت لدى ملاحظتي ان ضحك المرأة المقعدة كان قد ركز انتباهه  
جميع الضيفات على محادثتي . فكررت باندهاش :

- الحاج ؟

الحاج هو اللقب الذي يطلق على الرجال الذين أدوا فريضة

الحج . " رحلة الحج الى مكة " . صاحبت امرأة جالسة في نهاية  
الحجرة :

- حاج اسماعيل طبعاً .

كانت النساء جميعاً يراقبنني في هذه اللحظة . كن قد عرفن ان هنالك  
غريبة في وسطهن ولكنهن ماكن يعرفن كم كنت جاهلة . سألتنني  
احداهن :

- الا تعرفين من هي زينب ومريم وسوسن ؟

هزرت رأسي منفية ذلك . وقالت اخرى :

- انهن ضرائر " هشي " .

لاحظت ان النساء الثلاث المسميات كن صامتات وقد تركن الإخريات  
بوضحن . كتبت كلمة " هشي " في دفتر ملاحظاتي ورفعته  
رأسي . قالت احداهن :

- جميعهن متزوجات من الحاج :

فضحكت النساء باضطراب هذه المرة كما لو أنه لم يكن من الصواب  
تماماً التحدث عن الحاج . سألت زينب :

- الا يتخذ الرجال في امريكا اكثر من زوجة ؟

فأجبتها :

- هناك قانون يمنعهم من ذلك .

وشرمن في الحديث معاً مرة أخرى . وسمعت المرأة المقعدة تقول  
لجارتها :

- لقد اخبرتك أن امريكا مكان جيد .

كنت لا ازال افكر بما اخبرتنني به . من كان الحاج

اسماعيل؟ كنت قد لمحت اليوم مجموعة من الرجال يمرون بجانب  
الباب ولكنهم بدوا مابرين وكأنهم ليسوا مقيمين هنا .

اعتقدت اني عدت الى كوني غير منظورة ، ولكن احداهن

بدأت بالتحدث معي وقالت :

- مارغريت هل صحيح انك تريدان تعلم لغتنا ؟

اجبتها :

- نعم .

وعلقت احداهن :

- لقد زارت عايشة انكلترا .

سألته بلهفه :

- هل تتحدثان الانكليزية ؟

فأجابت :

- لبس تماما ولكني اريد نعلمها وسأعلمك الكردية .

تعالني الى منزلي اي يوم .

- شكرا .

اجبت بذلك متسائلة فيما اذا كانت تعني ماتقوله فهني لم تعطني عنوانها . بدأت بالنظر الى عايشة بتفحص اكثر عندما شرعت بالحديث مع امرأة اخرى . كان فستانها الاخضر الفاتح ذو القماش الشفاف المزين بخيوط فضية وخاتمها الزمردى واقراطها الذهبية الضخمة المتدللية ، كلها كانت رائعة . لم تبد الالوان المبهرجة والنظارات الملونة الموهطرة بالذهب الحقيقي زيبها المعتاد . سألتني المرأة المعقدة :

- هل ستذهبان الى منزل عايشة ؟

لم أكن أعرف أن هذه أم عايشة .

- لأعرف .

قلت ذلك على نحو غير بارع . فأكدت لي عايشة :

- تعالني رجاء فانا لست مشغولة جدا . انا مثلك

لبس لدي اطفال .

فسألته وقد تملكنتني فكرة اني لا استطيع ان اطلب منها ببساطة

ان تتحدث معي الكردية ولا اعطيها شيئا بالمقابل :

- هل بإمكانني ان اعلمك الانكليزية ؟

- حسنا .

قالت عائشة ذلك ، ففهمت النساء المحيطات بها . وقالت احداهن بصوت ساخر :

- لايمكن ابدا ان اتعلم الانكليزية . ولكن طبعا زوج عائشة رجل متعلم جدا . انه دكتور .  
فسألت المرأة :

- ماهي اللغات التي تتكلمينها .

فأجابت :

- الكردية ، طبعا والتركية والفارسية .

فقلت مبدية اعجابي :

- انت تتكلمين ثلاث لغات . بالتأكد تستطيعين تعلم

الانكليزية .

فاعترضت المرأة وهي مرتبكة :

- لا ، لا اعرف الكتابة .

بدا هذا التجمع ضخما على نحو غير مألوف وقد بدت مريم غريبة في سترة مراء قديمة فوق لباسها الكردي ، وعندما خطر ببالي ان أسال عن المناسبة اكتشفت ان مريم كانت تستعد لمغادرة المدينة لتتقضي الشتاء في قريتها . شعرت بالخيبة على نحو فظيع فمريم ستمضي الى قرية ما ، ولن اقدر على رؤيتها ثانية ، وكل ذلك لايحصل الا عندما بدأت اعرفها . راقبت المرأة التي زودتني بهذه المعلومات ردة فعلي بانتباه فسألتني :

- تظنين انه على مريم الاتذهب الى القرية ، اليس كذلك .

نظرت اليها مجفلة ، كيف كان لها ان تعرف ما يدور بخلدني ؟

بعدئذ ابدت المرأة اقتراحا :

- اذا ذهبت مريم الى القرية فان زوجها سيبدأ بالبحث

عن زوجة اخرى .

عندئذ غمر الضحك معظم الموجودات في الحجرة ، ولكنني كنت قد اضطربت ، ماذا كانت النكتة ؟ من هو زوج مريم ، وهل صحيح انها ستغامر بفقدانـه بذهابها الى القرية ؟ اين يسكن ؟ قالت لي مريم عند نهاية فترة الظهيرة تقريبا :

- اود أن تعلمي ابني الانكليزية هذا الشتاء .

أومات برأسي متحمسة . فالآن ستتومر لدي حجة جيدة للعودة ، لأن ابن مريم كان طالبا في الثانوية وسقضي الشتاء في المدينة . وفضلت فكرة مفايضة الانكليزية بالكردية معه ومع عائشة على غموض الزيارة من أجل الشاي . وعندما علمت ان رحما ، الابن سيكون في المنزل خلال ساعة انتظرت واحتسيت ثلاث كؤوس من الشاي وبعد الكأس الثالثة وضعت كأس علي جنبها ، فعلت ذلك ، كما فعلت النساء الاخريات تماما . وعندما قامت زينب لتعلا كأس شاي ضحكت ، فلفتت انتباه صاحباتها لكأس المقلوبة وبعد ذلك ولتكدر مزاحي سوت الكأس وصبت لي المزيد من الشاي . تركته هذه المرة ببساطة وبعد مضي فترة على صحبتي مع الاكراد عولمت كأس المقلوبة كالبقية تماما .

عندما غادرتنا بقية الضيفات ، فادتني مريم الى حجرة النوم التي كنا قد جلسنا فيها خلال زيارتي السابقة للمنزلها . نهض صبيان وسيمان بعيون زرقاء وحنكين بشبهان حنك امهما اثناء دخولي. صافحني طه ، الولد الأكبر ونظر في عيني تماما عندما تعرفنا على بعضنا ، ولكن رحيم اهدق في الارض رافضا أن يسلم بوجودي . وبما ان رحيم لن يكلمني فلم تكن هناك وسيلة حتى لتحديد موعد لأخذ الدرس . بعدئذ التفت الى طه سائلة اياه فيما اذا كان يرغب فسي مبادلة الدروس الانكليزية بدروس في الكردية ، ولكنه ضحك وكما لو اني قلت نكتة .

بعد ذلك تكلمت مريم مع رحيم بسرعة وقد استمر بتجنب نظراتي . في وسط ارتباكنا المتبادل سمعت صوت جلبة في خارج الحجرة .

فقد كان جرس الباب قد رن في الطابق السفلي ويعد ذلك بدقيقة رأيت جيرد يدخل الى الغرفة . وفجأة اندفعت كل النساء اللواتي كن قد بقين واقفات الى غرفة اخرى ، وهن يفتقهن وقد رفعن لفاحاتهن فوق افواههن . ولكن مريم بقيت مسمرة في مكانها ولم تبرحه ، عرفت جيرد عليها ، وبعد ذلك حان وقت الرحيل . تمنيت لمريم قضاء شتاء طيب ، واجابتنني هي بدعوتي لزيارة قربتها ، ولكن لم يكن لدي اي فكرة عن موقع تلك القرية ولم يكن هنالك متسع من الوقت لأسألها عن ذلك .

مع رحيل مريم شككت في الترحيب بي اكثر من أي وقت مضى ، وقد فكرت في نفسي مليا وناقشت مع جيرد امر المنصوب العسوية في هذا اليوم او ذاك . وكالمعادة نجحت في ايجاد عمل اشغل نفسي به . واخيرا وبعد أن تخلصت من كل الاعذار بطردها ، وجدت نفسي في مواجهة الباب المعدني الازرق .

هذه المرة ، لم تكن مريم وحدها هي التي ذهبت بل خديجة ايضا كانت قد اختفت ، والمرأتان اللتان وجدتهما - زينب ، صبرة مريم ، وناديا كنة مريم الثانية - كانتا تضحكان ضحكا نصف مكتوم عندما اخبرتاني ان مريم قد اخذت خديجة على مضض الى القرية ، لتقوم بعمل ما ، كما قالتا . لم استطع التخلص من الانطباع الذي حدث لدي انهما كانتا تهزآن مني ومن خديجة أيضا . وعندما جلست معهما ، ادارت زينب عجلة آلة الخياطة اليدوية بينما ارضعت ناديا ولدها ذا السنة الواحدة ، القبيح الى حد لفت للنظر ، حيسا كان ذا رأس ضخم حليق . كانتا تتحدثان الى بعضهما بسرعة وكان من الصعب علي ان التقط أي شيء مما كانتا تقولاته ونادرا ما تنتظران الي . وبين حين وآخر كنت ابذل جهدي لكي انضم الي محادثتهما ، فكانتا تنظران الي وكما لو انهما تحاولان كسح ضحكة . ازدادت شكوكي المضطربة وتنامت الى حد لم اعد استطيع معه ايقافها اكثر ، فمضيت الى المنزل ببطء ، وكنت اقف لأنظُر في نوافذ الدكاكين دون أن ارى حقيقة أي من البضائع المعروضة محاولة ان اجد معنى لهذا اللقاء الاخير المحير .

كنت قد احسست بالانقسامات والولاءات في عائلة مريــــــــم  
قبل ان اعرف عنها أي شيء بوقت طويل . فكنتا مريم ، كلستاهــــــــما  
كانتا دخيلتين . فهما لم تكونا من نفس العائلة كمريم وزوجها فقط ،  
بل أيضا لم نكون من نفس القبيلة . لقد كان اختيار خديجة مستحسنا  
فقد كانت هنالك مصاهرة مسبقة بين عمها وابنة زوج مريم ، قد  
مهدت الطريق للدخول في مفاوضات الزواج بين عائلتها وعائلة طه ؛  
اما زواج ناديا فكانت له قصة مغايرة تماما .

بالرغم من أن الخطيفة هي اسلوب مقبول للزواج في كردستان  
فان ذلك لم يسعد مريم عندما هربت ناديا مع ولدها الثاني الاكبر  
مسعود . لم تكن هنالك مفاوضات ولا احتفالات ولا موافقة الوالدين  
المسبقة . لقد كان ذلك من خيار العروسين نفسيهما ولكن كان على  
ناديا اكثر من مسعود أن تتعايش مع هذا الخبر . وقد سمعت مريم  
تعلق مرة وبعدم رضی بأن مسعود لم يبنه دراسة الثانوية ابدا بسبب  
هذا الزواج المبكر ، فقد كان لايزال في السن السادسة عشر بعد .  
وبما انه ترك المدرسة فقد اضطر للعيش على نحو دائم في القرية  
مع زوجته الجديدة . هذا يعني ان ناديا كانت خادمة مريم على نحو  
رئيسي ، بشكل مغاير عن خديجة حين التقيتها . كانت تقوم باعداد  
كل الوجبات ، تجثم لساعات بالقرب من مراحل معدنية ضخمة موضوعة  
على نار حامية . تكدس اوراق العنب بين الملح لحفظها في قدور ضخمة ،  
وتخلل تشكيلة من الخضار للشتاء . وبالإضافة الى كل اعمالها  
الروتينية التي كانت تقوم بها لحمايتها فقد انجبت أربعة صبيان على  
نحو متتال وسريع . لقد كانت ناديا معروفة بلسانها السليــــــــط  
وذكائها الحاد بالإضافة الى جمالها . كانت تشير اعصابي عندما  
لم أكن اتحدث الكردية جيدا بأجوبتها السريعة والبارعة وضحكها  
الساخر . ولكنني موعظرا تمنيت لو انه كان بمقدوري ان اعرفها  
اكثــــــــر .

على الرغم من اني كنت اشعر انه لا اصدقاء لي ، فقد كان

بعض افراد عائلة مريم بوجهون لي الدعوات للقيام بزيارتهم فسي ذلك الحين . لقد كانت خديجة الكنة المختارة ، زوجة الاخ الاكبر ، وناديا كانت الهاربة . كانت مريم الزوجة الثانية للحاج ، وزينب كانت الثالثة . هؤلاء النسوة كن يقضين الالبام والاسبوع وحتى الشهور معا في نفس المنزل في المدينة . اما في القرية - وكما علمت فقد كانت كل واحدة منهن الشريكة الرئيسية للاخرى . ومع ذلك فقد كن دائما بتنافسن ، ويحاولن ان يحصلن على النصب الاكبر لأنفسهن ولأولادهن . وكن يحرمن بشدة على ممتلكاتهن وصدقاتهن ، وحتى المعارف الامريكان الغريباء . وبالنتيجة لم يعد لدي صديقات مع رحيل مريم وخديجة . كانت هنالك مشكلة الحضور الدائم للمجموعة مثلما كان الحال في محطة الاذاعة . فقد بدأ أن أي واحدة لاتفعل شيئا بمفردها ولكن كيف يمكن لأحد ان يتعلم الكلام في ميدان كهذا سوى طفل صغير ؟ لقد ترسخت لدي قناعة بأنني محتاجة لأن اجد شخصا واحدا كمدرس ، لأجلس معه كل يوم وادرس معه الكلمات والقواعد الكردية على نحو ابدل فيه كل جهدي .

كان علي أن ادرك الدور الذي لعبته ثقافتني الخاصة في هذا القرار . فقد كنت محتاجة الى بنية معينة . احتجت لأن اعرف وفق أي نظام كان يعمل الاخرون ، ببساطة لم اقدر أن افهم ماذا كانت تفعل النساء الكرديات في حياتهن ، ومتى كانت ساعات الفراغ وساعات العمل لديهن ، متى كن مستعدات لاستقبال الضيفات باهتمام ومتى كن يرغبن في المكوث لوحدهن . ولشعوري بالتطفل عليهن بطريقة ما ، وبوقف سير حياتهن الطبيعية فقد كانت تنتابني نوبات اشراج لدى وجودي معهن . اتمنى لو أن لي عرابة كردية . جنية لتأتني وتخبرني ان معظم العالم لايعيش وفق برنامج ثابت . ولكن حتى في القصة الكردية المتكافئة مع " سندرلا " ليس هناك عرابة جنية بل مجرد بقرة حمراء . ولم تكن لدي بقرة حمراء بل فقط مفاهيمي الخاصة المسبقة ، لذلك واكبت بحشي " وفي النهاية نجحت في ايجاد كردي يعمل وفق برنامج محدد ، وقد شغل مكانا مناسبيا في جنب من جنبات هذا العالم ، مثلما كان الامر معي تماما .



## الفصل الثامن

كنت قد اندفعت عبر بوابة الساحة الواقعة امام الكلية ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي أصل فيها متأخرة ، فقد كان مدرسي المتوقع دارا احمدي قد حضر ليبري العميد هذه المرة شخصيا ولكنسه كان قد ابعده .

علق الحارس وهو ينظر الي غير مصدق :

— قال ذلك الصبي انه قد جاء ليعلمك الكردية .

ظهر دارا ثانية بعد برهة قصيرة عند البوابة وقد ادخله الحارس على مفضالى حرم الكلية ، "فقط هذه المرة " . كان العميد قد اوضح تماما انه لا يريد ان يرى دارا هنا ، ولم يكن يُسمح لأحد مهما كان مهما ان يتجاوز البوليس عند البوابة بالدخول دون اذن العميد .

هل كان لزاما على دارا ان يخبر الحارس انه قد اتى ليعلمني الكردية ؟ ماكنت سأفكر مرتين بتمريح كهذا في امريكاه ، ولكن في امريكا لم يكن لديهم بوليس مسلح لصد الجواسيس والمشكوك في كونهم شوارا عند بوابة كل كلية وجامعة .

لم يظهر معلمي اي انطباعات سيئة عن زيارته القصيرة للعميد . لقد مشى بمرح يدل على التصميم وقد بدا اكثر حزما ببنتاله ذي النقوش المربعة والمكوي بشكل جيد ، وسترته الطنطية الزرقاء الاليفة وقد ارتداها فوق كنزة جيرسيه صفراء ذات يباقة ضيقة . لم أكن اتوقع ان تكون له مثل هذه الخدود القرمزية او مثل هاتين العينين

البنيتين الهادشتين . لم يكن يشبة ابن اخته على الاطلاق ، السيد حق زاده الجدير بالاعتماد عليه بابتسامته العريضة بافراط والتسي تكشف عن اسنان بارزة وعينين فيقتين متحركتين باستمرار في جميع الاتجاهات . اما عينا دارا فقد كانتا واسعتين ، وكانت تعابير وجهه يقظة وهادئة . وطبعاً فكرت في نفسي انه لا يمكن لنظراته ان تكون مخادعة مثل نظرات ابن اخته . فالسيد حـق زادة ، لم يكن مخادعاً البتة . كان ابن اخت دارا اكبر من خالسمه بخمس سنوات وكان واحداً من تلاميذنا القلائل المهتمين فعلياً بتعلم الانكليزية . كان السيد حق زاده قد ازم نفسه طوعياً بالبحث لي عن متحدث باللهجة الكردية الشمالية . فمن بين جميع الناس الذين سألتهم كان هو وحده قد اثبت نجاحه في ايجاد شخص . وقد اثار ذلك دهشتي لانه كان تركياً وليس كردياً . ففي عزلة في مكتبي عرفت نفسي بكتابة اسمي فوق اللوح الاسود . وقدم دارا نفسه بدوره على انه السيد احمدي بأن كتب اسمه الاخير فقط على اللوح بجانب اسمي الكامل . لا يقدم الناس في ابـران انفسهم باللقاب ، فاضافة اللقب الى الاسم الاخير يقع على عاتق الشخص الآخر . كنت مسبقاً قد ناديت معلمي بدارا واشرت الى نفسي بمارغريت ولأنني قد اعتزمت الا بوجه الي اتهام بأنني اتصرف بلطف ولكن بطريقة اظهر فيها شعوري بالتفوق تجاه الشباب الاكبراء بعدد حُدود طابع واتجاه دروسنا - لقد كان ذلك السيد احمدي . وعندما اثرت مسألة النقود ، فقط لاحظت مسحة ضئيلة من الارتباك على وجه دارا ولاشيء من ذلك المشهد الذي كابدناه لدى تسوية مسألة راتب طبأنا عزيز ، فقد تبادلنا آنذاك الآراء وناقشناها - وعزيز يصبر خجلاً انه لا يستطيع مناقشة المسألة معنا . فاعطاه جبرد النقود ، لكن عزيز حاول ان يرجعها لنا بالحاح شديد . وكان ذلك يشير فقط الى العادات الشكلية السائدة على نحو حاسم . أما مع دارا فقد سويت مسألة النقود ببساطة اكثر ، فهو لم يناقش السعر الذي حددته وهو دولار ونصف الدولار عن كل ساعة ، ويقدر ذلك

بحوالي نصف ما يتقاضاه عامل بناء في ريزاي لمدة عشر ساعات من العمل في اليوم . اوماً برأسه موافقاً ببساطة وابتسم ابتسامة خفيفة وبعد ذلك بوقت طويل ابلغني عن مدى اهمية تلك النقود له ولألمه الارملة ، التي تقيم في قرية يتعذر بلوغها ، بعيدة عن أي فرصة لكسب ايراد نقدي .

قضيت ساعتني الاولى مع السيد احمدي في مكتبي ونحن نسجل حكاية خرافية ذات مغزى عن شيخ كان يعد صيمايه قبل ان تفقس او على نحو ادق كان يحسب مقدار سمته قبل أن تمخض . وفي كل يوم ولاسابيع متتالية كان على دارا ان يحكي لي قصة جديدة لأعمل فيها او اترجمها . وعندما شعر بخطر نفاذ القصص عاد الى قريته وحصل على المزيد منها من والدته . وقد ادركت مباشرة كم كانت القيمة التي ادفعها رخيصة - ليس فقط لمعلم دقيق ومنتظم يجلس بأناة ويجيب على كل اسئلتي عن طريقة استعمال الالفاظ الكردية ولكن ايضاً للحكايات الشعبية الكردية وحكايات الجان جميعها التي لا تقدر بثمن .

انتهيت مع دارا في ذلك اليوم ، وانا اشعر بابتهاج غامر ولكن ساورني شعور بالخشية من تلاشي هذا بطريقة ما . حددنا موعداً للقاء المقبل . ومشى دارا بخطى واسعة نحو البوابة ومسر بالحارس الذي كان يحدق فينا بينما كنت واقفة خارج مبنى حجرة الدراسة والآن حان الوقت لمواجهة العميد بسلوكة المستبد . وبعد المكوث لفترة كافية لاشارة الاعصاب . في حجرة الانتظار ، ادخلت الى مكتبه . نظر الي العميد من خلف واجهة مقعد ذي جلد اسود اصطناعي مزهب وقد التوت ملامحه المنغولية البارزة باتجاه الاعلى بقدر ماتستطيع لتبدو ودبة . من الواضح أنه لم تكن لديه فكرة عن سبب مجيئي ، وعندما اخبرته ، عقد حاجبيه وقسال بحذر وحرص :

- لانستطيع السماح للمدرسين في هذه الكلية ان يستغلوا

اوقاتهم بتعلم لغات مثل " البركينة " .

فصححت له :

- الكردية .

بدا العميد وكان صبره قد نفذ . لقد جاء من الجزء الشمالي الشرقي من ايران قرب مشهد . البعيدة عن ريبـــــــزاي واختلافاتها العرقية الخاصة . ولكونه منحشا بارعا بالفارسية ومتوسط الجودة بالانكليزية فلم يكن بسنح له وقته لادراك الفرق بين لغة غير مميزة وواضحة واخرى . وكما هو واضح تماما لبس لديه الوقت ليبيالي باهتمام بها . مضيغا في الحديث ومقلا احيانا ، واخبرته بأنني لغوية ولذلك فان اللغات الاجنبية بالنسبة لي هي كالمواد الكيمياوية والمخبر بالنسبة للكيميائي ، ولكنه لم يقتنع بشيء من هذا كله . فالقدر الذي يتعلق به هو ان اقتصر على تدريس الانكليزية فقط . على الرغم من اني ادركت اني قد غلبت ، فقد اجبرته على اعادة تأدية رقصة الشكليات العشائرية المتسمة بالاعادة من جديد وذلك بأن يعطي الاسبقبة لشيء ثانوي بينهما ببقى العنان ببد المرء دائما .

واخيرا وبعد أن تعب من تأكيداتني وحججي الدفاعية المصرة

قال على نحو خال من المنطق وبشكل مدهش :

- اذا سمحنا لك بتعلم الكردية وقت الدوام في الكلية،

اذا فعلينا ان نسمح للجميع بتعلم هذه اللغة ، وبذلك سنخلق لنا مشكلة .

فتحت فمي مندهشة واغلقته محاولة ان اتخيل كسل

الفرس والأتراك بيركضون الى مكتب العميد، وهم يطالبون بصفوف وحلقات دراسية كردية . واضاف العميد موضحا :

- أنا لأأسالك عما تفعلينه بعيدا عن الكلية .

عرفت انه كان يشير بحذق الى العبارة الواردة في عقدي،  
والتي تقول محددة انه يمكن أن افصل من الوظيفة فوراً في حال  
تعاطي نشاطات مهنية تفتضي شفافة بالاضافة الى تعلم الانكليزية  
خلال فترة اقامتي في ايران .

نهضت ونهض العميد أيضا خلف مقعدة ذي الجلـس  
المزغب بازراة اللدائنية الخشنة . انتهت المقابلة ولطف ملامحه  
ذات المطهر الجنكيزخاني وحوّلها الى شيء كان من المعترض ان يكون  
مسراً تماما . ابتسمت انا ايضا الى أن غادرت مكتبه ، واذ ذاك  
توقفت عن الابتسام .

واخيرا عندما رأيت السيد حق زاده اعتذرت بسبب المشكلة  
التي تجشم عساءها خاله ، لدى استدعائه الى مكتب العميد . أجاب  
السيد حق زاده على اعتذاري بعجلة وانصرف . كيف يمكن لوقت صبي  
بعمر حق زاده ان يكون اكثر اهمية من وقتي ووقت العميد ؟

وددت لو او اظب على دروسي الكردية مع للسيد احمدي في  
الكلية لأنها المكان الانسب لكلينا ، لأنها موقع اكثر رسمية ، ومناسب  
لدراسة جدية . ولكن الالم من ذلك كله انها لاثقة و مناسبة  
اجتماعيا . عندما التفيت به عند البوابة وقلت له اناسندهب  
الى منزلي من الآن فصاعدا ، تقبل السيد دي الاخبار بدون تعليق .  
لسوء الحظ ، لم يتقبل احد غيره الموقف ، ان ببدي تعليقا ما .

في كل يوم عدا يوم الجمعة يظهر السيد احمدي عند فناء  
منزلنا . فيتوقف عمل البنائين العاملين في المسكن الجديد فـي  
الجانب الآخر من الطريق فجأة ، فيلتفت كل واحد منهم ليحـدق  
في المرأة الاجنبية وهي ترافق شابا الى شقتها دون حضور زوجها .  
وفي النهاية كنت اسوّغ كل الاشاعات التي كانت تحوم – وبدون شك –  
منذ ان اكتشف الحي ان امرأة اجنبية تقيم في الزقاق . ان افكار

الرجال عن المرأة في هذا القسم من العالم هي علي وجه الحصر جنسية بحتة ، لدرجة أن جيرد نفسه بدأ يقلق من وجود السيد احمدي في المنزل وحده معي . ولم اسمع ابدا رأي الجعفريين بزائري السذي يزورني على نحو منتظم ولكني متأكدة انهم قد انتبهوا الى ذلك.

بدأ جيرد بالمجيء الى المنزل خلال فترة الدروس ، كان يندفع بالدخول عبر بوابة غرفة الجلوس فيجدنا جالسين بلباقسة واحتشام حول طاولة حجرة الطعام عند الابواب العرنسية تماما باتجاه الشرفة المكشوفة كليا امام الحي بأحمره . بعدد ينظر حوله كما لو انه غير قادر على تصديق اننا كنا جالسين بكامل لباسنا وندرس الكردية .

وعندما اعرف لي جيرد اخيرا بأنه كانت تتشكل لديه ضروب من التصورات حول ما كنا انا والسيد احمدي منمكنين فيه لوجدنا في المنزل ، شعرت لذلك بالاشمزاز ، فوجودك لوحده مع رجل في ايران لهو دليل على نحو تقليدي على انكما قد مارستما الجنس و احتمالية التحفظ او اللامبالاة او الظروف المخففة لذلك بعيدة تماما . ودون أن اشعر بأي تعاطف مع جيرد فقد تركته يخلق مخاوة على هواه بينما مضيت انا لروية السيد احمدي في المنزل . وبفضل جهود العميد لم يكن لدينا مكان آخر لنذهب اليه . بدأت اتساءل كثيرا من أين جاء السيد احمدي ، وفي كل مرة يظهر فيها كانت تبدو على سروالذي النقوش المربعة جعدة حديثة كما لو أنه كان قد خرج لتوه من محل لتنظيف الملابس . وعندما كان الجو يتغير ويصبح باردا أو مطرا كان مع ذلك يخضر دوما في موعده وبنفس البذلة ، بينما بدأت انا بارتداء معطف من جلد الخروف لأحتفظ بالدفء ، ففي السيد احمدي ملازما لسترتة القطنية الفضفاضة . وقد فوجئت به عدة مرات بتمشى في الزقاق عندما كنت اندفع مسرعة للعودة من الكلية في سبارة اجرة لكي ادرك الموعد

المحدد لدروسنا . سألته فيما اذا كان يمشي دائما ام انه كان يأخذ سيارة اجرة احيانا فأجاب انه قد يأتي مشيا اذا كان لديه الوقت . قدرت ان المسافة لابد انها تقارب ميلين من قرب البازار حيث يقيم . ولكن الخمسين سنتا وهي اجرة السيارة كانت تعني له الشيء الكثير اكثر مما تعنيه لي .

لقد كانت ريزاي هي مدينة السيد احمدي على الرغم من انه قد ولد في القرية . كان يعرف اين والى أي مدى يتمشى . كان يتحدث اللغة المشتركة والتركية بطلاقة . كان من المفروض أن تكون ريزاي مدينة شهرزاد ولكني اشك فيما اذا كانت تسلم بها وتعتبرها حتمية كما كانت بالنسبة للسيد احمدي ، فهو كرجل لم يكن يحتاج الى غطاء او الى ملابس اخرى للنستر . وبسبب لعنه التركية الممبزة لم يكن يُميز على انه كردي ان لم يكن يرغب في أن يكون كذلك . كان السيد احمدي في طريقه للارتقاء في هذا العالم .

من المحتمل انه الشاب الوحيد في قريته ، الذي يتابع دراسته الثانوية في الوقت الحاضر ، ومع ذلك فانكار السيد احمدي للمبادئ السلوكية الصارمة التي نشأ عليها او التخلي عنها ، احتمال بعيد جدا . لقد كان مساعدا في القواعد التركية ولكني حاولت أن اتحدث معه عن اشياء اخرى اذ كنت احيانا اجد نفسي في محادثات سخيفة لاتفيد في شيء سوى انها تشعرني بالغباء . فقد ابدت شكواي في احدى المرات للمعلمي عن احدى النساء المغطيات في البنك ، حيث كانت قد اقتربت مني وحدقت في علي بعد ستة اشهرات من انفي ، وقلت :

- لابد ان النساء المحجبات يظنن انفسهن غير مرثيات .  
- لا أعرف .

اجاب السيد احمدي على نحو ملتبس بحيث لم يبدل جوابه على موقفه وشعوره . فسألته :

- هل تظن أن فكرة الحجاب جيدة ؟

فقال :

- لأعرف . ربما لا .

فقلت ملحّة :

- هل تظن أنك عندما تتزوج ستفجع زوجتك الغطاء ؟

- محتمل .

شددت على اسناني حتى صرّت وعدت الى القواعد . كانت مثل هذه الاوضاع تجعلني مدركة اكثر من أي وقت مضى ما فعله امير في تلك الايام التي لم نكن نعرف ما يفكر فيها ، فقد كــــان قد تركنا بنفس عن مشاعرنا ، ننتقد ، نشكو ، نصاب بالخيبه والاحباط والاهم من ذلك كله ان نعيد النظر في امور كثيرة .

بدأت انتزع بصعوبة من السيد احمدي ، بعض التفاصيل عن حياته الشخصية ، والشئ المهم الذي عرفته عنه في مطلع عملنا معا هو أنه كان لديه اخت تبلغ من العمر خمسين سنة . اشجار ذلك اهتمامي ، على الرغم من اني واصلت التفكبر في انني بطريفة ما قد اسأت الفهم . وكان السيد حق زاده اصلا قد فكر أني سأرحب بالعمل مع هذه الاخت المتزوجة من جد حق زاده . كنت قد دهشت كثيرا لدى ذكر ذلك - ان هذا الجد قد تزوج من كردية - لأن حق زاده لم يكن كردياً بل تركيا . فهو لم يحضر مع طلابي الآخرين في مهباد والنهاية الجنوبية من البحيرة . ليخبرني انه بتكلم الكردية . ومع ذلك فقد ابدى اهتماما منذ المرة الاولى التي سمع فيها انني ادرس الكردية . لقد بدت رغبته في المساعــــده غريبة بالنسبة لتركي . ما القاسم المشترك بين حق زاده والاكــــراد؟ فجد حق زاده نفسه كان تركيا ، اذا لماذا اتخذ جده التركي امرأة كردية زوجة شالشة له ؟



اكتشفت أن السيد حق زاده كان ينتمي الى مجموعة مسن  
السنين الاتراك القاطنين في اذربيجان . بينما الغالبية العظمى  
من الاتراك الآزريين هم من المسلمين الشيعة مثل غالبية السكان  
في ايران ، بالإضافة الى مجموعة صغيرة من الاتراك السنين . أن  
الاختلاف بين السنة والشيعة ليس دينيا بقدر ما هو عاطفي وتاريخي .  
ان جميع الحكومات في العالم الاسلامي عدا - ايران - في الوقت  
الراهن ، تنفوي تحت لواء السنة وتقبل نظام الخلافة الاسلامية ،  
وتتبع قوانين واركان وسنن الاسلام بدون ان تشغل نفسها على نحو  
غير مناسب بتاريخه المبكر القاسي . ولكن في جميع هذه البلاد  
وطوال نمو وانتشار الاسلام وُجد خارجون على هذا الدين وانفصلت  
طوائف عن جسد معتنقيه الاساسي . وفي ايران فقط كان هؤلاء الخارجون  
كثيرين ومنظمين الى حد مكنهم من تأسيس سلالة حاكمة وبالنتيجة  
اصبح التيار الاساسي في ايران شيعيا بينما بقي الاكراد المعزولون  
والمحميون بجبالهم سنين مثلما بقي العرب . وعلى نحو مشوش  
تماما ، ومغاير لاتراك ايران بقي غالبية الاتراك في تركيا  
سنين . وقد قدر للاكراد أن يبقوا منفصلين عن جميع الشعوب  
المحيطة بهم . منفصلين من ناحية اللغة والثقافة عن الاتراك  
والعرب ومن ناحية الدين مغابرين للايرانيين . والاكراد دائما  
تقريبا يدعون الاتراك بـ ' العجم ' كنعنت مهين وهي كلمة  
مقتبسة من العربية ، حيث تعني " بربري " أو غير عربي " . أما  
الاتراك السنين فهم ليسوا بعجم بالنسبة للاكراد . لم استطع  
ان احول دون التساؤل عما اذا كان هؤلاء الاتراك السنين اكرادا  
من قبل وانهم اتخذوا اللغة التركية يوما لغة لهم ولكنهم احتفظوا  
بعقيدتهم السنية .

كان شارع السيد احمدي يدعى، بشارع السنين على نحو  
متوافق مع الموجودين فيه تماما، والبيت الذي يسكن فيه يخص زوج  
اخته ، جد السيد حق زاده المقيم مع زوجته وبناتها . كانت لغتهم  
اليومبة التركية وليس الكردية . وفي الحقيقة فان الفتيات لم يكن

يستطعن التحدث بلغتھن الام مطلقا . كانت والدة السيد احمدى  
تعيش مع بناتها الصغيرات في قرية تقع الى الشمال من ريزاي حيث  
لا أحد فيها يتحدث بأي لغة اخرى سوى الكردية . عندما كان السيد  
احمدى في السن السابعة تقرر أن يجيء الى المدينة ويقيم فيها بمعزل  
عن بقية عائلته لكي يحضر المدرسة . لم تكن توجد مدرسة في  
قريته في ذلك الوقت ، حتى ولا واحدة من تلك التي يديرها سلك تعليم  
القراءة والكتابة وبسبب حياته المنزلية كان السيد احمدى قد اصبح  
طليقا تماما بالتركية وبسبب حياته المدرسية كان قد اصبح جيدا  
جدا بالفارسية أيضا . لا يسهى الا أن اقدر غالبا انجاز السيد  
احمدى ، بعد بحثي عن متحدثين بالكردية في الكلية ، كانت لهجته  
الاصلية هي الكرمانجية " الكردية الشمالية " وهو منحدر من  
عائلة ريفية فقيرة . ومع ذلك وبمساعدة منحة تعليمية من  
مدرسة ثانوية محلية وبعلامات جيدة كان في طريقه الى الكلية ،  
ربما كلية ريزاي . فاذا ذهب فانه سيكون واحدا من الطلاب الاكتراد  
الاولى في كلية ريزاي في منطقة ريزاي . لقد نجح في التغلب  
على الحواجز التي قد ابقت الآلاف من الاكتراد الشماليين الآخرين  
بعيدين عن المدارس الثانوية والكلية التابعة لمنطقتهم . فقط بقوة  
ارادته وبذل جهده وطبعه برجولته . ففي كلية ريزاي حيث أتى  
جميع الطلاب الاكتراد القلائل نسبيا من مدن واقعة الى الجنوب من ريزاي  
كان غياب الاكتراد الشماليين المحليين بشكل خاص ملحوظا . أن  
الاكتراد ، ان لم يكونوا غير عاديين الى حد بعيد مثل السيد  
احمدى او اغنياء جدا مثل طه فانهم لا يملكون حرية الوصول الى  
المدارس الثانوية .

كان تحفظ السيد احمدى ورياسة حاشه واساليبه المنتظمة .  
تشير فضولي . فقد اردت ان اراه وهو ضمن البيئة التي انحدر منها .  
واصلت اسفلتني عن قريته . ولكن القرية قد انقطعت عن ريزاي بسبب  
الشلوج التي راح انخفاضها يزداد بشكل يومي في المنحدرات الجبلية

حوالي المدينة . وبما أنني لم اجد الوسائل لأصل الى هناك ، ففقدت بدأت أسأله عن اخته وعن شارع السنيين كان يجيب على كل اسئلتني ولكنه يتطوع بالقليل من عنده . واخيرا الححت عليه ليقدمني الى اخته ، فقد قلت له اني احتاج الى تسجيلات لأحاديث نساء كردييات فأخذ طلبني هذا على محمل الجد مثل كل طلباتي للمعلومات وأخبرني حالا انه يمكنني المجيء الى المنزل في الخميس التالي .

اتي السيد احمدي الى منزلنا اولا وسرنا بسيارة اجرة الى السوق . كان علينا أن نتغلب على الوحل الذي يمتد على طول الطريق من الشارع الرئيسي حتى البوابة الخشبية غير المتقنة قبل ان نتمكن من الوصول الى الفناء . واخيرا وصلت الى منطقة ريزاي التي تشبه الجزء القديم من مهباديشبكة ازقتها الموحلة والمعقدة وجدرانها المبينة يدويا . كان الجو باردا وماطرا لذلك لم نلفت أنا والسيد احمدي الانتباه كما كان جازا ان يحدث في يوم صحو . اسرعت في المشي الى جانب السيد احمدي ممسكة المظلة في يدي وآلة التسجيل في اليد الاخرى محاولة ان اجاري خطى السيد احمدي . بدا الناس الذين مررنا بهم فقرا ، رجال بئذلات عتيقة ونساء باغطينهم ، وكان لدى القليل منهم مظلات او ملابس دافئة الى حد يتناسب مع قساوة الجو .

كان علي ان اخفض رأسي لأدخل من خلال المدخل المنحصر يدويا لمنزل السيد حق زاده - بدا كل شيء غريبا في الحجرة ، عدا خزانة التلفزيون ، حيث قابل فيها السيد احمدي اخته الكسرى وابنتيها ، واحدى كنائهم . جلسنا وقدم لنا الشاي واحضرت طبق فيه برتقالات كبيرة الى جانب كعك حلو مشتري من محل حلويات مملوءة بالكريما المخفوقة . كانت اخت السيد احمدي وبناتها وعروس ابنها يبتسمن ويرحبن بي مرة تلو الاخرى وبدفنن بالطعام الذي طبقي بينما لم يأكفن شيئا . لقد كنت مدركة لحقيقة انهن لم يدعوني ، بل انا التي دعت نفسي . لاأظن انهن قد استوضحن



كان على المشي الاسبوع تلو الآخر بجانب ابن صديق هوشنغ الذي استمر في التسكع في الزقاق مع رفاهه . ولم تفشل البندقية أبدا في اشارة اعصابي .

بلغ حنيني مبلغة في الاسبوع التالية . وقد احتفلنا بعيد الشكر بصحبة الامريكيين الآخرين في مقر الجيش الامريكى وقد راودني احساس بأنني سجين في حقيبة بلاستيكية ضخمة وسط عشاء تركي فخم وكان شعوري مفعما بالكآبة لدرجة اني بدوت غير قادره على سماع ماكان يقوله الامريكيون من حولي . هل نسيت لغتي الام ؟ وعندما اقترب عبد الميلاد اكثر اشتد حنيني الى الوطن اكثر . واصلتنا رسائل من العديد من افراد العائلة يسألون فيها عن عطلة الميلاد وكان اخو جيرد قد اقترح أن نقابله في مكان ما في اوروبا خلال العطلة . ألم بدرك احد منهم أننا لانقيم في بلد مسيحي وانه ليست هناك عطلة ميلاد ؟ أو لسم نوضح لهم ذلك في رسائلنا ؟ .

قمنا أنا وجيرد بجولات منفصلة لل بازار في محاولة ليجاد هدايا الماجي " المجوس " . لقد كان من المفترض أن تكون ربهزاي هي نقطة البداية للملوك الذين تبعوا النجم الى بيت لحم . انشدنا ترنيمة " نحن الملوك الثلاثة " مرات كثيرة لنخلق لأنفسنا حو عيد الميلاد الحبوي . ولكن كلما كنا نحاول اكثر كنا ندرك كم كنا غير منسجمين مع المكان الذي نقيم فيه . كان جيرد قد اوصى خفية على صنع خاتم ذهبي لي في سوق الجواهر، وعندما مررت في نفس المحل اندفع الصاغ ممسكا بالخاتم وقد رفعه ليرييني كم انفق زوجي علي من النقود، وقد تفحصته عن بعد .

كان من غير الممكن أن يكتشف جيرد ما سأقدمه له ولكن بالمعدل الذي كانت تسير عليه الخياطة الارمنية في عمل تطريز

للقمصان التي أخذتها دون علم جبرد من محل كي للملابس ، شككت أنه سيرها في عيد الميلاد . فقد مضيت في الذهاب والاياب بين منزلي ومنزلها الذي يبعد ربع ميل في فناء كنيسة ارمنية مرسوم فسوق جدرانها الخارجية مخلوقات مجنحة رائعة . لقد سرسب أن ارى احدا ما يعرف من عيد الميلاد ، حتى ولو انها احتفلت به في كانبسون الثاني بدلا من كانون الاول . ولانها أدركت كم كان يعني لي فقد تدبرت امرها لانها في اليوم السابق لعيد الميلاد .

في عصر ذلك اليوم البارد والمليء بالغيوم ، كنت أمشي عائدا بمحاذاة الجدران المصمتة للزقاق الموادي الى منزلنا عندما اصابني في جبيني زجاج مصباح كهربائي وقد اخطأ عيني اليمنى بقليل تماما وقبل أن استشعر شظايا الزجاج في شعري حكمت عليها بتجربتي الخاصة انها مجرد انفجار ، طانة ان الصبي صاحب البندقية ذات الرصاصات الصغيرة قد اطلق النار علي أخيرا . حدقت بهذا الصبي الواقف امامي وقد بدأت ملامحي بالتفرض . كان كما لو أن احدا ما قد استهدف ان يفعل ذلك في يوم عيد الميلاد نفسه واطلقها علي من السماء . اسقطت سلة التسوق البلاستيكية المملثة بالقمصان المطرزة حديثا والمغلفة بورق الجرائد ونظرت حولي.

كان الاولاد سراقبونني بحذر . فقد كان هنالك اثنان آخران بالاضافة الى صاحب البندقية ، ماذا كان ذلك ؟ سألت بصوت مرتعش . اشار احدهم الى الزجاج عند قدمي وبعدهد الى سوء الشارع فوق رأسي . فسألت :

- من أين اتت ؟

نظرا الصبية حولهم و اشاروا الى زقاق في الجهة اليسرى . لمست رأسي وهزته بهدوء . لقد كان اقرب منزل في ذلك الزقاق يبعد عدة ياردات عن المكان الذي اقف فيه . على كل حال كنت اعرف مسبقا انه من المفروض أن يكون الزجاج قد اتى من اليمين . لقد كان في هذا الجانب من الزقاق منزل واحد فقط ، وهو منزل اغنى رجل في الجوار ، ذلك الرجل الذي سميت بأسمه جميع هذه الازقة - السيد أمير فلاح .

عندما مشيت متجاوزة الاولاد بدأت الدموع تسيل فوق وجهي  
وبعدئذ بدأت بالركض وعندما رأيت جيرد بدأت بالنشيج . كنت اغص  
بالبكاء لألتقط انفاسي وانا اروي له ماحدث ، فكرنا مليا بالحادث  
لبضع دقائق ، لم أتأذى منه ولكن الزجاج كان قد اصاب مكانا قريبا  
جدا من عيني . وكان من الممكن ان اصاب بأذى بالغ . فقرر جيرد  
أخذ نصيحة هوشغ والشيء الاول الذى فعله جارنا هو محاولة  
تهديتنا فقال :

— هذه الاشياء تحدث ، فهذه ليست امريكا . احيانا  
عندما ينتهي الناس من الاستفادة من المصباح الكهربائي وبدلا من رميه  
في النفاية ، يرمونه من خلال النافذه . لايدركون انه من الممكن أن  
يؤذى احدا . فسألته :

— اذاً لماذا حدث واصاب رأسي بالذات لحظة مروري.  
لماذا لم يصب الشارع .

أُفَنَعْنَا هوشغ الراجب عن الخروج معنا لنذهب الى الشارع  
ونتقصى عن الحادث . رن هوشغ جرس أمير فلاح ويعد مضي ما—دا  
وقت طويل اتى خادم شاب مرتد سروالا فضفاضا الى البوابة وهو يبتسم  
ابتسامة عريضة . فسأله هوشغ فيما اذا كان سيده موج—ودا  
في البيت وعندما اجابه الخادم بالنفي ، اخبره هوشغ عن سبب  
مجيئنا . وعند ذلك استطاع الخادم بمعبوبة ان يسيطر على نفسه،  
وعندما نظرت الى هذا الخادم وهو يكبت ضحكة تأكدت من أنه هو  
الذي كان قد القى بالزجاج . ولكنه طبعا انكر حتى معرفته ماكننا  
نتحدث عنه . وبعدئذ وقفنا مباشرة بواجهة بوابة مغلقة ثانية .  
اقنعنا هوشغ الذي تضايق اكثر بعد هذا التقصي ، أن  
يقرع جرس منزل صديقه ، والد شاهدنا الصغير على الحادث ، الذي  
نتمنى له أن لايرى شرا . لم يجيبنا أحد . وخلال فترة العشر  
دقائق الاخيرة كانت ساحة الارقة المحلية المتشابكة قد خلست من  
الناس ، وهو شيء غير مألوف في فترة العصر تماما .

عاد هوشنغ معنا الى منزلنا وقال لى :

- فقط انسى ذلك .

- لا استطيع . افترض أن هذا حدث ثانية .

- كانت شهرزاد تمشي مرة في الزقاق هنا مع ابيننسا ،

لحقها الصبي وامسك بها من خصرها ، وكان ولدنا قد تضايق كثيرا ،

ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟

فقال جيرد مشيرا :

- ولكن ذلك لم يكن امساكا بالحصر ، لقد كان ذلك

القاء زجاج مصباح على رأسك .

فهز هوشنغ كتفيه غير مبالي . وقلت :

- اريد أن استدعي البوليس .

التفت هوشنغ وقال ونبرة حادة في صوته :

- يجب الا تفعل ذلك ، فالسبد امير فلاح رجل جيد .

فتسائلت ، اذا كان رجلا جيدا كما يقول ، اذا ماذا لديه ليخاف

عليه من البوليس ؟ وقلت بصوت مرتفع :

- لا يمكن لخدته ان يمضوا في القاء المصابيح على الناس .

فقال هوشنغ مجيبا بصراحة :

- البوليس لن يحل المشكلة .

وكننا قد وصلنا الباب الامامي لشقة هوشنغ ، فقال جيرد وهو يصافحه

- شكرا لمساعدتك .

بعد ذلك مشينا انا وجيرد عبر الزقاق الذي كان مابسزال

خاليا واستوقمنا سيارة اجرة لنذهب الى مخفر الشرطة المدنية .

روينا قصتنا لرحل شرطة متحهم الوجه ، حيث لم يبد أي تعاطف

نحونا ابدا . ولكنه رجع معنا بسيارة اجرة الى مكان الحادثة .

ووقفنا نحن الثلاثة خارج بوابة امير فلاح ننظر الخادم أن يستجيب

لقرع الباب ، كان اكثر تحفظا في تهقته هذه المرة ، ولكنه احتفظ

بنفس الانكار وبنفس النظرة الضاحكة .



وبعد ان وصل البوليس واصبح الموضوع رسميا اكثر ، تجمهر الناس حولنا في الزقاق وكانوا يبتسمون ويتفاحكون وهم يوضحون لبعضهم البعض ما حدث .

حضر فتى في طور المراهقة وتطوع للترجمة ، لم تكن لغته الانكليزية سيئة ، وعلى نحو مفاير عن الآخرين جميعا بدا مهتما اكثر من أن يتسلى . كان شيئا مشيرا للاعصاب ان يضحك جميعا هوؤلاء الناس وهم بشيرون الينا . كان ذلك زقاق امير فلاح وهو من المناطق المأهولة بالطبقات الوسطى والعلبا الاكثر تآصلا في المدينة . لم يكن الاختلاف الطبقي هنا هو الذي يضيف علينا هذه العزلة ، فالناس المجتمعون حولنا كانوا يضحكون كما لو اننا لسنا بشرا .

- اخبروني ماذا حدث ؟

طلب منا الشرطي ذلك للمرة الثانية او الثالثة . وظهر في تلك اللحظة صديق هوشنغ الذي الذي يقتني ابنه البندقية عند طرف الجمهور مذهبته اليه وقلت :

- كان ابنك متواجدا عندما اصابني المصباح ، ربما يستطيع

رواية ما حدث . ؟

فقال الرجل بهدوء :

- ولدي لايعرف شيئا .

وسألنا الشرطي انا وجيرد :

- ما اسمكما ؟

فاخبرناه .

- ماذا تفعلان في ايران ؟

واجبناه ثانية .

- نعم ولكن لماذا جئتما الى هنا ؟

فانفجرت في وجه جيرد قائله :

- انه يوجه الينا اسئلة بدلا من توجيهها الى أي شخص

آخر من هوؤلاء الناس . والشيء الثاني الذي سيرغب في معرفته هو

كم نكسب من المال ولماذا ليس لدينا اطفال ؟ وعندما هممنسا

انا وجيرد بمغادرة هذا الميدان ، سارت سيارة جيب الى الزقاق  
وخرج منها السيد امير فلاح ، المهيب ذو الشعر الابيض ، صاحب المنزل  
الذي من المفترض ان المصباح قد القى منه .

اخبر الخادم السيد امير فلاح ما حدث بسرعة . فتقدم  
نحونا قائلا انه متأسف لعلمه بوقوعنا في هذه المشكلة ، ولكنه  
ابدى ارتياحه كثيرا حول ان هذه المشكلة يمكن ان يكون من  
منشأها وقرر الشرطي لدى حضور هذه الـ . مهمة انه الوقت  
المناسب لانهاء المشكلة برمتها .

اقترح ان يتصافح جيرد وامير فلاح ، رفض جيرد ذلك ، ثم  
ابتعدنا عن الحشد وجيرد يهتاج غضبا . لم يناسب ذلك امير فلاح  
أوالشرطي الذي طلب منا بعد ذلك أن نرافقه هو والسيد امير فلاح  
في سيارة الجيب في جولة اخرى الى مخفر الشرطة وقد حضر مسرعا  
معنا مترجمنا ايضا .

قابلنا هذه المرة في المخفر ملازما ، وقد اصغى البننا  
بتركيز عندما شرحنا له مرة اخرى مجمل ما حدث . التمت الملازم  
الى امير فلاح وسأله فيما اذا كان عازما على التأكد من أن خدمه  
لن يفعلوا شيئا من هذا القبيل ثانية وبدون أن يعترف امير فلاح  
ان هذا التصرف قد ارتكبه خادم من خدمه وعدان بلوي اذن الصبي  
الخادم المذنب . فهمست في اذن جيرد متذمرا :

– ولكن لا احد يعترف بالخطأ ، لا احد يهتم باكتشاف  
من قام بالحادثه حقا .

سجل محضر بالحادثه ، ولارضاة الايرانيين الحاضرين تصافح  
جيرد وامير فلاح . ولكوني مجرد امرأة تخص جيرد ، فقد فعت مسي  
هذا الخلط . بعد ذلك عدنا جميعا لرقائقنا ، حيث تصافح جيرد وأمير  
فلاح ثانية .

بعد يوم من ذلك ، وفي ليلة عيد الميلاد وبينما كنا

جالسين في حجرة الجلوس ، رن جرس الباب ، هناك في الاسفل ، فسي الزقاق كان يقف ستة من الصبيان والصبايا ، وكانت احدى الصبايا تحمل علبة من السلومان ممثلة بالورد والقرنفل ودفعتها الى يدي. دعوتهم ليعدوا الى الاعلى لاحتساء الشاي واكتشفت انهم كانوا اخوات واحوة مترجمنا في ذلك اليوم . وكانت ابنة امير فلاح أيضا قد حضرت معهم لتقدم لنا امنباتها بقضاء عطلة سعيدة . كانوا يعرفون انه يوم عيدالميلاد فقط لأنني ذكرته عدة مرات خـلال المباحثات في اليوم الفائت . وتحدث الصبي ذو الشعر الاجعد الذي كان قد ترجم لنا قاعلا :

– والدتي تريد ان تعرف متى ستحضران لتناول العشاء

عندنا .

شكرناهم على الورد وعلى الدعوة وقال جيرد :

– ولكن لاداعي لدعوتنا لتناول الغذاء .

فقال مترجمنا :

والدتي نرغب في أن تأتينا اليها لتناول الغذاء .

– هل أنت متأكد ؟

قلت ذلك كارهة سرّة الشك القاسية في صوني فقد كنت اشعر كأنني متأكدة تقريبا من أن الدعوة ليس حقيقية . من كانت امهم ؟ ولماذا لم توجه الدعوة الي هي بنفسها ؟ من عيبر ربب ان هو لاء الاطفال كانوا يقومون بالابماءات المهذبة النبي كانوا قد تلقنوها .

ولكن ولدهشتي ، اصروا على الدعوة ، لذلك فقد حددنا

موعد للذهاب الى منزلهم على مضض . ولدى مغادرتهم التفت الى جيرد وسألته فيما اذا كان يعتقد ان الدعوة حقيقية . فأجاب :

– لا أعرف .

في تلك اللحظات لم تكن لدي رغبة في قبول أي دعوة .

حتى اني لم ارغب في مفادرة منزلي . لقد كان واضحا ان عائلتي مترجمنا لم تكن تنتظرنا فحسب ، بل كانت تتلهف لمقابلتنا . ولكن وعلى الرغم من كل ابتساماتهم وترحيباتهم الصادقة فقد شعرت بالقلق<sup>واثنا</sup> محاطة بالورود البلاستيكية والحلي الرخيصة المذهبه اضافة الى صور عديدة للشاه كانت قد زخرفت حجرة جلوسهم . وتمنيت لو اني قابلت هو<sup>لا</sup> الناس قبل ان يلقي علي المصباح او بالاحرى لو ان الضوء لم يلق ابدا . وتمنيت أيضا لو أن هو<sup>لا</sup> الناس لم يزينوا منزلهم بهذا الاسلوب الموعد للشاه .

بدانهم يحبوننا لكوننا امريكبين بغدر ما يبدو أن اناسا آخرين في ريزاي يكرهوننا لنفس السبب .

لم يبدو لنا بعيدا جدا مصير احد المدرسين الامريكبيين في كلية ريزاي الذي كان قد لقي حتفه في عشية عيد الميلاد قبل ست سنوات . وحتى الشهر الثاني كلما كنت اخرج من المنزل كنت انظر خلفي . وقد قللت من عدد المرات التي اذهب فيها لوحدي الى مركز المدينة كثيرا جدا . على الرغم من انني كنت اتسوق لساعات لوحدي في عشيات قبل الميلاد . الا انه لم تعد لي رغبة في مواجهة لمسات وتحديق زمر الرجال والصبية الذين يملوون ارففة مركز مدينة ريزاي . كنت اتحس الآن أكثر من أي وقت آخر الحقد والاحتقار اللذين كانا يكمنان في ذلك اللمس والتحديق ومنذ اللحظة التي هبطت فيها مطار طهران ورأيت الحجاب للمرة الأولى أدركت أنني سأكون عرضة للهجوم في ايران كامرأة والآن فهمت أن كوني اجنبية قد وضعني أيضا في خطر مضاعف .

أما بالنسبة للاكراد فقد تراجع فكري عنهم وقد استغربت عدم ظهور أحد اللاجئين بين الحشد في الرزاق . واصلت تأجيل زيارة منزل مريم وكان من النادر أن أرى السيد خليلي في أيام الشتاء الطويلة المظلمة هذه . لم يبد الايرانيون الذين أخبرتهم عن هذه الحادثة تعاطفهم معي . وقد أبدى هوشنغ وشهرزاد على نحو خصومي دهشتهم لاستدعائنا الشرطة للسيد أمير فلاح وقد كانوا يكررون "رجل طيب مثله" .

لم أذكر ما حدث للسيد أحمدى أبدا . فبطريقة ما اعتقدت أنه لا يوءيدنا على الاطلاق . وموآخرا عندما حصلت حادثة كريمة في نفس زقاقهم عرفت أن ظني كان في محله . لقد كنت أعتبر بالنسبة للسيد أحمدى " الأخرى " حتى نهاية اقامتي في ايران تقريبا . حتى عندما فهمنا كبشر وكأصدقاء فقد كان يظن دائما أننا أغنى بكثير مما نحن عليه ، أو على الأقل مما نشعر به . كان بروده هذا موءديا ومع ذلك فقد كان بإمكانني أن اعتبره دفاعا . لقد كان أحمدى يتصرف مثل رجل راشد بينما كان لا يزال طفلا .

واصلنا أنا والسيد أحمدى لقاءا اتنا وكان قد تكون لسدي احساس بتعلم اللغة بطريقة آلية ، وفي آخر الأمر ، افترضت أنها ستساعدني على اتمام بحثي ، ولكن ما نفع ذلك ؟ فكلما كنت أتعلم الكردية والفارسية أكثر ، كانتا تبدوان لي بغير فائدة أكثر . ربما ستجعلني قادرة على أن أكون مهذبة أكثر ، أو ربما مشوشة أكثر عندما يطرح الناس علي أسئلة ، ولكن هل سأقدر على معرفة أي امرىء على نحو أفضل ؟ وقطعا يوجد أناس آخرون يتواصلون مع بعضهم البعض بالفارسية والكردية ولكن اتضح لي أن فعالية كهذه لن توءثر علي بهذا القدر ولن تفيدني في حياتي اليومية اطلاقا .

أقبلت عشية السنة الجديدة ومضت . لقد كانت كشيبة حتى أكثر من عيد الميلاد . وبما أن العطلات كانت بعيدة فقد بدأنا نفكر في الخروج من ريزاي لفترة . لقد كانت عطلة منتصف الشتاء التي تتقدم عطلة الشيعة الكبيرة - في محرم ، فترة الحداد على الامامين الشهيدين ، الحسن والحسين . قررنا الطيران الى طهران وان نأخذ القطار راجعين الى تبريز وبعدئذ نستقل الباص الى ريزاي .

ذهبت الى طهران وأنا أتفجر بالانطباعات والاسئلة حول الأربعة أشهر الأولى من اقامتي في ايران . ولكني كنت أهد من قبل الطلاب الأمريكان الباحثين الذين يتابعون دراستهم بمنح تعليمية فسي

العاصمة . لم يبد أي منهم احساسهم الحقيقي ورأيهم في السياسة الإيرانية . لقد كان معظمهم يحتقرون ايران والاييرانيين ببساطة . وبعد التحدث مع هؤلاء الناس عرفت كم سيكون من السهل لبي أن أكتب بسرعة وبغير تردد عن جميع الايرانيين ، على أنهم يعانون من رهبة الاجانب على نحو ميوءوس منه . لم تقدر تعليقات الأمريكيين أن تساعدني في معالجة احساسسي الخاصة ، بل كانت تزيد في ألمها وتثيرها أكثر .

ولكوني عائدة الى شوارع طهران حديثا وخائفة من الضجة وحركة المرور فقد بدأت أكون روعية عن الأوضاع في ريزاي وفتا لعلاقاتها الصحيحة بأهميتها النسبية . بدا واضحا أن هناك أمكنة أسوأ على الأرض أكثر من العاصمة الصغيرة النظيفة الهادئة بريفها ذي المشاهد الطبيعية الخلابة التي كنا ندعوها بالوطن . عدت بعد مدة أسبوع جديدة واختفت تعابيري الساخرة . وعندما رأيت السيد أحمدى ثانية ، أكرهت على التحقق من أنني قد تعلمت الكثير من الكردية منه . لقد كنت مستعدة للخوض في مجازفات جديدة ، ولأغامر وأن أحاول التواصل مع الناس .

## الفصل التاسع

كان بيندر أن تجد كرديا في المرحلة الثانية في ريزاي .  
لذلك لم اكن متأكدة من ان ماسمعتة صحيح لدى بدء السيد خليلي  
بالحديث عن دكتور كردي شهير ، قد حصل على الدكتوراه في الفلسفة  
وهو رجل لا يتحدث لهجة المدن الجنوبية مثل مهايد او سننداج ، بل  
هو متحدث حقيقي بالكرمانجية مثل السيد خليلي . وانه لا يتحدث  
الكرمانجية فحسب ، بل العربية ، الفارسية ، التركية - كلا الاستانبوليه  
والأزرية - الروسية ، والانكليزية وربما شيئا من الالمانية . لقد  
بدا هذا شيئا لا يصدق ، ان يقيم رجل مثله في ريزاي وألا تكون له  
صلة بالكلية . المؤسسة الوحيدة في المدينة والتي من المفترض أن  
تكون لها علاقة مع الدراسات العليا .

لقد ذكره السيد خليلي عرضيا وبحذر شديد بنفس الاسلوب  
الذي كان يقول فيه معظم الأشياء لي :  
- هناك دكتور كردي .

قال مقدا ملاحظته على نحو متردد ، بالاستجابة الى تساؤلاتي  
الملحة عن ايحاد نساء كورديات . جرى ذلك قبل ان يودعني عند  
درج منزل مريم لضعه ابام وكان آنشد بزعم دائما انه بريء من  
معرفة أي نساء كورديات . على الرغم من أن الدكتور كان رجلا  
مهما جدا فانه ربما يوافق على أن يقدم لي المساعدة في الكوردية  
اذا كنت محظوظة جدا .

بساطة كان من المستحيل للسيد خليلي ان يصدق انني حقبا  
كنت ابحث عن نساء كورديات عاديات . فمن وجهة نظره كنت دخلة  
الى حد بالغ - امرأة احنبة عالية الثقافة تبحث في القواعد الكوردية،

حتى شعر اني كغربية موهله فقط لأن اكون مدرّسة . محفظة أن  
الدكتور يعرف الانكليزية ستكون ذات فائدة عظيمة في  
خليبي . لم يكن لدى السيد خليلي الصبر والوقت ليعلمني الكردييه .  
ولكنه يعتقد انني لا اتقدم كفاية بسبب العائق اللغوي الذي بيننا  
وليس لأي نقص في الممارسة والتعليمات . وحسب اعتقاد السيد  
خليلي فان الترجمة ستحل المسألة برمتها واني سأقدر على تعلم  
الكردية في فترة قصيرة .

لم يكن تعكيري يمتقر الى الشك في أن أي شخص حائز على  
دكتوراه في الفلسفة سيتكلم لغة الريف النموذجية التي أردت دراستها،  
ان شخصا كهذا من الموهود انه سيكون متأثراً بمصادر غير كرديية  
اكثر من السيد خليلي . ولكن حتى لو فكرت انني لا احتاج مدرسا يتحدث  
الانكليزية فقد اردت ان التقى بهذا الدكتور الغامض وكما الححت على  
السيد خليلي فقد اردت ان اقابل زوجته على وجه الخصوص . وقد  
قادتني افتراضاتي غير المشكوك فيها الى تصور انها ستتكلم الروسية  
والانكليزية .

عندما استيقظت آمالي لتجاري فضولي ، عند ذلك فقط  
اصبح السيد خليلي غامضا اكثر فاكثر حول فكرة ان يعلمني الدكتور،  
الى ان انقطع عن مناقشتها ثانية كلياً . هل كان الدكتور مسغولاً  
جداً من مقابليتي ؟ هل كان شكاكاً جداً ؟ وهل ذكرني السيد  
خليلي له يوماً ما ؟ ولكن بما انني قد اطلعت على وجود دكتور  
كردي ، فلم استطع أن انسى امره ، وذكر السيد خليلي انه كان  
قد درس في جامعة روسية ، وقد تساءلت الى ما لا نهاية عن موضوع  
شهادته .

كنت قد مررت برفقة السيد خليلي ودون علم منسبي ،  
بمنزل هذا الدكتور نفسه مرات عديدة . الفى اثنان من الرجال  
التحية على السيد خليلي وهما بينظلمان سيارة اللاندروفر في الخارج



وقد حدثنا فيّ بفضول ولكن ليس بطريقة غير ودية . كانا يعملان أمام المنزل السحري نفسه الذي كنت قد لاحظته خلال اسابيعي الاولى في المدينة - ذلك المنزل القابع خلف الابواب المعدنية الزرقاء . أمام هذه الابواب كانت تقف عادة سيارة اللاندروفر الطويلة والرجلان ببذلتيهما الخاكيتين وعمامتيهما وهما ينظران الي خلسة بعدد مارآباني برققة السيد خليلي . وبعد ذلك باسبوع كنا نتجول معا ثانية قريبا منه عندما استأذني السيد خليلي ليذهب الى الدكتور ويقدم احتراماته له . كان قد اضطر اخيرا ان يفيشي سر ضاحسب هذه الدار . ولكنه لم يدعني للدخول معه .

بعد عودتنا من طهران بعد ايام وبينما كنت اتفحص برتقالا في كشك فواكه في شارع بهلوي ظهرت امرأة ، وقد وضعت غطاء ، على مقربة مني . ولاعتقادي انها وقفت هناك لتحقق في فقط بدأت بالانصراف ولكنها امسكت بيدي والقت علي سلاما حسارا قبل ان اتمكن من المغادرة . وعندما نظرت الى لباسها البراق بكامله تحت غطاها الاسود المخرم ، ادركت انها كردية . بسدا وجهها الوردي مألوا جدا ، ولكنني لم استطع تذكر فيما اذا كنت قد التقيت بها أم لا .

وسألت :

- اين كنت ، خانم ؟ قلوبنا مشتاقة اليك .

بدأت اشعر بالارتباك لعدم قدرتي على تمييز هذه المرأة ، وبعد ذلك تذكرت انها كانت الخادمة التي رحبت بي عند الباب في المرة الأولى التي ذهبت فيها لمنزل مريم . ابتسمت لها معبرة عن شكري لودها .

- متى ستحضرين لروءيتنا ثانية ؟

قالت ذلك وكانت لاتزال ممسكة بيدي بعدما انتهينا من المصافحة بوقت طويل .

راودني احساس بأن اكون غامضة . وكان ذلك فعلا

منعكسا كنت قد اكتسبته اخيرا بالاستجابة لأسئلة من هذا القبيل  
كانت تطرح علي بالفارسية . ولكنني سيطرت على نفسي بعد ذلك . ألم  
تكن هذه المرأة رقيقة وودودة معي على وجه الخصوص ؟ ألا تتكلم  
الكرديّة وليس الفارسية ؟ وبالإضافة الى ذلك كنت قد وعدت نفسي  
بأن اعود الى منزل مريم في نفس هذا الاسبوع . فأجبتها  
بأندفاع :

- سأحضر عصر هذا اليوم . هل هذا حسن ؟-

فقالت :

- حسن جدا ، اذا سنراك .

بينما راقبتها تمشي مبتعدة عبر الشارع بالخطى غير  
السريعة المتعثرة التي تميز مرتديات الحجاب تساءلت فيما اذا كنت  
قد ارتكبت خطأ ما . افترض انها كانت تعني بهذه الدعوة الشكليات  
فقط ؟ افترض ان لا احد في المنزل الواقع في شارع بهلوي يريد أن  
يراني ؟ افترض انها لن تخبرهن بأنني ذاهبة اليهن ؟

هدأت مخاومي لتوها عندما قرعت جرس الباب ، بعد ذلك  
بعده ساعات . وقفت خديجة بنفسها في المدخل تبتمس ابتسامه  
عريضة وهي تصافحني وتسالني عن سبب غيابتي طوال هذا الوقت .  
اوضحت لها اني كنت في طهران ، ولكنني شعرت بالذنب لأنني كنت  
قد بقيت في طهران لمدة اسبوع فقط بينما غبت عن منزل مريم  
لأكثر من شهر . وقد اخبرتني خديجة بأنها قد بقيت في القرية  
لمدة اسبوعين فقط وعندما عادت كانت تنتظرنني وتترقب قدومي  
كثيرا . وعندما قادتني الى الطابق الثاني الى حجرة النوم منارة  
بالحمامات حملت حقيبتي بيد وامسكت بيدي بالآخرى . وحالما  
جلست ، جلست هي ايضا بجانبني على الارض وهتمت قائله :

- مارغريت ، ان لك اسما جميلا .

فابتسمت لها . وقالت لي :

- هل تعرفين مارغريت الثانية ؟

اعتقدت ان مارغريت اسم مسيحي في ايران ، مقصور فقط  
على الاشوريين والارمن .

- هل هناك مارغريت كردية ؟

- سآريك .

ففسزت خديجة وذهبت الى الخزانه واخرجت من داخلها دفتر  
ضخما ذا غطاء بلاستيكي .

- دفتر صور العائلة .

في البداية بدأنا بتقليب صفحات من الصور لآكسر  
متجهمين ، كانوا جميعا افراد عائلة الحاج اسماعيل وعائلة  
مريم ، وقد كانوا مصطفين بنفس الطريقة مثلما كانوا في الصور  
التي اظهرتها شيرين وبيروانه لي في مانوا . في حوالي منتصف  
دفتر الصور وفي صفحة لوجدها وجدت صورة لفتاة متمرسه ، محترفة  
للقتال، آشورية سمراء ، صغيرة ، تدعى مارغريت . كنت قد رأيت  
هذه الصورة في كتاب عن الحرب الكردية في الستينات . كانت مارغريت  
هذه قد قتلت مع الشوار الاكراد في العراق . ومع انها كانت  
مسيحية فقد قتلت هي وآشوريون آخرون مع جيرانهم الاكراد ضد  
سياسات الاضطهاد التي كانت تمارسها الحكومة العراقية . قالت  
خديجة :

- اسمك مارغريت ، تماما مثل اسمها .

كنت ارغب في الاطلاع على المزيد وسماع الاكثر عنها  
ولكن بدأ أن خديجة كانت تعرف عنها فقط بقدر معرفتي وربما  
أقل . بالنسبة لخديجة كانت كردية وليست آشورية . على الرغم  
من انه لم تكن لدي نوايا في الوقت الراهن لحمل السلاح مع الاكسر  
فقد كنت سعيدة لأن اعتبر من ضمن جماعة تحمله .

بعد تقليب صفحات من الالبوم وصلنا الى صورة عروس .  
كانت تلك صورة عائشة نفسها التي قابلتها في اليوم الذي سافرت  
فيه مريم الى قريبتها . فأخبرتني خديجة قائللة :  
- لقد درس زوج عائشة في بلدك ، مارغريت . انه  
دكتور .

تمثل في ذهني مباشرة ماكنت اعلمه عندما قابلت عائشة  
ذات النظرات الملوكية لأول مرة وما اخبرتني اياه خديجة الآن مع  
وصف السيد خليلي البعيد العهد . هل يمكن ان يكون هنالك دكتوران  
كردبان في ريزاي - وأن يكون احدهما قد درس في امريكا والآخر  
في روسيا ؟ فكرت في احتمال ان احساس خديجة الغامض بالجغرافية  
قد دمج الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في مكان واحد بعيد  
على نحو متساو ، فسألتها :

- هل انت متأكدة من انه لم يدرس في روسيا ؟  
فبدت عليها الحيرة وقالت متفاتيقة :  
- بلدك ، اظن انه كان بلدك ، مارغريت .

ان من أهم صفات خديجة واكثرها ابهاجا كانت اساليبها  
الريفية ، وسلوكها الودي الصادر من القلب ، والطريقة التي تفهـرب  
فيها على ركبتيك او تمسك فيها صدرك . وتردها على نافسدة  
منزل مريم وعندها احاديث طويلة مع الجيران عبر الزقاق . أن  
هذا الضرب من السلوك من غير الممكن ان يليق بسيدات متمدنيات  
ولكن خديجة كانت قادمة جديدة الى المدينة قليلة التجربة  
عندما قابلتها في المرة الاولى . كانت قد تزوجت منذ عدة شهور  
فقط وهذه هي المرة الاولى التي تزور فيها ريزاي في حياتها  
لم تذهب الى المدرسة اطلاقا ولم تتعلم القراءة والكتابة أبدا  
وموعرا لاحظت انزعاجها لجهلها القراءة والكتابة عندما لفتت  
سلفتها النظر الى ذلك في حضوري .

ان عدم معرفة خديجة لمواقع البلدان لم تكن غلطة من

صنعها . كان اخوتها الاصغر منها ببضع سنوات قد ارسلوا الى المدرسة الثانوية في ريزاي . ولكن خديجة كانت خجلة لافتقارها للتعليم كما لو أنها الملوحة في ذلك . لم استمر في سوءها عن المكان الذي درس فيه زوج عائشة . فخديجة المتحمسة والغالية لم تكن واحدة اريد مضايقتها .

قبل ان اغادر سألتني فيما اذا كنت قد ذهبت لرومية

عائشة :

– انها تنتظرك يامارغريت .

عند ذلك شهرت بوخر من الندم والخجل . فطوال هذه المدة كنت افترض ان مسألة الذهاب الى منزل هؤلاء النسوة مهم بالنسبة لي فقط ولم يخطر ببالي قط انهن ايضا يمكن ان يكن قد جلسن يتسألن عن سبب عدم قدومي . وانه من الممكن انهن يتشوقن لوصولي . في طريق نزولي الى الطابق السفلي شهرت برغبة فسي تقبيل الخادمة ذات الوشاح البرتقالي والوجه الوردي وقد وقفت خديجة في ردهة الطابق الاول تحديق لي عيني وقالت :

– انت مثل اختي يامارغريت ، تعالي الى منزلنا

شانية ودون تأخير .

لقد كنت مسحورة بزوجها لدرجة اني في البداية لسم اقدر كم كانت رائعة هي نفسها – ربما اكثر رومة ، لأنها لسم تتمتع بالمزايا التي يتمتع بها زوجها بصفته ذكرا . فهي لسم تكن قد تعلمت في كلية في بغداد ولم تسافر الى الاتحاد السوفياتي لدراسة التاريخ الكردي . ووالدها لم يسمح لأطفاله الاناث الذهاب الى المدرسة مقصرا تعليمهن على الدروس الخاطفة والسريعة التسي يلقنها الملالي في المنزل .

عندما ذهبت الى منزل عائشة لأول مرة شهرت به مختلفا

تماما عن منزل مريم . فقد بدا اوسع واكثر تهوية ، من جهة  
لأن عدد الافراد فيه كان اقل - حيث لم يكن لدى عائشة اطفال -  
ومن جهة اخرى انه كان ذا ارضية نظيفة وسقوف عالية . لقد كانت  
حجرة الجلوس ، المكان الذي استقبلني فيه في الطابق الثاني ، مغطاة  
بسجادتين كبيرتين عجميتين ، راضعتين برسوم الخيوانات والورود  
المنسوجة داخل تصميمها الفني الاجمعي . كانت اصص المزروعات بأحجامها  
واشكالها المختلفة تكتظ على طول الرف الطويل في اسفل النوافذ  
الممتدة من الارض حتى السقف في واجهة المنزل كلها . ففي إحدى  
النهايات كانت توجد شجرة تحمل ثمر الليمون وفي النهاية الاخرى  
كانت شجرة الفوشية السهلة الكسر ولوحات مطرزة وموطرة كانت  
معلقة على الحائط . وفي الزاوية كانت تقف خزانة تلفزيون مع ابن  
عرس محنط فوقها والشيء الاكثر غرابة في الغرفة كان خزانة الكتب  
الخشبية الضخمة المصنوعة من الزجاج والخشب . فحتى الجعفريون  
المتمدنون على طريقتهم لم تكن لديهم رفوف للكتب في منزلهم  
ذي الاثاث الفخم .

لدى بقائي لوحدي وجها لوجه مع عائشة جالسة في كرسي  
معدني موضوع على نحو غير مريح قريبا في وسع حجرة الجلوس تلك ،  
خامرني شعور بأن شخصا ما يلاحظني ويحكم على تصرفاتي بطريقة لم  
احس فيها بهذا الشعور وأنا مع مريم وخديجة . فعائشة لسم  
تأخذ رفاي للكرسي على محمل الجد ، ولم تهمل امدادي بمعلقة  
عندما أمرت باحضار الشاي وبدلا عنه شربت ماء دافئا قدمته  
الي بلهافة عندما سألتها ماذا كان ذلك . جلسنا ببساطة نحقق  
بعضنا وقد كانت كراسينا قريبة جدا من بعضها لدرجة أن ركبتينا  
كانتا تتلامسان تقريبا . بدا أن عائشة كانت تنتظرني لبعد  
حديث ما . كنت اظن دوما ان رغبتني الملحة هي ان امكث لوحدي  
مع امرأة كردية دون جمهرة تصرف انتباهي عنها ولكني الآن  
لست متأكدة جدا من ذلك . نظرت الى عائشة وابتسامة مسلية

تكاد تكون ساخرة تلوح على شفثيها .

- هل تريدان ان اعلمك الانكليزية .

سألتهما دون ان اعرف ماذا اقول غير ذلك . فأجابت بنعم  
بجرس اقل حماسة بكثير مما كانت عليه من قبل عندما سألتها السؤال  
نفسه في منزل مريم . حاولت اعطاها كلمات وعبارات ولكنها  
بدت فائرة الحماس ومرتبكة لدى تكرارها اياها ، لذلك توقفت  
عن ذلك . فسألتهن وبدون مناسبة تتعلق بهذا السؤال :

- الا تفتقدان اهلك يامارغريت ؟

فأوضحت لهما مفئلة :

- بلى افتقدهم ولكن ليس كثيرا فايران بلد ممتنع

جدا وأنا سعيدة بوجودي هنا .

وفجأة انفجرت بضحكات مدوية . محدقت فيها متضايفة .

- ماذا قلت ؟

فأجابت معلقة وهي تمسح عينيها :

- ان لغتك الكردية مضحكة جدا .

بعد ذلك مضت محادثتنا على نحو اخرق ، وقد تكلمت  
بهدهوء وبغير تواصل لأنني خشيت ان تجد لغتي الكردية مثيرة للضحك  
شانية . وقد واصلت تفحصها لي بقساوة . بعد ذلك لفترة قصيرة  
دخلت امرأة ، ممتلئة الجسم ، تفاحية الخدين الى الحجرة وجلست على  
الارض بينما مكثنا انا وعائشة على الكراسي ، تكلمت هي وعائشة  
بسرعة وبلهجة مختلفة قليلا لم اقدر على فهمها . ولكن عائشة  
لم تنسى وجودي وكانت تقممني في الحديث قدر استطاعتها . لاحظت  
أن عائشة وصديقتها تقفان فجأة على قدميها حتى قبل أن ارى الرجل  
الطويل عند مدخل الباب ، فوقفت انا أيضا . هل كان هذا الرجل  
الضخم الواقف عند مدخل حجرة الجلوس هو الدكتور المشهور ؟

نقدم الى الامام وعيناه تلمعان وقال بانكليزية دقيقة :

- كيف حالك سيده مارغريت ؟ اهلا بك في منزلنا .  
أوما ت برآسي واجيته ببعض الكلمات لقد اوقع في نفسي رهبة ليس  
لضخامته فحسب - فقد كان واسع الصدر طويل الفامه - بل ايضا  
بانكليزيتته وبالطريقة التي كانت تنقف فيها هاتان المرأتان وهما  
صامتتان وتظهران فيها الاحترام البالغ في حضوره بما في ذلك  
زوجته نفسها . بدا انه احس بعدم الراحة التي سببها ، لذلك  
فقد انحنى احتراما وخرج لتوه من الحجرة متمنيا لي اقامه سعيدة  
في ايران . دار في خلدي تساؤل فيما اذا كنت سأراه ثانية  
أم لا . لقد تصرف كما لو انه زائر في هذا المنزل ولكن من المؤكد  
انه يقيم هنا .

اجلت بنظري في حجرة الجلوس على الابواب المغلقة الموءدية  
للحجرات الاخرى وتمنيت لو اني استطيع روءيتها جميعا واعرف  
ما يدور في هذا المنزل الغامض . وعندما اخنفت عائشة لمدة عشر  
دقائق دون ان تخبرني عن ذهابها تساءلت فيما اذا كانت تنوّه  
بذلك انه علي المغادرة . لربما انها كانت مسغولة جدا ولم  
ترغب في ان تخبرني بذلك . وعندما عادت اخيرا وقفت بسرعة  
وقلت انه قد حان وقت الرحيل .

فلو كان ضحك عائشة من لغتي الكردية مقرونا بغيابها  
الغريب غير المفهوم من الحجرة قد حدث قبل زيارتي لخديجة لشكل  
ذلك دافعا لي لتجنب زيارتها في المستقبل وذلك اعتقادا مني  
بأنها في الحقيقة لاتريد روءيتي ، ولكنني ولسبب ما اعتقدت انها  
تريد ان تراني وانها قد وجدتني مسلية ومثيرة للاهتمام مثلما  
وجدتها انا ايضا كذلك . دعنتني الى زيارتها ثانية متى شئت  
والا أتأخر في ذلك . لقد جعلني منزلها اشعر براحة اكبر للقيام  
بزيارته وذلك لأنه لم يكن لديها اطفال مثلي ولأن منزلها  
كان خاليا نسبا .



في المرة التالية التي قمت فيها بزيارة منزلها  
اكتشفت ما كانت تفعله عايشة اثناء اختفائها المفاجيء خلال  
زيارتي الاولى لها . فهذه المرة ادت صلاتها امامي ، حيث مضت  
الى احدى زوايا حجرة الجلوس وخلصت سروالها الطويل تاركة اياه في  
كومة صغيرة بجانبها لم ار من قبل ابدا أي من النساء فيسر  
الكرديات يخلعن سراويلهن قبل الصلاة ولكن بقية الطقوس من الترتيل  
والركوع والسجود نحو الجنوب صوب مكة كان عملا مكررا ودقيقا  
لسلوك يتكرر خمس مرات في اليوم في جميع انحاء الشرق الاوسط .  
لقد قامت بأداء كل ذلك بحضوري وحضور المرأة القصيرة الممتلئة  
ذات الخدين التفاحيين ، التي بدت على انها رفيقتها الدائمة .  
جلسنا كلانا في صمت ، بينما تأملت أنا الصورة المزدانة المصنعة  
آليا والمعلقة قرب خزانة الكتب وكان قد رسم في هذه الصورة  
رجلان معتمران طاقيتين، نسيجيتين وهما يقفان الى جانب بعض  
الثياب والطيّات السوداء يمعنان النظر في شكل بيضوي اسود .  
وقد علمت انها تمثل الكعبة ، البيت الحرام في مكة المكرمة . وقد  
كانت فترات العصر في منزل عايشة تفعم بالنشاط جراف تحديقي  
في هذه الصورة المثيرة للفضول . لقد استوقفتني امر هو : ان الاكراد  
يميلون الى تعليق صور مصنعة مبهجة على الحائط ، بينما يتركون  
السجاجيد المصنوعة يدويا التي لاتقدر بثمن على الارض ، بعد أن  
وجدت هذه النماذج من الصور في اكثر من منزل كردي . أن الإيرانيين  
المتمدنين الاثرياء الذين كانت لهم القدرة اللامحدودة للوصول الى  
المحلات التي تفيض بالبضائع المصنعة كانوا قد بدأوا بثمنون الصناعات  
اليدوية القديمة أكثر فأكثر ، بينما كان الاكراد المعزولون في  
قراهم لا يزالون يعتبرون المنتجات الجديدة لايران ( العصر  
البلاتيني ) على انها جميلة .

تطورت العلاقة بيني وبين عايشة حالما بدأت بزيارتها  
بانتهام وقد توسعت اكثر بكثير من علاقتي مع النساء في منزل

مريم . وقد سألتني عاثة لمررة واحدة فقط ، فيما اذا اجببت  
ايران اكثر ام امريكا بدلا من كل مرة اقوم فيها بزيارتها . وبعد  
ذلك سألتني بالتفصيل عن عائلتي ، عن حياتي ، عن ردود فعلي  
اتجاه عملي في الكلية ، وعن السياسة الامريكية ، وقد اذات أن  
تعرف لماذا رضي والدي بابنتين فقط ودون أولاد، اذات ان تعرف  
ماذا تفعل امي الان حيث لم بعد اطفالها في البيت ، اذات ان تعرف  
لماذا استقال ريتشارد نيكسون عن منصبه ( وكانت الصحف الايرانية  
قد اوردت ان اليهود قد اضطروه الى تقديم استقالته ) . اذات أن  
تعرف رأي الامريكان بالمخدرات . ماكنت سأصدق ابدا ان محادثتي  
مع عاثة هي ممكنة . وذلك لسببين اولهما هو انني اعتقد  
اني لا اعرف اللغة جيدا وبما فيه الكفاية . وثانيهما هو انني  
ولبساطه مني شككت في امكانية درايتها واهتمامها بأشياء  
خارج المجتمع الكردي . وعلاوة على ذلك كانت عاثة تطلق احكاما  
اخلاقية ، فقد سمعت - وذلك بعد مضي ثلاث سنوات من بعض افراد  
عائلتها - انها قد اوضحت رأيها فيّ وهو انني شخصية تتمتع  
بصفات جيدة . ولكني لم استغرق ثلاث سنين لاكتشاف كم يقدر  
بعض هؤلاء النسوة الاخريات آراء عاثة عاليا او ان اسمع  
عاثة وهي تخبرني عن شؤن تخص عائلتها والتي لم يرد احد  
غيرها الاشارة اليها .

ولكن من كانت عائلة عاثة ؟ لقد بدا أنها قريبة  
مريم ولكني لم افهم لفترة صلة القرابة هذه على وجه التحديد .  
وقد سألتني يوما فيما اذا كنت ارغب في زيارة منزل والديها  
في وقت قريب فأجبت مندهشة

- منزل والدك ؟ من هو والد عاثة .

فأضفت قائلا :

- المنزل في شارع بهلوي .

فصححت لها :

- منزل مريم .

فقالمت متسامحة :

- نعم منزل مريم .

لابد أن عائشة قد بذلت جهدا في محاولتها لتقبل فهمي الخاطيء بأن المنزل كان يخص مريم . ولكن عائشة كانت تتفهم اكثر بكثير من اخواتها وزوجات اخوتها اني اجنبية لانعرف الكثير عن العادات والاعراف الكردية .

ولأن عائشة نفسها قد اقامت في بلدان لايعرف فيها سكانها شيئا عن الاكراد ، فقد ادركت امكانية عدم استيعابها لتربيتها ابدأ ، بأنها قد انشئت على كره مريم والشعور بالغيوره لما كان قد اعطي لها ولأطفالها . وادركت تدريجيا فقط ، أن والدة عائشة ومريم كانتا صرتين عند والد عائشة . لقد كانت عائشة الاخت الثانية ، الاكبر سنا من بين اطفال والدها الكثيرين جدا ، ولكنها في عمر اولاد مريم تقريبا . وبينما كان لسدى والدة عائشة بنات فقط ، ولدت مريم للحاج اربعة اولاد اقوياء . وهذا الشيء لم يجعل المنافسة المألوفة بين الزوجتين اسهل على ام عائشة لتتحملها ، ولكن وعلى الرغم من كون الاولاد ذوي فائدة عظيمة لمريم فانهم لم يوءهلوها لأن تكون مالكة المنزل في شارع بهلــــــــــــوي اكثر مما كان لوالدة عائشة ، فالملكية كانت متبقية للحاج . لقد كان لعائشة مكانة خاصة عزيزة علي ، وذلك بسبب ذكائها وحساسيتها ولكنها كانت عزيزة ايضا على اناس آخرين بسبب منزلتها الاجتماعية وليس بسبب شخصيتها . وقد كنت اتساءل قبل أن افهم هذا الوضع عن سبب ارتدائها البسة رائعة وفخمة وسبب تزيينها بالذهب اكثر من اية امرأة كردية عرفتها ، وسبب تحدثها بالفارسية افضل بكثير من غيرها ، وسبب سفرها لوحدها الى انكلترا واوروبا .

كانت عائشة في سن الثامنة عشر عندما زوجت من اخي مريم الابن الاكبر لعم والدها وبذلك فان مريم لم تعد زوجة ابيها فقط ،

بل ايضا .اخذت زوجها . ومنذ زواجها ، ذلك الزواج الذي اخبرتنني  
عائشة بأنها قد خسته واشتكت منه امر الشكوى وانها لم تغفر  
لامها أبدا لأنها قد سمحت به ، فان عائشة قد ارتفعت  
الى مكانة ما كان لها ان تحلم بها بغير ذلك . على الرغم من  
اهمية والدها ، ذلك الملاك الكبير والشيخ المشهور في كردستان ، فهو  
لم يبدا أي اهتمام ببنايته اكثر من صيانة عفافهن . لقد كان قد  
ترك عائشة حبيسة القرية ، حيث لا يعرفها احد سوى افراد اسرتها  
من الاناث . والآن هي زوجة رجل اكبر سنا واكثر اهمية من والدها  
وهو وكما اتضح رجلا - وبلاساها - لم يمنحها أي طفل . ان مكانة  
عائشة كزوجة للشيخ عبد الله وبدون اطفال يحومون حولها ، ولاضرائر  
لتتنافس معهن ، وبقامتها في منزل جميل مع العديد من الخدم والجواهر  
قد جعلها اميرة حقيقية . ان لديها نفودا تحت تصرفها ، وايضا  
قدرا مذهلا من الحرية بالمقارنة مع والدتها ، وزوجة ابيها واخواتها  
لقد كان زوجها رجلا مثقفا ، وكان واضحا من الحديث مع عائشة  
انه قد امضى بعض الوقت في تعليم عروسه الشابة . وقد راودنسي  
تساؤل فيما اذا كانت دائما معتزة وواثقة من نفسها كما بدت  
لي الان .

اتيحت لي الفرصة كي ارى عائشة وهي تقوم بدور المضيفة  
الكريمة للاجئين العراقيين الاكراد الذين كانوا يترددون على  
منزلها ، وقد اخرجت في احد الايام جدولا مدونا فيه شجرة عائلة  
الشيخ عبد الله . وذلك لكي تسلي اما وابنتها كانتا تقومان  
بزيارتها . وقد كان اساس الشجرة هو النبي محمد ( ص ) نفسه ، وبسبب  
ذلك ، فان العائلة تتمتع بحق لقب " سيد " وقد قدم جميع افراد  
العائلة على الشجرة بدوائر خضراء مرسومة بدقة وبداخلها اسماء  
مدونه بخط حسن . وقد انطلق الجذع نحو الاعلى متضمنا الشيخ عبد  
القادر ، وهو مؤسس طريقة صوفيه في بغداد في القرن الثاني عشر  
وتفرعت منه عقد ورقية محتوية على دوائر بداخلها اسماء للعديد  
من الشخصيات القيادية في كردستان في القرنين التاسع عشر والعشرين .

وكان من بينهم الشيخ عبيد الله ، الذي كان قد هدد بالسيطرة على معظم منطقة ريزاي وبسط السيادة الكردية عليها الى ان خدعه مبشر امريكي ومن ثم نفي الى مكة حيث وافته المنية هناك . ومن ضمن الاسماء المدونة كان اسم زوج عايشة نفسه ، الشيخ عبد الله ، ذلك الرجل الذي كتب تاريخا منهجيا عن الثورة الكردية باللغة الروسية .

سألت عايشة :

– ولكن اين انت ؟ وأين اسمك ؟

فأجابتنني وهي تنظر الي وكما لو ان بي مسا من الجنون :

– لا توجد نساء هنا .

ومنذ هذه اللحظة كنت اتحرق شوقا للتحدث مع الشيخ عبد الله ولكنني لم اره ابدا عندما كنت ازور زوجته . فقد كانت حجرة الجلوس في الطابق العلوي مخصصة للضيوف الاناث . وقد افترضت أن هؤلاء الرجال الذين يأتون مع هؤلاء النسوة لابد انهم يمكنهم التحدث مع الشيخ في الطابق السفلي وعلى الرغم من اني لم أرهم ابدا فقد اشار جميع هؤلاء العراقيين الذين يقومون بزيارتهم تساوياتي .

كنت اعرف ان الشيخ قد عاش جزءا من حياته في العراق ، ولكنني لم اكن اعلم متى وفي اية ظروف . وقد كانت اخته مريم قد عاشت هي ايضا في العراق . وكانت قادرة على القراءة بالعربية جيدا ، ولكنها كانت تقيم في ايران منذ فترة طويلة كما كسان والد الشيخ . وتساءلت لماذا بقي زوج عايشة في العراق كل هذه المدة ، ولماذا يأتني اللاجئون لروبينة ؟ .

لمحت في احد الايام اضافة جديدة لتزيينات منزل عايشة فقد رأيت تقويما معلقا على الحائط وقد كتب عليه عنوان " تقويم الثورة الكردية العراقية " بالانكليزية والكردية والعربية . وقد كان الشهر الجاري – كانون الثاني – قد زود بصورة للملا مصطفى البرزاني ورسم وجهه على نحو انطباعي بظلال زرقاء مع عمامة

حمرآء . ولدى تقليبي اوراق الشهور الاخرى تأملت صور نسساء  
باكيات مطبوعات بالطباعة الحجرية بألوان زاهية ، وصور جنود  
وحمامة بجرح ينزف وصوره فتاة معلقة بمسئقة معنونه ب " ليلي "  
وكان قد دون في كل شهر العديد من التواريخ الهامة في الكفاح القومي  
الكردي - منها اعدام قواد عديدين ، الانتصارات والهزائم الرئيسية  
في ايران ، العراق ، وتركيا خلال القرن الاخير . تاريخ معاهدة  
سيفر وتاريخ معاهدة لوزان التي تلتها ، والتي اسقط فيها كل  
ذكر ممكن للدولة الكردية .

وقد قالت عاشقة في اجابتها على اسئلتي : انها لاتعرف  
اين تجد تقويما آخر . وقد ابدت اعجابي به عدة مرات وقبل أن  
اغادر اهدته الي . ولم يكن من ضمن الشكليات بل هدية حقيقية .  
وقد عرفت ذلك لأن عاشقة كانت قد تجاوزت اعترافاتي الشكلية  
والمجاملة مسبقا باعطائي هدايا عديدة غير التقويم ، اشياء رائعة  
مصنعة يدويا من خزانة النفائس القابعة في الزاوية . كانت خديجة  
ايضا قد اعطتني زوجين من الجوارب الكردية المصنعة يدويا . وقد  
خلصت من ذلك الى نتيجة ، وهي انك اذا ابدت اعجابك بشيء فسي  
منزل كردي فانك ستجد هذا الشيء يقدم اليك كهدية .

لم تكن طريقة الاهداء هذه شائعة بين الابريانيين ففي  
حين يفضطر صاحب شيء ما لأن يقدم هذا الشيء لك فعليا ، فانك ملزم  
بالمقابل ان تجاري الشكليات وترفضه . وقد تعلمت مؤخرا ألا ابدى  
اعجابي بالاشياء التي اراها في كردستان . ولكنني ضعفت امام هذا  
التقويم ومثل طفلة صغيرة ، بريئة ضمعت الى صدري عندما هرولت  
الى المنزل لاثبتته على حائط منزلي وقد طلبت مني عاشقة ان امسكه  
بطريقة ، بحيث لايمكن لأحد في الشارع ان يعرف ماذا يكون .

اعتدت على القيام بزيارات قصيرة لمنزل عاشقة فسي  
طريق مودتي من الكلية الى المنزل ناقش معها احداث اليوم . وفي

احدى المرات زرتها في منتصف النهار ، فدعتني لتناول الغداء معها  
رفضت دعوتها وهممت بالمغادرة بسرعة خشية ان اكون قد دعوت نفسي  
بطريقة ما ، فدروس نظام الشكليات والمجاوله الايرانية قد ترسخت  
لدي بثبات . ولكنني قبلت في المرة الثانية التي دعوتني فيها وحثتني  
على دعوة جيرد ايضا . واتتني الفرصة التي كنت انتظرها منذ اسابيع  
دون أن ادرك ذلك فقد سألتني عندما وصل جيرد :

— هل تحبين تناول الغداء مع زوجك ام معي في الطابق

العلوي ؟

لقد كنا جالستين في الاسفل في حجرة جلوس الشيخ لأن المطبخ  
ايضا كان هناك وكانت عائشة تتناوب في دروسها كمشرفة على  
الطباخين وكضيفة . كان الشيخ عبد الله يستند بظهره على احد  
الكراسي الفخمة المريحة المصفوفة على طول جدران حجرة جلوسهم  
يتكلم القليل بلغة انكليزية رسمية جدا ومهملة . وقد اجلست  
بنظري ونقلته بين الشيخ وعائشة عندما اتى جيرد الى مدخل الحجرة .  
ها هو جيرد ، وقد شرع في لقاء الشيخ عبد الله في زيارته الاولى لهذا  
المنزل ، وقد كانت فرصة انتظرتها اسابيع عديدة . ولكن لواخترت  
البقاء مع الرجال ، فماذا ستفعل عائشة ؟ ان عليها ان تتناول  
الغداء لوحدها . وعلى نحو غير بارع ناشدت ادراكات الشيخ عيد الله  
الغربية وسألته :

— الانستطيع تناول الغداء كلنا معا ؟

— طبعا نستطيع .

اجاب بلطف واخبر عائشة ان تتناول الغداء معنا . لقد  
كان ذلك سهلا بالنسبة للشيخ عبد الله . اما بالنسبة لعائشة فلم  
يكن سهلا مطلقا . فهي لم تلمس الطعام تقريبا ، فشعرت بالاسف  
لان " فضولي " فاق مشاعر أخذها بعين الاعتبار . ولكنني لم استطع  
ان ابدي أسفي فعليا . اخيرا وخلال هذه الوجبة عرفت سبب قيام  
العديد من اللاجئين العراقيين بزيارة الشيخ عبد الله . واخييرا

اتخذت المقالات والفصول التي قرأتها عن التاريخ الكردي في الولايات المتحدة والدوائر الخضراء والاسماء المدونة في شجرة العائلة شكل وجه بشري. فهنا كانت اسطورة حية للشورة الكردية .

ولد الشيخ في تركيا منذ اكثر من نصف قرن مضى . لقد رأى وهو لا يزال فتى يانعا اعمامه واحداده يعدمون من قبل الحكومة التركية كعقاب لاحدى ثورات الاكراد التي تلت استلام مصطفى كمال اتاتورك مقاليد الحكم . ولكن ، ماكان لعائلة عبد الله وهى احدى العائلات الرئيسية في كردستان ، ان تتخلى عن كل شيء تملكه لكي تلوذ بالفرار من الاضطهاد المستمر الذي كانت تمارسه الحكومة التركية الجديدة . فقد ذهبوا ببساطة واستقروا في بلد آخر يملكون فيه ارضا . يمكن ان تصادر الحكومة قراهم ولكن كان لديهم العديد من القرى الاخرى في العراق وايران .

نشأ عبد الله في العراق . وعلى الرغم من كونه كرديا فقد منح امتياز حضور كلية الضباط في بغداد ، وذلك لأنه سليل اسرة ذات شأن عظيم . وبعد التخرج عين ضابطا في الجيش العراقي . ولأسباب معينة غير واضحة لي ، اثنى والده ، وهو شيخ موقر مع عدد ضخم من الاتباع ، ليستقر في ايران ، بينما بقي عبد الله في العراق ومن ثم وعندما اصبحت العراق غير آمنة بالنسبة للاكراد النزاعين الى الحرية ، تبع عبد الله الشاب الملا مصطفى البرزاني الى مهاباد ، حيث اصبح عضوا في الجيش الذي دافع عن تلك الجمهورية . ولدى سقوط الجمهورية ذهب عبد الله وآخرون مع البرزاني عندما فر الى روسيا ، وقد تبعه الاكراد اللاجئون الذين رافقوا البرزاني حالا في اصقاع الاتحاد السوفياتي ، وقد قدر لهم ان يكتادوا نصيبهم من جنون العظمة والارهاب عند ستالين . وقد قضى عبد الله نفسه سنتين في سيبيريا وجزءا منها قضاها مضربا عن الطعام . وقد عمل لفترة في مصنع احدى المقاطعات الشرقية ، حيث اتخذ زوجة روسية وانجبت له بنتا . واخيرا وكما وعده بعض الموظفين السوفييت



العاملين في اذربيجان الايرانية تمكن من الدراسة في جامعة لينينغراد . وقد بدت الاحداث في العراق مواتية مرة ثانية لعبد الله والاكراد الآخرين بعد مضي احدى عشرة سنة من وصولهم الى الاتحاد السوفياتي . ففي سنة ١٩٥٨ قام عبدالكريم قاسم بانقلاب في بغداد ودعا الاكراد الى ان يمارسوا حقهم الشرعي في القوى الاقتصادية والسياسية في العراق . وقد جعل الملا مصطفى البرزاني العودة المنتصرة من الاتحاد السوفياتي كيوم جديد للتقدم وكان من المفترض ان تنبثق معاهدة صداقة عرقية متبادلة في العراق . والتحق عبد الله فوراً برجال البرزاني للعودة الى بغداد تاركاً وراءه زوجته الروسية وابنته .

وفي سنة ١٩٦٠ عمت الفوضى العراق ثانية فقد كان الشيوعيون يقاثلون القومييين العرب . ولم يبدا احد اهتمامه عدا الاكراد بقضية الحكم الذاتي الكردي . وعندما اتضح ان قاسم لن ينفذ ماوعده الاكراد به ، بدأ الاكراد المشاركون في حرب العصابات بالقتال في الجبال . وقد رد عليهم قاسم بالحرب الشاملة . وتحت ضغط هذا الانكار الجسدي لحقوقهم بدأ الاكراد بتشكيل حركة موحدة .

لقد كان الملا مصطفى - وهو رجل قبيلة البرزانيين القوي الشكيمة والجنرال من ايام مهاباد - قائدا عسكريا لاجدال في ذلك ، وقد كان هنالك ايضا قواد سياسيون آخرون في ح . د . ك وهذه الاحرف ترمز اصلا الى الحزب الديمقراطي الكردي ، الى ان تغير الاسم الى الحزب الديمقراطي الكردستاني ليمثل كل المجموعات المضطهدة في كردستان العراق بما فيهم - الآشوريون ، والتركمان ، والعرب ، وأيضا الاكراد ، وقد توسع الجيش الكردي من المقاتلين البرزانيين غير النظاميين الى " البيشمرگه " وتعني حرفيا " مواجهوا الموت " وهو الاسم الذي عُرف به الجيش الكردي منذ ذلك الحين .

لم يكن عدوان سنة ١٩٦١ مثل الحروب الاخرى ضد الاكراد

يشمل غالبية الجنود العراقيين وقد حصل الاكراذ على الكثير من الاسلحة من الفارين من الجندية وكذلك من السوق السوداء وقد تسرك العديد من الضباط الاكراذ مواقعهم في الجيش العراقي وانضموا الى الملا مصطفى .

لقد قصف العراقيون القرى الكردية بالقنابل ورشقوها بالرشاشات ، واسقطوا النابالم واطلقوا الصواريخ عليها . وسوي الريف خرابا ، وفر الكثير من القرويين الى التلال والكهوف بحثا عن ملاجئ لهم . وعلى الرغم من هذا الهجوم الضاري ، كان الاكراذ لا يزالون غير قادرين على ان يتوحدوا سياسيا . وقد تحالف بعض الاكراذ مع الحكومة العراقية وقاتلوا ضد اخوانهم الاكراذ . وقد كان الزباريون ، الاعداء القبليين التقليديين للبرزاني ، قد عززوا بسرعة من قبل الحكومة العراقية لمقاتلة العميان المسلح . بعدئذ بدأ النزاع بدب بين القواد الاكراذ أنفسهم ، وقد انقسمت الى د . د . ك . بين المصالح الاقطاعية القبلية ، التقليدية الممثلة بالبرزاني وبين العناصر الاشتراكية ، اليسارية الجديدة المتعاطفة مع حلال الطالباني . ان الحدود الاجتماعية والسياسية لعائلة الشيخ عبد الله جعلت منه مالكا للاراضي ولكنه اخذ اليسار من البرزاني لتشافته السوفياتيه . وربما ان البرزاني خشيته لأنه كان ممن الممكن ان يقدر على توحيد هذين الطرفين المنشقين . كان ممن الممكن لعبد الله ان يعارض حق البرزاني في حكم كردستان على اسس السلالة الارستقراطية فقط . فقد كان اسلافه ثوارا معروفين ، كما كانوا شيوخا موقرين . ولم تكن للبرزاني شجرة عائلة تمتد بنسبها لتصل الى النبي .

اشار الشيخ عبد الله الى البرزاني بازدراة ووصفه بأنسه دكتاتور ، مع تشديد على المقطع الاخير . وحسب اقوال الشيخ فانسه كان قد اطلق سراحه عملاء السافاك المبعوثون من ايران ، بعد ان سجنه البرزاني في الجبال ، وذلك نزولا عند طلب والده . فكرت كثير

في الجزء الاخير من القصة المتضمنة تورط والد عبد الله مع البوليس السري الايراني . وربما كانت هذه مسألة منفعة فقط بالنسبة لعبد الله ، فقد كان عليه الخروج من العراق بأية وسيلة . وفي سنوات عديدة لاحقة بدأ البرزاني بتطهير ح . د . ك ممن ارتاب فيهم على انهم شيوعيون ولكن عبد الله وهو ابن شيخ مسلم مشهور لم يعد شيوعيا اكثر من معظم الذين اختلف مع البرزاني . فقد كان يرى فقط انه حتى لو تمكن الاكراد من اعلان الاستقلال الذاتي ضمن الحكومة العراقية فان معظمهم سبطلون مضطهدين وسيستمرون في قوة عملهم ومحاصيلهم لمالكي الاراضي . وقد شكك عبد الله ومفكرون آخرون من الاكراد في امكانية انتصار البرزاني كاشفيين . عن ولاءه ، واساليبه الآيلة الى الزوال . وفرقائد المعارضه الرئيسي ، جلال طالباني من العراق ، تاركا زمام قياده ح . د . ك في يد الملا مصطفى البرزاني لوحده .

استمرت الحرب الكردية تسع سنوات اخرى بعد عزل قاسم عن السلطة بعد بضع سنوات من حكمه ، وقد اعلن في البدايه عن اتفاقية وقف اطلاق النار ، ولكن الحكومة الجديدة تشدقت فقط بتأييدها لاهداف الكردية . واتضح بعد مدة ليست بطويلة ضمن تعزيز سيطرة الحكم الجديد على العراق انهم كانوا المقاومين الاكثر عنفا للاكراد اكثر من كل الذين سبقوهم . وكممثلين عن جميع العرب لم يبدهم هوى الاحكام العراقيين تعاطفا مع الآشوريين ، الشركمان ، اليهود او حتى العرب الشيعيين في الجنوب العراقي . وفي سنة ١٩٧٠ وقع الاكراد والحكومة اتفاقية سلام متضمنة على خمسة عشر بنداً . وقصدت ان من المفترض ان يجري احصاء في شمال العراق لتحديد المناطق التي تقطنها اغلبية كردية واقرار هويتها . وبعدئذ سيعلم عن هذه المناطق على انها مستقلة . ولكن الاحصاء لم ينفذ ابداً . وفي الحقيقة بدأ العراقيون بابعاد الاكراد عن اراضيهم نفسها بالقوة وايضا كان من المفترض على البعثيين ، بموجب الاتفاقية ان يصلحوا

– من الناحية الاقتصادية – المناطق التي دمرتها حرب التسع سنوات  
بالإضافة الى ضمان الحقوق اللعوية والشقافية . للاكراد وحسب رأ ي  
الاكرا دلم تتخذ اي اجراءات من شأنها ان تحسن المعيشة في كردستان .  
وفي سنة ١٩٧٤ كان من السهل على الساه في العراق المترسة لأمريكية  
تشجيع الاكراد ببناء مساكن جديدة . في الوقت الذي اعتبر  
فيه الاكراد ان المساكن التي قدمها لهم شيون لم تحقق السنود الاصلية  
لاتفافيتهم . ولكن لو كانوا يعرفون اسهم سيفقدون فيما بعد حتى  
حقهم في التحدث بالكردي في مدارسهم الخاصة ، لما خاصوا الحرب  
على الاكراد .

عاد عبد الله الى ايران قبل عقد في مطلع الحرب  
التي الثانية ، وجد ان ثروة العائلة ماتزال ضخممة  
على الرغم من انها قد استنزفت الى حد كسر . كان الشاه سنة ١٩٦٠ .  
قد نفذ مشروع الاصلاح الزراعي ، الحرء الاساسي مما دعاه على نحو  
متسم بالمسالفه بشورته البصاء . وبموجب هذا القانون ، لم يسمح  
لاي مالك للاراضي ان يمتلك اكثر من قرية واحدة . واما الباقي  
فيجب ان يعاد للحكومة . وعلى الرغم من وجود الدليل الكافي الذي  
يشير الى التنفيذ غير العادل لهذا القانون على نحو فاضح في ايران  
فقد طبق في كردستان ، على الاقل ، بهذا الشرط وحده ، أي فيما  
يتعلق بابقاء قرية واحدة لكل خان ( سيد ) ولم التقي ابدا بمالك  
اراضي كردي مهما كان غناه او سلطته ونفوذه يمتلك اكثر من قرية  
واحدة . وقد بدا ان الاتراك من الجهة الثانية قد اصابوا نصيبا  
اوفر ، بعضهم على الاقل . فقد كان يظن ان امير فلاح – ذللك  
الرجل الغني القاطن في بداية زقاقنا – يمتلك ست قرى .

بعد ان تبع والد الشيخ عبد الله الاصلاح الزراعي ، بطلبه  
ابتياع احدي قرى العائلة مسترجعا اياها من الحكومة ، نجح في ذلك  
وكانت هذه هي القرية التي اتاها عبد الله موءخرا ليوظف ماله  
وببحث في اسباب تأمين مستقبله . كان قد وصل ايران وهو على

حافة الشيخوخة ولدى حدوث تغير مفاجيء في غير اوانه في النهج السياسي الذي بدا واعدا بالكثير والذي من المؤكد قد اقتضى استعدادات ضخمة ومعاناة من جهته ، لم يعتمد على ثرواته او يعلق آمالا على المركز الاجتماعي لعائلته بينما بقي ابن عمه الحاج اسماعيل في سنة الموروثة عن اسلافه وتزوج من خمس نساء ، كان عبد الله قد قاتل في العراق و ابران ، ثم في مصنع وعاش في سيبيريا . الى ايران بعد كل هذه السنين لم يكن يملك شيئا حتى زوجة .

عُثر على زوجة له بسهولة من بين عائلته ، اما الباقي فقد كان يقع على عاتقه هو نفسه . لم يستطع ان يتبع خطى والده لأن قضاء عقده من الزمن في روسيا لم يكن يربطها من الاستعدادات الملائمة لأن يكون شيخا صوفيا مزاولا للشياخة ومع وجود اتساع ومريدين له . وكذلك لم يستطع الاستفادة من دراسته وثقافته الجديرة بالاعتبار . ففي ايران لا تقدر الشهادات الصوفياتية عاليا ، لأنه ينظر الى الذي عاش في روسيا - ولو بشكل مؤقت - بارتياب ، أي كان سابقا به الشيخ عبد الله خلال وقته وهذا مما لم يكن حليا بالنسبة له . اطلاقا ، فقد كان واضحا من الطريقة التي يتحدث فيها انه يشعر بأن عيون السافاك كانت تراقبه دائما . فعندما سألته عن سبب عدم كتابته مذكراته اجابني وهو يتسم وكما لو انها كانت نكته ، على ان ذلك لا مجال للتفكير فيه على الاطلاق . فحتى كتابتها وبسودون محاولة لنشرها ستعرضه للخطر .

على الرغم من عدم كون الشيخ عبد الله شخصا فذا في ايران وعلى الرغم من القيود التي تربطه بمدينة متخلفة وقرية صغيرة ، فقد كان من الواضح انه ذو شأن في كردستان . وقد كان ذلك سبب مجيء اللاجئين لزيارته وسبب مارأيته من ندفق الملاكي والقواد الذين يأتون يسألون نصيحته عندما قمت بزيارة الى قريته مؤخرا . تساءلت فيما اذا كانت هذه القلة القليلة من التقدير والاحترام تعسوس

عما فقدته بعد كل هذا .

حاولت ان ابلغ بعضا من ماهيه شعور الشيخ عبد الله تجاه ماضيه عندما كنت جالسة في ايوان منزله اتناول نباتا شوكيا مطهو مع الارز واللبن ، نظرت بفضول الى الصورة المعلقة على الجدار وقد كانت تظهر والده وهو ينحني للشاه . ان مثل هذه الصورة كانت ضرورية في أي منزل يمكن ان يفخرناسه بأي صلة شخصية مع الشاه . ماذا يعني لعبد الله - ذلك الرجل الحاصل على دكتوراه في الفلسفة من لينينغراد والذي كان قد فر لدى انهيار جمهوريية مهاباد - ان يعلق صورة كهذه في غرفته ؟ تفحمت عاشرة وهي تنحني نحو طبقها متضايقا عندما جلست على كرسي قاس ، بدلا من الارض التي اعتادت عليها. هل رغب عبد الله في الزواج من فتاة ريفية غير متعلمة ؟ لم تكن هذه الحجرة تنطوى على شعور بالمأساة او على تضارب عنيف او مشير بين قوى مختلفة. ولا على شعور مغمم بما اخبرنا به الشيخ لتوه ، فقد رأيت امامي فقط زوجا وزوجة يتناولان الغذاء مع صديقين لباقة فقط . لقد كانت قصة عبد الله جديدة علي ولكنها كانت قديمة جدا بالنسبة له .

بعد ان تناولنا الغذاء بقي جيرد مع الشيخ ، بينمنا اخذتني عاشرة الى الطابق العلوي ثانية لاحتساء الشاي في حجرة جلوسها . وبينما كنا نحتسي الشاي تأملت صورا في البوم كبيرر انزلته من على رف الكتب . وجميع هذه الصور التي كانت بالابيض والاسود كانت تخص عبد الله واهدائه في روسيا - منها مشاهد رحلات عامة واثواب سياحة لايمكن تصورها في كردستان مع وجود آلة تصوير او بدونها . رأيت صورة للزوجة الروسية بخديها السلافيين والابنه الروسية بفضائرها الشقرا الطويلة وعيني عبدا لله الزرقاوين بمظهرهما الغريب . اخبرتني عاشرة بجديّة :

- لقد كتبت لها وطلبت منها المجيء لتعيش معنا .

- من ؟

سألته ، متصورة انها قد عنت الابنه .  
- زوجة زوجي .

لقد ادهشني ذلك . الا تتمتع عائشه بمكانتها كزوجة وحيدة ؟  
وقالت عائشة بحزن :

- ولكنها لاتستطيع المجيء .

عائشة وعبد الله لم يكونا كرديين نموذجيين ، ولكني كلما كنت اعرف اكرادا اكثر ، كنت ادرك اكثر ان لأحد من الذين التقيت بهم يمكن أن يعتبر نموذجا ، وحتى خديجة بهيئتها الريفية لم تكن المثال النموذجي . لقد كانت ردود افعالهم جميعا تجاهي مختلفة ، ولكن بدا أن عائشة وعبد الله فقط يريان ماهو ابعد من غربتي ، ونظراتي وسلوكي الغريب . كنت اشعر مع الاخرين انههم لن يستطيعوا فهم ماكنت ارغب فيه فعلا ولكن عائشة كانت تعرف ما اريد . وفي زيارتي الثانية لابران اشارت عائشة الى حقيقة اننا - انا وجبرد - دون ريب قد عشنا معا قبل ان نتزوج ، وهذه الحقيقة لم اذكرها لكردي ابدأ . وعندما حاولت على نحو واهن ان انكر ذلك ضحكت كما لو انها تعرف اكثر من ذلك بكثير . ان مثل هذه الدراية وخصوصا هذا التسامح في الآراء والمبادئ والسلوك كان غير مألوف اطلاقا بالنسبة لامرأة كردية ، او في الحقيقة لأي امرأة في ايران . فقد سمعت سيدات ايرانيات مدنيات ، وعلى الرغم من وجود اولاد لهن يدرسون في الولايات المتحدة ، انهمن يشرن وبثقة الى حقيقة ان جميع الفتيات الامريكيات فاسدات .

أي مستقبل يتصوره الشيخ عبد الله وعائشة لنفسيهما ؟ هل سيفادران ايران يوما ما ؟ هل يمكن لعبد الله ان يستأنف نشاطه السابق في الحركة الوطنية الكردية ؟ لم تخطر ببالي هذه الاسئلة في الاشهر التي بدأ فيها جيش البرزاني وكأنه قد ربح الجولة في العراق . وقد بدا لي ان عبد الله كان يشكل تهديدا للبرزانيين

ولكنه قد خسر ، اما البرزاني فقد ظفر . ولو تمكن البرزاني من قيادة الاكراد العراقيين نحو الانتصار ، لعنى ذلك الانتصار الاعظم لنهجه .

حدثت تغييرات شاملة موعخرا ، تذكرت كلمة عبد الله - دكتاتور - وهو ينطقها بانفعال اكثر مما قد اعتاد عليه لدى مناقشة ومجادلة مسائل متعلقة بالسافاك والحكومة الايرانية . كان الشيخ عبد الله مايزال وطنبا مخلصا . ولاأظن انه كان سعيدا للحظه لما حدث للاكراد على الرغم من الضربة التي سددت للبرزاني . ولكن كان لعبد الله كلمات قاسية عن قواد هذه الثورة ، فقد وصفهم بأنهم رجال باعوا ثورتهم للحكومة الايرانية والسافاك وملوؤوا جيوبهم بالذهب . فبعد عشر سنوات من وجوده فى ايران كان الشيخ عبد الله فى موقع افضل من الجميع ليقدر ماذا كانت الدوافع الايرانية الحقيقية فى دعمها للقضية القومية الكردية .



## الفصل العاشر

لا يزال جزء وحيد من كردستان ، يلزم تفكيري . فلسو  
اغلقت عيني ، فباستطاعتي ان ارى تلك الحلقة من الوجوه الشاحبة ،  
القلقة ، وجوه بعض المدرسين الذين يعتبرون من خيرة الاكراد واكثرهم  
ثقافة في العالم . كان العديد منهم يتحدث بانكليزية طليقة وكانوا  
جميعا يتقنون العربية . كانوا يرتدون مثلما ارتدي ، ولكونهم  
اكراد لم يبدوا كالاغانب . استطيع تخيلهم في أي مدرسة ثانوية  
في الولايات المتحدة . ان وجودهم في ايران وحتمية مواجهة العديد  
منهم التعذيب والموت كان في حدود الامكان ، لم يكن هؤلاء الناس  
مثلي فحسب ، بل اني كنت قد ارتكبت خطأ محاولة توريط نفسي  
ومواجهة نفس مصيرهم .

ان الوجه الاكثر حيوية هو وجه جمال ، ذلك الوجه الذي  
كنت اتخيله مرة تلو الاخرى عندما قرأت اسماء الذين اعدموا في  
العراق . اتخيل حديث هذا الرجل ، الودي والرفيق وعينه الاكثر  
رقة والذي يمتحن تدريس الصف الاول . كنت واحدة من تلميذات صفه  
الاول وقد اظهر لي الاهتمام والصبر بنفس القدر الذي اظهره لجميع  
طلابه - كان يناهر السادسة والعشرين ، لم ار ابدار جلا مثله ولم  
اتصور امكانية وجود رجل مثله . ربما لن يشابروا على ما كانوا  
عليه تحت فغط الظروف القاسية والوحشية في ايران ، ولكن جيلا كاملا  
من الاكراد في العراق كان قد نشأ ودرس بلغته الام وتعلم فسي  
الجامعات في السليمانية . وقد تسلم هذا الجيل بكتبه التمهيدية  
لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وكتبهم المدرسية . وكل ذلك  
بالكردي . كان من الصعب علي تصديق ان هؤلاء أيضا كانوا اكرادا .  
فاللهجة التي يتداولونها ، ويكتبون بها كانت مختلفة لدرجة كبيرة

عن لهجة اكراد ريزاي حيث كان من الصعب علي تتبعها .

حضرت الى مدرسة اللاجئين تحت رعاية العدو - فقد كانت الحكومة وراء قناع جمعية الاسد والشمس التي كانت تمنح المساءلة للاجئين . وعلى الرغم من ان البرزاني ومستشاريه كانوا قد قرروا ان يتركوا الايرانيين يقودون امر الثورة الكردية ، فان الاكراد العاديين لم يشقوا بالايرانيين . فهم لايتذكرون مهاباد فحسب بل انهم كانوا يكرهون العيش في ايران . لقد ذاقوا طعم الحرية في العراق ، حرية ان يكونوا اكرادا وان يحملوا السلاح عندما يشعرون انهم مضطهدون . لقد كانت ايران بشاهها الكلي الوجود بصورة وبوليسه السري اكثر من قدرتهم على التحمل .

كنت اراقب اللاجئين لفترة طويلة ، قبل ان التقى بأي منهم . كان اغلبية سكان ريزاي غير الاكراد ينعتون اللاجئين بالبرزانيين وكما لو انهم كانوا جميعا من قبيلة ملا مصطفى البرزاني . ولكن هذا النعت كان يلائم الجنود ذوي العمائم الحمراء فقط ، الذين كانوا يشكلون جزءا من مجموع اللاجئين .

لقد اتى الاكراد من كل حذب ومذهب ليشاركوا في الثورة الكردية سنة ١٩٧٤ . وكان بعض المحترفيهم والمتمرسين الاكراد في الجيش العراقي قد اخلوا مواقعهم في بغداد لينضموا اليها . وحتى ان اكرادا من الخارج تركوا حياتهم المريحة واتوا للبرزاني واثقين من ان تكريس حياتهم لهذا الجهد الموحد للاستقلال الذاتي لن يذهب هباء .

علمت من حديثي مع امير أن هناك طبقتين في التسلسل الهرمي للاجئين . فالمجموعة الضخمة من اللاجئين كانوا قد اسكنوا في معسكرات واسعة حول منطقة ريزاي ، وكان احد المعسكرات قد اقيم في غرب المدينة مباشرة ، بينما كانت معسكرات اخرى عديدة في الجنوب . كان القرويون العاديون ورجال القبائل وكذلك سكان المدن

الفقراء من العراق قد انتظمت اسماوهم في لوائح في هذه المعسكرات كانوا اناسا قد التقطوا اطفالهم وفروا من القصف المستمر مع اشياء اخرى قليلة غير الستهم على ظهورهم .

حتى الاكتراد الاكثر غنى ، الذين نجحوا في احضار الذهب وواحد او اثنين من خدمهم من العراق ، قد عانوا القساوة والرعب في الطرق الجبلية السرية المؤدية الى ايران . كانت احدى العوائل مع اطفالها قد بدأت رحلتها في سيارتها الخاصة ولكنها خوفا من أن تكون مكشوفة للطيارين ، انتهت الى اتمام رحلتها سيرا على ارجلها . زوجة طبيب ثري غير معتادة على بذل الجهد العضلي من كانت قد اتت لوحدها دون زوجها على ظهر حمار . ولكن مصيبة الغرويين كانت هي الاكثر اثاره للحزن والاسى . ففي البداية لم ارى وحوهم الملوحة بالشمس والمسمره من الغبار ، ولم اشهد معاناة هؤلاء الناس الذين يشكلون جزءا من الغالبية العظمى لمجموع اللاجئين فسي نهاية هجرتهم الجماعية الفظيعة عبر الجبال الاقي نهاية اقامتي في ايران تقريبا .

كان معظم اللاجئين الباقين في أواخر الشتاء من النساء والاطفال وكان الرجال يأتون بين فينة واخرى في اجازات من القتال . عند ذلك سنرى المحظوظين الذين حصلو من الحكومة الايرانية على تصاريح للقيام برحلات قصيرة الى المدينة . كانوا يزورون البازار وبعدئذ يتجمعون في سيارات الجيب المعطوبة ليسيروا عائدين الى المعسكرات

خان يقيم في المدينة نموذج آخر من اللاجئين الاكتراد وهم عائلات قواد الحزب الديمقراطي الكردستاني وضباط البشميركية " مواجهي الموت " وقد كانت جمعية الاسد الاحمر والشمس ، واجهة السافك ، تدفع تكاليف معيشتهم ، بينما يمضي الرجال جيئة وذهابا عبر الحدود ليوجهوا سير الحرب . كان اللاجئين المقيمون في المدينة اكثر غنى بكثير عادة واكثر تعلما من الجزء المنتم لهم في المعسكرات . كانوا يميلون الى ارتداء الملابس الغربية فسي

الشارع على الرغم من أن البذلة الرسمية لجيش البرزاني كانت تتألف من " شلوار " خاكي مع سترة مشدودة ملائمة له ، وعمامة مثل الالبسة التي يرتديها خدم عبد الله تماما . وعلى الرغم من غناهم والراحة النسبية لحياة المدينة فقد كانت هذه العائلات حبسية هي أيضا . فلم يكن باستطاعتهم الذهاب الى أي مكان خارج ريزاي بدون اذن سفر .

ان جزء ١٤ من الدم الايراني لسير الحرب العراقية - الكردية كان يشمل على جولات شخصية لعدد من المرسلين الغربيين الذين قدموا لزيارة معسكرات اللاجئين عبر ريزاي وبعد ذلك يعبرون الى العراق ليشهدوا المعارك . قررت ان استخدم صلتى الوحيدة لأرى اذا كان باستطاعتي أنا ايضا زيارة معسكر اللاجئين . كنت اهتم على نحو خاص بروعية المدرسة هناك . فالمدارس ذات الادارة الكردية الوحيدة في ايران كانت مدارس هؤلاء اللاجئين . كانت صلة الوصل لدي ، ذلك الرجل الذي التقينا به في يومنا الاول في ريزاي أو بالاحرى في الطائفة حتى قبل هبوطنا على الارض . لقد كان مسؤولا عن ادارة جميع المعسكرات ، لكونه مدير فرع ريزاي التابع لجمعية الاسد والشمس . منذ اقامتنا في ريزاي كنت قد رأيتته هو وزوجته في مناسبات اجتماعية عديدة وقد عرف اني ادرس الكردية . وبما انه هو وزوجته كانا ودودين معي ، فقد كنت واثقة تماما من انه سيصفي لي على الاقل .

وعندما وصلت الى مكتبه ، افصحت عن طلبي ، شعرت بالارتياح لانه بدا مصغيا وكما انه لا يوجد شيء ملفت للنظر على الإطلاق في رغبتني روية احد المعسكرات . كانت هناك صعوبة مخفية وحيدة وهي انه كان عليه ان يستدعي السافاك ليصدقوا على قراره لانه لا يسمح لأحد بالدخول الى المعسكرات دون موافقتهم . قضيت معظم فترة الصباح في مكتبه ، انتظر رد السافاك عليه ، واخيرا اجابوه بالنفي . على أية حال حصل انعطاف غير متوقع في الموضوع . فقد عانيت القلق لعدة شهور من أن السافاك كان يراقب نشاطاتي في

ريزاي ، ولكن اتضح - وبغض النظر عن معرفة ماكنت منهمكه فيه - ان السافاك لم يعرف حتي من أكون . وحسب أقوال مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس فانهم كانوا قد صنفوني على اني امرأة أمريكية أخرى في المدينة كانت متزوجة من ايراني وكانت قد قُضت وقتها في ايران تخدم في فرقة السلام . ولكنني انكرت هذه الهوية . نظر الي المدير الذي كان من المفترض انه يعرف اكثر وكما لو انه كان متأكدا من كذبي . واتضح انه على الرغم من عدم اهتمامهم بالفيط من أكون ، فان السافاك لم يكن يسمح لأي امرأة اجنبية بالدخول الي معسكرات اللاجئين بدون اوراق اعتماد تظهر انها مراسلة صحفية . بعد ان قرأنا القصص التي ارسلها اليها بعض اقاربنا في امريكا من النيويورك تايمز عن المعسكرات والحرب استطعت ان ادرك النقطة الاساسية لدى السافاك . ان المرء وبدون معرفة للفارسية او الكردية وفي رحلة قصيرة لمدة اسبوع في المنطقة من موقع رسمي في طهران او بيروت أو باريس كان يتوه ويبتعد كثيرا عن حقيقة الاحداث ، لدرجة أن معظم هؤلاء الصحفيين ماكانوا يعرفون حقيقة السافاك في ايران ومن يمثلون . ولكن لو كنت انا أيضا صحفية قد استضيفت تحت الطلب لجعل الحرب الكردية قضية مشهورة كان من الممكن آنذاك أن ينظر الي السافاك نظرة مختلفة تماما .

عندما رأى مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس كم اصبحت بالخيبة ، قدم لي عرضا مقابلا لذاك . فبدون موافقة السافاك لم يستطع السماح لي بزيارة المعسكر ، ولكنه يستطيع - على حد زعمه غير المؤيد بدليل - ان يرسلني الي مدرسة اللاجئين المحلية في المدينة . لم يخطر ببالي أبدا ، امكانية وجود مدرسة خاصة للاجئين في المدينة ، ولكنني وافقت مباشرة على الاقتراح وان اعود الي مركز قيادة الجمعية خلال يومين لتأخذني سيارة خاصة الي هناك . ابتمس مدير الجمعية وكان واضحا انه قد سر لأنه استطاع عميل شيء لي . وابتسمت انا ايضا ، وسررت لأنه لم يعد لزاما علي أن

امضي وقتنا آخر في الجلوس في مكتبه اراقب مواكب المتوسلين الذين حضروا امامه يترجونه ان يوعدي لهم خدمات معينة . عندما عدت بعد يومين ولعدم معرفتي اين تنتهي سلطة الجمعية واين تبدأ السلطة الكردية ، لم استطع أن اخمن اذا كان الرجل ذو الشعر الاسود بسيارته البايك الامريكية المعطوبة كرديا ام ايرانيا . سرنا بصمت الى المدرسة وقد كانت حقا مجرد منزل قديم خلف جدار عال في احد الشوارع الرئيسية في المدينة . كان المدرسون في الطابق العلوي يجلسون مشكلين حلقة في مقاعد معدنية في حجرة هيئة التدريس . وعندما قادني الرجل السائق - الذي اتضح انه كردي الى الداخل توقف الجميع عن الحديث وهدقوا في .

حاولت ان اوضح سبب مجيئي بكردية خشة ، فتغيبرت تعابير الغبول على وجوههم الى حيرة . توقفت ثم بدأت وتوقفت ثم بدأت وتوقفت ثانية . لقد كنت اهذي بالنسبة اليهم وبقدر ما يتعلق بـ ١٠٠٠٠٠ . سألني احد المدرسين بانكليزية طليقة ، فيما اذا قد كنت كردية . فأومأت برأسي مؤكدة ذلك . حدثوا في بعضهم البعض وهم يبتسمون وقالوا :  
- آه ، لقد اتت لتتعلم الكردية .

كنت متأكدة من أنهم يفكرون في كيفية مجيئي من مكتب رئيس الجمعية من عند السافك مباشرة . هل من المعقول أن يثقفوا شخص مثلي ؟ لقد استقبلوني بغض النظر عما اذا وثقوا بي أم لا ، واعطوني واحدا من الكتب التمهيدية لتعليم القراءة والكتابة المهربة عبر الحدود من قبل الجيش الكردي . اجلسوني بينما كانت وجوههم تنم عن الاضطراب والخوف على مصيرهم ومصير العوائل والجيران الذين كانوا لا يزالون في العراق .

رحب جمال بي بحماس كطالبة في صفه الاول . وبعد يومي الاول في المدرسة تساءلت عن مدى قدرتي على الصمود في الصف الاول ، فقد بدا مملا ومقيدا الى حد بعيد . كنت اتلوى فسي

مقعدي تماما مثل زملائي في الصف ، الجالسين بقربي في مقاعد خشبية ضيقة وطاولات ضيقة للقراءة والكتابة موضوعة امامهم .  
حدق في تلاميذ الصف الاول - المرتدون على نحو نظيف ، البسة أطفال ملونه . غريبة الطراز - وجحظت عيونهم لروية زائرتهم الضخمة .  
كنا نستدعى الى اللوح الواحد تلو الآخر لنقوم بعمل ما . كسان الاطفال يضبطون بحزم ولكن لسوء الحظ لم يكن جمال يعاقبني عندما كنت اسرح بعيدا . كان يعلن عن الفرص بجرس كل اربعين دقيقة ، كنت اقصيها في حجرة المدرسين . كان يوجد مدرسون لمادة الرياضيات ، والانكليزية والعربية والجغرافية ، والفيزياء ومدرسة للتربية البدنية ومختصون لأغلبية المواد الضرورية لتعليمها في الصف الاول حتى الثاني عشر . لقد ترك في ذهني انطباع عميق ليس فقط بسبب حقيقة ان مجلس الثورة الكردية قد تحرك لتأسيس هذه المدرسة حالما قدم اللاجئون الى المنطقة فحسب ، بل ايضا بسبب تفاني المدرسين لدرجة كبيرة في عملهم . لقد علمت في كلية وليس في مدرسة ثانوية في ايران ، ولكن المدرسين هناك بدوا اناسيين وغير مهتمين ليس فقط بالطلاب ، بل ايضا بالمادة نفسها . كان في مطلع كل كتاب مدرسي ايراني فني المدارس الثانوية صور تملأ صفحات بكاملها للشاه وزوجته وولي العهد . لم تكن أي من الكتب الكردية تحتوي على صور من هذا القبيل . وكانت النصوص الانكليزية في المدارس الثانوية الايرانية حافلة بالاططاء . اما مدرسا الانكليزية في هذه المدرسة كانا قد درسا في بلاد تتحدث الانكليزية وكانت النصوص التي يستخدمونها دقيقة ولو انها كانت قديمة العهد .

كانت مديرة المدرسة الكردية تحثني على المجيء كل يوم ولكن ذلك كان مستحيلا . فقد كانت صفوفني لاتزال موجودة في الكلية واعرف الانطباع القوي الذي سأخلفه لدى العميد عندما يسمع أنني كنت احضر في الصف الاول في مدرسة اللاجئين المحلية . بالاضافة الى ذلك كان باستطاعتني فقط ان اوقف حضوري في الكثير من دروس

الصف الاول . وقد قررت ان افوت حصص الحساب لهذا الصف بعسد آن  
تمكنت من مصطلحات الرياضيات الخاصة بالصف الاول بالكرديية . كانت  
سرعة سير حصص القراءة تمضي سبطه شديد وقد كانت موءلفسة  
من استظهار من غير فهم . وحفظ عن ظهر قلب ، والشيء الذي كان  
يمنتعني اكثر هو جلوسي في حجرة المدرسين واصفائي الى احاديثهم  
بالكرديية والعربية .

جلست في منطقة محايدة حيث يقابل فيها نصف حلقة النساء  
النصف الآخر من الرجال . لقد كان عدد الرجال والنساء في الفصل  
الاول من السنة متساويا تقريبا . ولكنهم كانوا يتحدثون معا  
عبر الحلقة اكثر مما يتحدثون وهم جالسون جنبا الى جنب . كان  
جمال غالبا ماياتي ويأخذ دفتر ملاحظاتي المليء بالوظائف لييريسه  
لمدرس آخر . ويسأل مدرس الفيزياء .

— اليس خط يدها جميلا ؟

فأخجل معتقدة انه ليس بالضرورة على كل امرئ ان يحكم بالمبادئ  
المأخوذة في الصف الاول . ولكنني كنت اسر لمديحهم على الرغم  
من ارتباكسي .

فاسمني المدرسون كل ما عندهم ، الكتب المدرسية القيمة  
والغذاة الذي كانت الحكومة الايرانية تمنحه لجميع اطفال المدارس  
على نحو روتيني . وكان يشتمل على البرتقال والفسنق والشاي  
والحليب . وقد استطاعت احدى المدرسات أن تتخطى الى المنطقة  
المحايدة بشجاعة لتأتي وتكلمني فعليا . لقد كانت مدرسة  
التربية البدنية ماري . كنت اراقبها منذ فترة طويلة . كانت  
فارعة الطول وذات جسم رياضي رشيق . وشعرها الفاحم كان طويلًا  
وقد علقته الى الوراء ليظهر وجهها النحيل والشاحب . كنت  
اسمعها باستمرار تقول للطلاب " يا الله ، يا الله " عندما كانت  
تحثهم على النزول الى الطابق الاول والى الخارج ليلعبوا فسي  
الفرصة . وبالله ، شعني بالعربية " هيا ، اسرعوا " وقد علمت



مؤخرا أنها كانت تتحدث بالعربية مع الطلاب على وجه الخصوص  
على الرغم من أن جميع المدرسين كانوا احيانا يتحدثون مع بعضهم  
بالعربية .

في المرة الاولى التي غامرت فيها بالتحدث الي ، كان  
في يدها مجموعة من الصور بالابيض والاسود ، قد احضرتها لتريهما  
لي . لقد كانت تلك صور حفلة زفافها . تأملتها وقد اندهشت  
لدى رؤيتي تنورتها القصيرة وقبعتها العريضة . بعدئذ ادركت  
ان جميع الصور قد التقطت في كنيسة في ريزاي .

— هل انت كردية ؟

سألتها متشككة فيما اذا كان في سوالي اساءة ما . فأجابتنني  
وهي تضحك .

— لا ، نحن آشوريون .

كان لماري عدة اخوة واخوات يحضرون الى المدرسة ،  
ولكن لأحد منهم كان يتحدث الكردية . ومع ذلك فقد كان عليهم  
أن يفروا من الكتب المدرسية المدونة بتلك اللغة .

كانت واحدة من المدرسات الاخريات تركمانية ، عراقية  
تتحدث بلغتها التركية الام في المنزل والعربية في المدرسة  
تماما مثلما كانت تفعل ماري ، حيث كانت تتحدث بالآرامية مع  
اخوتها وأخواتها وتحتفظ بعربيتها لتتحدث بها مع الاكراد . في  
البداية بدا غريبا جدا أن تجد اناسا غير اكراد من مدرسة  
لاجئين كردية ، حيث كان التشديد كله مركزا على استخدام اللغة  
الكردية كوسيط للتعليم . ولكن ذلك لم يكن لافتا للنظر ضمن محيط  
الشرق الاوسط . فقد كانت جماعات اخرى قد انضمت الى القتال  
الى جانب الاكراد ، لأن حقوقهم جميعا كانت قد انكرت من قبل  
الحكومة العنصرية التي كانت توعز العرب السنيين على جميع  
السكان في العراق . كانت قرون من العداة بين الاكراد والاشوريين  
قد تلاشت في مواجهة حكومة حاوية ارادت ان تبيد كلا المجموعتين .

لو كنت اعرف أن ايام هذه المدرسة معدودة ؛ لربما حضرت على نحو مكثف أكثر ولكني لم أكن اعرف . لقد كان لدي عملي في الكلية ، وكنت التقى بالسيد احمدي بانتظام وكذلك بالنساء الكرديات في المدينة . ومع ذلك فقد شعرت انه عليّ المجيء ، فقط للحلوس في حجرة المدرسين . كبح اندفاعي شيء ما بالاضافة الى عملي والملل من منهاج الدراسة في الصف الاول على الرغم من اعجابي بعمل المدرسين المنجز ومقا لما يرتضيهم الضمير وتصمبهم على تعليم لغتهم الام وسط حرب رهيبه ، تستهدف استئصالهم من الجذور .

كان ينتابني في بعض الايام احساس بالذي تجشم عناءه هؤلاء اللاجئين وما جرى لهم لدرجة اني لم اكن ارغب في البقاء معهم في نفس الحجرة وكان ذلك يعود الى جو الكآبة الى حد ما . قضت احدى الفتيات الصغيرات وقتا طويلا من يومها مختبئة تحت مقعدها . وكان جمال يصيح بها باستمرار أن تسلك سلوكا حسنا ، ولكني لم استطع ان اخفي اندهاشي وتساؤلي عن ماهية الانطباعات التي تركها القصف في ذهنهم . كان المدرسون يركضون بعصبية وانفعال نحو النافذة كلما كانت تمر طائرة على نحو منخفض فوق رؤوسهم . وقد لاحظت ان طياري الجيش الايراني كانوا يستمتعون باشارة دعر السكان المحليين وذلك بالتحليق على مقربة دائية ما أمكن من سقوف المنازل في المدينة . بعد فترة قصيرة اعتدت عليهم تماما ، ولكن ذلك سيستغرق سنينا قبل أن يتغلب هؤلاء الاكراد على الخوف اللا ارادي . فقد كانت كل طائرة بالنسبة لهم ميخ عراقية . لم يكن حزنهم وكآبتهم هما اللذان كانا يبقياني بعيدا ، بل ارتياهم ايضا . ففي كل مرة - وكان ذلك نادرا - كنت أبذل فيها جهدي بشكل خاص لا تتبع محادثة ما ، كان احدهم يسألني بحدة :

- هل تفهمين ؟ هل تفهمين مانقوله ؟

وعندما كنت اجيبهم بأني لا أفهمهم تماما كما كنت

أفعل دائما ، كانت تبدو عليهم امارات الرضى وعلى الاغلب لا يحاولون أن يوضحوا لي ماكانوا يناقشونه ، فهم لا يريدوني أن افهم امورهم . كانوا ينتقاسمون حزنهم وخوفهم ، ومع اني لست ايرانية فان بعضا منهم كان يعرف ان امريكا ليست افضل من ايران ، بالنسبة للاكراد والمصالح الكردية في الوقت الراهن .

بينما كنت جالسة في الصف الاول في احدى الايام حدث اضطراب وصخب عظيمين في القاعة ، فتوقف قلبي هنيهة لذلك.ماذا حدث؟ ربما أن قنبلة قد انفجرت . انفتح الباب بقوة ونقل طالب شاب الاخبار الى جمال " وقف اطلاق النار " .

اندفع الجميع من الصف الى القاعة حيث تعانق جميع المدرسين.وقف اطلاق النار . السلام . ضجت هذه الكلمات موضحة ذلك . ابتسم لي الحاضرون وابتسمت بدوري لهم كذلك . كانت هناك اشاعات بأن ايران والعراق سيتوصلان الى اتفاق واخيرا حدث ذلك في الجزائر تحت مظلة مصالح الدفاع عن الذات لمنظمة الاوبك . ولكن ماذا عن المصالح الذاتية للاكراد ؟ ماذا ستفعل بهم ايران الان ، بما أنها لم تعد بحاجة اليهم لتستفز بهم العراق ؟ اردت أن أسأل المدرسين . ماذا كانوا يعرفون أكثر مما اعرفه ؟ لاحقا عرفت الجواب وأنا في طريقي الى المنـزل. انهم يعرفون القصف ، القصف فقط . لم يكونوا جنودا . لقد خافوا على حياة الذين خلفوهم وراهم في كل يوم منصرف وكل يوم آت . والان حيث توقف القصف وكذلك هدأت مخاوفهم ليوم أو يومين لم يفكروا بما سيحدث بعد ذلك وقد اتضح انه شيء اسوأ بكثير مما تصوره .

اجبرت المدرسة على الاغلاق بعد ذلك بعدة أيام . وهدد اللاجئين بانذار يتضمن العودة الى العراق فورا أو أن الحدود ستغلق في وجوههم للابد وبذلك سيتحتم عليهم وعلى اطفالهم البقاء في ايران . لم يرغبوا في البقاء في ايران فهي لم تثبت حتى

وضعهم القانوني كلاجئين ابدا وبذلك لن تسمح للصليب الاحمر على الاطلاق أن يعاين المعسكرات رسميا . لقد عبثت بمصير الاكراد، والان بما انه لم يعد لهم نفع فقد بدا كما لو أن العبث سيصبح أكثر قساوة .

عاد بعض المدرسين عبر الحدود في غضون الاسام القليلة التالية . وقد سمعت ان احد مدرسي اللغة الانكليزية قد اعتمد مباشرة . كانت العراق قد اعلنت عن عفو عام لكل اللاجئين العائدين ولكن كل شخص كان يعرف انه توجد قائمة للموت . لن يرجع والد ماري ، ووالد الاطفال الذين كانوا يقطنون خلف منزلنا ابدا فقد قضوا مسبقا فترة في السجون العراقية وكانوا معروفين جيدا لدى الحكومة . حاول البيشميركة الاكراد المعاقون الشديدا الاهتياج في الجبال أن يواصلو القتال حيث أعلن بعض الضباط عن عدم تخليهم عن القتال بالرغم من موافقة البرزاني على هدنة وقف اطلاق النار . اصدرت الاوامر للمدافع الابرانية المتمركزة على الحدود وفي اماكن اخرى التي كانت تدعم الاكراد سابقا ، اصدرت اليها الاوامر الآن لتسد نحو الجنود الاكراد الذين لم يستجيبوا لاتفاقية وقف اطلاق النار . كان للفوات العراقية يوما مخصصا للمناورات العسكرية وللقيام بعمليات تمشيط واسعة للتطهير من بقايا الاكراد وضرب نطاق من الجنود حولهم في ممرات جبلية ممتلئة بالثلوج وقد عانى العديد منهم الجوع حتى الموت .

عقد اللاجئين في ريزاي الاجتماع اثر الاخر . ليقررروا البقاء ام الرحيل ؟ افتتحت المدرسة ثانية ثم اغلقت مرة اخرى . وقد علمت طلاب الثانوية الانكليزية لفترة نزولا عند طلب المدرسين المتبقين ولكن لم يعد احد يواظب على دراسته . واخبرني جمال بأنه يرغب في المجيء الى امريكا وقد فكرت مباشرة فسي كيفية مساعدته . وقد تصادف أن القنصل الامريكي كان في رحلة قصيرة عبر ريزاي ، وهي واحدة من رحلاته العديدة التي كانت تأخذه ايضا الى اقصى الجنوب والغرب على مقربة من الحدود العراقية .

وقد تساءلت عن ماهية دوره في الحرب الكردية . ولكنني لم امض في تساؤلاتي على نحو كاف عندما عقدت لقاءً بينه وبين جمال وقد افترضت ان مهمة القنصل هي روية الناس الذين يرغبون في المجيء الى امريكا والاصغاء اليهم جيدا فحسب ، ولم يخطسر ببالي ببساطة انه يمكن ان تكون لدى القنصل اولويات مختلفة فيما يتعلق باللاجئين الاكراد .

وصل القنصل الى منزلنا برفقة السيد خشيني ، وهو رجل قصير، قوي البنية، وذو ملامح بدينة وكان يتمتع بفضافة غير مألوفة جدا بالنسبة ليراني . كنت اعرف ان السيد خشيني ، وهو مدرس في الكلية ، يقضي الكثير من الوقت يسلي خيرا الجيوش الامريكي المقيمين في ريزاي . ولعلمي بقدرته على أن يكون فظا ولمعرفتي شعوره نحو الاقليات الموجودة في ايران تساءلت عما يفعله في منزلي . أي معلومات من الولايات المتحدة كان خشيني سينقلها الى جمال .

لم يجر اللقاء بين جمال والرجلين كما توقعت أو أردت على الاطلاق . فقد بدأ باستجوابه وبما ان جمال لم يكن يعرف الانكليزية ، فقد كان السيد خشيني يطرح عليه السوال تلوا الآخر بالفارسية ، أسئلة لم تكن لها علاقة بالموضوع المتناول - هل كان ممكنا او مستحسنا بالنسبة لجمال ان يهاجر الى امريكا أم لا ؟ كنت قد سمعت ان لائحة بأسماء المنتظرين الراغبين في الرحيل كانت تعد وانه سيسمح لمئتين من الاكراد بالذهاب الى الولايات المتحدة ، هذا الرقم الذي اتضح انه ضئيل على نحو يرثى له على ضوء معلومات حديثة . ولكن القنصل كان متحفظا على ماورد في هذه القائمة . وانتظر حتى يسمع ماسيقوله جمال بالاجابة على اسئلة خشيني ، التي لم يستطيع جمال فهمها ، لأنه لم يكن يتحدث بفسارسية أفضل بكثير من الانكليزية . حاولت ان اترجم له السي الكردية ولكن خشيني قاطعني قسائلا :

- دعيه يتكلم الفارسية ، انه يعرف الفارسية ، اليس

كذلك يا ... جمال ، هل قلت ان اسمك هو ذاك ؟

بعد مرور فترة طويلة وبعدها عرفت ماكان يجري ، لم يكن لدي حول ولاقوة لايقاف ماشرفت في تحريكه . كانا يعيضان به . ويحاولان ان يكتشفا ماهيه مشاعره ودور جمال في الكفاح الكردي، يحاولان ان يعرفا رآية في ايران . شعرت كما لو ان جمال كان كبش فداء وانني انا التي قدمته الى هذا الفخ . بماذا كان القنصل وخشيني منهمكين ؟ لقد كان خشيني شخصا مرتابافيه لدى الامريكيين والاييرانيين منذ فترة طويلة . كان فضوليا جداوودودا جدا مع الجيش الامريكي وكان ذانفوذ واسع واكثر ايذا من الكثير من أمثاله . اما بالنسبة للقنصل ، فقد اندهشت منه لأنه كان يبدو دائماً انسانيا وحتى متعا طفا قبل هذا . ولكن طبعا كنت اراه من قبل برفقة الامريكان فقط . وقد بدا سلوكه مع الاكراد غير مماثل لذلك الود الشهم الذي كنت اميره فيه من قبل . هل يحتاج فعلا الى اشارة مثل هذه المضايقات للاجئين الاكراد ؟ من الموءكد انه كان يستطيع فهم ان جمال هو مجرد مدرس ، وانه حتى لو عرف شيئا ما فلن يقوم باخبارهم به . اذا ما الغرض من هذا الادلل ؟ لسم استطع ان افهم ذلك . لربما كان المقصود منه اعطاء درس لي ، لتلك الامريكية المُهكلة ، وذات القلب الذي يتفطر حزنا . وكما يعلق لاحقا هنري كيسنجر ردا على اتهامات حول قساوة التورط الامريكي في المأساة الكردية ووحشيته " يجب أن لا يخلط العمل السري خطأ مع العمل التبشيري " ولانهاء تلك الامسية ، حدق خشيني في ساعتسه وسأل جمال الذي بدأت الكآبة تلوح عليه أكثر فأكثر فيما اذا لم يتأخر الوقت . لقد كان هذا التلميح بالانصراف سمجا جدا لدرجة انه حبس أنفاسي . نهض جمال فورا وغادرننا . أما ضيفاي الآخران فقد مكثا بعده طويلا يتحادثان وكأن شيئا لم يحدث . ولم اتحدث اليهما الا قليلا .

وفي اليوم التالي ولدى ذهابي الى منزل جمال اعتذرت له عما حصل ، نظر الي وابتسم وقال : انه ليس شمة مايدعو للاعتذار.

وبعد ذلك بعدة أيام سمعت انه قد اخذ عائلته وعاد بها الى العراق واخبرتني ماري انه كان موظفا صغيرا في الحكومة الكردية الثورية قبل الحرب .

كان أحد اللاجئين الذين لم يقاسوا مصير جمال طبيبنا يتحدث الانكليزية . تكلم هو أيضا مع القنصل في منزل امريكي آخر مقيم في ريزاي . ولكنه كان قد اشترط عن دراية منه الايحضر المقابلة سواه هو والقنصل . وبعد ذلك بعدة أيام دعانا ذلك الطبيب الى منزله ، وبعد قضاء ساعة مريحة او نحو ذلك ، تفاخر فيها الطبيب باتصالاته بالبرزاني وعناصر من السافاك الايراني ، نهضنا لنفادر مقرين أننا قد سمعنا الكفاية . ولكن الطبيب اصر على أن نبقي لنتحسي الشاي معه . فجلسنا ثانية تأملنا وهو ينزل بسرعة نصف قنينة من الكونياك الايراني الصنع . وافضى الينا قائلًا :

- هل تعرفين ؟ أنا اكره امريكا .

- لا ، لم اكن اعرف .

اجبته بجفاء .

- اعتقدت انك كنت تحاول الذهاب الى هناك .

- نعم ، نعم ، انها المكان الوحيد الذي يمكن أن اذهب

اليه تحت ضغط الظروف . ولكن لن ننسج ابدا ما فعلته امريكا

بشئ . انتم مسوءولون عن مصير الحرب الكردية . انتم اخبرتمونا

أن نبدأ بالحرب . ماكننا سنبدأ الحرب ابدا لو لم يعدنا الامريكان

بالسلاح . وليس مهتمًا ما وعدت به .

قال ذلك منهما . فسألته :

- من وعدكم ؟ ريتشارد هيلمز ؟ كيسنجر؟ نيكسون؟

فقال الطبيب على نحو متكتم :

- لن اخبرك من وعدنا . لقد كنت هناك وسمعت ما كان

على السبي . أي . اي . ان تقوله . ربما انت لاتعرفين أما أنا

فأعرف .

لقد اوقع هذا الطبيب النفسور في نفسي بنفس القدر الذي اوقعه خشيني . الا أن المرء له العذر ، عندما يضطر أن يقوم بفعل أي شيء يعدر عليه لينجو بجلده ، عند وجوده في موقع محوف بالمخاطر .

لم يكن الطبيب حذرا مثل خشيني . فقد شرب الكثير وشعرت حتى نسف عظامي ان مقالته كان صحيحا . مالمذي كان يحدث هنا في ريزاي بالضبط وامام ناظرنا تماما ؟ من الذي فوض الجيش الامريكي لأن يكون هنا . والى أي حد كانوا يعملون مع الاكراذ؟ لماذا يقوم القنصل برحلات كثيرة الى الحدود؟ وقساوة القنصل مثل قساوة كيسنجر تخلفان لدى المرء الشعور بادانتهمما .

كنا هنا في فيبنتامنا الخاصة والسرية التي لم تكن قد اعدت الانساء بعد ، ولن تعدها ابدا الا بالطريقة الاكثر سطحية . هنا كنا نشهد مباشرة اسلوب كيسنجر المبني على نهج السياسة الطبيعية وكذلك السياسة الواقعية ، ولكن ضباط الجيش ، القنصل و امريكيون آخرون في المدينة استمروا في تأجيل اسفلتنا وانكار ملاحظتنا . كنا قد اعتدنا الى حد كبير على الكلام المخادع في ايران ، حتى اننا كنا نسأل انفسنا ساطراد فيما اذا لم تكن نخلق اشياء من مخيلتنا .

ولكن ثمة ما يدعو للازعاج اكثر من هذا . فالبرازانسي وجنرالاته كانوا قد تراووا من بعيد محقين وانقياء الى حد بعيد . كان وليم . او . دوغلاس . قد قارن في مذكراته عن رحلة في كردستان قبل عشرين عاما ، الوطنيين الاكراذ بالوطنيين الامريكان في الحرب الثورية . وقد قال : هنا كانت قضية محفة بكل ابعادها وشمولييتها واناس شجعان لامجال لاحد أن يشك في ذلك أو يعترض عليه . ولكن القضية لم تكن واضحة المعالم الى حد بعيد . لم نكن بالقرب من الثورة الامريكية ، ولكن صدف ان قابلنا عددا من القواد الاكراذ . لقد كان هنالك الكثير من الاطباء ومن الشوار



الاثرياء ينثرون ذهبهم هنا وهناك في المدينة ، بينما يتلمس الناس في المعسكرات طريقتهم في حال من الذل والهوان . وأيضا كان هناك الكثير من التعاون مع السافاك وأيضا جرى الحديث حول منسح بترول كردستان لأمريكا . وأيضا الكثير من الشك والارتياح . وكابنة للغرب الليبرالي ، فقد توقعت أن يكون الاكراد أقل خوفا بكثير لأنني لم استطع ان افهم حقا ماالذي كان يخيفهم .

لم تكن اتهامات الطبيب تختلف عن تلك التي سمعتها من الابرايين الذين يعتبرون امريكا مسؤولة عن كل خطأ في بلدهم . حتى أن احدى النساء ، وهي موعيدة قوية للشاه ، ادلت برأيها قاطلة : ان السبب في تدني قيمة الالبسة الصناعية الايرانية يعزى جزئيا الى أن الامم الغربية قد باعت ايران حيوطا من نوع رديء . اما مع اللاجئين الاكراد فقد كان يسوؤني ان اسمع هذه الاتهامات كليا اوجزئيا . كنت قد تصورت اللقاء مع اللاجئين ومصادقتهم ، هؤلاء الاكراد الذين يقولون ان ليس لهم اصدقاء . كنت قد ظننت ان العائق الوحيد سيكون قانونيا اوماديا صادرا عن الحكومة . ولم اكن اتوقع عدم ثقتهم الشديدة وامتناعي الحاسم بسببها . ولم اكن اتوقع الثروة الاسطورية للقواد الثوريين في المنفى - رجال تضع زوجاتهم . الذهب واطواقا من الياقوت . رجال يقدم لهم الكافيار الشمين في حفلات العشاء التي يقيمونها .

كنت أقرأ ادبيات الحزب الديمقراطي الكردستاني منذ وقت طويل ، حتى اني توقعت ان اجد النساء الكردييات العراقييات اكثر تحرا وان اجد العلاقات بين الناس اكثر مساواة . وبدلا من ذلك فقد وجدت النموذج المألوف لمالك الارض والتابع ، للسيد والمسود تماما كما في القرى الايرانية . ان الاخت الصغرى في اسر اللاجئين تخدم الاخت الكبرى . الاخت تخدم الاخ والزوجة تخدم الزوج بينما حاول اللاجئون الاثرياء وبدون جدوى ان يتكيفوا مع النقص الشديد في عددالخدم الذين يعملون لديهم . كان تعدد الزوجات والتباهي بالتمايز منتشرا بين اللاجئين المتمتعين بامتياز السكن

في ريزاي على الرغم من التأكيدات الصادرة عن الحزب الديمقراطي الكردي بأن تعدد الزوجات قد تلاشى من بين الاكراد المتعلمين . وكان اللاجئين غالبا ما يخبروني كم كانت الحياة أفضل بكثير في العراق منها في ايران . ولكن كلما كنت اتحدث معهم اكثر، كنت افهم تماما انهم كانوا يعيشون عهدا من الارهاب في العراق ، اما دور ايران فقد كان محصورا في تكثيف هذا الرعب والارهاب .

كان الطبيب أول من سمح له بالهجرة الى الولايات المتحدة من بين الاكراد اللاجئين الذين قابلتهم في ايران . وقبل أن يغادروا رأيت صدفه حقيبه اوراق بنية ممتلئة برصاصات الرشاش في المقعد الامامي من سيارته اللاندروفر . وبما أن جميع الاكراد اللاجئين كانوا وعلى نحو طبيعي غير مسلحين عند الحدود ، لم يكن أمامي الا أن افترض ان السلطات الايرانية قد اعطته اياها . وواضح أن الشيء الاكثر ملاءمة للحكومة الامريكية هو استقبال طبيب شري ، كان قد تعاون مع الساماك واذلال مدرس ثانوي فقير وصده .

## الفصل الحادي عشر

ان مسألة القومية الكردية في تركيا - ذلك البلد السذي يبلغ فيه الاكراد عددا اكبر من أي بلد آخر - فقصتها أكثرر قدما بكثير من قصة الشوار الاكراد في العراق . لقد ترسخت القومية التركية في وقت مبكر وبالتالي فان القضية الكردية مثل القضية الارمنية كانت قد عولجت بشمولية أكثر . فللاترك سمعة مخيفة في الشرق الاوسط فهم يعدون بدوا عديمي الحضارة ، انقضوا من الشرق ، كالمغول مثلا ، فأخذوا يضطهدون ويذبحون الشعوب المستقرة في طريقهم . وبالقدر الذي يتعلق بالاكراد فانه لاشي أكثرر جدارة بالازدراء سوى التركي . ويقدر مايبهم الاتراك فان " الكردي الجيد الوحيد هو كردي ميت " . وكما صرح احد السياسيين المحنكين في ثورة كردية في تركيا " كان الجنود الاتراك قد أمروا بأن يطعنوا الاكراد بالحرا ببدلا من أن يفقدوا طلقات الرصاص عليهم " .

قبل مجيئي بسنة الى ايران ، كنت قد وجدت مدرس كرمانجي في الولايات المتحدة حيث كان موظفا لدى استاذ تركي يدرس في جامعة امريكية . اشار صديق لي ، وهو استاذ في اللغات الايرانية الى أن الموظف موسى هو كردي الاصل ، وبالنسبة لمستخدم موسى وموسى نفسه فان كرديته كانت تعتبر ، في الحقيقة سطحية وهامشية . فقد احضر الى الولايات المتحدة لكي يتحدث بالتركية مع الاطفال وكان يقوم بذلك على احسن وجه . وكما اكتشفت مؤخرأ كان يتحدث بها أفضل مما يتحدث بالكردية ، لغته الام . كان قد قضى مايقرب من نصف حياته في استانبول حيث فعل كل ما بوسعه لينسى ذكرى طفولته غير السعيدة في بلدة صغيرة واقعة على اطراف ديار بكر في فقر تركيا الكئيب .

وحالما علمت أنني في طريقني الى كردستان ، ارهقت معلمي

بالاسئلة : ماذا تشبه الحياة في البلدة الصغيرة التي جئت منها ؟  
ماذا يرتدي الناس ؟ بماذا يفكرون ؟ ماذا علي ارتداؤه لسدى  
ذهابي الى ايران ؟ كانت جل معرفتي في امريكا نظرية ، غامضة  
ومعتمدة على اخبار ثانوية . وقد اخبرني موسى المستحي والخجسل  
من أصله الريفي اشياء لم اصدقها . فقد اكد لي أن كل ملابسها بما  
فيها الصيفية ، ستكون مقبولة في تركيا الشرقية وان الناس لن  
يهتموا فيما اذا كنا انا وجيرد متزوجين أم لا . ومن وجهة نظره  
فان المواقف والعادات في كردستان التركية تكاد لا تختلف عن تلك  
التي في بوسطن . ولكن حتى في بوسطن لم يستطع موسى ان ينسى  
مقدمة كونه كرديا .

في حفلة اقمته مرة ، اخذ موسى صديقا تركيا لي الى  
زاوية وسأله عن سبب اصراري على كرديته . لقد كان مسرورا لكسبه  
ملا اكثر لتعليمي الكردية ولكن طريفتي في التركيز على ثقافته  
كانت ثقله . وسأل :

— الم تدرك بعد أنسي تركي ؟

ان الاكراد الذين يرغبون في ان يفلحوا او حتسى أن  
يبقوا احياء في ظل الحكم الذي اسسه مصطفى كمال اتاتورك  
" جد الاتراك " عليهم هم انفسهم ان يصبحوا اتراكا . لأن ماتسى  
اليه الحكومة التركية وتحاول أن تثبته لبقية العالم منذ سنوات  
هو انه في تركيا يوجد اترك فقط . وهذه حقيقة ذات اهمية كبيرة  
بما انه يوجد في ايران الجارة المتاخمة تماما اكراد وارمن  
وآشوريون ويهود . وهذا الخليط من القوميات والاديان نفسه يتواجد  
في نفس الوقت في مدن وقرى تركيا الشرقية . كان الاكراد قد  
استخدموا من قبل العثمانيين ومن قبل الجمهورية التركية للتخلص من  
الشعوب غير المسلحة . وللخزي الذي جروه على انفسهم ، فانهم قد  
لعبوا دورا دمويا في مذبحه الارمن . وخاليا تجري محاسنات  
للتخلص منهم هم انفسهم . ليس عن طريق المذابح ، بما ان عددهم  
كبير جدا ، وبما انه لم تعد هناك عصيانات مسلحة واسعة النطاق

لتخدمها الحكومة . بدلا من ذلك ، تجري ازالة الاكراد بصهر مقاتليهم في الجيش . لا يوجد اكراد في تركيا ، بل هناك فقط " اترك الجبال" لا توجد لغة كردية ، بل مجرد خليط موءلف مما يقارب الثلاثمائة كلمة مأخوذة من اسلاف الفارسية ، التركية والعربية يتداولها بعض القرويين الجهلة . حتى الاترك الاكثر ثقافة وتعلما يعتقدون بذلك . ولم تعترف الاغلبية الساحقة من الاترك ابدا بمذبحة الازمن التي حدثت في بلادهم . تركيا هي ارض الاترك ، ولن ترتكب الخطأ الذي ارتكبه ايران الراحة ابدا تحت وطأة تهديد التمزق بأيدي قومياتها المعادية .

ان تركيا هي البلد الذي يقيم فيه غالبية الاكراد ويتكلمون اللهجة الكردية الاقل دراسة في الحقبة المعاصرة ، ولكن الصمت المطبق الذي جابه محاولاتني في ايجاد شيء ما عن الذهاب الى تركيا لدراسة الكردية اشار الى بداية ونهاية اية محاولات حقيقية للذهاب الى هناك . فالحكومة التركية كانت تختلف عن حكومة الشاه في ايران ، فهي من الممكن ان تقبل الاسلحة من امريكا ولكنها لن تتردد في القاء الامريكان خارج البلاد اوزجهم في السجن اذا ظنت انهم مصدر ازعاج فعلي او محتمل . عرفت اناسا كانوا قد اعتقلوا لاتهامات اقل اهمية بكثير من محاولة كتابة قواعد لغة محظورة قانونيا . لذلك فقد وجهت ناظري نحو النهاية الشمالية من اذربيجان الغربية والى اللهجة القريبة جدا من الكردية المحكية في تركيا . ولكني لم اتخل عن عزمي على الذهاب الى تركيا .

كنت قد تأملت الجبال التي تشكل الحدود ، لمدة خمسة أشهر . وعندما وصلنا الى ابران في الخريف كانت الجبال معبرة ، وذات لون بني باهت مع مسحات من اللون البرتقالي الفاتح والارجواني . وكانت الرطوبة والخضرة تنعدم كليا حتى الشتاء . كانت الاوراق قد بسدت بالتساقط في بداية آب ولكن منحدرات سلسلة جبال زاغروس كانت جرداء . فالاحراج المزالة والعوامل الطبيعية ساعدت على تعريتها منذ اكثر من قرن مضى . كان من الصعب تصديق ان موسم حصاد وفير قد جرى في وديان وسهول منطقة ريزاي . قبل شهر فقط من وصولنا .

ورطوبة الشتاء وامطار الربيع الاخيرة قد تبخرت دون ان تترك أي اثر . وما بقي كان منحدرات جبلية جرداء ، لاشجر فيها وسهول صخرية ومغبرة .

ان العلامة الاولى على حلول فصل الشتاء في ريزاي هي ابيضاض المنحدرات العالية الواقعة الى غرب المدينة . وقد اتسع البياض تدريجيا من اللمم المخروطية نزولا الى السفوح الجبلية ، الى أن تساقط الثلج فوق السهل نفسه . في البداية لم استطع أن ابعد نظري عن المنحدرات المبهرة ، ومن ثم وعندما تقدم الشتاء مللت من الثلج وكنت اتشوق لحلول الربيع . يقول الاكراد : في الربيع تصبـح الجبال " كسك وشين " خليط من الخضرة والزرقة .

احتجت لبعض الوقت كي اعتاد على الجبال ، بعد ان قضيت معظم حياتي بالقرب من المحيط . حتى انها استحوذت على آفـساق ذهني وروحي رويدا رويدا . كنت ارى الجبال المشرفة على تركيا كلما نظرت الى الغرب والشمال الغربي . والى الجنوب والجنوب الشرقي حيث كانت العراق . كان معظم معارفي من الشباب الاكراد قد عـسـروا الجبال في وقت او آخر ، الى العراق او تركيا ، اما هربا من الحروب او لمجرد الذهاب للصيد . كان الاكراد يميلون الى اعتبار كردستان برمتها لهم ، على الرغم من الحدود الدولية . لقد عرفوا التضاريس وعركوا الجبال وهذا ما جعل ذهابهم الى أي مكان يرغبون فيه ممكنا . ولكن دوريات الكشف المتزايدة بأسلحتها وتجهيزاتها المتطورة كانت انتهاكا لهذا الحق الكردي . ومع ذلك فان الشباب الاكراد لا يزالون يتباهون برحلاتهم الى تركيا . كان الاكراد الذين التقيت بهم يثيرون رغبتني في رؤية المزيد ومعرفة كردستان اكثر . قالت احدي النساء :

— آه ، كردستان العراق . تلك هي كردستان الحقيقية .

فجبالها ذات خضرة دائمة .

سألت كرديا آخرًا :

— ولكن ماذا عن تركيا ؟

فأجابني :

– الاكراد كلاب .

يهز اكراد العراق وايران الوطنيون رؤوسهم استهجانا  
عندما يتحدثون عن اكراد تركيا . وقد تساءل احد اكراد العراق  
الرفيعي الثقافة بصوت مرتفع امامي :

– هل مايزالون اكرادا ؟ انهم يطيعون الحكومة التي  
تدعوهم بأتراك الحبال . انهم يتحدثون التركية . ولايلبسون  
مثل الاكراد . لقد اصبحوا اتراكا .

كان القنصل التركي في ريزاي سعيدا باعطائنا معلومات  
عن التنقل في تركيا . فالى جانب تقديمه قهوة تركية جاهزة  
وممتازة تحدث بحماس مفرط من أنواع الطعام وعن خدمة سيارات  
الاجرة الممتازة ، عن النشاطات الثقافية الرفيعة التي سنجدها في  
تركيا وعلى وجه الدقة في استانبول . تشكل تركيا الغربية جزءا  
من اوربا ، اما تركيا الشرقية ، فتشبه ايران في ايام ما قبل  
البتروول وهذا يشكل اختلافا كبيرا بالنسبة للمسافرين . قلت للقنصل  
لا استطيع مقاومة ذكراني ارجب في الاقامة في تركيا اكثر من ايران  
فقال مبتسما :

– حسنا ، لم لا ؟ فنحن بالتأكيد نحتاج الى اناس مثلك  
ليدرّسوا هناك . أنا متأكد من انه يمكنك الحصول على مركز وظيفي  
في استانبول او انقره .

تلاشت ابتسامته عندما اضفت قاشلة :

– في الحقيقية كنت افكر في الاقامة في انطاليا ، حيث  
يمكنني ان ادرس الكردية . ولكني اعتقد انه لايمكنني ان احوز على  
اذن من الحكومة التركية لمثل هذا المشروع ، لذلك فقد اتيت الى  
ايران . فقال معلقا وقد بدا عليه الارتباك :

– ليس لدينا مثل هذه المؤسسات في تركيا .

انتقلت المحادثة بسرعة الى خطط سفرنا . وبعد ربع ساعة من ذلك جمعنا الكراسيات الجميلة الخاصة بالسفر التي اعطانا اياها ومشينا الى المنزل تحت حبات البرد الشتوية التي كانت تسقط فوق ريزاي منذ يومين .

كان علينا ان نجرب حظنا مع الحافلات المحلية ، بما أن جميع المقاعد في القطار من تبريز الى طهران كانت قد حجزت قبـل أن نفكر بقطع تذكرة سفر بوقت طويل ، مما جعل اختيار عبور الحدود على الاخص أمرا خطيرا . وحالما اقترب (٢١) آذار ، تاريخ بدء السنة الايرانية الجديدة ، بدأنا نفكر على نحو مفصل كيف ومن أين علينا ان نعبـر الحدود . وكانت سيرو وهي مركز الجمارك الرسمي الاقرب ، حيث تبعد ساعة فقط من ريزاي ومختبي كيلو متر عن وان التي يوجد فيها مطار . سيأخذنا الطريق الجبلي في سيرو عبر جزء من كردستان تركيا . وبازرگان، المحطة الحدودية الوحيدة الاخرى مع تركيا ، الواقعة في أقصى الشمال والغرب من تبريز كانت قد انشئت على الطريق الرئيسي من اوربا الى الهند . وارضروم كانت المطار التركي الاقرب الى ذلك المركز، وهي مركز ارمينيا التركية القديمة . كانت فائدة سيرو تكمن على نحو رئيسي في قربها من المكان ولكن بازرگان يمكن ان تقدم امكانية اكبر للنقل العام .

نصحتنا اصدقائنا الاكراد في ريزاي أن نتخذ طريق سيرو وأوضحوا انه اكثر راحة . وقد تساءلت لاحقا وبعد امعاني في التفكير فيما اذا لم تكن تلك النصيحة من وجهة نظر العبور غير القانوني . من المحتمل انه توجد دوريات كشف اقل من سيرو . لم يحمل معظم الاكراد الذين التقيت بهم ابدا على جواز سفر ايراني حتى بشرائه .

حالما قررنا الذهاب عن طريق سيرو ظهرت الصعوبة الثانية وهي تشخيص الوسيلة التي سنذهب بها من ريزاي الى هناك . وفي الوقت الذي لم نكن نملك فيه سيارة وحتى لو كانت لدينا ، فانه سيقتصر



ضرباً من الطيش ان نسير بها الى تركيا الشرقية وان نتركها قابضة  
لثلاثة اسابيع بينما نظير نحن نحو الغرب . توقعت أنني لن أرى  
منها شيء حتى لو ممسحة الحاجب الزجاجي للسيارة . وبما أننا لم  
نكن ذاهبين بالسيارة ، فقد كان واضحاً أننا سنفطر للاعتماد على  
النقل العام . كانت هناك حافلة مخصصة للانطلاق من ريزاي السسى  
سيرو . ابلغنا متطوع في فرقة السلام كان قد قام برحلة في السنة  
الماضية :

- لاتزعجا نفسيكما بأخذ الحافلة .

فسألناه :

- ولم لا .

- لأن الحافلة ستصل بكما الى تركيا بوقت متأخر حيث  
لن تقدرنا على أخذ الحافلة من يوكسيكوفنا الى وان في نفس اليوم .  
- يوكسيكوفنا ؟

قلنا ذلك باندهاش واستشرنا دليل الحافلة الذي وصف يوكسيكوفنا  
على انها مركز الانطلاق العام لبعثات تسلق الجبال الخاصة بنسنا  
في تركيا . فقال المتطوع موكدا :

- نعم، نعم، لن أنساها أبداً، انها ممتلئة بمسبية صغارذوي رؤوس  
حليقة برداءة . ولن يدعك سكان المدينة تغيبين عن انظارهم  
ويوجد فيها فندق واحد مزدحم على نحو فظيع ولا انصح به للنساء  
على وجه الخصوص .

كانت صورة تركيا ، الموصوفة في كراسات القنصل تضمحل في  
ذهني ، وماتراءى لي انه سينبثق ، ويفرض نفسه ، كانت تركيا  
التي من المحتمل ان تكون حتى افقر واكثر عدوانية من ايران  
الريفية . وقد نصحننا المتطوع قائلين :

- لاتخبروهم ابدا ان لكما نسبة مختلفة في تركيا

فهم سيفترضون مباشرة انكما لستما زوجين وان مارغي هي برسهم  
البيع .

خُتِّفَ ذلك في ذهننا انطبعا اسوأ مما خلفته ايران التي لم يسألنا فيها احد بعد ، فيما اذا كنا متزوجين ام لا . وقد قررت على نحو حاسم انه سيكون من الحكمة ان اضع وشاحا على رأسي ولكنني لم أعرف مايمكنني ان افعله اضافة الى ذلك لأجعل من نفسي أقل وضوحا . كان الحجاب في تركيا قد حظر لسنوات عديدة على نحو مغاير عن ايران ، حيث كان الغطاء لا يزال سائدا لدى العديد من النساء .

ابدى السيد خليلي استعدادات لمرافقتي لمركز المدينة بالقرب من منزل دارا احمدي لينتقي لنا سياره اجرة يمكن لها أن تأخذنا الى الحدود . وقد شعر بثقه بأن أحد سائقي سيارات الاجرة ممن يعرفهم سيأخذنا بسعر معقول ، وذلك لما كان يتاح له دائما من فرص السفر الى قرب الحدود . وما حصل بعد عثورنا بالصدفة على خط سير الفولكات الزرقاء والبيضاء البالية بدا وكأنه نذير لما كان سيأتي في يوكسيكوفنا .

تجمع حشد من رجال شبان ، مرتدين على نحو بدا فيه الفقر واضحا ، حولنا عندما مشى السيد خليلي نحو خط السير يسأل أولا أحد السائقين ومن ثم الاخر اذا كانوا يقدرون على اخذ اصدقائهم الامريكان الى الحدود في الساعة السادسة من صباح الجمعة التالية . وعندما لاحظهم السيد خليل وهو في غمرة اسئلته طلب منهم المغادرة، ولكن صديقي ذا الاخلاق الدمثة لم يكن يجاري هذا الحشد الذي أخذ يتزايد اكثر ويصبح اكثر عدائية في كل لحظة . بدا السيد خليلي متضايقا الى أقصى حد وهمس في ادني قائلا :

– لن يرضى أحد بسعر اقل مناسب . ويقولون أيضا أن السادسة صباحا ، هو وقت مبكر جدا . يعتقدون انه عليك الذهاب بسيارتك الخاصة . وصلنا أخيرا الى نهاية خط سيارات الاجرة دون ان نجد سائقا يرغب في أخذنا الى سيرو . كان الحشد قد تزايد الى حد اخذ يعيق حركة المرور في أحد اكثر شوارع ريزاي ازدحاما انتابني شعور بأن السيد خليلي كان يتمنى لو أنه لم

يعرض علينا المساعدة أبدا . خلصت نفسي من الجمهور وركضت الى الجانب الآخر من الطريق ، فتوقفت سيارة برتقالية فجأة ، وبينما عدت اليها ، لوح بيدي مودعة السيد خليلي الذي كان لا يزال فسي الجانب الاخر من الطريق . وقد سألتني السائق عن تلك الجمهرة عندما تحرك بي بخفة مبتهدة الى حيث يتوفر أمان نسبي في حي من احياء الطبقة الوسطى . وبدا انه يعرف ما كنت اتحدث عنه بالضبط . على الرغم من توضيحي الطفيف لذلك . ألم يكن واضحا انه في المكان الذي تتواجد فيه نساء اجنبيات سيتواجد فيه حشد من الرجال الايرانيين ايضا ؟ ولتعرف ذلك ما عليك الا أن تنظر الى مداخل دور السينما الايرانية المكتظة بالرجال عندما تعرض افلاما ايطالية عاطفية حتى الصميم .

بدأنا أنا وجيرد ، بعد أن يثسنا - نسأل بعض اصدقائنا الايرانيين ممن يقتنون السيارات ، اذا كان لديهم مانع من اخذنا الى الحدود . وقد رفض الامريكيون ذلك بصراحة ، امس الايرانيون فقد تنحنحوا وتلثمثوا متمسكين بالشكليات وآداب السلوك . واخيرا عرض علينا كولونيل في جيش الولايات المتحدة عرضا فيه من الكرم والسخاء ، بعد ان سمع بمحتنا ، وذلك بان يأخذنا ضابط ايراني الى الحدود في سيارة تابعة للجيش .

مع ضوء الصباح الباكر ، ليوم رحيلنا ، عبرنا المبانسي الستة الضخمة متجهين نحو مقر الجيش ، لتلتقي بالسائق . كنا نتحدث مع السائق عندما انطلقت بنا السيارة الامريكية الضخمة سعودا ونزولا فوق الهضاب وحول المنعطفات الحادة لطريق سسيرو . كان الهواء ربيعي ، ولكن الثلج كان لا يزال يكسو الجبال في كل الانحاء حولنا . وصلنا في أقل من ساعة وغادرنا السيارة وبدأنا بالسير بما انه لم يكن مسموحا للسيارة رسميا أن تأخذنا الى الحدود تماما . امسكنا بحفاشينا بعصبية ، بينما كنا ننظر الى السيارة . سمعنا سقسقة الطيور واصوات ذويان جليد النهـر المنتشرة حولنا . كان مركز الحدود الايراني يقع امامنا مباشرة

وخلف ذلك وعلى بعد مسافة لم نستطع ان نميز وسيلة نقل تركية قط . عندما وصلنا محطة الحدود الإيرانية ، لاحظت انها تشبه منطقة حدود واسعة بين الولايات المتحدة وكندا بموقف خاص مضاء جيدا وبنائية ضخمة حديثة وذات تدفئة مركزية . وكل ذلك من أجل ثلاث سيارات اوشاحنات كانت تعبر من هناك خلال يوم مخصص لذلك . استغرق الوقت ساعة كاملة حتى استيقظ ضابط الجمارك الإيراني ، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة حتى ذلك الوقت . امسكنا بجوازات سفرنا المختومة ومن ثم تصافحنا وقلنا " خودا حافظ " . بدت لنا ايران فجأة آمنة وآمنة على نحو مدهش . وما كمن أمامنا تماما كان لغزا . لم يكن موظفوا الجمارك الإيرانيون قادرين على الاجابة على أي من اسئلتنا عما كان يحدث على بعد نصف كيلو متر من الجانب التركي .

تحولت الطريق المعبدة وموقف السيارات الإيرانية فجأة الى تراب . وبينما كنا نمشي بمحاذاة مجرى النهر المتدفق عبر الممر الجبلي القينا نظرات على سفوح الجبال ورأينا منزليين خشبيين من الممكن ان تنمية الاسكان الامريكية قد هجرتهما سنة ١٩٤٠ . تبني معظم المساكن في ايران من القرميد ، مع افنيصة محاطة بجدران ولكن هذه كانت تركيا الجمهورية الغربية التي أنشأها اتاتورك حيث تشكل الجدران ومن المحتمل الغطاءات أيضا بقايا ماض غير منور ثقافيا .

كان افراد دوريات الجيش التركي قابعين في مواقعهم وعلى رؤوسهم خوذ بيضاء بأشربتها المربوطة حول الدقن ، وفي اقدامهم احذية جزؤها الاعلى ابيض وقد كانوا يبدون مثل جنود من الدمى اكثر مما يبدون كالجنود العديمي الرحمة الذين وصفهم الاكراد . ارشدونا الى مخزن اسمنتي . وفي داخله وجدنا ارضية صلبة جرداء ، وموقدا صغيرا يعمل على حرق الخشب ورجلين قصيرين قويين بجسميهما الممتلئين وملاح شرقيسة ذات تعابير حادة ، وثوبين فضاضين واسعين قد تدليا على اكتافهما

وقد ادعى الرجلان انهما من باكستان ولكنهما كانا قادرين على التحدث بالفارسية . شاهدنا رجلين آخرين ايضا وقد بدا انهما ليساعا برى سبيل ، الا انهما كانا فقيرين جدا بحيث كان من المستبعد أن يكونا من موظفي الجمارك . وقد علمنا بعد عبدة اسئلة ان ضابط الجمارك كان لا يزال نائما . على الرغم من أن كلا من ايران وتركيا بلدان ممتدان من الشرق حتى الغرب امتدادا واسعا فانهما بندر جان تحت توقيت موحد . واخيرا وصل رجلا نحيل وذو عيين زرقاوين . لم يكن لقناوينا لطيفسا او ودودا مثلما كان في الجانب الايراني . فُحصت حقائبنا برمتها وبعد بضعة أسئلة اشير الينا ان نخرج من المكتب الصغير الواقع خلف المستودع . وسألنا الموظف بينما كنا نهم بالمغادرة :

— اين يمكن ان نجد الحافلة الذاهة الى بوكسيكوفنا؟

— تحدثني الى الرجال هناك .

اشار باتجاه السكيرين غير الشرقيين اللذين كنا قد رأينا همسا مسبقا . وقد تلاشت رغبتني في ذلك . عندما عرفت انهما يحاولان خدامنا . فقد كانا يقولان بخليط من اللغات :

— تاكسي ، تاكسي ، نقود ، نقود .

اذا فالشاعكات التي سمعناها في ريزاي صحيحة . فلسن تحمل حافلة ما ابدا لتنقلنا الى المدينة الاخرى ، بوكسيكوفنا . وبدلا من ذلك علينا أن نستأجر سيارة اجرة لتعمر بنا العشرة كيلومترات هذه . وسيكون السعر عشر دولارات ، وهو نهب يمارسه سائقوا سيارات الاجرة الريفية ، الايرانية والتركية بتنفد برهم لهذا السعر . وعلاوة على ذلك فان المبلغ يدفع سلفا والافلسن يقوم السائق بنقلك . كان موظف الجمارك قد خرج من مكتبه ، وكان يراقب هذه المفاوضات عن كذب وباتزان .

ولكي نهدد الوقت مشينا انا وجيرد الى مقدمة المستودع واطلنا من خلال النافذه . لم تلح وسيلة نقل على مرمى البصر ،

ولو كنا محظوظين جدا ربما استطعنا ان نوقف سيارة ايراني او اوروبي صديق ، لنسافر مع احدهما متطفلين . ربما يحدث هذا في الاسبوع التالي . قررنا اخيرا أن ندفع العشرة دولارات ، عرضت النقود التركية وانا اتساءل ما الذي يمكن أن يمنع الرجال من سرقة النقود دون ان يعدوا لنا سيارة .

تقدم نحونا احد حراس الحدود حيث بدأ انه على علاقة طيبة مع السائقين ، بينما ادار احد سائقي التاكسي قرص الهاتف ليطلب بيوكسيكوفنا . لقد كانوا يتظاهرون بطلب سيارة على الاقل .

اشناء مفاوضاتنا من سيارة الاجرة شد حديثهم انتباهي فقد كانوا يتحدثون الكردية وليس التركية . بدأت لتوي في غرفة الحارس بالتحدث مع مضيفنا بالكردية . اتسعت عيناه قليلا ولكن لم يبدر منه أي تعليق . ومن ثم ادار مفتاح الراديو بسرعة التي محطة اذاعة الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق . بدأنا نشعر براحة اكبر عندما تدفأنا بموقده الذي يعمل على الحطب . صعب لنا مضيفنا حالا كأسين ضخمين من الشاي التركي العشبي النكهة مرفقا بقطع ضخمة من القناد . وأظهر لنا كتبا كان يستخدمها ليتعلم الفارسية ، وكان ذلك مشروعا قد بدأه ليمضي به الوقت في مركز الحدود الموحش هذا . وصلت الحافلة العمومية الصغيرة من بيوكسيكوفنا بعد ساعة من ذلك وبينما كنا نعد الى المقعد الثاني سمعت الحارس الذي قدم لنا الشاي بهمس للسائق ومساعدته ويقول :

- انها تتحدث الكردية .

سألني السائق مباشرة فيما اذا كنت اعرف الحاج اسماعيل أم لا . فقلت اني اعرف ابنته .

- اذا ذلك هو المكان الذي تعلمت فيه الكردية .

قال احدهما للأخر .

عاودني خشية من شر مرتقب حالما سرنا خارج منطقتنا

الحدود . دقت النظر من خلال نوافذ الحافلة ، لأقارن كردستان تركيا بكردستان ايران . بدا الطريق الترابي المتآكل والمتعرج كما لو انه في مكان ابعد من ايران التي بدت وكأننا لم ننطلق منها ولكننا وبعد ذلك لم نتنقل ابدا حول ريزاي وفي الريف بدون دليل . ها نحن قد بقينا وحدنا ، وعلى الرغم من أن معرفتي بالحاج اسماعيل قد خلقت انطباعا قويا لدى السائق فقد كنت أشك ان اسم الحاج اسماعيل سيمضي بعيدا لدرجة حمايتنا من خشونة تركيا الشرقية .

توقف السائق عدة مرات ليملاً مبرد محرك السيارة المسرب بالماء من قنارة للري . توقفت الحافلة في القرية الاولى القابعة عالياً فوق منحدر تل لياخذ السائق اناء صغيراً من اللبن الطازج . رأيت بعض النسوة على بعد مسافة وقد كن يرتدين الزي الكردي التقليدي ذا التنورات العديدة ولكن الرجال كانوا واقفين في هيئة مختلفة تماماً عن الاكراد الايرانيين . فقد كانوا يرتدون قبعات مستديرة ومسطحة من الاعلى وذات حواف وسترات صوفية قديمة وسراويل . من الممكن ان تكون البذلة برمتها في طرازها وحالها امتداد للزي البريطاني السائد في الثلاثينيات . ولاتمام الصورة فقد كانوا يحملون عصوات للمشي . وقد افترضنا انها لا بد ان تكون البذلة الرسمية الغربية التي اذخلها اتاتورك في السنوات ما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ لتحل محل الشلوار والعمامة الكرديين المحظورين وكذلك محل اللباس التركي التقليدي . وبعد نصف ساعة من الارتجاج فوق اخاديد في الطريق والالتفاف حول تراكمات ضخمة من الثلوج والصخور المنهارة وبعد اضافة الماء الى الرادياتور المسرب وصلنا الى الجزء الادنى من مدينة بيوكسيكوفنا . وقد ذكرنا الضباب الابيض الصاعد من الارض المكسوة بالثلج بوصف فيودور للمكان حالما ترحلنا من فوق المقعد العالي للحافلة المغيرة . ولكننا لم نشهد أيها من السواح أو متسلقي الجبال . وبدلاً من ذلك فقد تقابلنا مباشرة مع حشد من الرجال والصبية مرتدين على نحو سيء وقد اتضح انهم سكان فرقة جرداء قدرة اشار اليها السائق على انها محطة الحافلة .

خطوت صوب منفذة خشبية تقوم مقام طاولة المحادثات  
وكان يجلس خلفها رجل طويل القامة وسيم وذو شعر احمر مجعد  
وشارب احمر . وقد لمعت عيناه الزرقاوان بينما كان يراقبني وانا  
انطق الكلمات الضرورية بالكردية ، وبدأت قاتلة :

- نريد شراء بطاقات الى وان .

حدق الرجل ذو الشعر الاحمر لبرهة خارج النافذة وكان بقية الرجال  
يراقبون من كئيب هذا التفاعل الناشء . واخبرني قاتلا :

- لقد تأخرت كثيرا ، فالحافلة المخصصة لهذا اليوم

قد غادرت .

نظرت الى ساعتني ، لم تكن قد تجاوزت العاشرة بعد ، وكان صديقنا  
الامريكي قد اخبرنا ان الحافلة من يوكسيكوفنا الى وان لاتغادر  
حتى الساعة الحادية عشرة ، فقلت :

- لايمكن ان تكون قد غادرت ، فلزال الوقت مبكرا جدا

فقال وقد بدا عليه السرور :

- نعم ، ولكنها قد رحلت .

نظرت خلفي نظرات عجلي الى حيث كان يقف جيرد قرب حقائبنا ويجهد  
لفهم ما كان يجري . واطاف الرجل ذو الشعر الاحمر استجابية  
لنظرتي القلقة :

- نعم،لم العجلة ؟ لابد ان تبقي وتشاهدي مدينتنا .

نقلت هذا لجيرد الذي بدأ متخوفا ومتضايقا . لم يكن معتادا  
على البقاء من غير اتصال بالآخرين . ففي ايران كان معظم الاكراد  
الذين التقينا بهم يعرّمون بعض الفارسية . ولكن الآن وبما انه  
لايعرف التركية او الكردية فقد بقي مهمل . احس الحشد بهذه الحقيقة  
حالا ، وقد اشار ذلك فضول الرجال . سأل الرجل ذو الشعر الاحمر مشيرا  
الى جيرد :

- من هو ؟

فأجبتته :



– انه زوجي .

– انه لا يتحدث الكردية ، لماذا تتلصقين في السفر معه؟

لو لم أكن في تركيا الشرقية لربما سرنى ذلك التحول ، عندما عرض على جيرد زوجة اخرى في مانوا . ولكن هنا بيوكسيكوفنا لسم اكن في موقع يدعو للضحك . وكنت سعيدة جدا لوجود جيرد معي ولم أكن ارغب ان يبظن هو علاء الرجال غير ذلك . كنت قد سمعت أن امرأتين امريكيتين عبرتا الحدود التركية – الايرانية بسيارتهما الخاصة وحدهما ، كانتا قد سلبتا من قبل عصابة هاجمتها .

تفحصت جدران ولوائح محطة الحافلة بحشا عن أي لافتة يمكن ان تخبر عن موعد مغادرة الحافلة الفعلي . وبعد ذلك سألت الرجل ذي الشعر الاحمر ثانية ولكنه استمر في تأكيده لي ان الحافلة قد غادرت في الساعة الثامنة من ذلك الصباح ولو أنني فقط اكف عن التلق ، فاني سأقدر على قضاء الليلة في بيوكسيكوفنا وأخذ الحافلة في اليوم التالي . فكرت في نفسي ، حسنا ، لربما ان مواعيد السفر قد تغيرت منذ السنة الفائتة . ان احتمال الغاء جميع الحافلات المخصصة للاجانب في شرق تركيا لم يبدا بعيدا جدا ، بعد تجربتنا عند الحدود . فسألت الرجل :

– حسنا ، اذا لم تكن هناك حافلة ، هل توجد سيارة

اجرة ؟ يجب ان نذهب الى وان اليوم .

فكرز وهو يبتسم :

– تاكسي ؟ طبعاً ، طبعاً . ولكن اولا يجب ان نذهب

ونشرب الشاي معا . ومن ثم يمكننا ان نذهب الى وان . امسرف

شاحنة ستأخذكما الى هناك .

فسألته :

– هل انت متأكد ؟

– طبعاً ، هل تظنين أنني اكذب عليك ؟ انت مثل اختي .

وقد كرر هذه العبارة في غضون الساعة التي تلت عدة مرات

وغالباً ما كان يرفقها بدعوات الى منزله . على الرغم من اني فسي محطة الحدود كنت قد بدأت اشعر وبثقة بأن معرفتي باللغة ستقربنا من السكان المحليين او على الاقل انها ستجعلنا اقل غربة ولسو قليلا ولكنها سرعان ماتحولت الى شيء بغيض . فقد كانت معرفتي بالغة الكردية تساعدني ببساطة على فضح مجونهم اكثر .

طلبت من جيرد ان نذهب الى المقهى . وبما أن الرجل ذو الشعر الاحمر قد ابدى استعداداً للخدمة ، فقد قررت انه سيكون من الافضل أن نسايره لفترة . وعلى الرغم من تحفظاتي فقد كنت نصف مفتتنة بهذا الكردي الوسيم ، المليء بالحيوية والحماسه . وبتردد وضعنا حقائبنا على الارض في زاوية حجرة الانتظار . هل ستبقى في مكانها الى حين عودتنا ؟ كان حشد الرجال والصبيوة ينظرون الينا شزرا وكنا مكرهين لأن نتصرف وكأننا لم نثق بهم وقد ارانا الرجل الذي عين نفسه دليلا لنا شاحنة حمراء كبيسة كانت مستقرة على الطريق حالما خرجنا من الحجرة وتوجهنا نحو الطريق الرئيسي . واخبرني قافلا :

— تلك ستأخذكما الى وان .

فسألته :

— حقا ؟ متى ؟

فأجاب دليلا بتأن :

— حالا ، حالا ، ولكن في البداية لابد من تناول الشاي .

دخلنا المقهى الذي لم يكن يتميز عن مقاهي ايران حتى بطاواتها المخبيرة المربعة . لم ألمح حتى ولا امرأة فيها . وقد التفتت الرووس جميعها نحونا ، وحالا دخلت مع الرجل ذو الشعر الاحمر وجيرد . واستمتعت لبعض الدقائق الاولى من جلوسنا هناك بجو التشويق والاشارة . ففي كل مرة تحدثت فيها ، كان يسود الحجرة ، هدوء يمكن المرء من سماع صوت طحن قطعة من السكر . وبعدئذ تضح الجدران بهمهمات مختلفة عندما ينقل الرجال الى

اصدقائهم في الاماكن البعيدة ماكنت اقله وذلك على مراحل متتالية . لم يكن التلفزيون قد وصل مقاهي يوكسيكوفنا بعد. ولكن الشيء الاخر الاكثر اشارة ، وهو وجود امرأة اجنبية تتحدث الكردية ، كانت قد وصلت الى هذه المقاهي . بينما كنت اتحدث ، كان العرق يسير على ظهري تحت سترتي وكنزتي الصوفية وتحت معطفي المطري الثقيل . بدأت اتساءل بالحاح اكثر عن كيفية خروجنا مسن هنا . كان الرجل ذو الشعر الاحمر يتصرف كما لو انه يرغب في الاستمرار في عرضي الى الابد على رفاقه في المقهى متباهيا بي.

بينما كان يقدم لنا الفنجان الثاني من الشاي لمحمت بطرف عيني من خلال النافذة، الشاحنة الحمراء التي كان من المفترض انها ستنقلنا الى وان وهي تنعطف في زاوية على طريقها للخروج من المدينة . وقد فرغت لدى رومي تي ذلك ونقلت المعلومة الى جيرد . فقال الرجل ذو الشعر الاحمر متملقا :

- تكلمي الكردية ، نحن لانعرف الانكليزية .

حدقت فيه وانتفضت قائلة وتبعني جيرد ومشى مضيفنا وراءنا الى خارج المقهى مع العديد من الاحتجاجات المستاءة لعدم اتمامنا احتساء الشاي حتى . اختار عدد من السادة رواد المقهى هذه اللحظة للمغادرة . والتف حشد كالحلقة حولنا بينما شقنا طريقنا عابدين الى الشارع الى حيث المكان الذي بقيت فيه حفائنا سليمة على الرغم من انها لم تكن غير ممسوسة . وبعد محادثة سريعة مع جيرد التفت الى الرجل ذي الشعر الاحمر خاطبته قائلة :

- كنت اظن ان الاكتراد اناس طبيبون وشرفاء وانهم معروفون بحسن ضيافتهم . فابتسم الجميع لذلك واتممت :

- ولكنني لا اظن انك تقول الحقيقة . كنت تعرف ان الشاحنة ماكانت سنأخذنا الى وان . لماذا حاولت ان تخدعنا ؟

معد ذلك تلاشت الابتسامات وبدأ الناس باللفظ ، كسان الرجل ذو الشعر الاحمر قد اندهش لذلك . ان الاهانات المنذرة بالسوء

في كردستان قلما تلفظ جهارا ، بغض النظر عن مدى صحة الاتهام .  
لم يعاملني هؤلاء الناس كضيفة ، بل كسائحة عابرة ، يمكن ان  
يتسلوا معها . على الرغم من أننا كنا تحت رحمتهم فهم لم يرغبوا  
بأن توجه لهم التهمة بالسلوك غير الحسن .

هذه الصفة المتناقضة ظاهريا ، هي حقيقة بين الاكسراد  
حيث يحتوي تراشهم على حكاية خرافية ذات مغزى تشبه هذا  
الموقف . تقول الحكاية انه وقع احد الميادين أتنا عاصفة ثلجية  
في حفرة دب ، وللفرج الذي نزل على الرجل ، فان الدب لم يقتله  
ولكنه تركه يمكث في جحره لبقية الشتاء . وكلما بجوع الرجل  
أو يعطش ، كان الدب يعطيه قدمه ليلعقها ، واتضح ان هذا  
كان شيئا مثيرا للاشمئزاز ، فقد بدأ الرجل بفقدان شهيته باطراد  
وعندما حل الربيع ، ساعد الدب الرجل على التسلق للخروج من حفرتة  
وقبل ان يمضي الرجل في طريقه ، يسأله مفيقه :  
- هل احسنت معاملتك يا أخي ؟

فيجيبه الرجل بصدق :

- نعم ، ولكن كان لقدميك رائحة كريهة حقيقة .  
آنخذ يتوسل الدب المياد ان يطعمه في ظهره فيتردد الرجل ولكنه  
اخيرا ، ونزولا عند الحاح الدب يذعن لذلك . بعد عودته الى  
القرية ، يتذكر الرجل الدب ويخبر عائلته بانه يرغب في  
تقديم زوجين من الخراف له ، تعبيرا عن شكره لابقائه عنده  
طوال الشتاء ، وعندما يعود الرجل الى حفرة الدب يجد ان جرح  
الدب بالسكين قد شفي ، فيعطيه الخروفين ولكن الدب يجيبه قائلًا:  
- انا لا اريد هداياك . انظر الى الجرح الذي سببته  
مديتك انه قد شفي بدون مساعدة الاطباء او الدواء ولكن جرح  
كلماتك البغيضة لن يبرىء ابدا .

كانت تركيا الشرقية قد فتحت ابوابها للسياح الاجانب  
في السنوات الست او السبع الاخيرة فقط . وقبل ذلك كان السلب

والنهب والثورات شائعة هناك . في الوقت الذي جرحتهم اتهاماتي حتى الصميم فكرت في احتمال ان معرفة الرجل ذي الشعر الاحمر بالبرنامج هي التي احثته على قبول طلبي . من ثم أعدت لنا سيارة اجرة قديمة مزودة بسائق وتفاوضا حول الاجرة . وعلى الرغم من أن السعر كان اعلى مما كان يجب ان يكون ، فان الخمسة عشر دولارا لرحلة ، الثلاث ساعات الى وان كانت مقدارا أقل بكثر من العشرة دولارات التي دفعناها لرحلة النصف ساعة من الحسدود . حشر اثنان من المحليين نفسيهما في المقعد الامامي مع السائق لانه سيعتبر ركوبا مجانيًا بدون شك .

تجمع الرجال حول سيارتنا ليودعونا ، بينما سأل الرجل ذو الشعر الاحمر نحو النافذه . وسأل :  
- هل ماترالين تظنين ان الاكراذ اناس سيئون ؟  
فأجبتنه :

- لا

لقد كنت سعيدة لمجرد مغادرتنا بيوكسيكوفنا .  
فقال :

- حسنا . لاتنسينا . وتذكري انك اختي . عسودى  
وزوربيني .  
فأجبتنه من خلال مقعد السيارة الامامي :  
- شكرا جزيلًا .

بعدئذ تقدم نحوي العديد من الناس وصافحوني من خلال نافذة السيارة .

بعد ذلك ، لمحت المرأة الوحيدة التي شاهدتها فسيبي بيوكسيكوفنا فقد مرت على بعد ما يقارب خمسة اقدام مثل شبح عبر حقل مكسو بالثلج . كانت تضع على رأسها قماشًا أسود سميكًا ، يصل حتى ركبتيها ، وبانت تحته ساقان عاريتان ، وكاحلان مكسوسوان بجوارب بيضاء داخل حذاء اسود مسطح . بدا انها تحديق بانجهاهي واستغربت لقدرتها على الروئية من خلال القماش . كان علي أن اعرف

قبل ان افكر ان الغطاء بكل اشكاله غير المستحبة قد حـسـم  
في تركيا .

بينما انطلقنا خارج مركز المدينة ، انعطفت حافلة  
في الزاوية وانطلقت بسرعة ، مارة بنا ولكنها لم تكن بالسرعة  
المفرطة ، فقد استطعنا ان نقرأ كتابة عليها من الخارج " بحيرة  
وان " . نظرت الى ساعني وكانت تشير الى الحادية عشر الابضع  
دقائق ، كما كان قد اخبرنا متطوع فرقة السلام .

بدا ريف مقاطعة هكاري في تركيا اكثر اخضارا ولغسنا  
أقل كثافة بالسكان من غرب اذربيجان . وحالما سُقنا طريقنا في  
منعطفات في الجبال ، رأينا رعاة ومعهم كلاب ضخمة .

كان بعضهم يرتدي العمامات الكردية والسراويل الفضفاضة  
وكان اغلبهم يرتدي لباسا من الطراز البريطاني يعود لسنة ١٩٣٠ .  
بعد عدة ساعات انطلقنا الى بوشقالة وهي مدينة كردية ممتدة  
في القدم ذات شوارع مرصفة بالحجارة ، مبنية على جانب جـسـل .  
تناولنا عشاءنا فيها مع السائق وركابه الآخرين . ابـسـديت  
ملاحظتي لحقيقة انهم دفعوا بدلا منا ، ولكن جيرد اشار متشكيا  
الى أن من الطبيعي ان يكونوا كرماء جدا بالنقود التي نهوها منا .

بعد العشاء تحول الطريق شمالا مباشرة باتجاه وان ،  
وبدانا بالتسلق نحو الالسنة الجبلية العالية لزاغروس . اختفت  
الشمس وراء الغيوم وكان قد حل الجليد والثلج ، محل العشب الاخضر  
الباهت في مطلع الربيع . وقد سرنا نحو عاصفة ثلجية صغيرة قسي  
قمة رحلتنا وبدأت السيارة بالانزلاق ، بينما كنا نغالب المنعطفات  
الحادة . اهلقت عيني محاولا الا افكر في كيفية عدم ملامسة  
عجلات السيارة الارض هذا اذا تجاوزنا ذكر السلاسل الجبلية .

بينما كنا نهبط من فوق الجبل ، حدثنا عاليا الى حافة  
الجرف وشاهدنا هيكل واجهة حمن قديم . سررت لانه لم يعـسـد

مأهولا . ان أي امرئ كان يقدر على انتزاع مايرغب فيـــــــه  
كضريبة على العابرين ، بسبب موقعها السيطر على الطريقــــــــق .  
كان الاكراد حتى بدون هذه القلاع قد بسطوا سيطرتهم على الممرات  
الجلبية في تركيا الشرقية ، الى ان اوقفهم الجيش المرسل من انقره .  
من ذلك .

غادرنا الجبال تدريجيا وبدأنا باحتياز الحقول . كانت  
قد أنشئت في ضواحي وان مساكن مشابهه بالمباني التي رأيناها  
عند الحدود وكانت هذه ايضا ذات افنية غير محاطة بجدران  
وقادنا طريق عريض تكتفنه الاشجار لمركز المدينة بينما كنا  
نلقي نظرة عجلى على كتاب الدليل السياحي بحثا عن اسم فندق ما .  
وافق السائق على اختيارنا لفندق بيش كارديش ، وبينما توقف  
امام مبنى كبير ذي مظهر مهمل بساحته المفروشة بالحصى والمزينة  
بمجموعة تماثيل ، كتب احد المسافرين - كانت قد جرت بيني  
وبينه محادثة ودية - اسمه واسم قرينته بسرعة على قطعة ورق  
وناولني اياها . وقال موءكدا :

- عندما تعودين الى الحدود ، اتمنى ان تزوريني .

شكرته وانضم الي جيرد بتوديعه توديعا حارا بعد ان كانت  
معنويات جيرد قد انتعشت بعد نجاحنا في الوصول الى وان برغم  
كل شيء .

دخلنا الى حجرة الانتظار في الفندق ومشينا بجانب  
بعض الكراسي الركة المحشوة وحوض سمك مغبر . سألت الموظف  
الشاب الانيق الجالس الى مكتبه :

- هل تفهم الكردييه ؟

فقلت بالكرديية بأننا نريد غرفة ، معتبرة ان صمته هو  
تصديق لذلك . فابتسم دون أن يتفوه بكلمة وناولني  
استمارات لنملأها بالمعلومات المطلوبة ومن ثم ناولنا المفتاح .

اخذنا حقائبنا الى الاعلى وتفحصنا الغرفة . لقد كانت بالنسبة لسعرها ذي الثمانية دولارات ، صغيرة وغير نظيفة جدا ولكن التواليت الى الجانب الاخر من القاعة كان أسوأ حالا .

بعد بضع دقائق خرجنا الى الشارع الرئيسي لـمـصـرف النقود في مصرف ما ولشراء تذاكر سفر بالطائرة الى استانبول ولتناول العشاء . وفي طريق عودتنا من المطعم ، دنا منا شخص في زقاق معتم وبادرنا بالكلام وبعد ان القى علينا التحية كما لو انه يعرفنا قال الغريب :

– اين تقيمان ؟

– في ايران .

اجبتة بذلك بما انه كان يتحدث بالكرديية .

– اوه ، حقا ؟ في اي مدينة ؟

– في ريزاي .

– ريزاي ؟ اعرف اناسا عديدين هناك . هل تعرفان

السيد فيلانسي ؟

لم استطع فهم الاسم الذي لفظه جيدا ولكن وجودي لخمسة اشهر في ايران كان قد جعلني متيقظه لهذا النوع من اللقاءات غير المتوقعة . وكنت قد حذرت ايضا ان تركيا الشرقية تعج بعناصر وعملاء البوليس السري . تمتمت بشيء مجيبه على هذا الرجل ومن ثم تفاد بيناه ولم يلاحقنا هو أيضا بدوره .

لدى عودتنا الى الفندق جلسنا في حجرة الانتظار بجانب حوض السمك وطلبنا فنجانين من الشاي بعد أن رأينا انه يقدم لكل شخص حولنا . بدا ان كثير من الاعمال تنفذ في حجرة الانتظار هذه ولكني لم اكن قادرة على اكتشاف ماهيتها تماما .

حصلت في اليوم التالي وفي الصباح الباكر على فكرة افضل من تخطيط وان وانا في الطريق اليها ، فهي تقع قـرب



بحيرة ملحية كبيرة وتحيط بها الجبال وتشبه ريزاي الى حد كبير بما ان تركيا تفتقر الى بترول يحقق لها ازدهارا اقتصاديا كما تفتقر الى لاجئين عراقيين حيث كانت الحدود مع العراق قد زرعت بالالغام لتبقي الاكراد في الخارج ، فقد كان عدد سكان وان يقارب حوالي ثلث سكان ريزاي فقط . واذا كان ثمة مجتمع اجنبي في وان ، فهو لم يكن واضحا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كان من النادر ان يحدق بنا احد وكان ذلك يوفر لنا راحة عظيمة بالمقارنة مع ما كان يحدث في ايران . وكان السكان ينظرون الي وكأنهم لم يروني من قبل ابدا بغض النظر عن المرات التي كانوا يشاهدوني فيها . كانت بعض النسوة في الخارج مرتديات نوعا من الغطاء المستعمل كبديل مؤقت للذي رأيناه في يوكسكوفنا ، ولكن بشكل عام بدا ان النساء كن قد حللن مسألة الحجاب المحظورة بعدم الظهور في الشارع مطلقا . وطالبات المدارس كن يمشين ييدا بيد مرتديات البسة على الطراز الغربي مع السراويل ولفافات على رؤوسهن . وجدنا أنا وجيرد مقهى وجلسنا لنتمتع باحتساء الشاي وفي ذلك الحين لاحظت ان رجلا يراقبنا عن كثب من طاولة كانت بقريننا . كان ثمة شيئا ما في نظرتة لم ارتح له . انهينا شاينا بسرعه وخرجنا نازلين فوق الهضبة وانعطفنا حول زاوية لننهى تنساول فطورنا في محل معجنات . وبينما كنا جالسين هناك فتح الباب ودخل نفس الرجل وجلس بالقرب منا .

عند العودة الى الفندق جلست في غرفة الانتظار بقرب مجموعة من الرجال . كنت متأكدة من أن السكان في وان هم من الاكراد . ولكني كنت قد سمعت ، مصادفة ، بعض الناس في المدينة يتكلمون التركية مع اطفالهم . بدا الناس هنا راغبين عن التحدث معي بالكردية على نحو مغاير عما كان في يوكسكوفنا . ولكن عندما اخذت السرعة التي وضعت فيها تحت المراقبة بعين الاعتبار لم يبد خوفهم شيئا غريبا .

على كل حال كانت حجرة الانتظار في الفندق ممتلئة

بنماذج ريفية شبيهة باليوكسيكوفيين . فقد كانوا جميعهم  
يتحدثون بالكرديّة فيما بينهم .

التفت الى الرجل الجالس بجانبى والقيت عليه التحية وسألته  
عن صحته . كانت اجابته ودية وحالا عقدت محادثة مع مجموعته  
كاملة من المهريين الاكتراد . سألتهم :

ـ ماذا تهربون ؟

فنظر الرجل حوله ومن ثم اجابني بصراحة :

ـ اغنام ، سيارات ، أي شيء .

فكررت متسائلة :

ـ أغنام ؟

ـ أوه ، نعم يمكنك ان تحصلى على سعر افضل بكثير  
للغنم الواحدة في ايران اكثر مما يمكن ان تكسبه هنا ، اكدوا  
لي ذلك وسأل احدهم :

ـ هل اتيت من ريزاي ؟

ـ نعم ، هل تعرفين اين هي ؟

ـ طبعا ، ذهبنا الى هناك عدة مرات .

وانفجرت وجوههم المفجرة بتأثير العوامل الجوية عن ابتسامات  
عريضة مسلية .

ـ هل تعرفين الحاج اسماعيل ؟

ـ نعم .

اجبت بذلك متدهشة الى المدى الذي قد وصلت اليه شهرة الحجاج  
اسماعيل الغامض هذا .

كان مطار وان بالنسبة لمطار ريزاي نفس ماكان يعنيه  
مركز الحدود التركي قرب سيرو بالنسبة للجانب الايراني . كان مبنى  
مطار وان ذا كلفة باهظة ، لذا اخذنا بعين الاعتبار ، ان كلا

من ريزاي ووان كانتا تقومان بثلاث رحلات اسبوعيا لعاصمة البلاد. لم يكن البناء يحتوي على ناد ليلي او على رخام مزيف . وقصد تجولنا خارجا في الجو المشمس والبارد بردا قارسا لنراقب وصول الطائرة من استانبول عندما مللنا من صور اتاتورك المعلقة فسي مكتب المدير .

بعدها ترجل الركاب انزل تابوت خشبي غير مزخرف على السلالم من الطائرة وتحركت مجموعة من الرجال المرتدين اغطية ذات طراز كردي لاستقباله . لم نشاهد في أي وقت آخر في تركيا الشرقية مجموعة من الناس مميزين بهذه السهولة على انهم اكراد. رفع الرجال التابوت وحملوه الى مجموعة اضعف من الرجال الذين كانوا ينتظرون ويبكون خلف البوابات . واخيرا شرعنا في الطيران ونظرنا نحو الاسفل الى تضاريس تركيا الشرقية الملتوية والملتفة على بعضها وقد ضرب زلزالان هذه المنطقة بعد سنة ونصف من ذلك الحين ، نشر الاكراد العراقيون تقارير عن المعانات الرهيبة التي تلت هذه الهزات ، وعن المساعدات الدولية المرسله التي لم تصل الضحايا ابدا . ونقلت الصحف الكردية العراقية عن تصريحات لمسؤولين ايرانيين يقولون فيها " على كل حال ، هم ليسوا الا مجرد اكراد " .

وصلنا الى استانبول بعد ست ساعات . وقد بدت لنا كما لو انها ستة قرون . استانبول هي مدينة جميلة تضح بالتجارة والصناعة بالاضافة الى التباين بين المباني القديمة والحديثة الجميلة . في وان ، البنايات القديمة الوحيدة هي الكنائس الامريكية التي كانت قد انتهكت قدسيته لعقود مضت . ومنذ ذلك الحين كانت الحكومة قد انشأت الشيء القليل من المباني الجميلة والممتلكات في وان . ولماذا تتجشم عناء ذلك ؟ فالذين يقيمون هناك هم من الاكراد فقط .

يبلغ عدد الاكراد القاطنين في استانبول خمسين ألفا او ما يقارب ذلك ، وقد قدموا اليها لايجاد عمل فيها وتبسطوا في رحمة هذا الحشد . لم نلقو على التفاوضي من سماع الكردية

لدى تحوالنا في شوارع وازقة المدينة عندما اخذنا موسى السذي عاد من امريكا لروبة معالم المدينة . وقد اصبت بذهول عندما اكتشفت انه لن يتحدث معي بالكرديية في استانبول على الرغم من انني كنت قد قضيت سنة في الولايات المتحدة اتعلم الكرديية منهم ، والان بعد كل تجربتي في ايران استطيع التحدث بلغته افضل من أي وقت آخر ولكن موسى كان يفضل الانكليزية المكسرة .

سألته فيما اذا كان سيذهب معي الى البازار للبحث عن كتب وبيانات كرديية مسجلة ، حيث كانت تظهر بين فينة واخرى على الرغم من ضغط الحكومة . فأجابني بلطف ولكن بحزم :

لا يامرغريت ، لا أظن ذلك .

– هل تظن انني سأقدر ان اجد كتبنا من هذا القبيل ؟

فأجاب بحذر :

– ربما ، لأعرف .

وفي اليوم التالي كنا نشق طريقنا من بائع كتب الى آخر في البازار ، الى أن انتهينا الى شارع ضيق مئرج موء الى ساحة يتفرع منها شوارع . وقد حصلت على نسختين من قاموس كـردى-تركي واربعة اشربة موسيقى كرديية ، ذات الخمسة والاربعين دورة . في كل دقيقة . كان الباشعون ينظرون الي نظرات شاقبة وتساءلت فيما اذا كانوا ينتظرون اجنبيا ليتلقف هذه الكتب فير القانونية من اياديهم . او لربما تكون لديهم غرف خلفية مكدسة بفسواد كتابية كرديية ولكنهم ولانهم لا يثقون بي ، لم يقدموا على بيعي ايهاا .

وبعد ان امضينا اسبوعا في تركيا ذهبنا الى مصر وقد قرأنا المزيد عن نهاية الثورة الكرديية في صحف القاهرة . وقد ورد في احدى المقالات ان الجنرال البرزاني كان يطلب حق اللجوء السياسي في الولايات المتحدة . فكرت في المدرسين في مدرسة اللاجئين . فكرت في مدى اختلاف نهاية الحرب عن توقعاتهم كانوا

يعتقدون أن نصرا كرديا هو ممكن ، وكنت آمل ان تتاح فرصة لأزور كردستان العراق . وتساءلت فيما اذا سيبقى اللاجئين في ريزاي حتى عودتنا .

وقد طرنا من القاهرة الى بيروت ومن ثم الى انقرة واخيرا الى ارضروم . وهي مدينة قديمة ذات ابنية وجدراة حجرية وشوارعها المعتمة ايضا كانت حجرية . لقد رحل الارمن عنها منذ زمن بعيد فقد أبيدوا في مذابح جماعية في مطلع القرن العشرين وشتتوا في ارض اجنبية . لم اجد احدا في ارضروم يتحدث الكردية معي : لقد بدأ ان الاختلاف قد تلاشى ، فقد كان الجميع يرتدون نفس نسوع الالبسة الغربية وطبعا كان كل شخص يتحدث التركية .

واخيرا ، بعد رحلة طويلة ، مغبرة وخطرة في الحافلة من ارضروم وصلنا الى الحدود الايرانية مارين عبر بازرگان أولا ومن ثم عبر ماكو ، واخيرا وصلنا الى تبريز . وقد بدت لنا ايران اكثر جمالا حتى على الرغم من مشهد الجماهير المثير في بازرگان . فهنا كان البوليس السري قد رآنا من قبل على الاقل ولم يتجشم عناء مضايقتنا بالحديث معنا في اذنة معتمة . كان الاكراد هنا يتحدثون ، ويرتدون مثل بقية الاكراد أما هناك ، فقد كان الاختلاف موجودا بدلا من النظام . ربما كان علينا ان نبتعد منذ زمن أبعد لنكتشف بعجلة اكثر ان ايران كانت موطننا . لم احتمل انتظار الوصول الى كردستان حيث كنت قد سمعت اسم حاج اسماعيل في تركيا على شفاه كل مهرب اغنام . وقد اعدت على التفكير بأن الاكراد الحقيقيين يقطنون في مكان آخر . في تركيا في العراق في مهاباد وليس في ريزاي . لم يبارحني التفكير بأن الاتراك الأذربيين سيستوفونني وان السافاك سيرحلوني من البلاد بسبب بحثي في اوضاع كردستان . كان علي الذهاب الى وان التبي يتحدث فيها اطفال الاكراد بالتركية ، لكي اكتشف اني مشيت في كردستان ، وان الحاج اسماعيل كان ينتظرنني في ريزاي طوال هذا الوقت .

## الفصل الثاني عشر

كان يقف في مدخل حجرة الجلوس الضخمة شخص طويل القامة ،  
يميل الى النحافة ، ببذلة سوداء ، وذووجه شاحب وعينين زرقاوين  
غامصتين ، وهو يتكلم مع مريم حيث كانت جالسة مع نساء عائلتها  
في يومها الاخير في المدينة . لقد ظهر للحظة ومن ثم اختفى السى  
حيث لا ادري . وعندما عدت موعرا الى شارع بهلوي لارى خديجسة  
كنت ادرك بين الفينة والاخرى حضور هذا الرجل ولكن بطريقسة  
سطحية جدا وبعيدة عن زاوية نظري . لم يدخل الغرفة التي كنت  
اجلس فيها ابدا ، او يعطي أي إشارة تدل على انه يعلم بحضوري ،  
لذلك ، تساءلت عما اذا كانت النساء قد اخبرنه بزياراتي .

عندما أقبل الربيع ادركت تماما ان رحلا قويا جدا ،  
يسيطر على حياة هؤلاء النسوة اللواتي قضيت معهن الكثير من الوقت .  
كن يتحدثن عنه دائما بهمسات تقريبا او بقهقهات مكتومة .  
" قال الحاج ذلك " أو " الشيخ يريدنا ان نفعل ذلك " وعلى  
الرغم من انه لم يقدم الي رسميا ، فقد ثبت لقب الحاج على ذلك  
الشخص الغامض الطويل القامة الذي لمحتة في الخريف .

وبعدفة غريبة كان اليوم الذي التقينا فيه انا والحجاج  
وجها لوجه ، هو نفس اليوم الذي اخترته ، لألبس متباهية اللباس  
الكردي الذي كان جيرد قد اوصى به لي في البازار . وقفت وحدي  
أمام مرآة حمامنا الصغيرة محاولة ان اسوي الوشاح البرتقالي لكي  
لاينزلق عن رأسي ، مثبتة الفستان الاحمر الساتين الضارب السى  
الزرقة بدبوس امان ضخم ، فوق " الكراس " الابيض والاحمر  
والاصفر الذهبي . لم ألبس ثيابي الكردية بنفسي من قبل ، على الرغم  
من اني كنت قد ارتديتها في مانوا وفي قرية السيد شيخ زاده . و  
كان علي أن اجهد في وضع " الكراس " علي وان ألف حزام هـذا

اللباس الداخلي حول خصري واسحب نهايات الاكمام الطويلة الرفيعة خارجا لكي استطيع ان اربط اكمام " الكراس " عندما ارتدي الفستان ، ولالقيها من فوق رأسي لتأخذ مكانها فوق ظهري واثبتت الفستان المفتوح أسفله من الامام بديوس امان ضخم . عندما نظرت الى بذلتي ، ادركت ان مظهري هومثل مظهر معظم النساء الكردييات تماما ولكني لم أكن على وشك ارتداء فستانين ، مثلما كانت تفعل خديجة . كان الشوب القطني الذي يدعى فستانا داخليا يشكّل غطاء كافيا لي بدون " الفستان " او " الكراس " والصدارة المنطبقة عليه . تحت ثقل كل هذا القماش ، كنت اشعر كما لو ان السروال الفضفاض ، الساتين سينزلق من خصري ، وقد تساءلت الى أي مدى سأقدر على المشي في الشارع ، قبل ان ينزلق ساقطا حول كاحلي . لقد كان صعبا للغاية . اردت الجلوس ونسيان هذا الشيء برمته ولكني كنت اخاف ان اجعد البستي الجديدة . فوقفت في حيرة من امري . ألم أكن انا التي رغبت في اظهار نفسي بهذا الزي وارتديت الالبسة الكردية في الشارع ؟ لأفترض أن الاتراك عرفوني ، عندئذ ستصبح الالبسة الكردية تسليتهم المفضلة وستعني لهم الكثير . استطيع ان اتخيلهم يحتشدون حولي ، ويتبعونني . وقد حثني على الخروج فقط تفكيري بمنظر خديجة المندهشة والنساء الاحريات . ولو كنت اعلم ان الحاج اسماعيل سيكون موجودا او ينتظرني فلا أظن ابدا اني كنت ساستجمع شجاعتي وتخوفي معا ، لأخطو بحذر نازلة على الدرج الموّدي الى الفناء . لدي خروجي اندفعت والدة شهرزاد فجأة من الدار وتفحصتني من قمة رأسي حتى قدمي . كنت قد القيت غطاء اسود مخرما على البدلة بكليتها ولكن اللباس الكردي كان يرى من خلالها بوضوح .

— مبارك .

غمغمت بطريقة جافة وهي تهنئني اما على بذلتي الجديدة ، أو على اعصابي وتحملي ارتداءها وهذا الاحتمال كان وارد اكثر .

خرجت بلباسي المهفهف ، عبر الفناء وفتحت البوابنة .

ووضعت نظارتي في محفظتي لأنني لم ار امرأة بغطاء ، تضع نظارة ابدا . وآملت فقط لو اني استطيت ان اجد طريقي خلال الازقة الى الطريق الرئيسي بدون الامطدام بشيء . ولحسن حظي اعطاني ثقل ملابسني زخما في حركاتي ، حيث كانت تدفعني الى الامام على الرغم مني . بدا غطائي كأنه يتلاطم كالموج حولي وبدا كل شيء ينزلق وينزلق . وفكرت في نفسي ، اذأ هذا مايفعله الحجاب فهو يبقي المرأة منشغلة كليا بامسাকে . ان الاغطية العربية الاكثر جدية لها فوائدها ، فهي على الاقل تبقى ثابتة بنفسها ولاتنزلق .

مر بي راكب دراجة ، فالتفت لأنظر اليه ولكنه استمر في طريقه حتى دون ان ينظر نظرة باتجاهي . عرفت انه لم ينظر وراه لانني انا ذاتي نظرت باندھاش . ما الامر ؟ ففي الاشهر الخمسة الفائتة لم يمر بي صبي على دراجة دون التحديق وراه . كان من المستحيل تقريبا ان او فق بين شعوري الغامض بالروعة مع مظهري الجدي غير الجلي . كنت سأصل لبيت خديجة دون أن يلحظني احد ابدا لولا ارتكابي خطئي المشؤوم . فقد حدثت في عيني بائع الخضروات وانا في طريقي ، بينما لاتحدق امرأة ترتدي غطاء ابدا في عيني رجل في الطريق . وقد فغرفاه البقال اندھاشا عندما عرفني ، فاسرعت باحثه عن جرس باب البيت التالي آملنة ان تجيب خديجة قبل ان يبادر بالكلام .

هنأتني خديجة بصوت مرتفع ، عندما رأت ملابسني واجتمعت النسوة حولي في الطابق العلوي ليبددين اعجابهن بهما . كان جميع الاكراذ الذين رأيتهم يفتخرون حقا بملابسهم . فقد كانوا يظنون ان ملابسهم أعظم قيمة من الملابس الغربية وكانوا يسرون لروية الاخرين يرتدونها . ان هذا تقليد حي بين الاكراذ وهم يفتخرون به . وليس بالضرورة ان تنعدم لديهم ، الثقة بالنفس ليروا انفسهم كما يراها الاتراك والفرس .



تقدمت زينب نحوي وهي تضحك ، وفكت دبوس الامان الكبير  
وتركت الفستان متدلبا .:

– مارغريت ، ليس على هذا النحو .

عدلت لباسي ، مغلقة " الكراس " الداخلي ، حيث رفعتة ولفتته  
حولي لكي تبقي السحاب من الامام وليس من الخلف . ان السحابات  
ودبابيس الامان يمكن أن تحتبر رديفة في الغرب ولكن دبوس الامان  
في كردستان له فعالية عند الاكراد ، فهو وكما اكتشفت موءخر  
يفيد تماما في طرد " الخلبليك " هذه الارواح الكردية الشريرة  
التي تظهر عند المغيب متنكرة بشخصيات اناس حقيقيين ، وتنزل  
الغراب على ضحاياها . لا اعرف اذا كان للسحابات خاصية  
سحرية ، لكنها من الموءكد ليست غير مرئية .

عدلت زينب ايضا وشاح رأسي الذي كان يظهر نصف شعري  
وهذا شيء لاتظهره المرأة الفاضلة . وحالما بدأت التعديلات  
والاوه والآهات بالتوقف تدريجيا ، ظهر الرجل النحيل الفارع القامة  
عند المدخل بنفس البدلة السوداء . كانت قد ارتسمت ابتسامات عريضة  
شيطانية على محياه ، بينما كان يخلع حذاءه نهضت حالا وانسا  
انقل نظري بينه وبين النساء الاخريات وتحول عدسي الى صدمة ،  
كان كما لو ان مصيبة حلت على الحجرة او كما لو أن ميسدوزة  
قد اثتالى الباب ، بدلا من رجل يبتسم بخبث . كانت وجوههن  
قد شحبت وصمتت اصواتهن . بدا كما لو انهن تحولن الى تماثيل  
وهن يلفن بلا حراك . توقفت عن الابتسام ولكن حالما خطسا  
الحاج اسماعيل نحو الحجرة ورفع يده ليصافحني بثبات ، لسم  
استطع مغالبة الابتسام ثانية :

– تفضلي بالجلوس ، تفضلي .

بقي يردد هذا لي ، ولكنني بقيت واقفة . ماكنت سأجلس وجميع  
النسوة منتصبات حولي وقد تجمدت حركتهن . فسأل زينب  
مستغيبا :

.. لماذا لم تجلس ؟

فأجابت زينب وعيناها مسدللتان :

- انها نعرف عاداتنا .

انحنى الحاج اسماعيل نحو الارض بسرعة ، وتبعه اسما  
ولكن بدا لي وكأن النساء الاخريات ينكمشن بدلا من ان يحسن  
بحبوبة . امر الحاج زينب بأن تحضر طبقا كبيرا من العواكس،  
ففعلت وخرجت بسرعة ، وظهرت شامية بعد دقيقة اودقبعينين وهي  
تحمل طبقا مزخرفا مصفولا من الموز . بعد ذلك قدم لي الحاج  
واحدة والتقط بعضها منها لنفسه . وكانت النسوة لايزلن يسدون  
حسراك .

- شاي ، هل قدمت لها الشاي .

سأل زينب التي نهضت ثانية بصمت لتحضر الشاي نزولا عند رغبة  
الحاج . ومن ثم لمحت حديجة التي بدت كما لو أنها كانت تتجشم  
معاناة تجربة زلزال . فهي حتى لم تجلس ، بل قرفصت الى جانب  
الحائط تماما فوق الارض على مسمع بارد ، مفروش وراة طسرف  
السجادة قرب الباب . كان لفاهها قد انسحب فوق وجهها المتجه  
صوب الجدار .

كان الحاج لايزال يتحدث معي ، كما لو انه ليس شمة  
خطأ على الاطلاق ، لذلك حاولت ان اتجاهل الافة التي اصابت كسل  
النسوة حولي ، وبعد عدة زيارات كانت مقتصرة على النساء فقط  
بدا ان هناك شيئا غير طبيعي ابدا ، حتى بالنسبة لي في اللقاء  
مع رجل وجهها لوجه في هذا المنزل . قال الحاج مبتسما :

- حسنا ، لقد اخبروني انك تتعلمين لغتنا .

أو مات برآسي موكدة ذلك . فسألني وهو ينظر الى النسوة اشباه  
التماشيل :

- ماذا تعلمت لحد الآن ؟ ماذا علمتك ؟

لم أعرف بماذا أجيب ، ولكن الحاج اطلع على دفتر ملاحظاتي الذي كنت احمله معي في كل مكان وسألني :

— ما الكلمات التي كتبتها عندك ؟ اقرئها لي .

فتحت دفتر ملاحظاتي وانتابني شعور كما لو أنني على وشك خوض اول امتحان لي في الكردية . قرأت ببطء مادوننتسه . فطلب مني الحاج ان احدد معنى كل كلمة وعندما لم يوافق على ماقلته بدأ بتفريغ نساؤه . وقال مذكرا اياهن :

— يجب ان تعلمنها على نحو صحيح . انها مقدمة

على تأليف كتاب .

شعرت بالذنب لأنهن حوسبن بسبب اخطائي ، ولكن زينب وخديجة لم تظهر اى علامة تدل على اعتراضهن على هذا اللوم غير المنصف . لقد كانتا ارفع بكثير من أن تظهر اى علامة من هذا القبيل .

بقي الحاج اسماعيل ينظر الي وعلت وجهه ابتسامة عريضة . بدا سعيدا لانه اخذ يقاطعني بالانتقادات والاسئلة ، وكسسان ابتهاجه معديا فقد شعرت انا أيضا بالابتهاج لأنني اتعلم الكردية وكنت سعيدة لاني اتحدث معه . ولو ان النساء فقط لم يبدون كما لو انهن قد اصبن بصدمة لكنت اكثر سعادة . بعد حوالي عشرين دقيقة استأذن الحاج اسماعيل ليذهب للملاة في الحجارة المجاورة ، وحالما غادر عادت النسوة الى الحياة .

— ما الامر ياخديجة ؟

سألتها شاعرة بالراحة لرويتها تبدو وقد انتعشت من جديد وعادت الى طبيعتها . ضحكت صديقتي بمرح . كانت تعرف ما أتحدث عنه على وجه الدقة .

— انها عادتنا ، مارغريت . على المرأة ان تكون

محتشمة في حضور حميها . وتحركت بسرعة صوب المدخل ، فناديتها :

— الى اين انت ذاهبة ياخديجة ؟

فأجابتنني ؟

– سأقوم ببعض الاعمال .

من الواضح انها قد شعرت بالراحة لقدرتها على الفرار .  
في ذلك الحين ، خشيت أن ابقي وحدي مع هذا الحاج ، سـاحـر  
الجماهير . لقد اصابني بعض من خوف النساء . كانت خادمة  
خديجة ايضا قد ذهبت في الوقت الذي عاد فيه الحاج . وزنسب  
فقط هي التي بقيت معنا .

كان الحاج اسماعيل قد استمع لتوه للاخبار من المذيع  
واراد ان يعرف كل آرائي عن حادث مايا غوز . وبما اني كنت  
افتقر الى سماح معظم الاحداث الدولية خلال اقامتي في ابران ،  
فلم اعرف ما قوله ، ولكن الحاج جلس مبتسما لي ، كما لو  
أن أي شيء سأقوله سيفننه . نجحت في قضاء نصف ساعة اخرى  
في الحديد معه ، بذلت فيه قصارى جهدي وقد ارهفتني مقصرة الرجل  
وكذلك الجهد الذي بذلته لكسوني الوحيدة في الحجرة التي تقـوم  
بمحادثته . شعرت ان كرديتي هي قيد الاخبار ، لذلك كنت  
اختر كلماتي بحرص متخوفة من ارتكاب خطأ ما . واخيـرا  
استنفذت معظم قدرتي لهذا اليوم وخاصة تلك المحسدة في مجموعة  
من المواد التركيبية ، التي تطلبت جهدا مصاعفا . فاخبرت الحاج  
انه علي ان اغادر ، ولكن هذه المرة وعلى نحو مغاير عن تلك  
المررة الفاشلة ، في احدى فترات العصر ، عندما كنت مع مريم ،  
حيث جهدت على ان اعرب عن رغبتني بالمغادرة على نحو لبق  
ومهدب .

– هل تسمح لي بالمغادرة ؟

نظر الي مبتسما ، رافضا ان يجيب على مثل هذا السؤال فجريت  
طريفتي القديمة .

- علي ان اذهب للمنزل واحضر الغداء .
- لابد ان تمكثي وتتناولي الطعام معنا .

لقد سرتني ذلك ، وجعلني حذره في نفس الوقت . كيف يمكن أن  
ابقن واتناول الطعام ؟ سنكون أنا وهو الشخصين الوحيديين في  
الحجرة ، نتناول الطعام . فأضفت قاعة .

- ان زوجي ينتظرني

- زوجك ؟

كرر ذلك ونظر الى زينب للتأكد من ذلك .

- هل هي متزوجة ؟ اطلبي منه ان يحضر الى هنا .

كان الحاج قد اشار اهتمامي لدرجة اني عزمت على ان  
يشاطرنني جيرد في معرفته . اخذتني زينب الى حجرة نوم الحاج  
حيث هتفت الى منزلنا ، ودموت جيرد كياتي وياخذني . لقد شعرت  
حقيقة بالراحة ، لأني لن اتجاوز عقبات الطريق الى المنزل لوحدي  
في بذلتي الكرديسة .

حالما دخل جيرد للحجرة ، امر الحاج باحضار كرسي معدني  
له . وتصفح الرجلان ومن ثم جلس جيرد في كرسيه ، بينما جلست  
انا والحاج على الارض . وقد دعانا الحاج وهو يبتسم طسوال  
الوقت ، للذهاب معه الى قريته دستان في نهاية الاسبوع . نظرنا  
انا وجيرد ، احدنا الى الآخر . ماذا علينا ان نقول ؟ فقبل  
ثلاثة اشهر كنا سنقبل مباشرة ، ولكننا لم نعد نقبل اي شيء  
فورا في ايران . فقلت :

- شكرا . ولكن لن نقدر .

سأل الحاج :

- لماذا ؟

فأجاب جيرد :

- علينا ان نعلمي دروسا بعد غد .

- سأعيد كما الى دروسكما .

فأجبته :

- ولكن ذلك سيشكل ثقلا عليك .
- ولكنني اريدكم ان تأتيا ؟

أجاب الحاج بالحاج :

نظرت الى جيرد متسائلة ، ولكن جيرد هز رأسه .  
- لا ، لن نقبل ..

لم يتدخل الحاج عن دعوته مباشرة ولكنه عندما رأيت  
اصرارنا ارتسم تهيج في نظراته ، متعذر مهمه . وعندما عدت  
الى المنزل لاحقا ، اجتذبت السيدة الكردية ، والرجل الاجنبي بعض  
النظرات المستغربة . وسألنا انفسنا عما اذا كنا قد تعرفنا على  
نحو صائب برفضنا دعوة الحاج . وعندما عدت الى منزله بعد عدة  
أيام لرؤية خديجة اخبرتني ان الحاج قد استاء كثيرا من رفضنا  
لدعوته . وكررت زينب نفس المعلوما ، مضيفة ان الحاج قد اخبنا  
كثيرا . عند ذلك افعمت بالندم ، ولكن كيف كان لنا أن نعرف أن  
هذه الدعوة حقيقية ؟ هل سيدعوننا ثانية ؟ لربما قد انزعج  
لدرجة انه لن يكرر الدعوة ثانية .

لقد اصبح الحاج الآن حقيفة جلية بعدما رأيتته ، وتحدثت  
معه فعلا . تحدثت عنه الى السيد خليلي ، وقد ادلى ببعض  
التعليقات التهكمية الموضوعية اتي حد ما .  
- آوه ، الحاج اسماعيل . هل تعرفين ان له خمس  
زوجات ؟ خمس زوجات ، تصوري ذلك .  
قال ذلك ومن ثم ضحك ضحكة مكتومة .  
- خمس زوجات ؟

كنت قد رأيت وسمعت عن ثلاث فقط الخمس زوجات ، تشغل  
زوجة زائدة عما يسمح به القرآن . كيف يمكن لرجل متدين مثل  
الحاج ، يصلي الفرائض الخمسة كل يوم ، ان يتخذ خمس زوجات ؟

في احد الايام ، كانت امرأة ذات ملامح حادة ، ووشم

ازرق باهت فوق حنكها المغير المدبب ، تجلس بين النساء في منزل  
تسارع بهلوي . نظرت اليها بفضول . فالمرأة الكردية الوحيدة التي  
رأيت وشما ازرق على وجهها كانت لاجئة عراقية . ان الوشم  
وخزام الانف التي تستخدمها النساء في اجزاء اخرى من العالم  
الاسلامي لتزيين انفسهن ، يعتبران عادة عتيقة الطراز ، وقد  
بطل استعمالها لدى العديد من الاكراد اليوم . وموخرًا سألت  
خديجة عن تلك المرأة الموشومة ، فأخبرتني خديجة قائلة :

– انها والدة احدى زوجات الحاج . لا احد يحبها .

ومن ثم هزت كتفيها غير مبالية .

تقت لمعرفة كل شيء عن جميع هؤلاء الزوجات . أين يسكن ؟  
هل لديهن منازل منفصلة ؟ هل يقضي الحاج اسماعيل وقتنا متساويًا  
مع كل واحدة منهن كما يأمر القرآن . لقد كان ذلك شيئًا غريبًا  
حقًا بالنسبة لي . كاتسمن الزوجات يعشن في القرية ، عدا  
زينب التي كانت قد عينت لتعتني بأولاد الحاج الذين قد بلغوا  
السن المناسبة لدخولهم المدرسة في المدينة . بدا لي أن كل  
امرأة مستقلة بذاتها . وبدا أن مريم لديها القليل مما يربطها  
باسماعيل . لقد أدركت الآن كنه الدعابة الموجهة اليها والتي  
تقول ان زوجها سيبحث عن زوجة أخرى اذا تركت المدينة . كان  
قد اتخذ ثلاث زوجات بعدها ، مسبقًا ، ولكن اتضح أن ذلك لا يكفيه فقد  
بدا أن زينب وحدها كانت تتصرف كزوجة في المدينة ، فقد كانت  
تنام في حجرة نومه معه . والزوجات الأخريات كن غامضات  
كليًا بالنسبة لي . حتى والدة عائشة التي قابلتها مرة والتي  
أكاد لا أستطيع تذكرها . ربما يكون الحاج معروفًا في كل أنحاء  
کردستان بتجاوزاته المتعلقة بالزواج ، ولكنني لم أستطع فهم  
هذا الجانب من شخصيته بسهولة . فهو لم يظهر لي سوى الأدب والسود  
والاحترام خلال كل الوقت الذي عرفته فيه . أما علاقته مع نساءه  
فكانت شيئًا آخر . وقد حصل بيننا مدام مباشر ، لمرة فقط ، فقد  
كنت طلبت من خديجة وزينب بالاضافة الى اولاد الحاج الصغار أن  
يأتوا في رحلة الى قرب البحيرة ، وكانت زينب قد ردت علي وهي

تضحك بعصبية أن علي أن أستاذن الحاج ، فعلت ذلك ولكن الحاج رفض طبعا وقال ونبرة الانزعاج في صوته :

- لماذا ؟ لماذا تريدان الذهاب الى البهيرة ؟ اذا أردت أن تذهبي لمكان ما ، اذن تعالي الى القرية . ذلك هو المكان الوحيد الذي أريدهم أن يذهبوا اليه .

اخبرتني خديجة انه ماكان علي ابدا ان اطلب منه ذلك مباشرة ، وانها كانت ستجد طريقة لاقناعه . لم يكن زوجها طه ابن الحاج الاكبر صارما لهذا الحد . واثبتت موعرا انها موفية لوعدها في تحديدها حكم الحاج . ولكن زينب رفضت أن تتزحزح وقالت انها لن تسمح لنا بأن نصورها ابدا مدعية ان تلك هي رغبة الحاج . وعندما سألت الحاج عن قرار عدم التقاط الصور قال انه ليس لديه أي اعتراض . ماهي حقيقة المسألة ؟ كان الحاج اسماعيل - وهو زوج لخمس زوجات مستاءات ، ووالد لـ ديزينات عديدة من الاطفال ، رجلا سارا جدا . لم يك هناك شك ، في قدرته او ذكائه ، ولكنني استفرقت وقتاً طويلا لكي افهم كم كانت علاقتنا معه تتمتع بامتيازات . لاحظت في احد الايام بينما كنت انا وجيرد جالسين مع طه وابن عمه رحيم في حجرة ضيوف والده ان طه ذا الاربعة والعشرين عاما ، ورحيما ذا العشرين عاما كانا يتهامسان كتلاميذ المدارس . فهما لم يتحولا الى حجر كما حل بالنسوة فسي حضور الحاج ولكنهما لم يجروا على ان يتحادثا على نحو مباشر مع والدهما وعمهما . لقد كانت كلمة الحاج قانونا لمثبات عديده على الاقل من الرجال الاكراد المسلحين . لقد كان مشهورا في كل انحاء كردستان . فضلا عن ذلك فقد اتى زمن نجح فيه الحاج بقوته نجاحا عظيما . انه لأمر مقبول لدى ابناء الحاج ومويديه ، ان يهزأ بالقوانين الايرانية بالقدر الذي يريدهم لو شاء ذلك ، فهم معه حتى النهاية . ولكنه عندما حاول ان يهزأ بالقانون الاسلامي معرضا شرف وخير عاشلته للخطر فقد توقف طه عن الهمس في حضوره .

لدى هودتنا الى كردستان بعد ثلاث سنوات من مغادرتنا



اياها شعرت ان شؤءون عاثة الحاج اسماعيل لم تكن على مايسرام  
على الرغم من أن اهتمام متصيفينا وانشغالهم فيما اذا كنا نقضي  
وقتا طيبا لم يتغير ابدا ولو للحظة واحدة . كلما كانت تطول  
اقامتنا هناك كان يصعب عليهم اكثر اخفاء حقيقة ان امرا منا  
كان يجري ، امرا كان يجعل مريم في حالة قلق لاتصدق . امسرا  
كانوا يتوقفون عن الحديث عنه ، عندما ادخل الحجره .

رأيت مريم في احد الصباحات ، وهي تكتب رسالة على  
قطعة من الورق ، كانت قد مزقتها من دفتر ولدها الاصغر انه  
امر غير مألوف بالنسبة لامرأة ريفية ان تكتب رسالة ، لذلك فقد  
راقتها وهي تطوي الرسالة وتسلمها لطفه وتطلب منه ان يأخذها  
الي منزل الحاج اسماعيل . وبينما كانت تعطي الرسالة لطفه ،  
سمعتها تقول شيئا عن " العار " والكثير من الاطفال ، ولكنني لم  
استطع ان استجمع هذا اللغز الذي كان قد بدأ يقلقني . وفي وقت  
لاحق في المدينة ، كنت جالسة بين مجموعة من نساء العاثة ، عندما  
سمعت مناقشة غريبة لم تكن مفهومة تماما . كان شخص ما مقبلا  
على الزواج والتساؤن غير موافقات على الاطلاق . من يمكن ان يكون  
ظننت انها العروس التي كانت زينب زوجة الحاج الثالثة على وشك  
ان تزفها لابنها الاكبر . وحسب معرفتي لم يكن شخص آخر مقبلا  
على زف عروس في القرية . ولكن النساء لم يكن يرغبن في اطلاقني  
على ما كن يتحدثن عنه . ويغيبن يتحدثن بأيجاز اكثر : فأكثر  
واخيرا اقلعن عن الموضوع كلياً

وبوءخرا عرضت عاثة الموضوع معي وحدي ، هل فهمت بما  
كن يقلقني ؟ لقد أخطأت في افترافاتي وانا اراقب وجه عاثة  
الذي كان يوحى الي بأنني مخطئة . لقد كانت حاسمة في تأكيدها  
على صحة ماتقوله . فلم يكن هناك ما يعيب الفتاة التي كانت ترغب  
فيها زينب عروسا لابنها . لقد كانت فتاة طيبة ولم يكن لأحد  
اي شيء . فدها . . اذا ماهي المشكلة ؟ اريء ان اعرف ، قرأت  
عاثة هذا التساؤل على وجهي :

- يريد والدي ان يتخذ لنفسه عروسا اخرى .

- زوجة سادسة ؟

قلت ذلك ، وانا الفظ كلمتي لاهثة .  
- نعم ، يريد ان يتخذ من الاخت الصغيرة لزوجته  
الاخيرة زوجة له .

الآن ، اتخذت اشياء كثيرة اماكنها وقد ذهلت لى  
تفكيري بالاضطراب الذي لا بد من ان العائلة تعانيه ، بينما كنا نحن  
نمضي معهم بمرح ظانين انه ليس هناك . مايشغل بال مضيقنا سوى  
تسليتنا . استطيع ان اقدر مقدار الاضطراب والحقد الذي تسبب  
الحاج في اشارتهما . لقد اغاظ مريم والزوجتين الكبيرتين الاخريين .  
ان الحاج قد اتخذ زوجته الرابعة ومن ثم الخامسة اللتين كانتا  
تعتسر ان كخادمتين والاحيرة التي قد حرمها القرآن كزوجة اضافية  
على الاربعة اللواتي حددهن القرآن لكل رجل . ماذا يمكن ان يكون  
رد فعلهن تجاه السادسة ، وخاصة انها اخت الخامسة ، مضيقنا  
بذلك الخفيفة الى الاخرى التي سيرتكبها الحاج امام مرأى الله ؟

جلس الشيخ عبد الله الالحانه الآخر من عائشة . وكان

تعليقه الوحيد :

- ان لدى الحاج العديد من الاولاد ، لدرجة انه لا يعرف

اسماهم .

واضاف عائشة قائلة :

- نعم ، والدي مصاب بمرض ما . انه مرض رهيب .

جلست مستغرقة في التفكير ، محاولة ان افهم . تراعت امام  
ناظري صورة كنت قد رأيتها من قبل . كانت تلك والدة الحاج بين  
مجموعة من الصور ، كانت قد التقطت في تركيا ، قبل ان تغر  
العائلة لتتنجو بحياتها . كان الحاج اسماعيل في ذلك الوقت  
لا يزال ضيحا صغيرا ، وكانت هذه الصورة القديمة من تركيها  
الشرقية قد أظهرت والدته امرأة جميلة على نحو اخاد ، ذات ملامح

رقبقة . امرأة أجمل من كل النساء اللواتي رأيتهن في دستان .  
ذات يوم حضر رجل لزيارة مريم وعلمنا منه أنه ابن مرضعة  
الحاج اسماعيل الكبيرة التي كانت تخدم عند والدة الحاج منذ  
ما يزيد على نصف قرن مضى في تركيا الشرقية . قال ابن المرفهة :  
- لقد كانت والدة الحاج لا يصدق أن يوجد لها مثيل .  
لم ير رجل وجهها قط .

اذن ، ذلك هو تعريف المرأة التي لا يصدق أن يكون لها مثيل .  
فكرت بصمت مع نفسي . هل يعرف هذا الرجل أنه قد التقطت لها  
صور ، ودون شك ان الذي التقطها هو رجل ؟ كانت السلطات  
التركية قد أعدمت والد وجد الحاج قبل أن يبلغ العاشرة من  
العمر . وكان لدى والده زوجتان . احدهما رحلت الى استانبول  
ورعت ولدا لا يتحدث الآن حتى ولا كلمة كردية . وعلى الرغم من  
أنه هو والحاج يعتبران نفسيهما أحيان وأنهما قد قاما بزيارة  
بعضهما ، فهما لا يقدران على التواصل بيسر . كان الحاج اسماعيل  
وأخته قد نشأا في ايران كأكراد ، تحت وصاية شخص غير معروف ،  
ومن المؤكد أنه كان قد حل محل الأب والجد .

ما هو مصدر مرض الحاج اسماعيل ؟ لا شك أن ذلك المصدر  
كان أيضا منشأ قدرته الحياتية ، الحياة التي جعلته صوفيا ،  
باحثا ومحبا للأجانب . كان الحاج اسماعيل رجلا جذابا ولكن على  
الرغم من ذلك فقد أوقع الحزن والنفور في نفسي بسبب معاملته  
السيئة لزوجاته وأطفاله . لماذا يتجاهل قواني الزواج في  
الاسلام ، في الوقت الذي يبدو متفانها له ؟

سلكت مسألة اتخاذ الحاج زوجة أخرى له سبيلها ببساطة ،  
ووصلت ذروتها قبل رحيلنا تماما . كانت عاقبة قد أخبرتنني أن  
عائلة الفتاة التي يريد الزواج بها ، كانت تحاول على نحو  
جنوني أن تزوجها لرجل آخر قبل أن يتزوجها الحاج . كانوا قد  
وجدوا لها هروسا مناسبة اكثر ولكن ليس قبل أن يتخذ أولاد  
الحاج الكبار خطوة يائسة وذلك بالذهاب لوالدهم في احدي

الليالي وتهديده بالقتل اذا مضى نحو تحقيق ما يريد . ما كنا سنعرف شيئا عن هذا اذا لم نخبرنا عايشة به . غادرنا طه فسي تلك الليلة المقدرة الى ريزاي قائلًا أن لديه بعض الأعمال في القرية فحسب . عاد في اليوم التالي وقد أضناه التعب وقال لنا انه كان يقوم ببعض الاعمال طوال الليلة الماضية . وقد افترضت أنه لا بد أن يكون شيئا متعلقا بالحصاد الذي كان يجري في تلك الفترة .

لأنني عرفت الحاج اسماعيل شخصيا لم أستطع مطلقا أن أحتقره لا يقامه الظلم بالنساء اللواتي يسري نفوذه عليهن . وربما كان ذلك بسبب معاملته لي بلطف . ربما لأن أجداد الحاج كانوا قد سحروا السواح الأجانب الذين وجدوا أنفسهم في كردستان. كانت بعثات تبشيرية قد قدمت من الغرب في القرن التاسع عشر لتخفف من قساوة عيش الآشوريين المسيحيين . كانت القبائل الكردية ونصف المستقرة في منطقة ريزاي ترهب هؤلاء الآشوريين باستمرار . وكان بعض المبشرين قد " استشهدوا " عندما خاضوا هذا النزاع وهو في أشده . ومع ذلك فقد نقل العديد من الغربيين اعجابهم بهؤلاء الأكراد الاباء والنزاعين الى الحرية ورفع القيود عن أنفسهم . على الرغم من وجود أمل ضعيف في استمالة المسلمين الى المسيحية ، فقد درس المبشرون الكردية وكتبوا قواعد اللغة . وقد تزوجت احدى المبشرات من كردي وقد كانت ممرضة ، ومكثت في مهاباد ، في حين غادر رفاقها . يمكن أن يشير اختيارها مثل هذه الحياة ، استغراب النساء الغربيات، ولا غرو ، فهن لم يذهبن الى كردستان .

## الفضل الثالث عشر

احب آن اصغي الى لفظ أصوات النساء، الكرديات . ليم  
أمل من الاستماع الى الاسطوانات المسجلة لهذه الاصوات حسنتي  
بعد ايام واسابيع وشهور، من اعاتتها ، بل كنت احن الى  
العودة الى هوالا النسوة ؛ صاحبات هذه الاصوات . كلما كنت  
اصفي الى الاشرطة التي سجلتها في ريزاي وفي القرى كنت ادرك  
خاصية اصوات النساء الكرديات : وهي لفظ ذو صوت خفيض ، يخرج  
من الحنجرة ، ، وغني لايشبه مطلقا ما تصبه عدة لغات بطقسة  
الصوت والخاصية المثلثية للصوت الانثوي . ليس فيه مايسمى  
بالصوت الخافت او المرتفع ، فالصوت ينبثق بكامل قوامه من  
الحنجرة . انه ليس مثل الصوت الحاد ، ذي النغم الرتيب للغه الفارسية  
او الشبيه بهمس الفتيات لبعض النساء الامريكيات . انها اصوات  
غساء عرفن المساواة ؛ فهذه الاصوات تنطق عن الخبرة والسيطرة على  
الذات . انهن يتحدثن عن حالات ولادة ، حالات موت ، عن الخرافات  
المعنة في القدم ، عن مجريات احداث حالية ، وعن الزواج ،

كنت قد اصفيت للاسطوانة التي سجلتها خديجة وهي  
تصف يوم زفافها لطفه احيانا كثيرة . ومع ذلك لم اصيغ  
اليها دون أن اتمنى لو أنني هناك حاليا ، او لو اني كنت  
هناك في كل من الماضي القريب لمشهد التسجيل الذي حضرت به ،  
وفي الماضي البعيد لمشهد الزفاف الذي لم اشهده أبدا . تُسمع  
من خلال التسجيل اصوات كوروس الشاي وهنسات اولاد زينب المضار  
في منزل الحاج وهو المكان الذي جرى فيه التسجيل . ولكن خديجة  
هي التي تملأ الشريط بصوتها الصادح ، الراضع ، بضحكتها  
وارتباكها عندما سئلت عن يوم زفافها وسعادتها لدى تذكر  
عظمتها . فتبدأ خادمة خديجة بتصحيح خطأ سيدتها التي ذكرت  
بأن خمسين وساطة نقل وصلت الى القرية عند بداية الافراح  
فتقبول .

- مائة سيارة وثلاثمائة ضيف .

تستمر الحفلة لمدة عشرة أيام بلياليها . وحسب  
أقوال خديجة وخادمتها وصبيان صغار لم يقم احد بأي عمل  
بل كانوا يرقصون ويرقصون فقط . سألت :

- هل الرجال والنساء يرقصون معا ؟ ام منفصلين ؟  
فأجابوا :

- بل يرقص الرجال والنساء معا .

تنبثق في خيالي صورة لصخب رائع . حيث يحلّق  
هؤلاء الاكراد الذين لم أرهم ، يغنون او يرقصون أبدا في لهو  
معربد صاصف . تحضر العروس من قريبتها ويمعد العريس الشباب  
إلى سطح منزله ويطلق النار من بندقيته ليعلن عن وصولها .  
تقول الخادمة :

- تاك ، تاك ، تاك .

ولكن انتظر . هناك ماسنضيفه الى القصة وهو ذو اهمية  
خاصة لخديجة . فقد اتضح انها ليست جزء من الحفلة بل انها  
مسببتها فحسب . لقد احضرت مغطاة بخمار أحمر من مسافة  
عدة كيلومترات من منزل والديها في الجبال الواقعة قرب الحدود  
العراقية الى قرية الحاج اسماعيل . وكالعادة بكى والداها  
بمزارة ، لأن ابنتهما أخذت منهما ولم يحضرا الزفاف . وكانت  
خديجة نغسها تبكي . لم تكن قد رأت طه أبدا الا في صورة له  
فحسب . ومع هذا ، فقد كانت قد خطبت للولد الأكبر للحاج العظيم  
لأن أحد أقاربها كان قد تزوج من فتاة من عائلة الحاج من قبل

تفتخر خديجة لحقيقة انها لم ترو طه أبدا قبل أن تحضر السن  
القرية . وهي فخورة بالانساب النبوية من الدولارات التي منحتها  
اياها مريم ، وذلك وفق التقليد الديني الموءدى امام الملا  
وهذه النقود لا بد من اعادتها اذا حلت رابطة الزواج والمعتيرة

أيضا كمهر لها . وقد دفع لوالدها حيث يمثل ثمن اطعام الفتاة الى أن تبلغ السن المناسب للزواج . كان الخوف والألم اللذان تجشمت خديجة عناءهما لدى أخذها معصوبة العينين وتسليمها لرجل غريب ، لتمنح نفسها له في قرية لم ترها من قبل أبدا قد تناسبا مع الفخامة التي رافقت ذلك . كان مهر العروسة ضخما ، والضيف كان يعد من اللامعين ، والعائلة التي كانت ستتزوج أحد أفرادها هي عائلة عريقة وقوية . وقد اكتشفت في وقت لاحق فقط ، انها كانت عائلة العدو وان خديجة وعلى نحو مغاير عن فتيات كرديات عديدات لم تتزوج من ابن عمها . وبدلا من ذلك فقد تزوجت من وريث عشيرة ضخمة كانت في حرب ناشطة مع قبيلتها ، عندما كانت لاتزال صغيرة قبل ما يقارب عشر سنوات . لماذا كانت خديجة سعيدة لهذه الدرجة وهي محاطة بأناس لم تعرفهم من قبل أبدا ؟ كانت قد اقحمت رسميا ولكن على نحو مفاجيء وسط محيط غريب لتقوم على خدمة حماة ولتسعد زوجا لم تختره أبدا . تعجبت كثيرا لامتلاء خديجة بالحياة وتحررها من الارتباك وسط جميع هؤلاء الناس الذين كان ممنوعا أن يفرغوها . مما لا ريب فيه أن خديجة كانت دمثة ، حسنة العشرة وهادئة في بدء تعاملها معهم . وبالإضافة الى ذلك ، كانت قد أنشئت وفق تربية لاتتوقع فيها زواجا بغير هذه الطريقة . ولكن شمة سبب شالك آخر لموافقة خديجة ، وهو الاكثر اهمية ، فهي الآن تقيم في ريزاي محاطة بكل وسائل الراحة وهو حياة المدينة التي كانت تحلم بها في القرية . لم يكن يعني لها الكثير أن الشلاجة في منزل الحاج اسماعيل هي معطوبة دائما ، فهناك مخازن ممتلئة بالاعذية تقع على بعد خطوات فقط من بابها الامامي . من يهتم اذا كانت الاضواء العارية ، المعلقة وسط كل حجرة مجرد مصابيح رديئة ، ذات اضواء خافتة ، وانها ذات اربعين واطا فقط ؟ ان الفرق بين المصباح الزيتية والكهربائية جعل اي قوة كهربائية معجزة . فبالنسبة لخديجة لم تعد هناك مطابخ معتمدة مكسوة بالسخام ، وتدور فوق النار لتجشم عندها .

لم يعد هناك مزيد من الغبار والحشرات . والاهم من ذلك كله انها تخلصت من المعاناة من الوحدة .

ربما كان التشابه الذي بيني وبين خديجة هو نتيجة لحقيقة ان تلك السنة كانت خاصة لكلينا ، فقد كانت بالنسبة لي تحقيق حلم استغرق سنوات من الاعداد له . وبالنسبة لخديجة كانت فرصة للعيش في المدينة . ولم تكن خاصة السنة حفيضة زواجنا الحديث ، بل بالاحرى الحياة التي ترثت عليه . فقسد منحني زواجي جواز سفر الى زاوية نائية من ارض بعيدة ، كنت سأغامر بالمجيء اليها لوحدني .

اما زواج خديجة فقد شكل لها انقادا موءقتا من القرية التي عرفتھا طوال حياتها . لقد كانت هذه سنة الحرية والاستكشاف وممارسة السلطة في منزل محتشد بالاطفال وبالزوار القرويين ، وبالنسبة لخديجة كانت هذه هي السنة التي ذهبت فيها الى السينما المحلية لمشاهدة افلام هندية وتحديث فيها من خارج النوافذ مع جاراتها وذهبت الى الحمامات العامة وتنقلت في الريف مع الامريكان . لم اعرف كيف وبأي سرعة سيمضي هذا الوقت بالنسبة لخديجة وما الذي هربت منه في الماضي ، وماذا ستواجه في المستقبل ؟ وهي ايضا فترة كانت فيها قراراتها نافذة المفعول ، لقد كانت بالنسبة لسكلبنا مغامرة بنحدينا .

كنت امضي معظم وقتي مع خديجة في حجرة الجلوس او حجرة النوم التي كانت هي وطه يتقاسمانها في الطابق الثاني من منزل الحاج اسماعيل . كانت حجرة النوم ، تلك الحجرة البهية المكتظة بألوان فوس قزح التي جلست فيها لأول مرة مع نساء الحاج اسماعيل ، تخص خديجة . كانت قد زينتها برقة ونسحت المناديل الملونة التي تعطي كل واجهة ، وقد اهديت اليها صور نسجية مزدانة بالرسوم ، حيث علقتها على الحائط .



ومن حسن حظ الكثير من سكان هذا المنزل ومنازل  
كردية اخرى ان سكان المدينة كانوا يتدفقون باتجاه القرية  
كلما اصبح الجو اكثر دفئا . وقد شعرت بالسعادة لأن خديجة  
كانت تقضي فترة الصيف في المدينة . كان زوجها ذو الاربع  
والعشرين سنة لا يزال طالبا . وكان قد آمن لنفسه عملا صيفيا  
في ريزاي . وعندما غادرت زينب مع الاطفال وانشغل الحـ  
اسماعيل اكثر بمحاصيله الزراعية ، بقيت خديجة في منزل  
شارع بهلوي ، وتقوم اسماء على خدمتها . كنا ثلاثتنا نجلس  
ونتحدث ونشرب الشاي . كانت خديجة تتحدث معي بعفوية وتلقائية  
كما لو انها تعرفني منذ سنين عديدة . كان واضحا انه لا يمكن  
لأي موضوع ان يزعجها . تحدثت عن تحديد النسل وعن حقيقة انها  
هي وطه قررا ألاينجبا طفلا مباشرة لأنه لم يبنه دراسته بعد . على  
الرغم من ان العديد من افراد العائلة كانوا يضغطون عليهم  
لإنجاب طفل حسب التقاليد . سألتني بخبث وهي تتحدث عن الجنس :

ـ مارغريت ، كم مرة في الاسبوع تستحمين ؟

فأجبت على نحو لم اشك فيه بشيء .

ـ لا أعرف ، مرة او مرتين .

فقلت وقد بدا عليها المكر والعبث :

ـ أما انا فأستحم يوميا .

انتابتنني حيرة لذلك ، لأنني نسيت ما اخبرني بـ  
رفاقي في فرقة السلام في مهاباد . فقد كانوا يذهبون الى  
الحمام العام في المدينة بسبب عدم وجود حمام في منزلهم . وبعد  
الفترة قصيرة ، عرفوا ان العامة المحليين كانوا يهتمون على نحو  
غير عادي بعدد المرات التي يذهب فيها الامريكان الى الحمامات .

اخبرتني خديجة عما كانوا قد تعلموه ، فقلت :

علبنا ان سأخذ حماما في كل مرة نقترب فيها من  
ارواحنا . كما اننا ابسأمنها عربضه ، لدرجة انها ترات كما

لو انها تكذب تعبيراتها عن-المواقف التي عرفت انه من المفروض ان تتخذها .

اقترحت خديجة ان نذهب جميعا الى البازار في احسب الايام التي زائرنا فيها امرأة من القرية . ولشعوري بالابتهاج للخروج من المنزل ، وافقت على مرافقتها في حملة تسويق ، كي تشتري المرأة الريفية بعض الاحذية . عدلت المرأتان الكرديتان سترتيهما أمام المرأة ، بينما كنت انتظر مستعدة مسبقا للخروج للشارع ، ببنتالي القطني الاصفر المفلح المتناسب مع سترة صفراء ذات ياقة عالية . لم نرغي الخارج سيارات اجيرة ، لذلك شرعنا في المشي ولكن خديجة بدأت تقلقني . قاعلة بأني سأتعب كثيرا . أكدت لها اني لن اتعب ولكنها استمرت في القلق . واكتشفت حالا حقيقة المسألة ، انها نفس مسألة اليسوم الذي تخلت فيه نازي عني . كان جميع الرجال الذين نمربهم يرمقونني بنظرات غرامية ، يضايقونني بأسئلة مزعجة وشيعرت المرأتان الكرديتان ، بالانزعاج بسبب اعتيادهما على لأبأالة الآخرين بسبب أغطيتهن . ولكنهما لم تتخليا عني . اسرعنا في حطانا اكثر فأكثر ، لذلك ، وصلنا البازار في زمن قصير جدا . كانت خديجة طوال الطريق تنقل نظرها من جانب لأخر منزعجة وتصدر التعليقات عن-كيفية تحديق الرجال . في .

ازداد الا نبتياه الموجه نحو المرأتين الكرديتين المغطاتين والمرأة الاجنبية المكسوة بالاصفر وشعرها السامر داخل البازار ذي السقف المقنطر . احتشد الناس حولنا ليحدثوا فينا والباعون يحاولون ان يوقفوهم عن ذلك . قدومي خديجة حجم الموقف بلمحة ذكية . ألقينا نظرات عابرة واصرت خديجة على ان تشتري لي قفاز حمام ليبقى ذكرى لهذه المناهسة . ومن ثم قادتنا خديجة الى سيارة اجرة منتظرة ، وبعد ذلك بآيام علقت على حقيقة أن :

- كل الرجال في الطريق كانوا يحدثون بمارهريت .

ولكن هذا التعليق ، كان مشار تساوئل اكثر منه استهجانا .

كانت حرية خديجة نسبية ومحدودة جدا بالمقارنة مع الحرية التي تسلم بها معظم النساء الغربيات ، فقد كانت تتصرف بموجب ضغوط وثقوب قاسية . فهي لم تكن تخرج دون مرافقة خاصة معها ، ودون حجة مقنعة . لم أربط أبدا بين ذهاب وايباب الحاج وقيام خديجة بالزيارات ، ولكن مما لا شك فيه ، أن زياراتها لمنزلي كانت تتوافق مع غيابها . وعلى أية حال فقد سرتني كثيرا أنها أخذت تدعو نفسها لمنزلي . كانت أحيانا تهتف لي مسبقا وعادة حوالي السادسة صباحا ، حيث كانت ساعتها المفضلة لتهتف لي فيها . وأحيانا تحضر مع أي كان من الحاضرين في منزل الحاج في اليوم الذي تزورني فيه . كانت خديجة تأخذ راحتها تماما لدى حضور زوجي أو أي مخلوق لا يوءمن جانبه في منزل المرأة الأجنبية ، بينما كانت خادمتها أسماء تبدو عصبية ، فقد كانت تلف سترتها وتشدها حول نفسها اكثر مما تفعله عندما تكون في الشارع ، بينما كانت خديجة تدع خمارها ينزلق عنها . ولكن أسماء لم تكن متزوجة بعد ، بينما كان عفاف خديجة قد بيع مرة وللأبد .

رافقت أخت خديجة " گلنام " الفاتنة ذات الخمس سنوات أختها لحفلات الشاي هذه في منزلي لفترة من الزمن . وقد أخبرتني خديجة أن عائلتها قد أرسلت گلنام من القرية لتبقى برفقتها في المدينة . كانوا قلقين بسبب اختهم الكبرى المعتادة على أن تكون محاطة بالعائلة أو بأناس آخرين في القرية وكانوا يخشون أن تهزل صحتها بسبب الفراغ الصيفي الذي يمكن أن تتجشمه في منزل الحاج اسماعيل في المدينة . سألت خديجة عما اذا كان والداها ، قد قاما بزيارتها ، فأجابت بالنفي ، فلكونها عروسا جديدة لم يكن يسمح لها بالعودة الى قريتها وروئية والديها الا بعد سنة على الأقل وبعد أن ينعم عليها زوجها بالموافقة على قيامها بزيارة العودة . وبدون هذه الموافقة يمكن أن تقضي بقية حياتها دون الذهاب الى منزل والديها ثانية .

لأنني أصبحت أقضي الكثير من الوقت مع خديجة ، فقد التقيت مصادفة زوجها طه الذي كان يبدو في مزاج حسن معظم الوقت ، مثل خديجة تماما ، بعد مجادلتي مع الحاج اسماعيل التي رفض فيها السماح لي بأخذ نسائه في رحلة طلبت من طه ، رسميا ان يأذن لي بأخذ زوجته الى اماكن شتى . وافق طه مباشرة وهو يقلد طريقي الرسمية ويريق يلعب في عينيه . كان طه مثل والده ساحرا ولكن كانت تنقصه قوة اعصاب والده وتزمته المحافظ . واطن ان حياة طه سهلة ، بالمقارنة مع حياة الحاج اسماعيل على الرغم من أن الراحة لم تكن تعني كل شيء مع والد متقلب المزاج مثل الحاج اسماعيل ، حيث اكتشفت في هذه الصفة موعرا . كان طه لا يزال يتمتع بامتيازات عديده لكونه الابن الاكبر . فقد اتفقت ثروة للحصول على عروس له . كانت له ولخديجة حجرة نوم خاصة ، حيث لا احد سوى طه والحاج الكبير يمكن ان يتباهيان بسريري قابلين للنقل في هذا المنزل . ان مشكلة طه الوحيدة هي في كيفية بـروزه وكيفية ان يصبح قويا . فقد كان لا يزال طالبا في الكلية بسبب الخدمة العسكرية والتأخير في الذهاب الى المدرسة . ولكن حتى لو لم يكن طالبا ، فقد بدا انه قد انعدمت لديه الوسيلة في المجتمع الكردي ، ليحرر نفسه من والديه .

عندما توقفنا أنا وجيرد عن العمل اخبرا اشترينا سيارة جديدة خاصة بنا ، ايرانية الصنع ، ذهبنا الى منزل الحاج اسماعيل لنحتفي بها . كنا نعرف ان من رغبات طه الملح هي اقتناء سيارة خاصة به . وقد نزل مباشرة ليتفحصها ويبيدي اعجابه بها بينما كانت خديجة تبتسم وهي واقفة امام مدخل الباب . منذ ذلك الحين ، شرعت خديجه بالتخطيط للامكنة التي سنذهب اليها في نهاية كل اسبوع .

كانت رحلتنا الاولى الى وادي يقع جنوب ريزاي ، حيث

يقوم الناس الذين لا يميلون الى الاحتشاد أو التجمع برحلاتهم اليه . اقترحنا أنا وجيرد القيام بالرحلة ، وجهزنا السيارة ، بينما عرفت خديجة وطه مرافقتهم لنا . كان هذا أول اختبار لنا في تسلية أصدقائنا الاكراد وبأسف وأسى أقول اننا فشلنا .

فالمخطأ الأول الذي ارتكبناه هو أننا تصورنا أن خديجة وطه هما وحدهما سيأتيان . لأننا دعوناها وحدهما . كنا قد تبادلنا الآراء حول الرحلة على أنها موءلفة من أربعة أشخاص ، ولكن عندما أتى صباح يوم الجمعة ، معد أخو خديجة الى سيارتنا ، وكان طالبا في الثانوية ، ولم أكن استسيغه أبدا - جاء - المقعد الخلفي المريح يعج بالازدحام ، مما تسبب في جعل المحرك يشد الى أقصى مدى ويقوة في المنحدرات الجبلية التي كنا نسيرها .

خطئي الثاني كان مرتبطا بالأول . فقد كنا قد اشترينا سندويشات كافية ومشروبات غير مسكرة لأربعة أشخاص فقط ، ليس أكثر . لم نقدر الدرس الذي تعلمناه من كل تلك الطاولات التي تعن تحت ثقل الاطعمة التي شاهدناها في حفلات الغذاء الايرانية فلا احد من الذين يستحقون لقب المضيف ، يقدم مقدار الطعام الكافي واللازم لعدد الضيوف المدعوين . فليس من المناسب أن تقدم ضعفي أو ثلاثة أضعاف مقدار الطعام الذي يمكن أن يتناوله الشخص فحسب بل أيضا أنت ملزم به .

خطأنا الاخير الذي لم يكن ممكنا لنا تجنبه ، كان معرفتنا الشيء القليل عن قواعد التشريفات وآداب المعاشرة بين المضيف والمضيف في كردستان . فقد وجدنا أنفسنا تقريبا ، منذ بداية ركوبنا السيارة الى حين عودتنا الى المدينة داخل هذه المحادثة الدورية وكنا نسأل :

- هل لنا أن " نقف هنا ؟ نأكل الآن ؟ نذهب هنـاك؟ الى آخره .

فيجيب ضيوفنا :

## ـ " كيفاته " .

وقد تعلمنا حالا قول " كيفاته " التي تعني كما تحبون .  
كان نتيجة هذا السلوك أن القرارات كانت توءجل الى أطول وقت  
ممكن الى أن نضطر جميعا وكالعادة الى خيار يكاد لا يرضي الجميع .  
تجولنا في الريف ، وقمنا بزيارة نبع من المفترض أن شيخا  
مبجلا كان مدفونا عنده ومن ثم ذهبنا الى مدينة كردية مغيـرة  
تدعى " شنو " واشترت خديجة من بازارها زوجا من المنسادل  
البلاستيكية بلون ارجواني باهت . وبعدئذ ظهرت المشكلة . فقد  
بدأنا نشعر بالجوع ، لذلك اقترحنا على ضيوفنا أن يختاروا  
مكانا لتأكل فيه . وبينما كنا نمر عبر عدد من البقاع الخالية  
الرائحة شعرت أنه ليس لدى هؤلاء الناس معايير خفية توجهه  
سلوكهم هذا .

كان الحماس ينقص قولهم " كيفاته " لكل مكان اقترحه ،  
وأخيرا عندما أتينا الى المكان الأول المحتشد بالناس مع  
دزينات من السيارات الواقفة ، اتخذت " كيفاته " خاصية مشوقة .  
أوقف جيرد السيارة ونزلنا منها ، وشرعنا بالسير ، كان المكان  
يعج بالحشود وتنتشر فيه ركام النفايات ، لدرجة أنه تطلب  
نا ان نمضي بعيدا حدا قبل أن نجد بقعة نظيفة لنجلس عليها . ولكن  
لدى جلوسنا هوجمنا بروائح كريهة لم تكن بالحسبان . ومرة  
ثانية مضينا ضمن حلقة " الكيفاته " قبل أن نقدر أن نتخذ  
قرارا جماعيا بالمغادرة .

عندما قدم لنا الغداء أخيرا كان كل شخص منا قد شعـر  
بالجوع لدرجة أن قلة السندويشات بدت واضحة وملحوظة الى حد  
أكبر مما لو كانت غير ذلك . كان الجميع ظمأنيين ومغبريين ،  
حتى أن جميع قناني الكوكا وكانوز البرتقال التي أحضرناها  
معنا ، لم تكف لأرواء عطشنا .

مضيت مع خديجة للبحث عن نبع ، وانضم اليها أخوها ، وعندما  
شاهدنا قطيع أغنام على سفح الجبل الذي كنا نتسلقه ، أمر على

أن التقط صورة للحيوانات وهو يحمل واحدة منها . وذكرني قائلًا:

- سيكون هذا ممتعًا حقًا في أمريكا .
- لقد رأوا الأغنام في أمريكا من قبل .

أجبتته بحدّة ، متمنية على نحو بغيض أن يتحول الى واحدة منها ، لكي لا يقدر على العودة معنا .

قررت أن أنتظر ، عندما بدأت خديجة بإشارة مخاوفي حول إمكانية وجود الأفاعي ، بينما واصل جيرد وطه وحدهما المضي الى النبع عند قعة التل . وعندما عادا ، وصفت خديجة ما رأته من وجبة الطعام الموهلفة من الكباب والبيرة التي تتناولها مجموعة من العجم . فحتى العجم قد تناولوا غذاء أفضل منا .

على الرغم من النقص الواضح في ضيافتنا ، أراد طه وخديجة وأخوها أن تستمر حملتنا أكثر . ولكن كل ما كنا نفكر فيه أننا وجيرد ، كان في كيفية عزل الأخ غير المرحب به ، وتركه في المدينة والانسحاب لبقية فترة العمر الى منزلنا الى حيـث الوفرة في الماء المتدفق النظيف ، حيث لم نجلب منه المقدار الكافي للشرب . وفي طريق عودتنا الى المدينة توقفتنا في إحدى محطات الاستراحة ذات الطراز القديم ، الواقعة الى جانب الطريق ، حيث يشكل علامة على أننا في الريف ، واشترينا كازوز البرتقال لكل واحد منا ، ولكنها كانت حلوة جدًا . وأخيرًا وصلنا ريسزاي وأنزلنا ضيوفنا من السيارة ومفينا .

لم تتضاءل رغبة طه وخديجة في القيام بنزهات في سيارتنا ، حتى بعد فشلنا ذلك . لذلك توجهنا في الجمعة التالية نحو البحيرة . كان الجو عليلًا ودافئًا . وبالطبع ما كان لأحد أن يسبح ، لأن فصل السباحة ما كان ليبدأ الا بعد شهر عديـدة . شرعنا أنا وخديجة في الحديث عن الخوف في الماء ، بينما جلس جيرد وطه فوق الصخور يشربان البيرة التي كنا قد أحضرناها معنا . رفضت خديجة أن تمس المشروبات الروحية ، وشربت أنا مقدارًا ضئيلًا منها على مرأى من نظرات طه المتسلية

الضاحكة ، والمشدوهة . لم يكن معظم أفراد القرية يتعاطون المشروبات ، ولكن القليل الذين كانوا يتعاطونها ، كانوا من الذكور .

أكد لنا الرجال أنهم سيتبعونا في الخوض في الماء ، لذلك مفيينا أنا وخديجة حول المنحني ، وبدأنا بخلع ملابسنا خلف بعض الصخور . وبينما كنا نخلع ملابسنا التحتية توقفت فجأة سيارة على الجرف المطل على شاطئنا الصخري ونزل منها زوجان مع طفلين ، وشرعوا بالمشي نحو البحيرة . وحتى قبل أن أدرك أنهم كانوا ناسا أعرفهم من الكلية ، بدأت بالنظر حولي ، باحثة على نحو يئس عن مأوى في الشاطئ الأجرد . كانت توجد صخرة ضخمة فقط ، ولم تكن توءمن لنا ستارا أفضل مما يوفره لنا الجرف . تصورت أن خديجة قد ذعرت ، ولكنني عندما نظرت إليها تصرفت بانفعال أكثر مما لو كانت فزعة . في الحقيقة بدت أقل ارتباكاً مني . بكثير . وعندما سمعت أن المرأة التي فوق الجرف أمريكية ، تملكها الفضول لدرجة أنها نسيت حالة العري التي كانت فيها . كانت المسافة بعيدة تماما ، حتى اني لم أتأكد فيما اذا كان يقدر الزوجان على أن يريا وجهينا ، ولكن ائضح انهما ادركا وجودنا لانهما اسرعا مع طفليهما بالعودة الى سيارتهما والسير بعيدا . وبعد ان خبرت البحيرة جيدا ، ادركت كم كنا محظوظين أن هؤلاء الناس اللطفاة - وليس بعض الاتراك - هم الذين فاجؤونا .

وعندما اصبحنا وحيدتين ثانية ، خرجت من خلف الصخرة التي كنا جاثمتين بقربها ، وارحت جسدي بالخوض في الماء المالح الدافئ . بدا الماء مبهجا ، الى ان رششت بعضا منه في عيني . خضنا انا وخديجة في ماء ضحل ، لما بقارب من العشرين دقيقة ومن ثم خرجنا .

جف الملح على شعرنا وجسدينا اللذين أبيضوا وتشكلت عليهما قشرة ملحية صلبة ، عندما عدنا ثانية واقتربنا من



المنحنى، حيث وجدناهما بكامل لباسهما بسدا انهما لم يعزما ابدا على الخوض في الماء . لم نستطع السير بالسرعة الكافية التي تناسبني الى المنزل . فقد شعرت أن مسامات جسدي تكاد تختنق. حاولت خديجة ان تراني عارية ، عندما نزلت هي وطه عند منزل الحاج اسماعيل ، حيث سألتني :

- الا ترغبين في الدخول واخذ حمام معي ؟

فأجبتها :

- لا ، شكرا .

اظهرت خديجة قمة جرأتها ، في يوم وافقت فيه على المجيء معي الى البحيرة ، وحيدة ، او بالاحرى وحيدة بقدر ماتستطيع . لم يأت طه معنا ، بل رافقتنا خادمتها أسماء وماراز ، وهي امرأة آشورية كانت قد اعتادت على التردد على منزل الحاج اسماعيل . استحمننا هذه المرة في الماء المالح ، واغتسلنا بماء عذب كنت قد احضرته معي في السيارة ، وبعدئذ توجهنا عائداً الى المدينة . وحالما توقفنا امام منزل الحاج اسماعيل ، بدا ان خديجة ترتعد خوفا وهي في مقعدها . وهمست بذعر :

- استمري في السير يا مرغريت ، استمري .

وحالما عبرنا المنزل ، نظرت خديجة خلفها وتنهدت براحة ، بصوت مرتفع عندما رأت ان اللاندروفر الذي توقفوا نا لم يكن لاندروفر الحاج اسماعيل . وهمست قائللة :

- كنت سأشعر بالخجل الشديد لو أن الحاج رأني .

حقيقه ان خديجة لم تكن تحتفظ بمخاوفها وافكارها وآرائها لنفسها . كانت ذات فائدة عظيمة لي . فبينما كانت الاخريات يبقيين صامتات ، اما بسبب الآداب العامة او بسبب الارتباك ، كانت خديجة تصرح بكل شيء . وبفضلها تعلمت الكثير عما هو مناسب بين الاكراد . عرفت في احد الايام ما كان يفكر به الجعفريون بضيفاتي من النساء الكرديات . فقد تحدثت عنهم

خديجة باحتقار وعن كيفية اغلاقهم بابهم الداخلي بعنف ، في كل مرة يرونها تصعد اليها . وفي يوم آخر علمت سبب تمنع مجموعة النساء في صورة لي ولجيرد ، كنت قد اريتها لهن فقد سمعت خديجة تدافع عني وتقول للاخريات :

- أن يد زوجها ليس حولت خصرها تماما . مارغريت لاتفعل ذلك .

ارتكبت مرة غلطة مروعة في سلوكي الاجتماعي هناك وذلك بأن قلبت فنجان شاي ضخم من البرسلان رأسا على عقب بدلا من أن يكون على جانبيه حدثت كل النساء في برعب مضحك وهن يرفضن اخباري عن حقيقة الخطأ . وقد اعلمتني خديجة من بينهن ان تلك هي علامة على أن المضيضة امرأة رديئة . بوجودي مع خديجة ، كنت محمية من أن اصبح دخيلة بالنساء الاخريات قد لاحظن ذلك عليها . فقد قالت امرأة اخي زوجها مستغربة :

- خديجة تحب مارغريت فعلا . انها تخبرها عن

كل شيء .

في المرات التي ذهبت فيها الى منزل الحاج اطلمت على دستان وسمعت الكثير عنها . فقد كان يأتي من ذلك المكان الغامض اشخاص مختلفون وذوو ملامح غريبة .

التقيت في احدى المرات بگل بهار ، العديمة الاسنان ، والداية العجوز التي كانت قد حضرت ولادة العديد من اولاد الحاج . وفي مرة اخرى تعرفت الى هاجر وكانت امرأة في بدايات الثلاثينات ، اتت الى المدينة لتقلع اسنانها المسوسة جميعها ، ولتفتح مكانها طقما من الاسنان المصنعة . وأيضا التقيت بالمرأة ذات الوشم الازرق ، والدة زوجة الحاج اسماعيل الخامسة ، وكذلك بعدد من النساء الاخريات لم اكن اعرفهن ابدا . ومن جهة اخرى وعلى مستوى مختلف تماما التقيت بنساء مثل ناديا كنسة مريم الاخرى ، ونسرين ابنة مريم الوحيدة . كانت هؤلاء النسوة

يأتين لبضعة أيام لرؤية الطبيب ، أو للذهاب في رحلة قصيرة في عمل مهم ، ومن ثم يجبرن على العودة الى القرية الى حيث حياتهن الحقيقية . اما حقيقة حياة خديجة السابقة فكانت تختلف قليلا . كان ذلك سبب سخريّة زينب وناديّة القاسية والمستمرّة من خديجة في ذلك الشتاء عندما اخذت على مضى الى القرية للعمل .

كنت افكر دائما بدعوة الحاج اسماعيل لنا الى دستان فمذ ذلك الحين لم اره لاتحدث اليه ثانية . ولكن خديجة وطه كانا ودودين معنا ، لدرجة شعرت فيها ان الحاج لايمكن أن يكون قد انزعج منا . ومع ذلك فلم يذكر احد شيئا عن الذهاب الى دستان . وفي احد ايام الجمع وفي فترة الظهيرة ، اشار طه الموضوع ، بعد ان تناولنا الغداء في بيتنا .  
- متى ستأتين الى دستان ؟

فقلت :

- لا اعرف . في الوقت الذي ترغبون فيه .  
- مارأيكما لو اننا نذهب في الاسبوع القادم ؟  
سأحاول ان استعير سيارة لاندروفر ، ويمكننا جميعا ان نمضي ظهر يوم الخميس .

فقلت :

- لا ارجب في ذلك كثيرا .  
لكن جيبرد لم ينفوه بشيء . وبعد ان غادرنا فيفانا ، قلت لجيبرد .  
- اليس ذلك شيء عظيم ؟ واخيرا سنذهب الى هناك .  
سأرى مريم والحاج اسماعيل كلهم . وبما أن الربيع قد حصل ، فان الجبال ستكون " كسكوشين " . تلفت حولي بسعادة وأنا افكر بذلك .

نظر الي جيبرد دون ان يبتسم وقال محذرا :  
- لاتعيري ذلك اهتماما كبيرا . لربما ينسى طه

ذلك . ولربما لن يقدر على استعارة لاندروفر . أوربمما انه يقول ذلك من باب آداب السلوك فقط . يمكن أن يحدث أي شيء من الآن حتى يوم الخميس القادم .

أولا لن ادع جيرد يشبط معنوياتي المرتفعة . فهو لا يعرف ، خديجة ومقدار صراحتها . فهي وبالقدر الذي اعرف لم تكن تتعامل بطريقة تلتزم فيها بالشكليات والآداب السلوكية التقليدية . كان جيرد ، الاكثر حساسية مني اتجاه الدعوات ، قد عانى من حالة سيئة من هذه الشكليات الخادعة . كان يكره ان يصدق احدا . وحالما اقترب اليوم ، اصبح جيرد اكثر تشككا ، وذلك تحسبا للموقف الذي يمكن ان يحدث . شعرت بالشك يتعاظم في تفكيري أنا ايضا . لم أكن متأكدة بعد من هذه العلاقات لأطردها من تفكيري . ففي لحظة احلم بالقربة وافكر بما سأرتديه هناك . وفيمن سأتحدث اليه . وفي لحظة اخرى اقرر في نفسي الا ابتهج كثيرا .

كان احد اسباب التشاوم لدى جيرد معرفته بأهمية هذه الرحلة بالنسبة لي . فهي ليست فترة ترفيحية كما حدث في مانوا ، التي لم استطع التحدث فيها بالكردية بأي وسيلة . لم تكن عائلة الحاج قد اصبحت وسيلة اتصالي بالاكراد فحسب ، بل أيضا اصبح افرادها اصدقاء المفضلين في ايران . واذا لم يعنوا هذه الدعوة بجدية ، فماذا اذن لي في ايران لأتطلع اليه ؟ وعندما اقبل اليوم الذي وعدنا فيسه طه بالمجيء لأخذنا جهزت نفسي على نحو يعوزه الحماس ودون ان اخصص الكثير من الوقت لذلك ، كان جيرد قد اضطجع ليأخذ سنة من النوم وقد غلبه الخوف مسن رفض آخر . هل كنا على وشك المضي في رحلتنا القصيرة الاولى للمكوث في قرية كردية أم لا ؟ كانت شقتنا جرداء ، صامتة ، بينما كنا ننتظر طنين جرس الطابق السفلي .

الجزء الثالث  
داحل كردستان

## الفصل الرابع عشر

- هذه هي كردستان ، يا مارغريت .

قالت ذلك نسرين ، أخت طه وابنة مريم الوحيدة . تتبعت بنظري القوس الذى رسمته بيدها ، عندما مدتها باندفاع لتشمل الوادى المستدير برمته ، كان قاع الوادى المجوف والجبال التي تشكل حوافه مغطاة بخضرة لطيفة . ان فصل الربيع هو الفصل المفضل لدى الأكراد ، فصل نوروز ، السنة الجديدة حيث تكون فيها الجبال في أتم خضرتها والقطعان تتكاثر بالمواليد الجديدة . سألتني نسرين على نحو أبدت فيه ازدراءها :

- انهم يطلقون على هذه المنطقة اسم أدريجان ، ماذا يعني ذلك ؟ هذه كردستان .

أشرت في كلمات نسرين حتى المميم في أرض لا يتحدث فيها أناسها بعلنية عن الاضطهاد الذى يمارس ضدهم . لم أكن أعرف بعد كم كان أكراد القرية وخصوصا نساؤها ، يمرحون عما يجول في فكرهم بحرية . ما قالته لي نسرين كان صحيحا لدرجة أنني اندهشت ان أحدا لم يقله من قبل . تطلق الحكومة الإيرانية اسم " كردستان " على مقاطعة صغيرة في إيران . وتقع جنوب مهاسباد تماما . تبدأ كردستان إيران الحقيقية على بعد أميال جنوب مقاطعة " كردستان " وتمتد بعيدا الى الشمال من مهاسباد ، حتى الحدود الروسية .

اذن ، لقد حضر طه ليناخذنا الى قرية والده ، وقد وصل مبكرا ، ووجدنا غير مستعدين بعد ، مما أوقعنا في الارتباك . ولكن ، وبما أنه طه المحب فقد انتظرنا طلق المحيا في القاعة الخالية من الاثاث ، بينما اسرعنا نحن للاستعداد للذهاب . صادفت فترة العصر تماما ، في الوقت الذي وصل فيه اللاندروفر وسائقه

جنبنا الى جنب مع خديجة وگلنام وابن عم طه وطه وجيرد وأنا .  
والشيء الاول الذي لاحظته كان الصمت المطبق . بعد ذلك ظهرت  
مريم مرحبة بي وبجيرد رسميا ومعانقه طه . وكالعادة كانت  
مكسوة باللون الازرق من فمها رأسها وحتى اخمص قدميها . اخذت  
اتصفح نسرين وهي فتاة قصيرة ، ممتلئة الجسم ، ذات حنك طويل  
بارز الى الامام وعينين ضاربتين الى الزرقاء كعيني والدتها تماما  
وقبل ان اعرف ماذا حصل لخديجة ، كانت قد اختفت وراء خلفية  
المنزل ولم ترى ثانية حتى وقت متأخر من ذلك المساء .

اقمنا انا وجيرد بسرعة في الفعاليات الرئيسية التي  
تؤدي للضيوف في القرية ، من شرب الشاي والجلوس والتحدث والتجول  
وعلى نحو تقريبي ضمن هذا الترتيب . اخذت نسرين على عاتقها  
مهمة السير معي في كل جولاتي ، بينما مضى جيرد مع الرجسالة .  
تجولنا أولا في الخارج امام منزل والدتها الواقع في مقدمة  
القرية كان يطل على مشهد فسيح وعريض من الوادي . تنزهنا  
متجولتين بين الاغنام والخراف والماعز والجداء المتبعثرة عبر  
منطقة رعي واسعة . كانت نسرين تجاهر بقلقها باستمرار ، بانها  
تتعبني ، لذلك عادت بي حالا لاحتساء المزيد من الشاي ، ولا أظن  
أن ساعة مرت دون قدح من الشاي على الاقل . فقد كنا ننظر  
في دفتر الصور الخاص بمريم ونحن نحتمي الشاي ، وكنا نتحدث  
ونحتمي المزهد منه ، جلسنا نحقق في بعضنا بصمت ونحن نشرب  
الشاي .

في آخر النهار ، حيث امتدت الظلال ، اخذتني نسرين في  
جولة اخرى ، افضت بنا الى القرية الحقيقية ، بأزقتها الترابية  
المكتظة بالسكان ، وجدراؤها الطينية . صادفنا الحاج اسماعيل  
وجها لوجه في بداية الرقاق الذي يشق القرية متلوها ، وكسان  
يتوحس منه المرء شرا على نحو غريب وهو يبذلته السوداء نلسك  
وهيئة المارعة النحيلة ، ولكن لم يكن ثمة ما ينبئ بالنسسر  
في عينيه للنس سعنا بالسعادة عندما رأنا . قال لي :

– أهلا وسهلا. هذه فريتك . تعالي الى هنا منى شئت .

شكرته ، وشعرت بالارتباك لكثافة معاني كلماته .  
وعندما غادرنا الحاج طفحت نسرين بالسعادة لهذا اللقاء المباشر  
بالخير مع والدها . ومن ثم كررت الكلمات لوالدتها واختها وابن  
عمها . خلقت لدي شعورا بأنها كانت نادرا ماتتحدث الى الحاج  
وانها كانت تنظر اليه باجلال كما لو انه ملك وليس والدا فحسب .

شققنا طريقنا عبر الزقاق الموءدي الى قلب القرية بهدوء  
وعلى بعد ميل تقريبا ، من منزل مريم . كان منزل الحجاج  
اسماعيل قد شيد فوق منحدر وعلى مسافة من منازل عامة القرويين .  
لم ادرك العظمة التي تضيفها عزلة ارستقرا طيبي دستان عليهم  
الا بعد ان حبرت اهتمام الاكراد ، القرويين العاديين، الففراء  
بهم . لم يكن مضيعونا اكثر الناس غنى ، هي قرية مزدهره نسبيا  
فحسب ، بل كانوا ايضا الاكثر ثراء في جميع انحاء كردستان .

عتمة الغسق جعلت كل شيء يبدو باليا واشد تعتيما مما  
هو عليه عندما تفرست في الممرات الضيقة المتعرجة بين الجدران  
الطينية المحيطة بالمنازل الطينية . ربما كان وقت النهار ، ولكني  
شعرت فجأة بالكآبة والغربة مثل زائر من المستقبل ، يشهد فسادة  
القرون الوسطى الممكن تفاديها . حيث مجموعة من النساء ، والاطفال  
يحمون حولهن وكانت نسرين وافقه في هذا الجو الطيني المعتمم  
مثل نجم في فستانها التفتته ، ذي اللون الكرمي . رد ،  
نسرين بابتهاج استجابة لتحياتهن الرسمية والتي يلوح فيهما  
الخضوع . اقتربت النساء الواحدة تلو الاخرى من نسرين ، امسكن  
يدها ، وقبلن ظهرها وانحنين حتى لامست يدها جباههن .  
تأملت هذا المشهد باندهاش بينما مضت النسوة بعد ذلك ، بعيدا ،  
نظرت الى احدهن كما لو انها تتساءل فيما اذا كنت انا ايضا  
جديرة بهذا الاحترام . ولكن اتضح انها فررت عكس ذلك .  
ولكني عندما ظهرت في دستان بملابس كردية بعد شهر من ذلك  
تقريبا كانت النساء يمسكن يدي ابصا ويفبلنها .



هذه النظرة الاولى المعتمدة لمنشأ القرية الاصلي ،  
افسدت المشهد الريفي الذي كنت قد تخيلته في ذهني عن دستان ،  
مضت فترة الظهيرة بسرعة في محادثات صباوية لانهاية لها ، وفي  
ابتسامات واسئلة وشاي يقدم فوق سجادة فارسية جميلة وجديدة ،  
حيث كنا جالستين مقابل جدران مبيضة ونوافذ ذات اطارات  
معدنية انيقة . لم افكر مليا بمسكن الخادومات في منزل مريم  
ومن كان يعتني فعليا بذلك القطيع الضخم من الاغنام المنتشرة  
في تلك المنطقة الرعوية . كنت قد آرهقت أيضا من حماس ونشاط  
نسرين ، فقد كانت قد اخذت على عاتقها دور المضيفة بمقدرة  
كافية لارشاد وتوجيه عشر نساء على الاقل ضمن انحاء قريتها .  
واصلت تساؤلاتي عما يمكن ان يكون قد حدث لخديجة . كنت  
اعرف ان جيرد يمضي وقته مع طه واولاد عمومته وبعض شـباب  
القرية . ماسبب وجود خديجة معي ومع نسرين ؟ شعرت بالراحة  
في نهاية المطاف عندما قادتني نسرين بعيدا عن القريــــــــــــة  
المظلمة واخذتني باتجاه منزل والدتها ، حيث استطعت ان أرى  
بصيص الضوء من الفوانيس المضاءة للنسوة . وبينما ذهبت الى حجرة  
الضيوف التي كنت قد امضيت الكثير من فترة العصر فيها ، غادرت  
نسرين الى مكان آخر . كانت الحجرة ممتلئة بالرجال والصبيان  
وكان من الموجودين جيرد وطه واخوان لطفه وابن عم طه رحيم .  
وكنـت انا المرأة الوحيدة هناك .

ثبط همتي شعوري بالارهاق عندما جلست اتحدث مع  
المضيفين واشرب الشاي . وعندما اشارت نسرين الى انني منهكة  
احتججت على ذلك . ولكن كان ذلك صحيحا فقد كنت تعبته جدا  
مع اننا لم نمض يوما واحدا بعد فقد قمت بجولات كثيره مع  
نسرين والالبسة التي كانت ترتديها نسرين لم تكن تصلح للتجول  
ابدا ربما كانت اللغة هي التي اتعبتني . فحتى الآن ولدى  
جلوسي مع جيرد ايضا كنت اتحدث بالكردي . ولكن ماتطلبه  
وجودنا هنا بالذات من الجهد قد اتعبنا اكثر من الجهد الذي كنا  
نبدله في التحدث بالكردي ، آخذين في اعتبارنا التناقضات

المبهمة ونتساءل دوما عما هو متوقع . والان وبعد ان حل الليل شعرت بالضيق لبعيد القرية . بدت المجموعة التي كانت تحيـط بنا اصغر واكثر هشاشة . وكأنها ستختفي بين ومضة من المصباح وخبوها . لاحت الجبال في الافق مجسمة اكثر ، لم استطع رؤية أي من الازواء البعيدة في السهل لدى تحديقي من خلال النافذة . كان الظلام والصمت المطبق قد غمر الطريق الذي سرنا عليه للوصول الى هنا . تشكل القرية في الليل ملجأ وتجمع كائنات بشرية لأخذ قسط من الراحة والدفء والضوء . ولكنني كنت حديثة العهد بالنسبة للقرية لانتزع منها هذا الشعور بالمواءزة . وكانت اقل غربة بقليل من صمت السهل المطبق فحسب . ظهرت فجأة مجموعة من الرجال عند سدخل حجرة مريم ، مد هـيـة لا ظلالهم عبر الارض . نهض الجميع عندهما دخل الحاج اسماعيل وحاشيته الى الحجرة . كن الحاج يبتسم ويصافحنا بحيوية ولهفه وحالما جلسنا جميعا ، لاحظت ان رجاله كانوا يحاولون متمدبن الا ينظروا الي . كان الحاج بفيص بجاهزية عالبة كالعادة ، وكان ممتلئا بالاسئلة والتعليقات الموجهة اليـنا . وما كان يهمه الى حد كبير هو اكتشافه عدم حلولنا ضيوفا عليه . لم اعرف في البداية ماكان يتحدث عنه ، مدستان هي قريته . ومريم هي زوجته وطه هو ابنه . وفي سلسلة التبعية فمن الموكد اننا ضيوفه هو ايضا . قال مشيرا :

— في منزلي كهـ . باء . في المرة القادمة التي ستأتيان فيها الى دستان ، يجب تمكثا معي .

أومأت برأسي على نحو مهذب ، متسائلة عن سبب وجود الكهرباء في منزله فقط ، ومندهشة اكثر لهذا الفصل بين الضيوف . لم اكن ادرك بعد اننا نخص مريم . ولم ادرك بعد كم كان مجيء الحاج الى هنا وراينا الى منزل مريم ذا اهمية عظيمة . لقد كانت حركة السير العادية بين المنزلين تصعد الى منزل الحاج فوق الهضبة ولاتنزل الى مريم في طرف السهل . لم يمض وقت طويل قبل أن تتلاشى فارسية جيرد عندما لاحست

على عينيه غشاوة تدريجية شبه رجائية نتيجة الارهاق . فاضطرت الى متابعة الحادثة مع الحاج الذي ابدى اعجابه لتمكني من الكردية ، بينما كنت اتلعثم خلال ذلك بسأم محاولة ان اتاح ماكسان يتحدث عنه . اراد الحاج ان يريني كيف علم نفسه كتابة اللغة الكردية بالحروف اللاتينية المستخدمة في التركية . نسخ الحروف على علبه سجائرة الامريكية ووعدني ان يكتب لي بحروف لغتي عندما اعود الى الولايات المتحدة . عندما كان الحاج يتحدث ، لم يكن احد ينيس ببت شفة ، ملقبن بذلك ثقل نصف المحادثة على كاهلي . ولكن هذه المرة لم أكن استطيع ان اركـز انتباهي جيدا ، على نحو مغاير عما كنت عليه في المدينة فقد كنت منهكة القوى لدرجة كبيرة .

اخيرا حضرت مريم الى مدخل الحجرة . و ارادت ان تعرف هل سأتناول عشائي مع الرجال ام مع النساء . وعندما لاحظت عدم قدرتي على الاجابة على هذا السؤال البسيط ، قادتني بسهولة الى الطرف الاخر من منزلها . على الرغم من ان المنزل كان مؤلفا من اربع حجرات فقط ، كل حجرتين في طرف ووراهما مخزان ، فان نصفي المنزل لم يتصلا من الداخل . قادتني الى حجرة نوم اخرى حيث كانت مريم وخديجة ونسرين وناديا يتأملنني وانا آلتهم الغذاء من الصينية الكبيرة الموضوعة امامي . وعلى الرغم من احتجاجي فانهن لم يقتربن من الطعام الى ان انتهيت منه . وبعد العشاء حاولن ان يرينني اشكال الرقص الكردي حيث وضعن شريطا مسجلا وشكلن صفا في الفراغ الضيق بين السرير المزدوج والجدار . وكنت لا اكاد اقدر على فتح عيني .

— مارغريت تعبه .

ابدت مريم ملاحظتها واسرعت باخراج الفتيات من حجرة النوم الى الطرف الآخر من المنزل ، حيث كان الحاج اسماعيل وبطانتسه قد غادروا لتوهم . اخرجت بندقية ضخمة بسرعة من تحت الفراش

المزدوج ومن ثم عدلته ثانية . وضعت خديجة طبقا كبيرا مسن  
الفواكة وطبفين صغيرين لخدمة المائدة ، مع سكينين للتقشير  
وابريق ماء وكأسن ومسجلة مع حافظة اشربة محبوكة فسوق  
عنية النافذة قرب الفراش . وحالما وضع كل شيء كما رغبتن  
تمنت لنا مضيفاتنا بقضاء ليلة سعيدة واغلقن الباب . تركنا  
انا وجيرد لوحدها ، لتأمل احداث وسب وجود تلك البندقية  
بما أن هذه كانت الليلة الاولى لوجودنا في القرية ، فقد كان  
تأثيرها علينا قليلا نسيا . كنا نعرف ان الحاج اسماعيل وابنه  
كانا صيادين متحمسين ولم يخطر ببالنا مباشرة ان هذه البندقية  
تخص مريم . فهي لاتذهب للصيد . وموعرا وبعد أن انتهت  
اقامتني في كردستان ادركت انني لم اكن اخطو عشر خطوات  
في القرية دون ان اكون مرافقة بأحد ما للحماية، والاهم من  
ذلك لم ننم ليلة واحدة دون وجود حارس يحرسنا . لم يكن الاكرا  
الابريانيون مسلحين من الناحية النظرية ، ولكن سيطرة الضائن  
الدموية وسفك الدماء جعل ذلك موضوع نقاش . ايا كان نوع  
القانون ، فقد كان واضحا ان العديد من الاكرا يقتنون اسلحة  
نارية .

نظرت الى الساعة الفخمة المعلقة على الجدار وكانت  
تشير الى التاسعة والنصف . وفجأة لم أعد أشعر بالتعب . تناهي  
الى سمعي في الجانب الآخر من المنزل احاديث وقهقهات ، ونظرت  
خارجا من خلال نافذتنا الى حزم الضوء المنبعثة من نوافس  
حجرة نوم ناديا . لم يكن السرير طويلا بما فيه الكفاية لجيرد  
ليتمدد بكامل طوله . وكان كل شيء يتدلى مثل ارجوحس  
شكية ، حاولت المضي للنوم ، لمعرفة مدى التعب الذي سأتجشمه  
في اليوم التالي . وبعد نوم متقطع وقلق استيقظت على فجر بارد  
اخضر ، سديمي يمتد بعيدا حتى اطراف الجبال . تلاش شعوري  
بالنعاس عندما سمعت سقسقة الطيور من خلال النافذة المفتوحه .  
وحالا وصلت خادمة الى الباب وهي تحمل طبق المنيوم مستدير  
ضخم ممتلئ . بطعام الفطور المكون من الخبز الطازج المنبسط

المصنوع من القمح الخالص مع جنبه بيضاء ولبن خاشر وعسل  
وكوؤوس من الحليب الحار التي يتصاعد منه البخار . حضر رحيم  
ليبقى برفقتنا وحالا بدأ يوم جديد . جاءت نسرين بعد الفطور  
لتأخذني لألتقي بأختها امينسه .

بعد مشي مايقارب ربع ميل صودا نحو الهضبة ،  
افتربنا من المنزل من خلفيته و سرتنا نحو موقع حجرة الحريم .  
لم ارى في هذه المرة الجدار ذا العشرين قدما الذي يفصل حجرة  
الحريم من حيوان خانة الحاج اسماعيل ، حجرة الجلوس تلك ،  
الطويلة والمعتمه المبنية جانبا ، للرجال الذين يقومون  
بزيارة القرية . رأيت هذه المرة فقط خادمة مرتدية على نحو  
بلوح فيه الفقر واضحا وهي تجد مع مجموعة اواني كبيسة ،  
معدنية وزيتية المظهر ، مدعمة بركائز عند الحنفيات خلف  
المنزل . صعدنا انا ونسرين الدرجات الصلبة عند مدخل حجرة  
الحريم وخطونا فوق قشور خيار وبرتقال مرمية بالقرب من كلب  
رعي ضخم في القاعة المعتمه . وبعدئذ افلتت نسرين بسدي  
عندما توقفنا كلانا لنخلع احدثنا امام الباب المعدني. نهضت  
نصف دزينة من النساء لدى دخولنا بقبت المرأة الثقيلة المقعدة  
التي تذكرتها وبغموض منذ ذلك اليوم البعيد ، في حجرة جلوس  
مريم ، جالسة فوق سجادة وعكازها الى جانبها . حيث نسرين  
اولا المرأة الاكبر سنا ومدت عنقها الى الامام باتجاهي  
وابتسامه تجعد ثنايا وجهها . فهمت اخيرا ان المرأة ذات  
العكاز هي سوس خانم والدة عائشة . وامينه الطويلة القامة  
ذات الشعر الاسود والعينين الرماديتين التي عرفتها نسرين التي  
كانت اخت عائشة الصغرى ، وكذلك اخت نسرين بما أن اللغة  
الكردية لاتفرق بين الاخت الشقيقة والاخت .

عندما جلستُ جلستُ جميع النساء ، بدأن بسواء فيمما  
اذا احببت القرية أم لا. وهذا السواء كان يتردد على شفاه  
نسرين اكثر من الجميع بما انها قد دارت بي في انحاءها



على تحمل الكدر . حاولت امينه بين فينه واخرى أن تفسح المجال لقول كلمة او اخرى ولكنها فشلت . استمرت آلال ابنة اخ الحاج - ذات المظهر الطائش في القهقهة والذهب يتلألا ، في ثغرها ذى الخمسة عشر ربيعا . فهمت من هذا أن نسرين معتادة على عقد مجالس كهذه في حجرة جلوس سوسن ، وتساءلت عن شعور اختها الصغرى وابنة عمها نحوها .

صرحت لي نسرين موعخرا ، عندما أتت الى ريزاي في زيارة، انه ليس لديها مديقات في القرية .

- ماذا تعنين ؟

سألته وأنا أفكر بالوقت الذى تقضيه مع أمينة وآلال .

- ماذا عن اختك وابنة عمك ؟

فأجبت بازدراء :

- أوه ، انهما ليستا مديقتي . كيف يمكن لأمينة أن تكون مديقتي .

ولكني خلال زيارتي الاولى لدستان لم أستطع أن أكثّن رأيا من هذا التوتر في علاقتهن . كان العمل العدائي الذي شعرت به آنشد ، هو التنافس على امتلاكى ، أنا الزائرة . كانت نسرين قد كسبت النزاع مسبقا ، ووضعت يدها علي ، لأنه كان واضحا للجميع أنني ضيفة مريم ولست ضيفة حريم الحاج اسماعيل . عندما ناشدتنا سوسن على نحو مشير للشفقة ، للبقاء لتناول وجبة غذاء الظهر ، كانت نسرين حاسمة تقريبا بالطريقة التي نهضت فيها وأخذت بيدي نازلة فوق الهضبة باتجاه منزل والدتها .

تساءلت فيما اذا كانت أهمية نسرين تنبع جرفيا من حقيقة كونها ابنة مريم . لقد عاشت مريم في السنتين الاخيرتين منفصلة من جناح الحريم المشير للملل . بدا في وقت زيارتنا أن مجموعة من الابنيسية تنشأ في دستان . حيث كانت كلاويز ، اخت الحاج اسماعيل ستنتقل الى خارج مساكن

النساء المشاعة في ذلك الصنف . كنت متأكدة تماما ممن أن سوسن كانت ترغب بالمفادرة هي ايضا ، ولكن ليس بيدها حيلة ، فهي عجوز مسنة ومريضة جدا . وبما انها لم تنجب اولادا وبالنتيجة لم يكن لديها كنائن ، فقد كانت تعتمد على الزوجات الشاباتي بطبخن لها . يمكن فقط للنساء اللواتي لديهن اولاد شباب مثل مريم ان يسكنن وحدهن وهذا فقط ماسيبدو معقولا .

لم يد لي أحد على عجل في تجهيز نفسه على الرغم من انني سمعت انهم سبأخذوننا في رحلة الى نبع حار في الانحاء القريبة . قدم لنا في البداية غذاء عامر ، وافر ، ومن ثم شعرنا بالنعاس . واخيرا اتضح اننا سنصعد الى اللاندروفر . وبما انني كنت قد تناولت غذائي مع الرجال والصبيان ، لم أر النساء لفترة ، لذلك عندما صادفت خديجة في جانب المننزل ، سألتها فيما اذا كانت ذاهبه هي ايضا الى النبع الحار . فقالت وهي تبتمس :

— لاظن ذلك يمارغريت .

— ولكن لم لا ؟

تلاشت هذه العبارة على شفاهي ، بينما اختعت ثابئة وراء المنزل في مكان ، أظن انه المطبخ .

عندما حان الوقت ، اتضح ان جيرد وطه ورحيم ، وأحد اخوة طه الصغار وأمينه ونسرين وأنا فقط كنا ذاهبين . أخذنا طه بندقته المنقشة وعلق حزاما عريضا من الرصاص حول صدره ، كانت نسرين تقفر من الفرحة جيئة وذهابا ، عندما بدأنا بالخروج متتبعين الطريق والسلك الكهربائي باتجاه الحدود العراقية ؛ تساءلت بصوت عال فيما اذا كانت كهرباء الحاج اسماعيل تستمد من هذه الاسلاك ، ولكن الجواب من طه كان انه لا يسمح لأي قريبة ان تستمد من هذه الطاقة . وأن استخدامها والافادة منها يقتصر على الجيش المتمركز على الحدود فقط . كانت كهرباء الحاج



اسماعيل مجهزة بمولد يعمل بقوة مادة نפטية .  
قبل ان نغادر بساعة او ساعتين كانت نسرين وامينة  
تتحدثان عن هذه النزاهه ، كما لو انها نزهتهما الوحيدة لهذته  
السنة . فقد انفجرتا بالحديث عن اوهام مع بعضهما ومعني عن  
توقعهما مدى روعة هذه الرحلة . كنت اشك في ذلك ولكن " درمان  
آفا " والتي تعني حرفيا - الماء الشافي- كانت لافتة للنظر  
اكثر مما تصورت بكثير .

كان جزء من جمالها يكمن في حقيقة انها لم تـمسس  
تقريبا ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان علينا ان نعبر بحرا مكشوفنا  
من الوحل لكي نصل الى هذا الممر الضيق الذي يقطعه نهر يجري من  
خلال صخرة صلبه . وقد نجح اللاندروفر بعبورها بصعوبة . ولكن  
المشهد وحده كان يستحق السير نحوه . كان لون النهر اخضر  
باهتا وقد زاد على ذلك الخضرة القليلة المحيطة بنا . بدا الماء  
دافئا لذيذا عندما تسلقت الجرف الصغير لأضع يدي في احسدى  
البرك المتدفقة . اخذت نسرين وامينه بيدي ومضينا نتجول فسي  
انحاء النبع . كانتا تـبديان قلقهما باستمرار على اني قد  
تعبت . فكرت في سبب قلقهما وقررت انه يمكن أن يكون جـبرا  
انسحابنا في وقت مبكر جدا في الليلة الفاشلة ، عدا ان نسرين  
كانت تفترض انني متعبة منذ اللحظة التي وصلت فيها الى دسـستان .  
ربما كان ذلك سبب ارهاقي الشديد . ومن عادة الاكراد ان يفكروا  
في حتمية شعور الضيف بالتعب لانه ليس معتادا على الجبال .

حالما مضى الرجال الذين سبقونا الى النبع كيفت خطواتي  
مع نسرين وامينة وتوقفت معهن عندما تحدثنا مع عائلة بسدا  
انهادت عسكرت تحت صخرة بجانب الجرف . كانت هؤلاء النساء  
مرتديات لباسا غريبا وحلى ذهبية مثل الاكراد . تصورت انهم  
لاجئون عراقيون غير مسجلين لدى السلطات المحلية ، ولكن ، عندما  
سألت مضيفتي عن امرهم ، أبلغتني انهم مجم . فكرت في نفسي  
انه من الغريب ان يتحدث العجم بالكرديسـة ولكنني لسم  
ألاحق الموضوع .

كان رجلان آخران جاشمين ، بدأ بوضوح انهما كرديان  
بشلواريهما الفضفاضين وعمامتيهما ، كانا جاشمين على صخرة  
اخرى يبدخان السجائر ويراقباننا . استغربت لكيفية وزمن  
وصول هؤلاء الناس . فقد كانت سيارتنا اللاندروفر هي وسيلة  
النقل الوحيدة التي ترى على مرمى البصر .

شرع طه فيالميد جديا ، ودوت الطلقات عاليا . ركضت  
الفتاتان لتراقبان آخا طه الاصفر حسين وهو يخوض حتى وسط  
بنطاله الجينز المستورد . وقد ابتهجت لدى اكتشافي ان بنطاله  
الداخلي هو شلوار طويل من الموسلين ، متجمع عند الكاحلين ،  
بينما كانت الفتاتان ملتفتين من قمة رأسيهما حتى اخمص  
قدميهما . بالملابس الكردية التقليدية ، كان الرجال الثلاثة  
جميعهم مكسوين بملابس مريحة اكثر من الطراز الغربي ، العملي .  
كانت اللغة واللباس الداخلي فقط يحددان هويتهم على انهم  
اكرد .

رجتني أمينه ونسرين ان اطلب من طه ان يأخذنا جميعا  
الى معسكر اللاجئين الاكرد قبل أن يتم رحلة صيده فيفوت  
علينا هذه الفرصة . لمحنا أسف شكنات المعسكر المعدنيـة  
الواسعة وهي تلمع من على بعد مسافة بجانب القمم الجبليـة  
المكتسية بالثلوج . عندما انعطفنا عن الطريق الرئيسي الموادي  
الى حقل موحل . ونحن نتجه نحو درمان آفا وقد رغبت أننا  
أيضا في روية المعسكر ولكنني لم افكر ان ذلك ممكن فقلت  
وقد لاح فضول في كلامي :

– لماذا لاتطلبان ذلك منه بنفسكما ؟

– لن يأخذنا من أجلنا ، ولكن لو طلبت انت ذلك

يامارغريت فأنا متأكدة انه سيأخذنا .

وافقت ان اطلب منه ذلك لأجلي بقدر ما لأجل نسرين  
وامينة . في صباح اليوم الفاتت كانت نسرين تحلم بالسـبير

الى العراق على ظهر حصان برزاني ، وهو يبرعى في دستان تماما .  
بأحلام كهذه ماذا يمكن أن يكون أكثر اشارة من روعية بعض  
الرجال اللاجئيين المعاقين داخل المعسكر ؟

قدم حسين طيور الحجل المصطادة لظه الذي وضعها  
على الارض . ابتسم استجابة لكلمات المجاملة العديدة التي  
صدرت عن اختيه وسأل :

— ماذا سنفعل الآن ؟ ربما علي ان احصل على  
المزيد من الطيور ؟

سرت لان نسرين أعطتني المبرر لأقترح انهاء هذا الصيد ،  
فسألته :

— هل تظن انه يمكننا ان نسير بمحاذاة زيو  
وان نلقي نظرة على المعسكر ؟ فأجاب طه :

— طبعاً ، اذا كان ذلك ماترغبين القيام به ؟  
ارتسمت لذلك ابتسامتان عريختان على وجهي نسرين وامينه  
سرنا بهدوء نحو السيارة ونسرين تتمتع بامتياز حمل الطيور  
الميته . عندما وصلنا الى الطريق الرئيسية ، اتجه طه نحو  
الاسقف المعدنية . كان باستطاعتي ان اسمع امينه ونسرين وهما  
تتهامسان بابتهاج في خلفية سيارة اللاندروفر .

بعد كل مداولات السافاك ، عما اذا كان سيسمح لي  
بزيارة زيوه ام لا ، لم أقدر أن اصدق اننا سندخل المعسكر  
بهذه السهولة فعلاً . لم تكن ثمة اسبجة ولا حراس . عبرنا  
بسهولة جسراً صلباً ووجدنا انفسنا في طريق مع صفوف الشكنات  
الضيقة في أحد الجوانب وخيم الجيش في الجانب الاخر . كان يقف  
بجانب الشكنات نساء وأطفال باليسة كردية ، بينما كانت زمرة  
من الرجال قد اجتمعت أمام ما تضح فيما بعد انه مطعم .  
بدأت بالتقاط صور من خلال النافذة وقد امتع ذلك طه كثيراً . ولم  
يبداً خائفاً من السافاك على الاطلاق . تقدم رجل باليسة

كردية وحياء من خلال النافذه وأخيرا بعد عدة دقائق تقاسم جندي وسأل طه عما نفعله هناك . أخفيت آلة التصوير بسرعة وأجاب طه بأننا عابرو سبيل فحسب . كان الطريق المار عبر المعسكر هو الشريان الرئيسي للمواصلات من الشمال الى الجنوب ففي غرب ادربيجان الكردية . لوح لنا الجندي بيديه وعندما نظرت خلفي ، تلالأت الشكنات ثانية تحت ضوء الشمس . ولكنها ظهرت مغبرة وموحشة عندما كنا بالقرب منها .

مضت بقية فترة العصر بسرعة وبمزيد من الشاي والحديث في منزل مريم . وعندما آن أوان الرحيل ، ظهرت خديجة من وراء المطبخ أخيرا . كانت قد قضت معظم نهاية الاسبوع وهي تطبخ وتقوم بالأعمال المنزلية الروتينية غير المحببة لحماتها. تجمع بقية أفراد فريقنا عندما حضر الحاج اسماعيل متخبطا وهو يهبط الهضبة في سيارته اللاندروفر ليأخذنا ويعود بنا جميعا الى المدينة . وبعد أن وصلنا الطريق العام الحكومسي تماما خطا شرطي من مخفر الدرك الواقع قرب دستان نحونا على الطريق ، وأشار الينا بالوقوف وسأل مشيرا نحونا :

— من هو الـ ؟

فأجاب الحاج اسماعيل :

— أنهما ضيفاي .

أوماً الدركي برأسه وتراجع القهقري ، وواصلنا السير في طريقنا .

كان الضوء المنور للطريق يبهت رويدا رويدا ، وبدأ الحاج تعباً . وبقي ينظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين ، ومن ثم يفتحهما على وسعهما ، كما لو أنه لم يكن يستطيع الرومية . كان الطريق في بداية باند مكنتا بسيارات سكان المدينة الذين قضا يومهم قرب وسائل نقلهم ، وعلى نحو عرضي في الهوا ٦ الطلق خلف باند تماما كان هناك متسع كاف من المكان لكل شخص ليفترشه ، ولكن مثلما ذكرتني نسرين ذلك المكان هو كردستان ، وليس للعجم مكان فيه .

رجونا أيضا وجيرد الحاج اسماعيل أن ينزلنا على بعد عدة مبان قبل أن نصل الى منزلنا ، بما أننا قد تعرفنا جيدا على الشكليات التقليدية الملازمة لهذه المناسبة . فقد كنا قد رأينا لمرات عديدة ان الايرانيين يقفزون فعلا من سيارات متحركة محاولين انقاذ السائق من بذل المزيد من الجهد لأخذهم الى المنزل تماما . ولكن كان واضحا أن الحجاج لن يتوقف الى أن يطمئن الى أننا امام منزلنا . ارشدنا مكرهين الى فناء دارنا حيث نزل من سيارته لكي يصفحنا . ومن ثم امر طه ان يقدم لنا اثنين من طيور الحجل التي كان قد اصطادها . ولكنه عندما حملها ليقدّمها لنا ، رفضنا أن نأخذ هذه الطيور البالغة الصغر ، ليس من منطلق سلوك " التعسرفا" التقليدي ، بل لاننا لم نكن نرغب فيها أصلا . على كل حال، أصر الحاج على أن نأخذها . فبالاستناد الى سلوكنا السابق ظننا أننا نفعل ذلك لمجرد انه سلوك مهذب نسلكه معه . وبعد أخذ وعطاء معه ، استمر الحاج اسماعيل في رفضه تصديق اننا كنا نرد مثل هذا الخيار مراعاة للذوق واننا من جهة اخرى لم نكن نرغب في نتف واخراج احشاء هذه الاجساد الصغيرة من أجمل قليل من لحم الطير . واخيرا قال جيرد :

- ان اعطاءنا طيور الحجل هذه هو مثل الفاشا فسي المزيلة ، فنحن لن نأكلها .

بدا الحاج اسماعيل مذهولا ولكنه عاد الى وضعه السوي حالا . لقد كنا غرباء ، وقد قبل منا ذلك . وقبل أن يسبر مبتعدا تمنى لنا قضاء ليلة سعيدة وعودة سريعة الى قريته . بقيت اتقاد وداعه الحار و وداعات البقية في السيارة ، و وداعات نسرين ومريم المحبة مند مغادرتنا القرية وحسن الضيافة الذي استمتعنا به في دستان ، بقي كل ذلك معنا الى أن وصلنا أمام باب دارنا . ومن ثم اكتشفنا ان الباب مقفل من الداخل واننا قد بقينا خارجا .

كنا نقتني مفاتيح لبوابة الفناء ولباب شقتنا فسي الطابق العلوي فقط . لم نجد الباب الامامي للبناية مغلقا أبدا خلال أشهر اقامتنا في ريزاي كلها . ولكن لم يحدث أن كان هوشغ وشهزاد في الخارج . كانت اخت هوشغ الكبرى قد حلت محلهم لتعتني بالشقة والطفلين . كانت تلمح بغموض وفي أكثر من مناسبة الى جميع الجرائم في المدينة ، لذلك لم تعد أبواب الفناء والشقة تترك مواربه كما كانت لدى وجود شهزاد في المنزل . أما الآن فقد اغلقت العمدة باب البناية الامامي بمفتاح لم نكن نعلم بوجوده . وبما أن منزلنا لم يكن مضاعف ، فقد ظننا انها قد رحلت الى مكان ما ، وربما لوقت طويل .

تجولنا في البداية في الزقاق بحشا عنها . ومن ثم مكثنا ننتظر عودتها ببساطة وقد انهكنا التعب في الساحة المظلمة . وأخيرا عادت والطفلان في رعايتها ، دون ان تقدم لنا أي اعتذار عندما اوضحنا لها انها قد اغلقت الباب وتركتنا خارجا . كان تعاملنا معا أقل من أن يكون عداً علينا بقليل ، لذا فقد عهد جيرد الى الطابق العلوي مباشرة ، تفاديا للمزيد من المناقشة . وحالما فتحت باب شقة الجعفرين قالت لي العمه وللمرة العاشرة أو مايقاربها منذ ان التقينا " بفرمايبسد، خانم " رجاء تفضلي بالدخول لتناول الشاي .

منذما كانت تقوم بهذه الدعوة من قبل ، كنت اتفادى قبولها دون مغرفة مني فيما اذا كانت تعنيها حقاً أم لا . ولكن هذه الليلة كنت في حاجة لبعض الشاي وبالإضافة الى ذلك لم ارد ان ارفض دعوتها وان ابدو غير ودودة اكثر بعد المحادثة المنفصلة من القفل . قبلت الدعوة دون ان افكر في حقيقة ان المرأة كانت خارج المنزل وان السماور من الممكن الا يكون ساخنا . وحالما دخلت الردهة معها ، وقلت وهي تنظر الي دون ان تدعوني للجلوس واخيرا قالت :

— رجاء تفضلي بالجلوس .

بعد ذلك مضت الى المطبخ . وعندما عادت ناولتني تفاححة  
طرية ضخمة وقالت :

- هذه من بستان عمي . يجب أن احمم الطفل .

حصلت وقفة قصيرة فظة ، ادركت فيها ببطء انها  
تصرفني بذلك وان التفاححة هي تعويض عن الشاي الذي عرضته علي  
والذي لم تعني ان اقبله من المرة الاولى . على الاطلاق . نهضت  
بسرعة ممسكة بالتفاححة و وجهي يتوهج من الانفعال . ونجحت في  
مياغة بعض الكلمات وقلت :

- اعذريني ، على أن امضي الآن . ليلة سعيدة .

فردت خلفي :

- ليلة سعيدة خانم .

عندما قفلت عائدة الى الطابق العلوي ممسكة بالتفاححة ،  
لم أفهم في البداية كيف ارتكبت مثل هذا الخطأ . متى كانت  
المرة الاخيرة التي قبلت فيها دعوة بمعناها الظاهري ونسيت  
آن اعطي الشخص الذي دعاني فرصة لقبول رفضي على نحو لبق ؟  
بعندئذ ، ادركت حليقة المشكلة . كنت قد قضيت اليوميين  
الاخيرين مع الاكراد في كردستان . وهي بلد آخر وذو مستوى  
ثقافي آخر فهناك كانت كل دعوة ، كل وجبة فداء تدمم  
بتأكيد قوي للقبول . وفي طريقنا للمنزل اوقعنا الحاج في  
حيرة اوربما ارتكبنا خطأ بحقه ، برفضنا الشبيه بالتمسك  
بالشكليات والرسميات التقليدية ولم يدرك كم كنا مضطربين  
ومن جهة ، ارتكبنا خطأ ممارسة نظام الشكليات مع الاكراد  
ومن جهة اخرى نسينا ان نستخدمها مع الفرس والأتراك . حينئذ  
توجب علينا اكثر من أي وقت آخر ان نسأل انفسنا الى  
من ننتمي في ابران ؟ فقد عرض علينا مكان في كردستان  
لقد قالها الحاج :

- هذه قريتك .

ومع ذلك مكثنا في ريزاي . لقد كان عملنا هناك . ومنزلنا

كان هناك . ولم اكن متأكدة تماما من انني مستعدة للانتقال الى القرية الا في بعض خيالاتي المجهددة .

كانت الحرب الايرانية الواسعة ، غير المعلنة قد غمرتنا على الرغم من جهودنا المبكرة لتفاديها . لقد كنا في وفست ما غرباء كليا ، نمضي هنا وهناك ببراءة وجهل وبين فينة واخرى نقضي الوقت مع الاكراد اذا استطعنا ان نجدهم واحيانا نعقد علاقات اجتماعية مع ايرانيين آخرين اذا دعينا فعلا او قبلوا دعواتنا . لقد شارفت فترة سدا جننا وعدم قدوم الاصدقاء الى عتبة دارنا على الانتهاء .

– هل لديك اصدفاء من العجم ؟

سألتنى خديجة هذا السؤال وهي تضيق عينيهما في اكثر ممن مناسبة :

– لماذا تذهبين الى القرى الكردية ؟ انها اماكن

مشيرة للاشمزاز والغرف .

ارادت والدة شهرزاد ان تعرف ، فسألتنى ذلك . لم يكن مفهوما بالنسبة للاثراك المتمدنين اننا ، نحن الامريكيان المثقفين نختار رفقة قرويين وسخين ومخلفين . ومع ذلك فقد خلصنا الى رأي مفاده ان الاكراد او على الاقل الحجاج اسماعيل وعائلته يتصرفون بغرابة أقل من الايرانيين . أن غياب نظام الشكليات والتأكيد على الشرف الشخصي والاهم من هذا وذاك الافتخار العرقي هو الذي يميز الاكراد عن معظم الايرانيين الذين التقينا بهم . ربما كانت ميزة الافتخار هي الغالبية . ان الاكراد اوبالاحرى ، اكراد القرى الحقيقيون ، لم يشعروا بعد بحاجة الى تقليد الغرب ، لذا فقد قابلونا كأنداد دون استياء ولكني لا اقوى على التغاضي عن هذا الصراع سيسر بتلك التعميمات المرفقة التي سبق الحديث عنها . كنت على وشك اكتشاف القرى الكردية التي لا يشعرون بها فيها بنبيء سوى ب " الاخرى " وكان لا يزال يوجد بعض الاتراك والفرس ممن رغبت فيهم كصداق لي .



لم تحل المسألة قط . لقد كان الحقد والخوف رابضين  
هناك لقرون قبل وصولي لهذا المشهد ، ولم اتعلم قط كيفية تقبله  
كنت امتقد اني قد اتيت الى بلد واحد ، بينما كنت في الحقيقة  
اجول وانتقل بغير نظام عبر حدود اكثر من نصف دزبنه من  
القوميات . فالاتراك لم يقووا على فهم صلتني بالاكــــراد،  
والاكراد ، لم يقدرُوا على فهم ماالذي كنت افعله مع العجم  
لما انا صديقتهم . كان الارمن المسيحيون والاشورييون وكذلك  
يهود ريزاي قد ذهلوا ، بما كانوا يرونه بالمجمومة  
المسلمة الاكثر وحشية في المنطقة . هذا بالاضافة الى الفرس  
الذين كان يشعرون ان ريزاي هي مركز حدود بعيدة ، الى حد  
لايطاق عن طهران ، مدينتهم المفضلة وعن مشهد او شيراز. ينظر  
الفرس الى الاتراك على انهم حمير ، والى الاكراد على انهم مجرمون  
متوحشون وانهم يشكلون تهديدا على أي بلد متمدن .

ولكنني حسمت الامر في ذهني مسبقا . وهو ان كردستان  
كانت غايتي وانني بلغتها اخيرا . لقد تلاشت كل الاضطرابات  
التي شعرت بها لتجسس جبراني على ضيوفي الاكراد . وكذلك  
الغضب والخوف اللذان كانت تثبهرهما اوامر العميد وتهديدات  
المتسترة ، وحتى قلقي الذي كان يسببه السافاك ، كل ذلك قد  
تلاشى . لقد قالتها نسرين : ( هذه هي كردستان ) .

## الفصل الخامس عشر

ان بعضا من غرابة قرية الحاج اسماعيل دستان ومانوا يكمن في الطين المنتشر في كل شبر فيها . ففي كردستان تكساد تكون جميع القرى مشيدة بصورة رئيسية من الطين ، هذا ان لم تكن قد وقعت فترة من الفترات بيد الآشوريين . فمنازلهم . وجدرانهم وافنية دورهم كلها طينية . والمصدر الرئيسي لوفود الشتاء هو كتل صلبة من روث الحيوانات . وهذه ايضا تخزن في مخازن طينية .

وبما ان الحاج اسماعيل رجل شري ، فقد بنى منزله من القرميد الاصفر المصنع في المدينة ، وكان منزل مريم قد بنى حديثا من ابحار مصنعة ، ومعدة لذلك دون استخدام الملاط . كان الحاج اسماعيل بمحصول قمحه وحصادته وسيارته اللاندروفر قادرا على ان يبني قلعة . كان بإمكانه انشاء منزل ذي طابقين بدلا من طابق واحد ، وان يشغل ثلاثة او ثلثمزيونا بقوة مولده الكهربائي وان يشتري اشيا اجنبيا غاليا . كان يمكن لمنزله ان يكون نظيفا وخاليا من الذباب لو أنه اراد ذلك . لم يكن يعيش بمستوى يختلف عن جيرانه الفقراء فقرا مدقعا . فقد كان يغزو منزله مثل منازلهم الذباب وحشرات الاعمام . وكانت وجوه اطفاله مثل وجوه اطفالهم مغزوة بالذباب . اخبرتنا اخت الحاج انه وضع في احدى المرات حاجزا منخلية على نوافذ ديوانخانتة ودار الحريم ، ولكنها اوضحت ان هذا قد زاد المشكلة فحسب ، لأن الذباب صار يحبس في الداخل ، لذلك امر بنزع الحواجز . لقد وضع الآن قضايبا حديدية لتمنع اللصوص والناهبين من الدخول وتركها دون حواجز منخلية . كان ركاب من النفايات والمفلتات يتبعثر عادة في مناء منزله الطيني المطروق . لم يكن ثمة ما يدعو للتخوف من تراكم

من سده نسبا الى ديار القريه ، الجماعة ورقية ، ١٠٠٠٠٠  
أو عسلها ، دار القريه حوض ميسلي ، ١٠٠٠٠٠ ، فأنه  
في المكان الذي وجدت فيه .

كان الحاج اسماعيل لسبب عالم ادركه يسرف في صرف كالونات  
من الماء . ولكونه سيد القريه ، فهو يمتلك النبع الواقع فسي  
اسفل الجبل حيث كان الماء يجمع ويمد خلال انبوب الى صنوبر  
مفتوح يصب في بركة في فناء ديوانخانته . كان الانبوب متصلا  
أيضا بصنوبر مفتوح فوق بركة اخرى في فناء دار الحريم ومن  
ثم يجري هابطا على الهضبة نحو صنوبر في فناء منزل مريم .  
كانت هذه الصنابير الثلاثة تترك مفتوحة ليل نهار . فيتحول الطين  
المطروق في الافنية المحيطة الى وحل زلق . ولكن ذلك لم يكن  
يزعج الفراخ أو الاطفال الصغار الذين كانوا يتراكمون في تلك  
الانحاء القذرة . كان الماء يجعل القمامة تثبت اكثر وتصبح  
جزءا من الارض . لم يكن ثمة اشجار او مزروعات لتمتص الماء  
عدا بعض الاشجار النامية في مواقع بعيدة عن المنزل وكانت تقطع  
حالما يمكن بيع اخشابها . والمزروعات الترييبينية لم يكن لها  
وجود مطلقا .

اصطحب الحاج اسماعيل جيرد في احد الايام الى ديوانخانته  
بينما كنا في زيارة لهم لفترة الظهيرة والهي نفسه بأن رسم  
حلقة للتدريب على الرمي على الجدار المعلق باللون الاخضر  
الغامق ، المتسخ قليلا . فرع جيرد من ذلك وسأل :

— ولكن ماذا عن جدار منزلك ؟

— أوه ، انوي ان اعيد لصقه وطلاءه .

قال الحاج ذلك وهو ينظر بلا مبالاة الى الفجوات الرديئة التي  
احدثتها الرصاصات .

— سأفعل كل ما تقترحه علي .

وعد الحاج بذلك مانحا جيرد امتياز التفرد باختصاص

الاسوان .

وإلى ذلك ، فإننا نرى في التاريخ ، أن السلاجقة ، سألوا الخليفة العباسي ،  
 وادى العمل اثنان من العمال السسطيين الى السلاجقة ،  
 أقل من اسوع . مع كل ذلك لم ننننه الاوساج وبنت مسرات  
 الطين وفتات الطعام نلتفق بالسجادات ، حيث يحققن الذبيح  
 فواحد عظيمة بألاف الوجبات منها . كانت فضلات الخضرة مبعثرة  
 فوق الارضية القرميدية في حجرات دار الحريم ، كانت حجره كل  
 امرأة هي قلعتهما . بدت حجرات النوم التي لاشلو من العيوب ،  
 مثالا للنظافة ، بالمقارنة مع الارض العامة ذات القذارة المطلقة  
 التي كانت تسود القاعة وافنية الدور الخارجية . كانت النساء  
 مسوءولات عن جميع هذه المناطق من الناحية النظرية ولكن في  
 الواقع لم تكن واحدة منهن تعترف بها .

اما بالنسبة لنا فثمة سحر في لامالة الحاج بالراحة .  
 فبينما كان الاتراك والفرس يشتركون وسائل الراحة الغربية  
 بأقصى سرعة ممكنة لدى استيرادها الى ابران ، كان الحاج  
 اسماعيل يعيش في منزله بأسلوب مشاه جدا لجدته الثالث . كنا  
 متخمين في المدينة بالراحة لدرجة اننا كما نحب بالنسب  
 الذين لايتضايقون من الطين . وقد حسب الشيخ عبد الله وهو  
 واحد من الذين شهدوا اساليب العيش الغربية انه قد اصابنا مس  
 من الجنون لمجرد اننا قضينا وقتنا مع الحاج اسماعيل . ولوانه  
 عرف بأي طريقة رومانية صورنا أسلوب عيش ابن عمه ، لأشار  
 ذلك اشمزازة تماما . فقد سألنا في اكثر من مناسبة :  
 - ماذا ترون فيه ؟

حاول حيرد ان يوضح له الانجذاب المتبادل بين الاجانب  
 المثقفين المعتادين على مقاومة الفساد العام وبين مالسك  
 الاراضي القبلي ونزوعه الى الحياة التقليدية .  
 - انه يعود للقرن الخامس عشر تماما .

قال الشيخ عبد الله ذلك بازدرأ٦٠ وقد وافقناه على ذلك ،  
 ولكننا كنا مفتتنين بالديناصورات على نحو مغاير عن عبد الله .



الفعلي ، عدد ضئيل من الطلاب وذلك بأن مكثوا في حرم الجامعة وجلسوا بسلام على الارض وهم يرددون الاناشيد ، بينما كان الجنود بننادقهم الرشاشة يراقبونهم من على بعد ياردات منهم . لقد ترك الطلاب ، هؤلاء القلة الشجعان ، كي يقررروا مصيرهم ويتجشموا عناء النتائج .

قدمت الى عملي في الكلية ، الموقع التعليمي الاول بالنسبة لي ، وأنا مفعمة بالمشاليات . في البداية قضيت ساعات فسي اعداد وتنظيم كل صف وكنت اقلق باستمرار لكيفية خلق دافع نحو الدراسة لدى طلابي المتململين . وقد ادركت تدريجيا أن ذلك محرد وهم . لم يكن أحد يهتم بالتعليم بدا ، لا الطلاب ولا المدرسون ولا الهيئة الادارية . وقد شعرت بالمرارة على الرغم من تبين ان الفساد قد بلغ النظام كله ، وبلوغ طالب او طالبين من أصل مئات عديدة من الطلاب لم يكن كافيا لي . بدأ السوءال يلح علينا اكثر فأكثر عما نفعله في ايران ؟ لا أعرف، لماذا اخترت ان ابوح شكواي الى عائشة . فهي لم تذهب الى كلية على الاطلاق . ولا حتى الى مدرسة ثانوية . ولكن كانت تتمتع بالاولويات على نحو مغاير عن اناس متعلمين آخرين . بدا انها تتعاطف مع خيبة رجائي وفضي . لم تكن التعابير عن المشاعر تبدو غريبة لعائشة بنفس الطريقة التي كانت تبدو فيها للعديد من الايرانيين . كنا أنا وعائشة قد تجاوزنا بسرعة مرحلة الشكليات والرسميات التي ستبقى علاقاتي في ايران محصورة ضمنها الى الابد .

لم اختر أن اتحدث مع عائشة لأنها كانت الوحيدة التي تهتم أو تعرف شيئا عن الموقف في الكلية . فالكلية كلها كانت تضج بالاخبار عن الاضراب . وفجأة وعلى نحو لم اعده بها ، بدأت شهرزاد غير المهتمة والمعتقرة الى الاخبار تستوقفني وتسالني عن تطورات الموقف كل يوم . سألتني وهي مقطوعة الانعاس :

الآن صحح ان الحين دخل الحرم الجامعي البارحة وضرب

الطلاب و...

ابوابنا ، السنة لشهرزاد والاييرانيين  
الآخرين ... فئة الوسطى من الذين يقدمون ولاء كلاميا كاذبا  
للشاه شكايا وممتعا . اصبح اضراب الطلاب حدث الساعة  
التي شخص من المدسنة تقريرا وانكثهم كانوا ... الى وسطه  
تتلقى الامارات بما ان كل ... معى ماكانت ...  
... للرسالة ... رونيبي . وصارت فكرة معارضة الطلاب  
للشاه مدسة للسابعة . وحتى الناس الذين حاولوا ان يظهروا الولاء  
للشاه بادائه الطلاب ، اطهروا تكافوء الضدين في انفسهم بمناقشات  
... الاضراب . لم يكن يهتم الاكراذ بها كثيرا ،  
فلمست لهم صفة بهذه الكليات . اما عاتشة فكانت تهتم بمسا  
اقوله لها عن الكلية لأنها كانت تهتم بي ليس لرغبتها في  
الاطن على آخر الاشاعات ومايقال عن حفلة الكوكتيل الثالثة  
التي اسامنها .

... ما سعلق الامر بي فقد اسفر الاضراب عن نتيجة  
شويبه ... علي ألا اذهب الى الكلية ، فالمفوف لم تكن  
... وبالتالي لم يكن ندعى الى الجلسات ذات المستوى الرفيع في  
... كانت ندرس كيفية اجبار الطلاب للعودة الى التزاماتهم .  
... عاتشة فاعلة ؛  
... ان تأتي الى العرة . سنذهب الى هناك حالما  
بدون تلح الحال .

... آ . ... رأسي على نحو مهذب وانا افكر بالمدي السذي لا  
... الى مريبتها . فقد كنت اريدها ان تنقسي  
... نمده . حيث يمكنني أن آسي اليها واراها  
... امور تهمني  
... الناس العريزي علي في ايران وفي العالم  
من الدن يمكنني ان اتحدث معهم وان بساطروني مشامري .





أكدت انه لا سبيل الى مساعدتها ، فقد غادرتها متسائلة فيما اذا بقي لي احد في ريزاي بالاضافة الى جيرد يمكنني ان اتحدث معه بحرية .

بما اننا الآن قد تفرغنا من واجبات التدريس ، ففسد اردادت لهفتي للذهاب الى المريد من القرى ، ولكني كالعادة انتظرت دعوات محددة لذلك . كان الحاج اسماعيل وعاشة قد طلبا مني الذهاب اليهما متى شئت ، ولكني لم أكن اشعر بعد بالراحة الكافية للقيام بذلك . واخيرا كوفى صبري بوصول صاحبـة عاشة ، القصيرة الممتلئة الجسم الى باب منزلي في احد الايام الربيعية الدافئة مع مرجل كبير من " اليوفورت " اللبن ، بعثته عاشة من القرية . وبرفقة هذا اللبن كانت ثمة دعوة تقـسول " تعالي " . اعطتنا المرأة القصيرة المكتنزة التعليمات للوصول الى خوشخان . كانت توقعاتي عن خوشخان - القرية التي استرجعها والد الشيخ - وذلك بأن اشتراها من حكومة الشاه - تعتمد على زيارات سابقة قمت بهالى ثلاث قرى وهي قرية مانوا ، قرية شيخ زادة ودستان . طبعا حملت مناقشة حامية في دستان عن اي القريتين أفضل ، دستان ام خوشخان . اتخذت عاشة واخيها موقف الدفاع عن خوشخان واعتبراها هي الافضل ، بينما كان الاخرون جميعا يوءيدون دستان ولكن سوسن خانم شرحت باسهاب ان خوشخان هي اكثر جمالا وهذا جلي لكل ، لأن الماء يتوفر فيها أكثر . ان اروغ الالوان في العالم بالنسبة للاكراد هي " الكسكوشين " خضرة الربيع الضاربة الى الزرقة ، ومصدرها الوحيد هو الماء .

المنطقة التي تقع فيها خوشخان هي الجزء الاكثر تروبية في كردستان التي رأيناها خلال اقامتنا . فالنهر المنحدر من جبال العراق يقطع ممرا فيلقا عبر الجبال ويسقي بذلك السهل برمته ، حتى انه يمكن الشيخ عبد الله من زراعة بعض الحبوب من الارز ذي الحبوب الصغيرة . ولكن ليس فقط وفرة الماء هي التي تلفت النظر في خوشخان . فالماء يتوفر في قرى اخرى أيضا ،

فلا يوجد في أي مكان آخر من كردستان ابران ما يشبه منزل الشيخ .

شاهدنا من على بعد بناء فخما من القرميد الاحمر قابح في قمة الهضبة المشرفة على النهر ، بينما كنا نجهد بسيارتنا عبر وحل السهل . وقد ظننت انه يخص الحكومة . ربما هو احد مخافر الدرك او احد المعسكرات الحكومية الصيفية المنشأة لطلاب الثانوية والجامعة لغرض الحفاظ على الهدوء ، عندما تغلسق المدارس . ولكننا حالما دنونا اكثر فأكثر استغربنا لعدم روءيتنا أي بناء ذا حالة متوسطة بين البناء الضخم ذي المظهر الرسمي وبين الكوخ الطيني ، عندما مررنا بمحاذاة قرية صغيرة مغبرة . تساءلت اين يمكن أن يكون منزل عبد الله ؟ . انه بالتأكيد لا يعيبش مثل قروي عادي وعندما توقفنا لنسأل راميسا واقفا قرب الطريق اشار الي البناء ذي القرميد الاحمر واتفصح انه ، منزل عبد الله .

لقد وصلت الى خوشخان حقا ، وفي ذهني توقعات مسبقة خاطئة ، كانت واضحة من الطريقة التي نظر فيها عبد الله الى ملابسنا عندما خرجت من السيارة . سألني وقد علت وجهه ابتسامة خفيفة :

- ماذا تفعلين بهذا اللباس ؟

نظرت الى فستاني المطرز الذهبي والابيض الذي يغطي " الكراس " المصنوع من قماش الفوال الاحمر الفاتح والقرمزي وشعرت فجأة بثقة عالية بالنفس وبشيء مثير للضحك . اعتقدت أنني سأشعر براحة اكثر بارتدائي للملابس الكردية في القرية بعد ان قضيت نهاية الاسبوع في دستان . فقد قضيت معظم وقتي في دستان وانا جالسة على الارض في حجرة الحريم حيث كانت الشايبا الكثيرة للكراس الكردي المفضاض تجعل جلوسي وفي حالات مختلفة اكثر راحة بكثير مما لو كنت مرتدية الجينز الضيق . ولكن الامر يختلف هنا عن الروتين اليومي في مجالس حريم الحاج اسماعيل . فمن الاشياء المميزة انه لم يكن يوجد حريم هنا .

نزلت عائشة على الدرجات الموعدة الى خارج حجرة  
مارة بجميع اصص مزروعها ، المكونة من الساق والبراعم  
المرصوفة . رحلت بنا ومن ثم استعدت قائله انها  
عمل ما . حدثت فيها بفرع . فقد كت كل هذه المساحة  
ريزاي والفكرة الوحيدة المسطرة علي هي النحدث معها ولخصها  
بذات حاوية الوفاض . بعدئذ قادنا السخ عبد الله الى  
المطلة على نهر وممر ضيق . رأينا حديقة ذات مساحة مساحه  
عند جانب المنحدر وكان قد زرع حول جميع انحاء المنزلة ، السدي  
لم يكمل بناوه بعد ، نبات من فصيلة السادنجان وورد ونسبات  
القمس ونبات السمكة ذي الزهر الابيض والاحمر في مساكب محفلة  
حديثا . بدا حقل الشيخ كأنه قطعة من سوبسرا ، بعد فوصه ،  
النفابة المنتشرة في افنية الحاج اسماعيل . وجدنا كوخ اراب  
مغمورا في احد جوانب الطريق الدائري الخاص الممتد الى البناء ،  
وفي بداية هذا الطريق شاهدنا بستان لوز وتفايح وبستان كرم ،  
وحلية نحل مصنعة . وضع جهاز غير مستعمل لتفقيس البيض على  
الشرفة قرب حجرة النوم . وفي الشرفة المطلة على الممر الضيق  
سندت مغسلة بورسلين غير مركبة بالقرب من الحائط . لسدي  
الانتهاء من تجهيز كل شيء ، سيحتوي منزل الشيخ عبد الله على  
تواليبين داخلين مثلت كلاهما بالبورسلين . كان نمط مطبخ  
داخل المنزل ، وكان دون سواذ ومعتم وذا ارضية عمل مطابخ  
القرى الاخرى . ولكنه لم يكن يحتوي على فحوه مفتوحة لنار  
العرن والمدفأة . لقد كان لديهم فرن غار للطبخ وموقه قديم  
ضغط جديد تماما ، الماني المنع والشيء الاروع من كل هذا .  
حجرة الطعام الرسمية في الطابق الثاني ، المكمله بالسجاد  
والطاولة والكراسي . كانت هذه هي القرية الوحيدة التي  
فيها على الطاولة لتناول وجبة الطعام .

انتابني الاضطراب للطريقة التي احسب فيها عائشة  
على الرغم من انني كنت قد انتبهت بالشرف المادي وبظافسه  
منزلها . لم استطع فهم سبب اجهاد عائشة نفسها في العمل



بساط بجانب سريرها المركب المزدوج ، ذي الطراز الغربي . حالمسا  
كنا سنبداً بحديث فعلي مع بعضنا ، ظهر الشيخ عند نافذة حجرة  
النوم معلنا ان الوقت قد حان ليأخذ كل مناسنة من النوم . لم  
يبق لدينا أنا وجيرد الخيار ، فقد قادونا ببساطة الى حجرة  
الضيوف داخل الباب المؤدي الى شرفة الشيخ . ومن ثم تركنا  
لننام نوما خفيفا في ذلك الجو الحار والذباب يطن على الحاجز  
المنخلي للنافذة . بعد ان افقنا في عصر ذلك اليوم من النوم  
وبعد أن قدم لنا الشاي ، لم احاول ان اجد عايشة ولكنني  
جلست بهدوء مع الرجال في اشرفة . عادت عايشة في المساء ، عند  
المغيب تقريبا الى المنزل ولاحظت الكلف على بشرتها الشاحبة .  
ابديت تعليقا عندما وضعت الخادمة اثنيين من كؤوس الشاي بدلا من  
واحدة ، على الرغم من أن عايشة قد شربت الشاي لتوها لتبلى  
متيقظة طوال اليوم ، لتقوم بأعمال المنزل الروتينية . سألتها  
عندما جلسنا لنحتسي الشاي ؟

– هل كنت تعملين عندما كنت عازبة في دستان ؟

فأجابتنني وهي تضحك :

– آه لا ، ابدأ .

تحدثت عايشة عن مدى استمتاعها بعمل المزرعة المتطلب جهدا  
كبيرا وعن مدى اهمية العمل بالنسبة لها . حيث قالت :

– علي ان اعمل . فأنا بحاجة الى النقود .

تعجبت لذلك ، فقد خيل الي انه بإمكانها ان تجمع  
النهايات لتلتي دون ان ترفع بنانها . لم يبد على زوجها  
انه يبذل جهدا كبيرا في العمل ، ولكن ربما كانت عايشة  
تحتاج العمل لاسباب غير النقود . لم يكن بقربها انثى مسن  
مركزها الاجتماعي في خوشخان لتقيم علاقات اجتماعية معهن ولا  
أطفال لتعتني بهم . وقد لاحظت انها كانت قلقة على طفل ولسد  
حديثا لزوجها احد سائقي الشيخ ، ولكن ذلك هو مجرد تسليية  
ولا يمكن أن يمثل حياة عائلية ، عملية خاصة بها . اقترحت مرة  
على عايشة انه يمكنها هي والشيخ ان يتبنيا طفلا ، فنظرت السي

كما لو أنها لاتعهم ما اتحدث عنه .

- أليس هناك اطفال يتامي ؟

سألتهما وقد علمت أن الحكومة قد احدثت دار للايتام في مركز مدينة ريزاي .

- ماذا عن الحرب في العراق ؟ من المؤكد انه يوجد

أطفال دون والدين او عائلة .

- لا ..

أجابت عايشة بذلك وبدت وكأنها صدمت لفكرة امكانية وجود أطفال في كردستان دون أن يعتني بهم احد .

قمت أنا وعايشة في ذلك المساء في خوشخان بجولة بين الازهار البرية قرب الجبال . ومن ثم عدنا الى حجرة نومها المضاءة بالكهرباء . سطعت الاضواء وبدأ التلفزيون بعرض جماعات من سلاح الفرسان التابعة لأوليفر كرومويل ، منقولة بالفارسية . وحالما انتهى العرض ، أعلن عن موعد النوم وأخذنا أنا وجيرد شائبة الى حجرة الضيوف . وكان قد تمركز رجل مع بندقيته في موقع تسرب بابنا لأن عددا من الجرائم كانت قد وقعت حديثا في الجوار . حتى لو كنا ضيوف في قصر مالك مزرعة فخمة ، فهذه كانت لاتزال امتدادا لكردستان .

ان وقوع خوشخان ضمن حدود كردستان ، هو أقصى ماكان يحلم به الشيخ عبد الله . وفي كل مرة نأتي فيها الى منزله كنا نجد تجهيزات جديدة ووسائل ترفيهية لم يسمع بها في قرية اخرى . ومع ذلك فقد ظلت القرية هي نفسها . لقد كانت أصغر من دستان بكثير وحتى انها بدت اكثر فقرا ، ربما يعزى ذلك الى التباين الواضح بين منزل الشيخ وبقيّة المنازل . فهي لم تكن تشتمل على مزارعين ميسورين آخرين على نحو مختلف عن قرية الحاج اسماعيل فلا أحد غير الشيخ عبد الله يقتني سيارة أو جرارا أو حتى مسكنا حديثا . شعرت فيها بعدائية القرويين لي أكثر ولم أر هنا أبدا احدا من مقبلي الايدي مثلما كان شاعنا في دستان . أشار الشيخ عبد الله الى انه لايمارس امتيازه بمطالبة القرويين



زوجة عايشة . واليوم الحظ لم تكن بينها صور للعروس . ولأن  
الله سبحانه وتعالى كما ينبغي ، فقد كان خجلا جدا من  
... عروسه سند ، بنار الخادم الذي وثق به ، في اعطائه  
الكاميرا ، قد اُتلف ذلك الجزء من الفيلم . ولكن ومع ذلك فقد  
رأيت المئات من الضيوف المحتممين في قرية والد الشيخ ، والآلاف من  
ارغفة الخبز المفروشة على الارض لتبرد ، والكثير من الخيسام  
المنصوية للضيوف . وحدنا صورة للحاج اسماعيل وهو شاب وقد ابتم  
للكاميرا وصورا لقرية دستان التي احضرت منها العروس . كان الشيخ  
عبد الله قد اعطى طبيبا ، صديقا له من منطقة تتحدث بالفارسية  
ألبيسة كردية ايرانية ليرتديها وفرسا ليركبها أمام الكاميرا .  
ولدت الصور لدي انطباعا بأن الشيخ عبد الله هو مجرد متأمّل  
اوساح في حفلة زفافه بالذات .

على كل حال ، لم يكن مفهومي عن الشيخ عبد الله كرجل مثقف  
قادر على النظر الى ثقافته الخاصة بنظرات غير متحيزة وكشخص محابذ  
لم يكن دائما في مكانه الحقيقي . في احدى المرات بينما كانت  
عايشة وعبد الله يتفحصان سلسلة من الصور كنت قدالانقطها في  
خوشخان ، سمعتهما يبديان ملاحظة لبعضهما وبنبرة ضاحكة ، كيف  
اني كنت قد التقطت صوراً لخدمهم فعلا . كان لدى الشيخ العديد من  
الكاميرات ولكنه لم يستخدمها ابدا في التقاط صور لخدمه . كان  
الشيخ هو الوحيد الذي قد سمع عن الحركة النسائية الداعية الى  
المساواة ، في الغرب ، من بين جميع الاكراد الذين التقيت بهم . كان  
يصفني لاداعة ال ب . ب . سي بانتظام . وعندما حضر هو وعاشية  
للتناول الغداء في منزلنا شكرني مرات كثيرة على الوجبة ، لذلك  
اوحيت اليه متعمدة الى أن جبردكان هو الطاهي . عند ذكر هذه  
الملاحظة فهله الشيخ بعصبية وتمتم بشيء عن " الحركة النسائية " في  
الغرب . لم اتفوه بشيء ، ولكني تعجبت وتساءلت فيما اذا كانت  
بهذا الشكل في الاتحاد السوفياتي ، وفيما اذا كانت نوعية النساء  
هناك تزعه . ماذا ستقول زوجته الاولى من عايشة التي لم تتجراً



على تناول الطعام مع الرجال في نفس الحجرة ؟

كيف يمكن للشيخ عبدالله ان يدمج بين مراحل حياته غير المتصلة ؟ من السهل ان تشتري طاولة حجرة الطعام ، ولكن ليس بوسعك ان تجعل ضيوفك يشعرون بالراحة بنفس السهولة بجلوسهم على كراسي ذات خلفية مستقيمة . انه لشيء مألوف جدا في كردستان ان تتزوج ابنة عمك التي تصفرك بثلاثين سنة ، ولكن ليس من الطبيعي أبدا ان تتوقع منها ان تكون رفيقة لفكرك في سنك المتقدم هذا .

اعتقدت لفترة طويلة ان عائشة وعبد الله يعيشان متفاهمين الى حد مذهل . وعرفت من تعليقات عائشة عن نشأتها ، انها كانت تشعر بالمرارة تجاه والدها وانها تشعر بتكافؤ الضدين تجاه والدتها وانها سعيدة بفرارها من دستان . ولكن ثمة جانب آخر يتعلق بها وقد افشنته بعد فترة قصيرة من تعرفنا الى بعضنا جيدا وهو اوجاع رأس وأرق كانت تعاني منهما . وتشوق بدائسيي للاطفال والرومانسية . من المدهش ان تسمع امنيات من هذا القبيل اوحى تلميحا عنها من امرأة كردية . ان المصير في ايران وفي الاسلام هو " سرنفشت " أي مايقدر على الانسان منذ اليوم الاول من ولادته . لقد كان قدر عائشة في السماء قبل ان تولد . ومع ذلك لا بد انه قد ادهشها ان تجد نفسها في انكلترا في سن الثامنة عشرة وان تستضيف مواكب متدفقة من اللاجئين العراقيين في سن الثامنة والعشرين .

اخبرتني عائشة والشيخ عبدالله نفسه ، بأنه اراد وبرغبة بالغة ان يرحل ثانية . لقد مضت عشر سنوات على رحلته الى اوربا مع عائشة بعد زفافهما . ولكن الحكومة الايرانية هددت بمصادرة ارضه وكل املاكه التي يتركها وراءه حالما يهجر الحدود . تساءلت عن ماهية شعور عائشة بالسفر معه . فهي لم تكن بعد قد تعلمت الانكليزية او أي لغة اوربية اخرى .

كانت عائشة تجعلني اشعر بالرعب الذي يعاني منه الاكتراد

اكثـر من اي شخص آخـر . عـندما عـدنا الى ايرـان قبـيل انهـيار سـلطة الشاه ، حدثتني عما حدث في الربيع الذي مضى ، عندما قامت الحكومة العراقية باحراق مجمل القرى الكردية بانتظام في نطاق خمسة وعشرين كيلومترا من الحدود العراقية ، ولم تكن هذه الحدود بعيدة عن خوشخان وانه قد فر مئات من الاكراد العراقيين الى جبل قريب داخل الحدود الايرانية . لقد ساعد الجيش الايراني العراقيين العسـرب هذه المرة ووقف ضد الاكراد . وقد حاصر الايرانيون والعراقـيون معا اللاجئين البائسين ، يقصفون هـو٦٤ الذين يرونهم ويحاولون عـزل ونجـوع البقية الباقية .

— يقولون ان بعض المهجرين اتوا الى منازل اناس من هذه الانحاء ، وانهم ملؤوا افواههم بالدقيق من شدة وطأة الجوع الذي كانوا يعانونه .  
قالت عائشة ذلك وقد علا وجهها تعابير من الرعب . ونقل أن اكثر من خمسمائة شخص منهم لقوا حتفهم .

حلمت حلما غريبا بعائشة قبل سنتين من عودتي لرويتها . فقد رأيتها تعذب وسمعت صرختها بالكردية " أنا خائفة " استيقظت من الحلم متأكدة من أن شيئا فظيحا قد حدث لصديقتي . اردت أن اهتف لها ولكني لم أفعل طبعاً . فلا يوجد هواتف في القرية ، وبالإضافة الى ذلك ، فحتى لو اعتقلت وسجنت فليس بمقدوري أن أفعل لها شيئا . لم اذكر حلمي لعائشة بعد أن رأيتها ثانية بعد مرور سنتين على ذلك . لقد بدت في حالة جيدة ، حتى ولو انها كبرت قليلا واصبحت اكثر تشككا وسخرية . ماكان لأحد أن يعذب هذه السيدة الكردية المرندية على نحو فاخر وزوجة الشيخ عبد الله الشهير . ومع ذلك فقد احسست في لوعيي بقابلية سقوط عائشة بيد الاعداء . فليس ثمة رادع يمنع حكومة الشاه عن تعذيب امرأة مثلها . ولا شيء يوقف الاتراك اذا عزموا على المضي وراها . كان سينتج عن ذلك عداوة دموي مع عائلتها ، ولكن ماذا كانوا يشكلون بالمقارنة مع الجيش الايراني ؟

كان هذا هو التقليل الفظيع الذي يبطن الحياة برمتها في ايران ، وعلى وجه الخصوص ، حياة الاكراد . لقد كانوا غرباء وأعداء في أرضهم الام . وكانت الحكومة تسدد النصارى الى الاشخاص الذين تعتقد انهم قواد مستقلون ، فترديهم واحدا تلو الآخر . حدثتني عائشة من عم لها كان قد اعتقل لمدة عشرين سنة متهما بكتابة رسالة الى شخص ما في روسيا . وعرفتني خديجة الى مالك حمام المدينة الذي يذهب اليه جميع الاكراد وذكرت لي قاتلة :

- انه رجل طيب يامرغريت . هل تعرفين انه قد خرج لتوه من السجن ؟ لقد اعدموا والده .

كان من الصعب ان يكون هؤلاء الناس ثوريين طوال الوقت ولكن يفترض أن جميع الاكراد في ايران وربما لسبب وجيهه ، هم مناهضون للحكومة الطهرانية . لم تكن الحكومة الايرانية ترغب فحسب ، بل كانت تتشوق الى ارسال طائرات مقاتلة لتقصم القرويين العراقيين العزل . ولو حدث وسقطت الذخائر على القرويين الايرانيين أيضا فهذا أفضل بكثير . فكلهم كانوا أكراد .

## الفصل السادس عشر

لم يكن احد يخيف دارا احمدى ، لا ابن اخته الاكبر ولا عميد الكلية واقلمهم انا . وبقدر ما استطعت فهمه ، لم يكن شمة سب واضح يدعوا لظهار صبي كردي فقير مولود في القرية كل هذا القدر من التباهي وخاصة في ايران ، حيث الهـمـر الاجتماعي والشكليات والرسميات تجعل من التملق تقليدا اجتماعيا . في اهدا الاحاديث المتبادلة بين جيرد وعامل فقير في وزارة التعليم الابرائية في طهران ظهرت طبيعة التملق المطلقة ، على حقيقتها . فقد سأل جيرد ذلك الرجل الضخم الجثة المرتدي على نحو يبدو فيه الفقر واضحا :

ـ كيف حالك ؟

توقع جيرد ان يحييه هذا ـ " شكرا " وهذا هو الجواب الفارسي المألوف . ولكن بدلا من ذلك اجابه العامل " انا غير رفيع المنزلة " .

وقد اكد لنا اصدقاؤنا الايرانيون مؤخرا انه مناسب تماما لهذا الرجل ان يوحي ان مكانته الاجتماعية بالمقارنة مع جيرد لاتوءهله لان يكون رجلا ذا منزلة رفيعة .

كانت كل الدلائل تشير الى علاقة اجتماعية غير متكافئة بيني وبين السيد احمدى . فانا اعتبر امرأة اجنبية مثقفة وصاحبة مال وموقع في الجامعة . وكان هو لا يزال طالبا قد نال منحة ليدرس في مدرسة ثانوية محلية . لقد قام في حياته كلها بزيارة واحدة الى طهران والى تبريز ربما بقدر نصف دزينة من المرات . كان يعرف القليل ومع ذلك فقد كان يتصرف كما لو أنه يعرف كل شيء . كانت هيئته وجرأته وتعابيره تنم عن ثقة بالشمس

غير متناسبة مع سنّه . كان يتصرف دائماً كما لو أنه مساوٍ لي  
وان لم يكن ارفع مقاماً في بلد سادت فيه فكرة المنزلة الرفيعة .

عند نهاية السنة الدراسية . شعرت بالتعب قليلاً من السيد احمدى . فقد اثبتت كبرياؤه المصطنعة همتي ، لأنى لم استطع التغلب عليها ابداً . وبدأ يخيل اليّ أنه يحقرني ففي كل مرة انوه فيها ويغموض للقيام بزيارة قريته كان يبدي حرصه الشديد وشعرت انه سيمحاول جاهداً ألا أتسلل الى ذلك المجال من حياته وبالطريقة التي عرفت فيها منزل اخته على الرغم من ان معرفتي بأن زيارة منزل اخته يمكن ان تكون أسوأ من عدم زيارته على الاطلاق ، فقد واصلت الحاحي كي يوجه اليّ الدعوة . وحالما تحسنت لغتي اكثر وازدادت سماعات تواجدي مع خديجة وعائشة وبقية النساء شمرت بالتفكير بعدم حاجتي للسيد احمدى . لقد كان يشكل تطفلاً على حياتي لماذا يحيط نفسه بهذه السرية والغموض ؟ هــسـل هو جاسوس ؟ صرت اشكك أكثر بكل سلوك ينحرف عما هو متوقع كأي شخص آخر في ايران . ولكنني عندما طلبت من السيد احمدى ان ينقل شريطاً كنت قد سجلته ، الى كتابة بنظام الاصوات الكلامية الكردية انجز هذه المهمة الصعبة بدقة وبسرعة بالغة ادركت فيها انى لن استطيع التخلي عنه مهما سبب لي مسن مضايقات . واستمر في المجئ الى منزلي يوميا .

حضرت ذات يوم نانا - تلك المرأة التي كانت تقوم بتنظيف منزلنا مرة في الاسبوع - مع ابنتها ، بينما كنت انسا والسيد احمدى نسجل شريطاً معاً . عندما جلست محاولاً ان اركز انتباهي على نظام الاصوات الكردية ، لاحظت ان الفتاة ذات الثماني عشرة سنة تتفحص كل حاجاتي ، وتضحك على نحو مكتوم من صوري . والأسوأ من كل هذا انها كانت تفتش في الصندوق الخشبي الطويل الذي كنت قد احتفظت فيه بـ ١٥٠٠ ورقة حيسث كانت عبارة عن مسوّد لقاموس كردي - انكليزي . كان هـذا الصندوق يجسد ساعات وساعات من العمل . وعندما واصلت العبث

به ازداد اندهاسي اكثر ، والشيء الذي كان من الممكن ان يشكل  
ازعاجا ضئيلا غير ذي اهمية تنامي وبلغ حدا غير مناسب . لم  
استطع ان اتواصل مع نانا بأي لغة ، لذلك فقد اتجهت الى السيد  
احمدي طالبة منه المساعدة . هل احضار نانا ابنتها معها دون  
استئذاني هو تصرف لائق ؟ كان موقف مساعدي ملتبسا وغير محدد .  
كيف له ان يعرف ؟ طلبت منه ان ينقل انزعاجي بالتركية الآزيرية  
ولكن الابنة استمرت في الركض في الانحاء والعبث بحاجاتي بعدما  
اوضحت نانا استجابة لما نقله السيد احمدي أن زوج ابنتها  
قد سمح لزوجته بالخروج هذه المرة فقط كي ترّفه عن نفسها قليلا .  
لقد كانت تتمتع نفسها حقا بالدوران في شقتي وحجابها متدل حول  
الجزء الاعلى من سترتها المقفورة الياقة . هل كان علي ان امحق  
فرحة هذه الفتاة الفقيرة الوحيدة ، بعيدا عن زوجها وسيدها في  
رحلتها هذه ؟ .

تحتم علي لأشهر عديدة ان اتحمل سلوكا فظا كانت توجهه الي  
في الشارع ، نساء ايرانيات مغطيات . وهاهي ذي واحدة منهم  
موجودة في منزلي نفسه ، تبدي التعليقات على صوري بصوت عال  
وتدعو والدتها لتأتي وتنظر الى الصورة التي اعتبرتها ذات  
اهمية خاصة ، ومن ثم تتفحص كل ما هو من صني من بعض ائساث  
حجرة الجلوس حتى البستي الداخلية . ولكنني مع ذلك ضبطت نفسي  
فأنا لم امض كل هذه المدة في ايران عبثا . حاولت ثانبة ان  
احصل على نصيحة السيد احمدي لأسلك السبيل المناسب . هل من  
الصواب ان اطلب من نانا ان تأمر ابنتها بالمقادرة ؟ هــ  
مساعدي كتفيه غير مبال . لماذا لم اتمكن من الحصول على  
المعلومات التي احتاجها لأتصرف بنجاح في هذا المجتمع ؟ لماذا  
طلبت منّا شهرزاد ان ندفع لسائق التاكسي في المطار ما يريد  
عندما حاول ان يغشنا ؟ ولو كانت هي صاحبة الشأن لما فعلت  
ذلك . لماذا يتصرف السيد احمدي وكأنه امر طبيعي ان يقيم  
خادمك بتخريب منزلك امام عينيك ؟ .

اعلمت السيد احمدي ان يطلب من نانا بطريقة مهذبة قـدر استطاعته بأن ترسل ابنتها . وفي غضون لحظة حضرت امامي الام الشبيهة بالطير والابنة الضخمة الجثة ذات الشعر الدهني وهما ترمفاني بتعابير يلوح فيها الاتهام وتنظران اليّ شزرا وتحركان رأسيهما يمنا ويسرة . ونقل السيد احمدي عن نانا قولها:  
- تقول انه ليس ثمة ما يدعو للقلق . وان ابنتها لن تسعى وراي زوجك .

حدقت صوب السرير الخالي الذي كان جيرد قد تركه ، ترددت للحظات غير مصدقة ما اسمع . هل ظننت ابنة نانا حقا اني اردتها ان تغادر البيت لأنني كنت خائفة من امكانية اغواها زوجي؟ طلبت منها ان تخرج . وكان ذلك كل ما استطيع قوله بالتركية .

لم تغفر لنا نانا ابدا ، وفي وقت لاحق اصغى الي السيد احمدي بسلوكه السفينكسي المعتاد عندما ابدت قلقي حـسـول احتمال تصرفي على نحو خاطيء . هل ثمة شيء في الكون يمكن ان يجعله يتكلم معي كإنسانة لها مشاعر واحاسيس يوما ما ؟ .

بعد عدة اسابيع قبلت دموة كانت تتطلب مني ان اكون خارج المدينة ، في موعد كنت قد حددته مع السيد احمدي . سرت مسع جيرد في تلك الليلة الى " كوجاسنيا " زقاق السنبيين ، تذكسرت ان منزل اخته يقع في هذا الزقاق . عندما وصلنا الى هناك لم يبد لي اي شيء مألوفاً تحت التوهج الضبابي لضوء الشارع وعلى الرغم من اني لم ارغب في الوقوف وحدي في هذا الشارع الغريب فقد اتفقنا انا وجيرد انه من الأفضل ان يذهب هو وحده الى مقهى كانت قريبة منا ليستفسر عن الطريق . لم أر خلال اقامتي كلها في ايران امرأة تدخل مقهى ابدا .

انتظرت بقلق الى ان خرج جيرد وقد بدا عليه الاضطراب فأردت ان اعرف منه سبب ذلك فبادرته بالسؤال :  
- هل سألتهم اي زقاق هذا ؟

- نعم ، وقالوا انهم عمال .

- ماذا ؟

- سألتهم هل هذا " كوجا سنيا " فأجابوني " نحن عمال "

- نحن عمال ؟ ا .

عندما وقفنا وسط الزقاق المعتم الظليل نفكر بهذه الاجابة بدأت اشعر كما لو اننا كنا مراقبين . وقبل ان يمضى الكثير من الوقت دنا رجل منى وسألني اذا كان باستطاعته مساعدتنا وحسب ارساداته رجعنا الى سيارتنا وسرنا نحو الشارع الرئيسي المرصف قليلا ، ولكننا حالما عبرنا العديد من البنابات ، تأكدت انه بيقودنا الى طريق خطأ على نحو مقصود . قفلنا راجعين الى المقهى وتوقفنا فى نفس الزقاق المسدود . بعدئذ ، سبقت جيرد عبر الزقاق الملتوي الموحل ومررنا بحدران فناء مصمتة ، الى ان وصلنا الى باب بدا لي مألوفاً نوعاً ما . قرعت حرس الباب فأجابني رجل نحيف فارغ القامة مرتد سروالاً كروياً فضفاضا وعلى عينيه نظارة . وسألت بالكردية :

- هل دارا احمدي هنا ؟

حدق الرجل وقد ارتسمت على وجهه تعابير تنم عن الاندهاش كما لو اني احد سكان المريخ واني اتكلم لغة غير مفهومة . كررت اسم السيد احمدي بكامله عدة مرات وكان الرجل يهز رأسه الى الاعلى نافيا ذلك :

- لا ، لا يوجد شخص بهذا الاسم هنا . باله من اسم غريب ! .

عند ذلك استسلمت وشرعنا بالعودة . وحالما انعطفنا اننا وجيرد بالسيارة ، اتى السيد احمدي راكضاً مقطوع الانفاس .

- قال اخى ان اناسا قد حضروا لروءيتي وفكرت انه من الممكن

ان تكون انتما .

فأجبت :

- اخوك ؟ هل كان ذاك اخاك ؟ قال انه لايعرف احدا باسم

دارا احمدي .



- لم يستطع فهم ماكنتما تقولانه .

فقال جيرد :

لقد فهم تماما . فقد كررت مارغريت اسمك اربع او خمس مرات

على الاقل .

فسال مساعدي :

- ماذا تريدان ؟

لدى طرحه هذا السؤال كان علي بالفعل ان افكر لدقيقة . فقد بدت مهمتنا سخيفة وتافهة فحاة . هل حقا جئنا كل هذه المسافة ومررنا بكل هؤلاء الناس الذين - من الموءكد انهم فكروا في انفسهم ، ان اثنين من الاجانب مرتدين على نحو فخم لاعمل لهما في جوارهم - فقط لنجنب السيد احمدي عناء السير الى منزلنا؟ اخبرته بذلك فبدا دارا متحيرا . لقد لاحظ ودار بخلده هو ايضا اننا قد جئنا الى مكان لانتمي اليه . وتبادلنا كلمات وداع باردة . بعد ذلك عرفت انه ليس لي الا ان اهتم باطروحتي فقط ، وهذا افضل من محاولة فرض نفسي على حياة السيد احمدي . كنت قد بدأت او من بوجود لهجات كردية مختلفة بقدر ما يوجد من اكراد . فهناك قبائل متميزة ، ولها طرق مختلفة في الكلام . فالاكراد الذين قضوا فترة من الزمن في المدينة لا يلفظون الكلمات بنفس طريقة الاكراد القاطنين في القرية . والرجال يتكلمون على نحو مختلف عن النساء . ومعظم هذه الاختلافات يصعب وصفها او فهمها لدقنتها ، الا اني لم اقو على تجاهلها . كنت مدركة تماما اني لا ازال اجهل معرفة اي من الاكراد العاديين . فالحاج اسماعيل وعائشة وعبدالله وبقية عائلتهما كلهم ينتمون الى الطبقة الارستقراطية . لم اقم بزيارة حتى الى قرية واحدة لقضاء وقت مع اناس فقراء ليسوا قوادا قبليين ولامعلمي مدارس مثل السيد شيخ زادة . وعندما ابلغني السيد احمدي ان والدته لا تتحدث اي لغة سوى الكردية رغبت في لقائها وتسجيل اشرطة لها . كان جميع الاكراد الذين التقيت بهم يعرفون بعض الفارسية ، وبعض التركية ، ولكنني كنت متأكدة من ان الغالبية العظمى من

النساء يستخدمن لغة واحدة . فهن لم يذهبن الى المدرسة ولم يمتحنين في اسفار او يطلبن الى الحيش .

عندما اخبرت السيد احمدي عن رغبتني في لقاء والدته فقط لأنها تتحدث الكردية ، اصفى الى كلامي ، ولكنه لم يحب عليهِ . وعندما اقترحت انه بإمكاننا ان نسير جميعا الى قريته يوما ما قال بفظاظة :

- ولكن عند ذلك سيتحتم عليك ان تتناولى طعامك هناك .

تسألني في نفسي هل المشكلة هي في عدم توفر الطعام الكافي لاستقبال الضيوف ؟ فعرضت عليه قائلة :

- يمكننا ان نحضر معنا طعامنا .

فاجاب متفكرا :

- ربما سيكون هذا افضل ، لأنه من المحتمل ألا تحبي

سناكله نحن هناك .

لم يرغب عن بالي انه ليس لدى دارا اية فكرة عن سلوكنا لدى حلولنا ضيوفا على والدته . فهو لم يرني مع خديجة وصديقاتها ، ولم يكن يعرف شيئا عن رحلاتنا القصيرة الى دستان وخوشخان والشئ الذي كان يشغله من غير ربه هو اتنا سنتصرف على نحو غير لائق ، مثلما كان مع ابنة نانا او لدى محاولتنا ايجاد منزله . غير ان ماخيّل الي هو ان رفضه لنا ناشيء عن خجله من فقره ، ولكنني بعدئذ ادركت انه كان يخشى ان تخجله تصرفاتنا نحن الاجانب - امام عائلته وجيرانه . من يدري اي مشهد مرربك يمكن ان نوءديه امامهم لو قدمنا الى قريته ؟ .

واخيرا سنحت لنا فرصة . لقد تراكمت لدي اعمال كثيرة للسيد احمدي ، وببينما كانت الاسبوع تمضي لم اكن اعرف كم بقي لسبي من الوقت في ايران . لذلك فقد قلقنت واستعجلته لينهي كـل شئ بأقصى سرعة ممكنة . حاول السيد احمدي هو ايضا ان يزيد في اشغال وقته ، لأنه بذلك سـكسب مالا اكثر . وفي احد الايام

ونحن في معمعان واجبات ضخمة اعلن عن اسفه لعدم استطاعته الاستمرار لأنه قد وعد والدته بأن يفضي اليوم التالي ، يوم الجمعة في قريتها ، وانه اذا لم يلحق بالحافلة المغادرة مركز مدينة ريزاي في غضون ساعة ، فلن يقدر على الذهاب السي هناك .

عندما عرضت عليه ان آخذه في سيارتنا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لم بحبني مباشرة ، لذلك سألته :

- هل سيكون الأمر على مايرام مع والدتك اذا زرناها ؟

فأجابني :

- طبعاً ، اذا اخذتيني الى هناك ، ستكون سعيدة .

اخذت مني هذه الدعوة المفضى بها علينا الاهتمام الذي تستحقه . اخيراً سأرى هذه القرية والتقي بمصدر كل هذه الحكايا الشعبية التي سمعتها لأشهر عديدة .

كان موقع قرية السبد احمدي متميزاً نوعاً ما . فهي لم تكن تبعد عن المدينة الا بضعة كيلومترات ومعظم الطريق كان معبداً ولكن كان يتم بلوغ السنة كيلومترات الاخيرة اليها بالسفسر بمحاذاة مجرى نهر وينتهي بطريق منحدره تدرجياً الى سهل واسع مرتفع . لذا لم تكن اي حافلة تسلك ذلك الطريق الاسفلتي المؤدي اليها ، فقد كانت تعتبر بعيدة عن المدينة . كانت الطريق السبق الترابية المطروقة صعبة حتى بالسير فيها على الاقدام فسي الشتاء والربيع لأن النهر كان ممتلئاً بالماء .

عندما وصلنا باز دو اخيرا ، كانت والدة السيد احمدي ، واختاه الصغيرتان وحشد من اولاد الجوار بانتظارنا . فبّلت صلحبة انها ومن ثم قادتنا الى منزلها الطيني بعد ان نصحتنا بايقظ سيارتنا داخل جدران بستان اللوز التابع لمنزلها للتأكد من ان الاطفال لن ينتزعوا شيئاً منها . كان المنزل صغيراً ومينبسا على نحو غير متقن ومع ذلك فقد بدا انيقاً جداً واكثر نظافة من

مساكن الحاج اسماعيل المنفق عليها بغير حساب . بدأ السيد  
احمدي باعداد الشاي مباشرة ، بطريقة لم ارها من قبل ابدا  
كان الخدم في منزل الحاج اسماعيل يحضرون الشاي الينا من  
قسم خفي من المنزل . ولكن في منزل صلحية لم تكن شمة اجزاء  
مخفية ، بل فقط الحجرة الوحيدة بكومات الوسائد والفرش وصندوق  
الثياب الخشبي القابع في الزاوية ، وآلة الخياطة وبعض  
اللوحات المرسومة بخطوط قلم رصاص غير متقنة ، كانت تزيين  
الحائط الطيني بملاطه المجبول بالقش .

حضر الشاي مسبقا وكان ينتظرنا حارا في ترمس انزله السيد  
احمدي من فوق رف في الحائط ، وقبل ان يخففه باضافة الماء اليه  
ملا كاسا بالماء المغلي من السماور وصب الماء في صحن فنجان  
مقعر ودحرج الكأس فيه . ومن ثم صب ماء طبق الفنجان الذي كان  
البخار يتصاعد منه في الكأس الثاني الموجود في الطبق الكبير  
وبعمله هذا ، بخفة ورشاقة نظف جميع الكؤوس الموجودة على  
الطبق قبل ان يبرد كأس الماء الممتلئ . ومن ثم صب قلبلا من  
مطول الشاي من الترمس في كل كأس وملا بقية الكأس بماء من  
السماور . وبعد ان قدم الشاي سألتني صلحية عن سبب تجميعي  
قصص كردية . فقلت :

— لاخذها الى امريكا . واضعها في كتاب .

أومات صلحية برأسها متفهمة ، وعندما جلست مسكت بعلمة فضية  
مسطحة من التبغ الاذربيجاني اللاذع واوراق السحائر في يدها  
تلف السجائر وهي تدخن بغير انقطاع . كانت تسعل بين الفينة  
والاخرى . كان صوتها اخفض من اي صوت انثوي كردي آخر سمعته  
ولم يكذب دارا عندما قال انها لاتعرف حتى ولا كلمة بالفارسية  
لان جيرد استسلم حالا من محاولته التواصل معها .

كنت اعرف ان صلحية تتأملنا وتكون رأيا عتيا . كانت  
هيئتها برمته تختلف جذريا عن هيئة خديجة او نسرين او حتى  
مريم . فعندها انعدم الاسراف في التعبير عن العواطف والقهقار

ولا حتى الماحات ضئيلة تنم عن الشكليات . كانت مهذبة تماما تتأكد من وجود وسائد وراة ظهورنا ، وتقدم الشاي لنا أولا وتضع كميات كبيرة من القائد امامنا لكي لا نتعرض لخطر تذوق اي شيء مر ، ولكنها كانت متحفظة تماما وحتى مقتضية لسي حديثها . في البداية تحدثت الي على نحو مبهم ، وذلك عندما كانت لانزال تكون رأبها عني . لم يك هناك ادنى ريب في انها كانت والدة السيد احمدي .

بينما انقضى الوقت رويدا رويدا ،هدأ الجو في الحجررة. اعلنت صلحية انها ستروي قصة " الدموع الذهبية " . امتلأت الحجررة بالمستمعين من بناتها وكنتها التي كانت ترفع ولدها فسي الزاوية وبعض الجيران . لم ينبس احد ببنته شفة حالما بسدا صوت صلحية الاجش بالصيغة التالية : " كان ياما كان ، وما كان سوى وجه الله " ومن ثم دخلت بغنة في حكاية طويلة معقدة عن فتاة تدعى منور فعندما تبكي ،منور يتساقط الذهب من عينيها ، وعندما تضحك ،فانها تضحك وريدا .

الحكاية تبدأ كمايلي : يحكى انه كان هناك رجل فقير مع زوجه وابنه " ولكن والد منور يتلاشى تدريجيا من الصورة عندما تموت زوجته الاولى ويتزوج ثانية ،ويهبو حظ منور مع وصول زوجه الاب والاخت من زوجه الاب ،رغب الامير المحلي في الزواج منها لجمالها وحسنها ولكن زوجه الاب تفلح عيني منور وتسجنهـا ، وتستبدل بها ابنتها لتحل محلها في ليلة الزفاف . وبعد سنوات عديدة من السجن تنجح منور في الهرب مع بائع متجول كان قد مر بالقرب من قهو المومن الارضي الذي حبست فيه . ولأن زوجه الأب كانت تحتاج الى ورود منور وذهبها لتعافى على تنكر ابنتها فقد استأجرت عجوزا ساحرة لتبحث عنها فتطير هذه على ظهر فرس هرمة ، الى ان تعثر على الفتاة في منزل البائع المتجول. يمضي البائع المتجول ،الذي كان قد اصبح مثل اب لمنور ، فسي بحثه عنها سبع سنوات قبل ان يجدها ثانية وهذه المرة في كهف

كانت زوجة الاب قد خبأتها فيه . ولكن منور لاتجتمع بأبيها  
الى ان يصل ابنهما بعد سنوات عديدة اخرى . كان ذلك هو نفس  
الابن الذي وضعته منور بعد ان حبستها زوجة الاب بنسعة اشهر  
في قبو الموعن .

شكل ولد منور صدمة ليّ وذلك لأن ممارسة الحب قبل الزواج  
محرم لدى الاكراذ . ولكن الاختلاف الطبقي الواسع بين منور  
والامير ربما يوضح خضوعها " لعدم صبره " كما عبرت عن ذلك  
راوية القصة . ان ممارسة الحب قبل الزواج لم يكن الشيء  
المدهش الوحيد في " الدموع الذهبية " فعندما يعثر الابن  
المفقود منذ زمن طويل بغير معرفة منه على امه ، وهي تقيم في  
كوخ وسط غابة مع " والدها البائع المتجول " يقع في حب هذه  
الفتاة العمياء الحسنة ، ويقرر ان يتزوجها . تعرف منورهويته  
ولكنها تستمر في اقامة مراسم الزواج كوسيلة للوصول الى  
الامير لتخبره بما حدث لها . وتسرد منور في حفلة الزفاف  
حكايتها على الضيوف المجتمعين . والامير الذي يعترف بأنه قد  
خامره شك غامض بأن زوجته ليست منور يمتلئ ابتهاجا بعشورة  
على خطيبته المفقودة لزمن طويل . ويمن الله عليهم باعادة  
البصر لمنور وهي معجزة صعبة التحقيق ، وذلك لأن زوجة الأب قد  
انتزعت عينيها من رأسها تماما . ومن ثم تُشد زوجة الاب وابنتها  
الى زوج من الاحصنة حيث يجرانهما الى خارج المدينة فيسحق  
جسدهما ، وتتبعثر اشلائهما في جميع انحاء الريف . تمكث منور  
في المنزل وتحيا حياة مرفهة دون ان تقع في ايدي المضطهدين  
ثانية .

وفي النهاية اهدت صلحية سردها للقصة لي بهذه الكلمات  
" بصحة وسعادة الخانم " بقي الصمت مخيما على الحجرة . لا اعرف  
بماذا كان المستعمون الآخرون يفكرون . من دون ريب انهم قد  
سمعوا القصة عدة مرات من قبل ، ولكن " الدموع الذهبية " كانت  
مفاجأة مثيرة لدهشتي . فمن جهة كانت راوية القصة هي صلحية

ومع ذلك فقد سردت مغامرات منور كما لو انها كانت تقرأها في صفحة كتاب او بالاحرى مغامرات معذبتيها ومنقذتيها ، بما ان منور كانت سلبية اساسا . بدا الجزء الاول من القصة شيئا لا يصدق فكيف نجحت اخت منور من زوجة ابيها القبيحة ان تمثل شخصيتها لعقود عديدة من الزواج ؟ ولكنني عندما فكرت بالمدى القليل من الزمن الذي يرى فيه الحاج اسماعيل زوجاته ، بدت لي القصة معقولة . وكيف لم يعرف الامير منور ، حبيبته السابقة ، عندما زارها في الغابة خلال مفاوضات زواجها من ابنتها ؟ وهذا شيء بسيط للغاية ، لقد وضعت غطاء . ان الوحشية في القصة هي امر واقع مثل حكايا " جريم " قبل ان تطبع لأجيال من الاطفال الامريكيين المحميين ، ولكنني لا ازال انكمش خوفا لدى التفكير بكيفية اقتلاع زوجة الأب عيني منور دون رادع من ضمير . فعندما تضع ابنة زوجة الاب ابنا قبيحا في نفس الوقت الذي تحمل فيسه منور على نحو اعجازي طفلا ذهبي الشعر ، بعد تسعة اشهر من الاسر العسير ، تضطر زوجة الاب لأن تدع ابن ابنتها ببساطة دون غداء ، الى ان يفتك به الجوع ، ويعيش ابن منور لأنه ضروري للحفاظ على مظهر ان الامير قد تزوج من منور الحقيقية . وفي الخاتمة لاتنال زوجة الاب وابنتها الا ما تستحقانه . كان طريق العودة من " الدموع الذهبية " الى حجرة صلحية الطينية طويلا . فاحت راحة الغداء عندما قدمته كنة صلحية . خلت الوجبة من اللحم ولكنها كانت وجبة ممتازة مكونة من اوراق العنب المحشوة الى جانب البيض والبندورة المغلية . لقد تناولنا هنا ولأول مرة طعامنا من طبق شعبي ، بدون صحن او آنية مائدة فضية ، بل نلتقط الطعام بالخبز فقط . اكلت قليلا جدا ، لأنني كنت قد عانيت من نوبة اسهال في الليلة السابقة . عند ذلك سيطر عليها الغلق فجأة فقالت :

— ألا تحبين الطعام ياخانم ؟ اخبريني عما تحبين كي اعسده لك في المرة القادمة التي ستأتين فيها .

اعترضت على ذلك قائللة ان الطعام لذيذ وكل ما في الامراني متوعكة قليلا . بعدئذ التفتت الى دارا تساله عما احب ممينسا في محادثتنا الى ان اكدت لها اني احب " الدولما " الكوسيا المحشوة ، عندما تكون معدتي في حالة سوية . ولكنها كانت قد اقتنعت اني قد جاهلتها فقط . لاحظت ان احترام صلحية لي كان يتنامى اكثر كلما سمعت كيف كنت اتحدث الكردية وانني كنت اعرف كيف اعبر عن نفسي على نحو مهذب ، اتسعت عينا دارا عندما رأني اقلب كأس شايي على جنبه ، لأشير الى اني قد اخذت كفايتي ، لم يكن قد مر ببالي قط انه قد تكونت لدينا حتى ولو فكرة غامضة عن الاتيكيت الكردي .

كانت صلحية جديفة كابنها اكثر مما ينبغي وكانت تعامله ليس كما هو صبي ذو خمسة عشر عاما ، بل كند لها ، قامت جارة لها بزيارة قصيرة لتسأل دارا المساعدة في تصفية حسابات دكان اللرية الصغير الذي كان يدبره ، وصلحية ايضا اخذت ابنتها جانبا لسؤاله تميحه حول امر لم استطع سماعه . ابدت ملاحظتي لصلحية قائللة :

- ان ولدك ذكي جدا .

فجالت متبا هبة :

- نعم ، اعرف . انه ذكي منذ طفولته . لفه مني ونكلم جميع اطفالي في السنة الاولى من عمرهم . الاكراذ . اذكبا . جدا .

كانت صلحية تدير منزلها وحياتها بنفسها مستقلة عنسن اي رجل ، لم تكن تشبه مريم في طبيعتها . كان لصلحية ستة اطفال وثلاثة منهم كانوا شانا . كانت الاخت الكبرى قد تزوجت واقامت في قرية اخرى . وصلحية هي مدبرة منزل جيدة . فبستانها المنظم ومنزلها وطبق الطعام الذي قدمته وفناء دارها النظيف ، كل هذا يشهد بذلك . كانت ابنتاها الصغيرتان تحضران مدرسة القرية وهناك دارا ايضا جوهرتها . كان دارا قد نال منحة للدراسة في مدرسة ثانوية في ريزاي . سينتسب الى كلية ما وسيهتتم بوالدته عندما تبلغ من الكبر عتيا .



عند فترة العصر تناقشنا حول مصدر جميع الحكايا التي  
تعرفها صلحية، فقالت :

- لقد تعلمناها انا واخوتي من والدتي . انهم يعرفون الكثير  
من القصص . فأخوتي مشهورون بحكاياتهم .

لقد سحرني ذلك ، فالدموع الذهبية كانت قد اثارت رغبتني في  
المزيد من الحكايا . هل يمكننا الذهاب الى قرية اخوتها .  
ابتهجت صلحية لهذه الفكرة وقالت :

- لم اذهب الى هناك منذ سنوات عديدة .

عند ذلك تخيلت اتحادا عائليا بعد غيبة طويلة ، فحذرتها  
قائلة :

- تعرفين اننا لن نقوى على البقاء هناك طويلا . ربما ليوم  
او يومين فقط .  
فأجابت :

- هذا مناسب جدا لي . اذا كان لابد لك ان تذهبي فسأذهب  
انا ايضا . لن تتوقع امي مني البقاء

تأملت الخدود المسطحة ، المسقرة لتعرضها للشمس والعينيين  
السوداوين الحادثين . كيف نجحت صلحية بعدم العودة الى قريتها  
لتقويم مع اخوتها وامها عندما توفي زوجها ؟ كيف دبرت امرها  
في العيش ؟ لقد اثار فضولي تصور روعيتها وسط قريتها الام .  
هل ستبدو صريحة ومستقلة هناك كما بدت لي هنا ؟

قررت ان نعود الى بازو بعد بضعة ايام مع دارا ، نأخذ  
صلحية ونواصل طريقنا الى زيلا ، القرية التي شهدت شباب صلحية،  
حيث ساجع الكثير من القصص واسجلها .

تحدثنا انا وجيرد ودارا في طريق مودتنا الى ريزاي من  
الرحلة القادمة . وبدون ان يبدي دارا اي تعليق لاحظت ان موقفه  
تجاهنا قد تغير . فلم يبدر منا اي تصرف سخيف . وقد تقبلتنا

صلحية . وفي الواقع اصبحت والدة دارا مهذارة تقريبا قبيل  
مغادرتنا .

– رجاء تعالي وامكثي معي متى شئت .  
قالت ذلك وهي تصافحني بشدة، بيدها النحيفة المرنة .

بعد هذه الرحلة اتي دارا الى المنزل في مواعيد دقيقة ، كما  
كان من قبل ، يعمل بجد وينجز عمله بما يمليه عليه ضميره كما  
كان يفعل ذلك ابدا . شرعنا في محادثات طويلة من القلب الى  
القلب فجأة .

حصل تفاهم بيننا للمرة الاولى . وادركت ان حرصه لايشير  
بالضرورة الى عدم وده او الى احتقاره لي . وادرك هو ايضا  
انه يمكن للاجانب ان يتكيفوا مع الاساليب الكردية ، وان تخبطاتي  
لا تعني بالضرورة انني شخص بليد ميثوس منه . شعرت انه يحترمني  
وشعرت اني احبه بالقدر الذي كنت اريده في البداية . لقد  
كان صبيا مدهشا ، يختلف عن أي امرئ آخر التقيت به فسي  
ايران . وبغفوية مني ، وبعد ذلك اليوم في سـازدو ودون أن  
أستأذنه توقف عن كونه السيد احمدي ، وجرى اسمه على لساني  
واصبح ببساطة دارا فقط .

اكلني الشوق لزيلا ، لاعتقادي ان الرحلة الى قرية والدته  
يمكن ان تفشي المزيد عن دارا وعن مصدر قوته ، كانت زيبلا  
القرية الكردية الاولى التي حددت موقعها على خارطتي كانت هذه  
الخارطة اكتشافا ناد را اعطاني اياها ضابط في الجيش الامريكي  
عندما رأى مدى رغبتني في اقتنائها . وحتى ذلك الحين لم اكن  
اعلم بوجود مثل هذه الخرائط ، فكل الخرائط التي قرنا على  
سراشها كانت تظهر ايران مثل امة ذات مدن متناثرة هنا وهناك  
ولاشيء يتوسطها . ولكن هذه الخارطة التي رسمها الجيش البريطاني  
سنة ١٩٤٠ كانت مغطاة بأسماء قرى وجمال وانهار فصلية صغيرة  
فهي – كما اخبرونا – لاتعرض للجماهير للبيع ، وهي غير قانونية

ولاتجوز الا للاستخدام العسكري فقط .

بعد ان افاق دارا من دهشته لاقتنا اياها استغرقنا  
- ثلاثتنا - في التحديق فيها ، محاولين العثور على الطريق  
الاسرع والاقصر الى زيلا . رأينا خطا رفيعا يتجه صوب الغرب فوق  
الجبال من باردو، وكانت المشكلة الوحيدة ان دارا لم يسبق  
ان ذهب عبر هذا الطريق الجبلي ابدا . ربما كان هذا الخط فوق  
الخريطة درب بغال مهمل . قام دارا بتوجيه اسئلة عديدة ولكنه  
لم يكتشف شيئا محددًا . لم يكن احد من الذين يريدون الذهاب من  
باردو الى زيلا يقطنني سيارة . كانوا يضطرون الى اخذ العافلة  
التي تسير فوق الطريق المعبد فقط ،الذاهب للشمال باتجاه مدينة  
شاهبور حيث يمكنهم ان يأخذوا حافلة اخرى تقودهم نحو الجنوب  
والغرب على طول الطريق الحصوي الى سهل سوما .

في صباح يوم رحلتنا اقنعت جيرد بضرورة محاولة السير عبر  
الطريق الجبلي . ان خطا على الخريطة ، بالنسبة لي ، كان يشير  
الى طريق ، والطريق في الجبال كان اقل بقدر ثلث المسافة من  
الطريق المعبد والحصوي المنحدر ولكني اضطرت بعد ساعتين من  
اخذنا صلحية من باردو ، للاعتراف بأن الخط ليس طريقنا فبعد كل  
هذا الوقت لم نكن قد اجتزنا سوى اربعة كيلومترات وقد حصل  
ذلك برفقة كل المسافرين - من صلحية ودارا واخذت دارا الصغيرة  
وانا - ونحن نتمشى ، بينما حاول جيرد ان يتغلب بالسير على  
حفر وتشققات ما بقي من هذا الطريق الوعر . وعلى الرغم من  
اني كنت الوحيدة التي اصرت على السير في هذا الطريق المختصر  
كنت الاولى ايضا التي رغبت في التخلي عنه . كان الاكبراد  
مستعدين لأي شيء فالسيارة لم تكن لهم وكان جيرد يستمتع بتعدي  
السير فوق درب البغال . وعندما اختلف في منعطف لم يكن جليبا  
لنا،مالت السيارة كثيرا الى الجانب المنحدر العمودي من  
الطريق حيث تأكدت منذ ذلك من انني سأجد جيرد في اسفل الوهد  
في الطرف الآخر . ولكن الطريق انتهى ببساطة عند الزاوية تماما

لذلك كان علي ألا احاول اكثر من ذلك . وكان لابد لنا من ان نعود ادراجنا .

ما استهللنا به كبداية مبكرة جميلة تحول الى حملة استغرقت فترة الصباح كله ، بينما ارتفعت الشمس في السماء وصار الجو حارا . لم يكن هناك فراغ للسير بالسيارة من ذلك المكان لأن الطريق كان ضيقا وماظلا الى حد بالغ . كان علينا ان نديرها باليد ، نرفع النهاية الخلفية عن الأرض وندير النهاية الامامية في الاتجاه المعاكس . وقد كسبنا الكثير من الوقت عند انحدارنا نحو الطريق الى شاهور على الرغم من انه كان على كل شخص منا - عدا جيرد - ان يمشي معظم طريق العودة الى بازو . يلتقي الطريق الجانبي بالطريق المنحدر الذي يعبر النجد السهلي الى الغرب من البحيرة ، تماما قبل ان يصل الطريق المعبد الى شاهور . قادنا هذا الطريق الترابي الى اكثر البقاع جديسا وفقرا من مجمل الاراضي التي مرنا بها في اذربيجان على الرغم من ان اعياننا كانت قد تعودت حينئذ على الغبار غير المنقطع في المناطق الريفية الكردية ، حتى اننا عندما وصلنا الى منطقتنا فيها شلالات رقيقة جدا ، ظننا اننا قد وصلنا لشلالات نياغارا . خرجت والتقطت نصف درينة من الصور . لم توتر في نفسي هذه الصور ولم تذهلني لغرابتها المفرطة الا بعد عودتي الى الولايات المتحدة .

كان بمحاذاة الشلال مجرى نهر قليل الماء وارض مشجيرة باشجار قزمة ، ضئيلة الخضراء رمادية ، نمت بشكل عشوائي في ارض متآكلة بفعل التعرية وعوامل الطبيعة . كان عدد مشير للدهشة من الاغنام يلوك هذه الخضرة الجافة ، بينما كنا نعبر القرية تلو الاخرى . اندهشت لكيفية امكانية هذه الارض جعل تيرغاوار وميرغاوار تبدوان مثل جناش عدن ، وان تمد هذا الكم الهائل من الناس بالخيرات . ولكن المكان برمته بالنسبة لصلحية كان مغمورا بتوهج ذهبي للذاكرة . اشارت بابتهاج الى احدى القرى ومن ثم الى واحدة اخرى باسمها . هنا تقيم صديقة وهناك يقيم ابن

عم وفي قرية اخرى كانت لها ابنة شابة لم ترها لسنوات عديدة.  
لم اصدق اننا كنا فوق الجبال وعلى بعد عشرة اميال فقط مسن  
منزلها الحالي . كان الخط القاسم بين حاضر صلحية وماضيها  
نهائيا وحاسما لدرجة ان القرى التي شهدت طفولتها والأخرى التي  
شهدت حياتها الزوجية بدت وكأنها في بلدين مختلفين. اخيرا  
انصرفنا عن الطريق وتسلقنا صاعدين نجدا موهديا الى قرية  
واقعة فوق هضبة على شكل رغيف طيني . نزلنا تحت نوافذ منزل  
طيني كبير ذي طابقين . عندما خرجت من السيارة تيقنت من ان  
الخرقة مسألة نسبية . فقد كان السهل الذي تجاوزناه اكثر  
خرقة بالمقارنة مع هذه القرية ، فهنا لم يكن يوجد حتى اشجار  
ذات خضرة رمادية ، بل محض تراب لاتلمح فيه حتى ولاورقة عشب  
على مرمى البصر .

قادتنا صلحية ودارا بلهفة صعودا نحو الطابق العلوي من  
المنزل ذي الطابقين ومررنا بالحيوانات المتجمعة في الطابق  
الارضى في حجرة كبيرة حيث التقينا فوقها بموسى اخي صلحية  
الاكبر وصاحب المنزل ومضيفنا. حالما دخلنا امتلأت الحجرة بسرعة  
على سعتها بذكور واناث مراهقين مصطفين بجانب الجدران مسح  
اطفال قد تكتلوا عند المدخل يمدون اعناقهم الى الامام ويحدقون  
ليروا الاجانب . ألفت ام صلحية التحية على ابنتها وبدت مسنة  
بفكها العديم الاسنان وجلدها الرخو الجاف . كان الاخوال اخوة  
صلحية يبتسمون ويحاولون التحدث معنا . بينما كان البقية  
يحدقون فينا وفي النهاية احس مشيفونا بأن الفوضى ازدادت عند  
الباب ، فذهب احدهم الى حشد الاطفال الممزقي الثياب وطردهم  
بعيدا . ذهبوا بأسرع مما كنت اتوقع ورجع احد الاعمام ونقل انه  
اخبرهم بأنني طبيبة جديدة وقد اتيت لاحقهم بالابن . ذهب  
مجموعة من الاطفال المحبين للمغامرة من الذين اخرجوا من الردهة  
الى سلف احد المنازل المجاورة التي كانت في مواجهة احمدى  
نافذتي الحجرة التي كنا في داخلها واستأنفوا تهديفهم فينسا  
بجراحة . كانوا واقفين مثل الاصنام مستعدين تماما لالتقاط صورة

لذلك أمسكت بألة التصوير ووجهتها نحوهم ، عندها فرّ جميعهم  
فزعين . ضحك جميع الموجودين في الحجرة . فأوضحت إحدى النساء  
قائلة :

- لو انك أخبرتهم فقط انها آلة تصوير وانها ليست بندقية  
لما فروا هاربين .

توقفت مستغربة من ذلك . اي نوع من القرى هذه، حيث يبدو  
فيها الاطباء اشباحا مرعبة ويتوقع فيها الاطفال ان يسدد الغرباء  
النار اليهم ؟ .

ولكن شمة حقيقة واحدة مؤكدة وهي ان هذه ليست دستان-  
كان عدد الجالسات من النساء تقريبا يعادل عدد الرجال فسي  
حجرة الاستقبال الطويلة هذه ، بدا ان حضور جيرد لم يسبب حثى  
ولو قدرا ضئيلا من الاختلاف . فلم تفع اي منهن خارها فوق فمها  
وكانت جميع النساء يتحدثن بصوت عال وبعنفوية مثل الرجال . لم  
يقدم الشاي خادم ، بل صبي صغير من العائلة .

فكرت بسيارتنا بقلق . فقبل ان نغادرها تماما ، كنت قد  
لاحظت ان حشدا من اطفال القرية والماعر يصعدون فوقها والاطفال  
يجاولون دون شك ان ينزعوا كل اللواحق المشيرة ، التي لم تكن  
ذات وصلات ملتصمة ، والماعر تبك عن الظل . قام جيرد الى  
النافذة ليتفقدنا ويبلغنا محذرا انه يبدو له كما لو ان  
سيارتنا ستجرد خلال ساعة او مايقاربها . فطلبنا من مضيفنا  
ان يبعدوا الاطفال عنها ، ولكنهم نظروا الينا بارتياب . ماذا  
نتوقع ؟ بما انه لا توجد سيارات في زبلا وباب الفناء لم يكن  
واسعا على نحو كاف لنسوقها الى الداخل ، فان على سيارتنا ان  
تبقى في ميدان عام . ولكي يظهر واحترامهم لنا ، فقد صرخ احد  
مضيفينا بالاطفال ولكن في الحقيقة ، لم تكن هناك وسيلة  
لابعادهم . كنا هذه المرة وسط قرية ، وبين اناس عاديين بدلا من  
ان نكون في الاعالي فوق الهضبة مع " الخانات " . ولكن صلحينة  
اهتمت برغباتي اهتماما شديدا ، فبعد ان انتهت من السوال عن

أخبارهم وعن الأشاعات شرعت تردد كيف انني قد جفت الى هنا  
لاجمع قمصا لأخذها الى امريكا ، بعد تناول غذاء مكون من الارز  
المطبوخ مع القليل من قطع اللحم الغضروفية المتناثرة بينه  
لتعطيه نكهة لذيذة ، رتبت صلحية جلسة لسرد القصص وكسنان  
ميكروفوني ينتقل من يد مسقرة بالشمس الى اخرى ، بينما امتلاء  
شريط المسجلة بقمص الجان الطويلة الشبيهة بالدموع الذهبية .  
وكما لو ان سعرا حل بالحجرة حيث كان كل شخص يصفى بعناية الى  
القصص ناسيا ايانا - نحن الاجانب - وربما حتى تلك الأرض الخالية  
من الاثاث والشمس الحارة ومشكلة تجميع الغذاء ، فلم يكن  
يشغل تفكيرهم حينئذ سوى الاميرات والتنانين والساحرات والفرسان  
لم اصدق كيفه امتلاك مسجلتي بهذه السهولة ، ونظرت الى صلحية  
بامتنان . ابتسمت لي هي ايضا . ولكن التسجيل والقصص لا يمكن  
ان يستمرا الى الابد . فقد سألني احدهم :

- هل صحيح ان الامريكان يكسبون الكثير من المال ؟

لقي هذا السؤال تقبلنا اكثر ، فقد اعتبرنا صيغته افضل  
من الصيغة الاخرى وقد كان يطرح بهذا الشكل : كم تكسبون من  
المال ؟ ربما ان طريقة السؤال هذه كانت ملائمة اكثر لزيلا  
التي لم يكن يسود فيها النظام الاقتصادي المقدر بالعمل . قفل  
مضيفونا العاليون على مودونتهم القليلة من الارز في حجرة  
صغيرة كما لو انها كانت جواهر . من الواضح انهم لا يأكلون  
اللحم . كان غذاؤهم الرئيسي مودفا من اللبن المصنوع من  
حليب الغنم والخبز المصنوع من القمح الحكومي . لم يكن هناك  
حتى شخص واحد ممتلىء الجسم في الحجرة .

- هل تعلم انه بإمكان العمال في امريكا ان يكسبوا مالا  
اكثر من اسنادا في الجامعة .

تطوع جيرد بالجواب على سوء الهم . وساد السكون ثانية  
فالاجانب الآن على وشك سرد بعض القصص عن بلادهم واناسهم . وسأل  
احد الرجال الجريئين :

- كيف يمكن ذلك ؟

فأجابه جيرد :

- حسنا ، لا احد يعطيهم الكثير من النقود . اما العمال في امريكا فهم يطالبون بالمزيد . انهم يحدثون اضرابات . عند ذلك نظر مضيفونا الى بعضهم بقلق وقال آخر :  
- كان قد قام بعض العمال في ريزاي باضراب .  
وسأله جيرد :

- كم استغرق من الوقت ؟

- ربما يوما او يومين .

- هذه المدة ليست طويلة بما فيه الكفاية .

- ولكنه خطر ، خطر جدا .

قالوا ذلك وهم ينظرون الى جيرد بامعان كما لو ان لديه الجواب الذي يحتاجونه فقال جيرد معلقا :  
- لقد كان خطرا في امريكا ايضا . فقد قتل بعض الناس بعد الاضراب .

لم يتفوه احد بكلمة . وكانوا ينقلون نظرهم بيننا وبينهم .  
أممات لجيرد برفع حاجبي لتحذيره ، فان مجرد تقرير عن هذه المحادثة سيكون كافيا لطردها من ايران . ولكن المجادلة لم تمض الى ابعد من ذلك . كان واضحا ان هؤلاء القرويين بوجوههم ذات المسحة الترابية ، يريدون سماع المزيد ولكنهم كانوا خائفين .

ازدادت عممة العجزة اكثر ، فقد لاعت لنا مظلمة لسدى وصولنا تحت اشعة شمس الظهر العديمة الظلال ، وبدأت أتساءل من وضع سيارتنا ثانية . كانت امرأة تدعى خيال ، قد التقطت ميكروفوني لتروي مراسيم زفاف عروس لابنها . ولكنني نسيت بعد ذلك فقد كان الوقت قد حان للرحيل ومع ان السير في ذلك الصباح كان مرهقا ولكن الطريق لا يمكن السير فيه في الظلام .



حدث شيء غريب لدى نزولنا قرب السبارة ، فقد بدا كما لو ان القرية كلها قد تجمعت لتودعنا . شعرنا كما لو اننا قد قضينا الاشهر الخمسة الاخيرة في زيلا ، بدلا من الخمس ساعات الاخيرة . طالت الحشد بصفا بالتقاط صورة له ، لذلك فقد التقطت صورة له اظهرت الصبية فيه مصطفين في المقدمة وهم يلوحون للكاميرا ، وفي خلفية الصورة كانت الشمس تأمل خلف الهضاب القاحلة وهي تشكل تخوم السقوف المستدلة لأكواخ السماد المخزون كان من المستعمل صعود السارة مباشرة مع مثل هذا الحشد، وبينما كانت صلحية تودع اقاربها بدأ كل شخص يسألنا عن سبب عدم بلقائنا وسمعت صوت خيال يقول :

— ألا تريدان ان تحضري حفلة زفاف ولدي ؟

التفت اليها وقد لاح على وجهي التردد واللهفة . احس العبد من القرويين ان حفلة الزفاف قد لقيت اهتمامي . فرددوا قائلين :

— نعم العرس . العرس . من الموء كد ان المرأة الاجنبية لا تريد ان يفلوتها العرس .

لقد كانوا محقين في ذلك . ولكنني نظرت حولي الى الوجوه الهزلة والغريبة الملوحة بالشمس المحيطة بي ، وشعرت بحيرة في نفسي . قال شيرو احد اخوة صلحية :

— ابقي ، ابقي . يجب ان نبقي .

اشبهت دوامة من الابتهاج والخوف في قلبي . والحقيقة كل ماكنت اريد ان افعله هو الخروج من زيلا الى الأبد ، ولكن كيف مع وجود عرس كردي ؟! . لو انه فقط كان في قرية الحاح اسماعيل حيث يمكن لسيارتنا ان تكون بأمان ، كما سنكون نحن ايضا . وبينما كنت والفة احاول ان اقرر ، كانت هناك امرأتان على مقربة مني تمان شعري باصابعهما وسمعت احدهما تسأل الاخرى :

— هل يمكن ان تكون امرأة متروجة حقا ؟ انظري الى شعرها وبشرتها ، لاسد انها فتاة مازبة .

بدأت اناقش جيرد من فوق الروءوس . هل يمكن ان نعود  
لنحضر هذا العرس ؟ فقال جيرد مجيبا وترك القرار لي :  
- نقولين دائما انك تودين روية عرس كردي .  
فالتفت الى صلحية قائلة :  
- متى سيبدأ العرس ؟  
التفتت بدورها الى اخوتها وسألتهن وقالت مجيبة على  
مراحل :

- ربما اليوم هذه الليلة . ربما اليوم الذي يليه . أو حتى  
ربما اليوم الذي بعده .

اقلقني عدم التحديد في ذلك ، لماذا لا يعرفون متى سيبدأ  
العرس ؟ ربما انهم قد اختلفوا كل ذلك لاغواشي بالبقاء . كنت  
اعرف ان هذه ليست تركيا ، ومع ذلك فان المشاعر التي اشارت لها  
فيّ زيلاً ذكرني بيوكسيكوسا . لقد كنت اعني بالنسبة لهـوءلاء  
القرويين المنعزلين " الاخرى " وهذا امر مفروغ منه . اردت  
الذهاب ولكني لم ارغب في تفويت روية عرس كردي . اخبرتنسي  
صلحية قائلة :  
- يمكننا العودة . لا اظن ان العرس يبدأ في هذا الحين .

اتخذت قرارا مع فكرة اخذ فترة من الراحة بعيدا عن القرية .  
سنعود للعرس . ولكن سيكون في غضون يومين ، بعد ان اكون قد  
اخذت كمية جيدة من الطعام والنوم ، وبعد ان تكون قد سحمت  
لي فرصة لارتداء ملابسي الكردية ، ربما لن يحدق في سكان زيلاً  
كثيرا لو اني لبست مثل كردية .

كانت معنويات صلحية وفنار اخت دارا الصغيرة مرتفعة  
عندما التقينا بهما في البازار في ريزاي بعد يومين من ذلك .  
تمتعنا برحلتهم بعيدا عن بازو وذلك بقضاء معظم وقتهم  
ملطختين بوحل السهول الملحية والحديدية قرب البحيرة . كانت  
خديجة قد ضمرت شعري في ذلك الصباح اربع عشرة ضفيرة وريطتهما  
بشريط ملون . لقد احدث التغيير الذي نشأ عن ملابس وتسريحة

شعري بالطريقة الكردية شعورا بالروعة والرهبة لدى صليبية  
وداراء نزل التي دارا بامعان كما لو انه لم يرني من قبل اسداه  
ملكنا طريقا آحر الى ربلا اوصلنا في اقل من ساعتين وندمنا  
وصلنا بجمع حشد كبير شاسع . رحبوا بنا كأصدقاء قدامى، ولكن  
الحوار على سوء الي المباشر كان : لا ، لم تبدأ العرس بعد .  
ومني سيداً ؟ حالا ، الآن نعمانا ، عرضوا الضر مؤكدين ذلك ، كنت  
لا ارال غير فادرة على فهم سبب عدم معرفتهم بتوقيت عرسهم ، وفي  
فغون فترة العصر واصلت سوء الي مني سيداً العرس ، بغض النظر  
من مدى محاولتي في السماس الراحة . قدم الهينا الشاي والغذاء  
ولمنا بحولة الى بركة مياه شرو السطحة الواقعة بحانب سستانه  
حيث كان قد روع اشجاره في اخاديد معدثة بتناشر مياه العطس  
بعيدة عن مركز القرية . وبما ان موسى كان يملك البركة ويستان  
اشجار البستولا في مكان ناء في الجانب الآخر من القرية ، فلقد  
أكدت من انه لاند من ان اخوي صلحة هما من بين الرحسـال  
المسورس في القرية ، ولتكن ملابسهم كانت رثة واسنانهم منفرقة  
واحسادهم بحفة الى حد كسر ، فإذا كان هؤلاء هم الاسياد ، اذا  
فكيف يعيش الدنيا ؟

واصلت سوء الي عن العرس بقرية حتى المساء عندما نظسـر  
حرد من خلال نافذة المحرة الكميرة في الطابق الثاني ورأى  
مجموعة من ارسعه رجال يرتفون كتفا لكتف على طول ارفة زبـسلا  
الطينية . وقد ايلعنا مضيقنا ان هذه تمثل دعوة تفلدديبية  
للبروسس ليأنوا الى الاحتفالات . بعد ذلك سافرتة فصورة ظهر  
رجال عرسان حدا حد مدخل ساء حرة الاستفسال الطويلة التي  
كنا نلعي فيها يوما . نصب موسى مضيقنا ، كراسي معدنية قابلة  
للطي لهم حالا . كان كلا الرحس برنديان بدلات خضراء فاتحة  
على الطرار العربي . ولم سرفع الرجلان اعينهما مني منذ اللحظة  
التي دخلتا فيها المحرة الى ان نادياها . شعرت ان اعينهما كانت  
سوهجان نحو الراوية المظلمة ، حيث كنت حالة هناك بحاسـس  
صلحة . ولست ما اسهرت صلحة هذه القرية لتعيد ترتيب

اغشية رأسي ودون ان تستشيرني اخذت وشاحي البرتقالي عن رأسي ببساطة وبذلك انكشف شعري برمته . وقد افتن هذا المنظر الرجلين وسمعنا احدهما يقول للآخر عبر الحجرة :  
- لماذا لاتتخج كل ملابسها ؟

استمرت صلحية بالنعناية بوشاحي بافراط مضيضة وشاحا اسود من عندها وبذلك اصبح لدي اثنان منها . كانت تتصرف كما لو انها لم تسمع ملاحظة الرجل ولكني لم اقول على طرفها عن تفكيري .

اصبحت زيلا مروعة في الليل اكثر منها في النهار حتى، ولم امل الى هذين الرجلين الجالسين هناك وهما يرمقانني بنظرات الغرام . وتساءلت في نفسي عما اذا كنت ارجب في الذهاب حقيقة الى العرس بعدما اتضح ان هذين هما مضيفانا . ما كان مني الا ان اتمنى ان سلوكهما لن يكون نموذجا عن سلوك الرجال في زيلا ، لانهما كانا يعيشان في مدينة شاهبور وليس في القرية.

نهض كل امرئ في الساعة العاشرة ومشى نحو فناء دارخيال، وحالما وصلنا الى المدخل ذي الحائط الترابي ، شاهدنا صفا من الكراسي المنصوبة باتجاه زمرة محتشدة يبلغ عددها تقريبا اربعين من ضيوف العرس المبتهجين وهم جالسون فوق ارض عبراء . وحالما قادونا الى الكراسي المخصصة لنا ، بدأ حشد الناس الجالسين على الكراسي بالتحديق فينا ، كان كما لو اننا كنا فوق المسرح ، لم تكن هنالك اضواء موضعية مسلطة ، بل كان يوجد فانوسان يصدر عنهما طنين ويشعلان على نحو متقطع بالاضافة الى ضوء القمر ، ليجعل كل شخص من حولنا منظورا على نحو غريب .

كان يقبع في مكان مرتفع اثنان من " الدنغ بيچ " وكلاهما يرتديان قبعات شتوية صوفية ثقيلة ، يتبادلان الغناء وقد اتعنت يد كل منهما حول احد خديه او تكورت حول احد اذنيه ، كان ايقاع الطبل عاليا ورتيبا . نهض بعض الرجال والنساء للرقص ولفست

نظري ثلاث فتيات مرتديات على نحو فاخر ، من المحتمل انهن كن اخوات العروس ، كن قد لبسن قماشاً مطرزاً مع اهزمة معدنية رنانة وعريضة وعروات ذهبية تزيينية للأنف .

رغبت فقط في الجلوس لأصغي ولأراقب سابتهاج هذا المشهد الرائع ، القمر ، الطين الجاف ، حلقات تزيين الأنف والمغنيان ولكن ذلك لم يكن ممكناً ، فالانتباه كان ينبغي ان يكون منصباً على الراقصين والمغنيين وعلى الاخض على عائلة العروس ، ولكن بدلاً من ذلك كان الانتباه مركزاً علينا . لم يقو بعض الأولاد الصغار على ابعاد اياديهم عنا . واستمر احد الرجال وفي يده عصاً غليظة بالمجىء والضرب على رؤوس الصغار الاكثر اساءة ولكنهم حالما كانوا يبتعدون ، كان يحل محلهم اطفال آخرون .

سحب شيرو ودارا جيرد لينضم لحلقة الرقص ، ولكني بقيت في مكاني بجانب صلحية . لم ارغب في النهوض لأرقص امام هذا الحشد ولم ارد ان اقترب من الرجلين ذوي البذلتين الخضراوين الفاتحتين ، فقد انضمنا ايضاً للرقص وفي فم كل منهما سجاثر ملفوفة باليد على نحو رخو ، وقد علت وجهيهما تعابير تنم عن الانتشاء . وعندما عاد جيرد من الرقص ابلغني انهما كانا يدخلان الحشيش ، هذا ما فسره سلوكهما الغريب ولكني لم اتيقن انهما يتعاطيان المخدرات . فقد اكد لنا الاكراد في ريزاي انه لم يمس كـردى المخدرات ابداً ، حتى ولو انهم يهربونها بين الفينة والاخرى " انها للعجم فقط " كان السيد خليلي قد ابدى ملاحظته بازدراء ، تساءلت عما اذا كان الرجلان المرتديان الخضراوين الفاتحتين هما الوحيدان في حالة الانتشاء تلك في زيلاً تلك الليلة . من المؤكد تماماً ان اناساً في هذه القرية قد قضا وقتاً في السجن بسبب التهريب .

بدا ان التهديق والرفض سيتواصلان لساعات . كنت انظر بعينين نصف معمضتين ومطرفتين من الارهاق . " هذا شيء عجيب جداً

قلت ذلك موجّهة كلامي لدارا الذي كان قد جلس شائبة . يمكن  
لكلمة " عجيب " ان تعني غريب ، متضمنة معنى " الدهشة " او يمكن  
ان تعني مجرد الغرابة . اختار دارا المعنى الأول ، وابتسم  
قاعلا .

– تعني ان الراقصين راضعون جدا .

عند هذا تجهمت ملامحي . لماذا نكون انا ودارا على كوكبين  
مختلفين دائما ؟ وحاولت ان اوضح :

– كل امرئ يشدد في تحديقته اليّ ، ذلك هو الشيء العجيب .

فقال :

– طبعاً . الناس هنا غير معتادين على روية امرأة اجنبية ،  
وبشكل خصوصي امرأة اجنبية بلباس كردي . نظرت الدارا مستاءة  
من ذلك . ربما ان ارتداعي البسة كردية كان شيئا غير عادي  
بالنسبة له ولكن هب اني كنت هناك حلسة بلباس الجينز ، حيث  
يمكن لكل امرئ ان يرى شكل فخذي او بلباس يكشف عن سائي؟ من  
الممكن ان دارا قد عاش في ريزاي لفترة طويلة لدرجة ان اللباس  
الكردي لم يعد يبدو طبيعيا بالنسبة له .

لاحظت صلحية المتألّفة مع اضطرابي اكثر من ابنها ، اننسي  
مرهقة وانه ينبغي علينا المغادرة . أوامات برأسي ممتنة وسرنا  
ببطء الى خارج الفناء مشكلين رتلا ، وبعد ان شكرنا مضيفينا  
دعينا للعودة لحضور احتفالات اليوم التالي عندما تزف العروس  
فعليا الى المنزل . والمسألة المهمة التي فرضت نفسها لسدي  
عودتنا الى فناء موسى هي مكان نومنا . فقد كنت انا وجيـرد  
قد ناقشنا هذه المسألة طويلا قبل المجيء الى زيلا ، كانت فكرتنا  
هي ان ننام فوق السطح مستخدمين اكياس النوم التي كنا قد  
احضرتها معنا . ولكن صلحية كانت قد حددت مكان نومنا مسبقا  
منذ ذلك الصباح حالما سعدت الى سيارتنا فقالت مشيرة :

– منزل والدتي نظيف جدا . نظيف مثل منزلي ليس فيه بق

الفرش .

كان بق الفراش على وجه الدقة هو ما يغلقني ، ولو اني كنت سأتغاضي عن ذكرهم . عندما قالت صلحة ان منزل والدتها نظيف مثل منزلها اثر ذلك في نفسي لان صلحية كانت مدبرة منزل دقيقة واكثر دقة من اي امرأة التقينا بها في كردستان . ولكن زيلا لم تكن على مستوى مقاييس صلحة . فقد كان لابنة شبرو المغيرة التي كان عمرها يناهز عمر اسنة عمها فنار ، شعر اثنى معقود سدا رمادي اللون من ناعم الغبار والتراب عليه . اما شعسر فنار فقد كان يسرح بيومها بغرتها الطويلة وجدبليتها الكثيفين ، وكانت ترتدي دائما البسة نظيفة . لم تكن المسألة مسألة نقود بل اعتزاز بالنفس . فقد كان دارا و صلحية معتدين بنفسيهما الى حد بعيد . ولكن حتى لو ان نساء زيلا كن مدبرات منازل مدققسات في مسألة النظافة ، فان التطهر من بق الفراش هو صعب عليهن . كان في زيلا اغنام اكثر من ساردو . وفي ارضية حجرة الجلوس الكبيرة التي اراد موسى وعائلته ان تنام فيها يوجد حيز واسع لآلاف من بق الاغنام لترحف خلاله من الاسطبل المتحتي ، ما ولنا ان نصر على النوم على السطح ولكن مضيقا كانا عبيدين . فلا بد لنا من اخذ الفصل حجرة لديهم . وكانت هذه الحجرة تتسع على الاقل لنوم ذبيئة منهم في الليل ولكن مضيقا امرًا على ان تنام وحدنا و اشارت صلحة قائله :

- مثل عروسين .

بعد ان عادت بنا صلحية وزوجة اخوها الى الطابق العلوي ، سؤي فراش ملون بألوان زاهية وسط فوق الارضية على نحو يحسد فيه المرء . ناولتنا النسوة سراحا ونركنا وحدنا لنتمتع بلخامة هذا المكان الطميح المنزوك لنا وحدنا . وحالما اطلشت الانوار بدأ البق يعزونا . كنت ناشئة سبدلتي الكردية بتمامها ونهاية الاكمام الطويلة ملتفة باحكام حول راسي والنسيح الممزوج بالمعطاط مننهاية سروالي قد سحب الى اسفل ، فوق حواربي ، حتى اني كنت قد تركت وشاحي مربوطا حول رأسي . ولكن السق كان ينجح في الاختباء بين ثيابا لئاسي . وبعد مرور خمس عشرة دقيقة شاكدة بأسني لس انام خمس دقائق تلك الليلة .

— علينا ان نحضر اكياس النوم

همست قائلة ذلك لجيرد الذي كان النعاس يغالبه ، ولسبب  
ما بدا ان البق يهمله .

أضأت المصباح المدخر الذي كنا قد احضرناه معنا وأريست  
جيرد اسراب البق الصغير ذي اللون الاسود ، فوافق على الخروج  
على مضض ، ولكنه عاد لتوه خاوي الوفاض . وقال موضعا .  
— جميعهم نائمون في الفناء ، لأننا اخذنا عجرتهم .

بعد عدة ساعات صعوت على فجر رمادي بارد ، من نوم يتخلله  
شهور بالحشرات وهي تزحف فوق جسدي . وبعد ساعة من ذلك قُدم  
لنا فطور مكون من شاي ثقيل وخبز قمح مسطح . ونحو مايقارب  
منتصف الصباح مضينا في جولة اخرى ، هذه المرة الى بركة شيرو .

لم يكن شيرو مثل اكراد آخرين التقينا بهم في زيلا وفي  
اماكن اخرى في كردستان . لقد كان اعز اخوة صلحية عليها . وكان  
له وجه متناول كوجه صلحية وبشرة ضاربة الى الحمرة . ولكن  
بينما كانت عينا صلحية سوداوين ، كانت عينا شيرو خضراوين  
وبينما كانت صلحية تتصرف بجدية ، كان شيرو يتصرف وكأنه خال  
من الهموم . ان الحياة بالنسبة للأكراد هي كطاح مستمر وبالنسبة  
للبيض هي النضال من اجل القومية الكردية ، وبالنسبة لآخرين  
مثل سكان زيلا هي صراع من اجل البقاء . اما بالنسبة لشيرو فلم  
تكن حياته تتسم بسمات من الكفاح ، فقد بدا انه يتمتع بالحياة .

في كردستان لا يغني الناس ولا يرقصون عادة . لقد كنت اطلب  
من الناس باطراد ان يعلموني اغانيا وقد رفض جميعهم ذلك تقريبا  
ان الاغاني كما افهموني هي من اختصاص المحترفين "الدغ بيـوز"  
الذين يغنون في الامراس . كنت اكاد لاعتبر شيرو دنغ بيـوزا  
بصوته الاجش الذي اتلفه الدخان . ومع ذلك فقد احب ان يغني  
وقد غنى لي العديد من الاغاني عندما كنت في زيلا . وكذلك كان



يستمتع بالرقص واصر على ان يتعلم جيرد الرقص بدقة . لقد سُرّ شيرو في الحقيقة لأنني اردت ان اتعلم كلمات كردية جديدة وبينما كنا نجاري السير مع خطواته المرحة على طول الطريق الى بستانه المشجر التقط من الارض نباتات شائكة وفطور السفاك الاكثر تميزا واخبرني عن اسمائها .

عندما وصلنا الايكة تبادل شيرو والصبي الذي قدم لنا الشاي الادوار في غناء السلسلة التقليدية من اغاني الامراس لاسجلها . امسكت صلحية بالمكرفون لأخيها الى ان بلغ اغنية ملأت عينيهما بالدموع ونهضت ثم مضت في سبيلها . استمر التسجيل وفي آخر الامر عادت ادراجها . واوضحت مؤخرًا قاتلة :

— ان الجزء الذي اتوا فيه ليأخذو العروس ذكريني بعروسي لقد كانت فترة كئيبة ومليئة بالاس .

اضطربت لدى رؤيتي صلحية تبكي . فهي لم تكن ،شنة ولا قاسية بل عاطفية جدا . ولكن خيّل الي انها كانت قد تركت مشاعرها وراءها . والا فكيف استمرت في العيش مع الحظ السيء جعلها زوجة ، رجل مسن وتركها ارملة مع ستة اطفال ؟ تساءلت عما اذا كانت تبكي لفراق زيلا على الرغم من ان بازدو كانت مبهجة اكثر بكثير . ولكن بالطبع ما كان لها ان تعرف ذلك وكأي عروس تقليدية لم تكن قد رأت زوجها المستقبلي ولا منزل المستقبل ايضا .

بعد وصلة الغناء تلك ، قرر شيروا ان يعلم جيرد الرقص. شكل الرجال صفا تحت الشمس الحارة ،بعيدا عن الاشجار وتماسكت الايادي وبدؤوا بهز اكتافهم ،وتمايلو في مشيتهم ،قفزوا من ثم جثموا في ذلك الرقص السريع الذي يوده الرجال الاكراد . كان شيرو يلوح بوشاح في يده والصغير يغني . وعندما انهكنا هذا اللهو قلنا عائدتين الى القرية .

مند العودة الى الحجرة الكبيرة الممتلئة بدأت الحاجة

الى النوم وبدأ قوص اليق وشعور عام بالخوف بازعاجي . لقد  
عدنا للجلوس ثانية ، والى مرات لاتحصى من احتساء الشاي . وبين  
فترة واخرى كنت اسأل عن بقية حفلة العرس . متى ستزف العروس؟  
لقد فهمت منذ برهة قصيرة انها موجودة في القرية مسبقا .  
كانت هذه العروس قد فرّت من والدها منذ شهرين مضيا ، واتت  
لوحدها الى زيلا مع زوجها المفترض ، لأن والدها كان يطلب مهرا  
أعلى من اي مهر كان يرغب في دفعه اي شخص ، فسألت صالحة :  
- هل يعني هذا انه لن يكون هناك مهر ؟

فأجابت :

- لا ، ينبغي على العريس ان يدفع شيئا ما او ستنش حرب  
بين العائلتين .

بينما حاولت ان افهم مايجري في الطريق ، سألت عمما اذا  
كانت العروس ستزف على حصان من المنزل الذي تمكث فيه في القرية ،  
لقد كانت الاحصنة هي الوسائل التقليدية لاحضار العروس . على  
الرغم من ان سيارات الاجرة الريفية كانت قد حلت محلها الى  
حد ما .

نظر القرويون الى بعضهم . لقد قرروا مسبقا ان سيارتنا  
هي التي ستحضر العروس ولكنهم لم يخبرونا عن هذا حتى ذلك  
الحين . خرجوا الآن وسألوا اذا كان بإمكانهم استخدام سيارتنا  
القرمزية الفاتحة . وقبل ان اقدر على الاجابة ، اقترح دارا ان  
يستخدموا حصانا هذه المرة بما ان الحفلة ستكون موضوع صور  
مثيرة . كان يعلم اني اربح في اخذ الصور ، ولكن رغبة دارا  
اهملت . كان الجميع في زيلا ، عدا صالحة ، يعملون دارا كما هو  
تماما ، صبي ذو خمسة عشر عاما .

شرعت في النظر من خلال النافذة ، بينما بدأت المحادثة  
تنحرف عن موضوع العرس رويدا رويدا . لقد تلبدت السماء بالغبوم  
وبدأ المطر بالهطول . نبت القطرات المائية الضخمة بوابل  
صيفي . وكان بإمكانني تماما ان اتصور ما سيحدث لهذه الارض القاحلة

بعد بضعة انشات من المطر . فالمسيلات التي عبرناها ، كلها ستتحول الى انهار متدفقة ، تجعل الطريق غير ممكن عبوره . ربما لن نقدر على السبر الى المنزل . وقد اثقل علي شعوري انسي سابقى في زيلا الى الأبد .

بدأت أسأل مضيئينا عن التأثيرات التي تتبع السيل، وقالوا مؤكدين الاحتمال الأسوأ : نعم يمكن للطريق ان تصبح غير سالكة. انتفضت واقفة لدى سماي هذه الاخبار ومشيت الى جيرد وقلست بالانكليزية :

— لقد سئمت انتظار هذا العرس . دعنا نذهب ، ستعوقنا المياه اذا جرفت الطريق .

نظر اليّ جيرد فزعا، لم اتحدث معه بالانكليزية امام الاكراد ابدا تقريبا ، بل كنا نستخدم الفارسية لكي نكون مفهوميين وهمس ثائلا :

— ماذا تفعلين ؟ ارجعي واجلسي .

ذعرت لهذه الاجابة غير المتعاطفة معي . وبدأ كأن كل انش مربع من جسدي قد احتاج غضبا . كان المطر يهطل بغزارة وسرعة رهيبة . والاجزاء المتعددة من لباسي ذي الطيات الكثيرة قد تصلبت من العرق ، وكان بقية الاشخاص في الحجرة ينظرون اليّ بفضول اكثر من ذي قبل عندما وقفت قرب جيرد وانا اتكلم بعصبية بلغة اجنبية . فكرت اني لن اقوى على البقاء حتى ولو لحظّة اخرى في زيلا . واذا لم يغادر جيرد ، فسأغادر انا . ما كنت سأقيد نفسي في انتظار عرس لن يحدث ابدا ، بهذه الافكار خرجت بمشية بطيئة من الحجرة وهبطت الدرجات ، الى ان وصلت خارجا تحت المطر الهاطل بغزارة . وهناك فتحت باب السيارة بحركة سددت ضربة لقرون معزة واغلقتة علي . وبدأت بالنشيج . لقد كانت تلك ، هي الدقيقة الوحيدة التي انزلت فيها مع نفسي خلال ست وثلاثين ساعة . حتى اني لم اكن قادرة على التبسول

بمفردي في زيلا ، بسبب عدم وجود مراحيض خارجية في الفرية حيث كانت صلحية ترافقني وتقف حارسه في كل مرة .

ظهر جيرد بعد دقيقة عند نافذة السيارة وهو يهتف من خلال المطر . حدقت فيه بغضب وبعدهد وفتت صلحية امامي فجأة وهي مبتلة وقد علا وجهها امارات من القلق . فتحت لها الباب لتدخل فسألت :

... ما الأمر ؟

شعرت بشعوب في وجهي الذي بللته الدموع واوضعت لها على نحو واه :

... أنا وجيرد نتناقش حول امر .

وقالت بلطف :

... عودي الى الداخل يامارغريت . لايمكنك السير تحت هذا المطر الغزير .

خرجت بهدوء من السيارة عائدة ، واخذت صلحية بيبيبي وقادتني الى الداخل ومن ثم الى الطابق العلوي . شعرت بالراحة بعد بكائي وبعد ان اخلتيت لدقيقة مع نفسي ، ولكني كنت خائفة من مواجهة الناس فوق . ماذا سيظنون ؟ سيعرفون جميعهم انني كنت ابكي .

لكنني عندما نظرت الى سكان الحجرة ، موسى وزوجته ، شيرو ، دارا وكل الامام وابناوهم ، بدوا مختلفين . فبدلا من ان يظهر عليهم الاندهاش او الانزعاج كما توقعت ، بدوا قلقين واكثر ألفة مما بدوا لي من قبل . ربما انا ايضا بدوت اقل غرابسة لهم . وتبادلنا الابتسامات . بعدد تكلم موسى قائلا :

... عليك ان تنتظري الى ان ينتهي المطر قبل ان تسيري الى اي مكان . عندما يكون الجو على هذا النحو ، فان السواقسة خطيرة جدا .

بعد مضي نصف ساعة على ذلك ،توقف المطر وبدأ العرس .  
ذهبت في البداية انا وصلاحية الى كوخ صغير لانوا قد له ، حيث  
كانت جميع النسوة قد تجمعت فيه ،وتنوراتهما تخشخش ، وتصطدم  
الهدايا الواحدة بالآخرى وهن يرمينها الواحدة تلو الاخرى فسي  
سلة مستوية موضوعة على الارض وسط الغرفة . كانت معظم الهدايا  
قوالب صابون او اوشعة ،ولكن كان هناك فساتين واحذية ايضا من  
قربيات العريس .

بعد ذلك شكلت النساء رتلا وهن يخرجن من الغرفة . وشكل  
الغروبون حلقة وبدوا بالرقص التقليدي بالتناغم مع ايقاع  
الدغ بيتر . اقمنا انا وجيرد نفسي انا الى جانب صلاحية وشيرو  
واثنيتين من اخوات العريس الى السيارة لنقوم برحلة من مئتي  
متر الى المنزل الذي كانت تمكث فيه العروس . وتسلق بقيصة  
الضيوف مقطورة مسطحة يسحبها الجرار الوحيد في القرية .

وصلنا بعد عدة دقائق الى منزل ارشدنا اليه لدخوله لاحتساء  
الشاي . شكل ضيوف العرس حلقة ورقصوا حول سيارتنا السسى ان  
قادت الحماية كنتها الى خارج الحجرة الواقعة الى جانب الفناء  
كان قد لفت وشاح برتقالي حول وجهها ، لذا فكل ما كنا نقدر  
على رؤيته كان فستانها الساتين الاحمر وحداؤها ذو اللون  
الاسود والابيض المزين بالازرار على الطراز الحديث وكان يلوح  
من تحت اهداب اطراف فستانها . عند هذا حاول عشرة اشخاص  
صعود سيارتنا الصغيرة . وحدثت مشاجرة خفيفة عندما رفضت صلاحية  
وشيرو ان يعطيا مكانهما لجماعة من طرف العريس . وصعدت  
العروس فقط معنا . رفعت صلاحية الغطاء عن وجهها لتريني اياه  
ولكن كل ما لمحتة قبل ان تصعق العروس وتعيد الوشاح الى مكانه ،  
كان عيني سوداوين . سرنا في الانحاء لفترة قصيرة حسب تعليمات  
شيرو ،لتؤكد اعتقاد اننا كنا نرف العروس من مكان بعيد ومن  
ثم عدنا الى منزل العريس ، حيث كان ينتظر هو ورفاقه فوق  
السطح ليومي جرة ممتلئة بالسكاكر على رأس العروس قبل ان تعبر

عتبة الباب . ارتطم السكر برأسها بضربات كتومة موءكدا انها ستكون زوجة حلوة ومن الموءكد انه سبب لها صداد رهيب ومن شم ستقضي العروس بقية الامسية جالسة في الحجرة الصغيرة العديمة النوافذ مع هداياها ، بينما ستستمر الحفلة بدونها .

على الرغم من ان العروس زفت وان الشمس ستافل حالا ، لم اعد اشعر بالياس لمغادرة زيلا . ولكن هناك سبب آخر للمغادرة ليس له علاقة مع مخاوفي السابقة ، فطالما اننا باقون ، فان ذلك لن يعدّ عرسا ، بل عرضا لاثنيين من الاجانب يحضران عرسا .

بينما كانت صلحية وشيرو يزوداننا بتعليقات متواصلة عن العادات والتقاليد الكردية ، لم يستطع بقية القرويين رفـع انظارهم عنا . فاحوات العريس ما كن قد ارتدين ملابسهن وحليهن المبهرجه وبذلك اسيح لكل امرىء ان يهدق في الزوحيين الغربيين . لقد حان الوقت كي نعيد العرس الى خيال . عندما التفتنا نحو مضيئنا لنودعهم توقف العرس تماما ولم يبدأ ثانية الى ان سرنا بعيدا . وعندما ابتعدنا وبلغنا السهل غطت فنان في نوم عميق وبدا كل شخص شاردا وسارها في عالم خاص به ، غادرنا في بازو فنان، صلحية ودارا وسرنا انا وجيرد عائدين الى ريزاي وحدثنا .

حالما اتجهنا شرقا صوب السحيرة حولت الشمس الأفلة حقول القمح حولنا الى ذهب متوهج . وعلى مسافة قريبة طهر لـون البحيرة الفيروزي وظلال عديدة اكثر كثافة من زرقة السماء الفاتحة . قبعت القرية خلفنا في الظل . وحالما وصلنا المدينة عند الفسق كانت المحلات التجارية قد أضاءت انوارها للتسـو . انطلقنا بسرعة مارين بالسينما وبنوافذ البوتيكات السلورية الكبيرة ذات الاطارات المطلية بلون الكروم ، نظرت الى كل ذلك بعينين قروية . كم بدت حديثة وملونة بعد لون زيلا السنسي الشامل . هل حقا اثنا لازلنا في نفس السنة وفي نفس اليوم؟ بماذا يشعر سكان زيلا عندما يغادرون قريتهم ويأتون الى مدن

مثل شاهبور وريزاي؟ هل يكرهون الاتراك لسيطرتهم على هذه الواحات؟ هل يقبلون الاختلاف على انه مقدّر من عند الله؟ .

قضيت الكثير من الوقت وانا افكر بزيبلا وبالسلك الذي انتهجه الناس هناك: لم استطع ان اجزم اذا كان هنالك شيء حقيقي لاشاه . من المحتمل ان يشعر بعض الطهرانيين أو الريزانيين المتمدنين بالراحة في زيبلا . لم تكن المسألة اننا لسنا ايرانيين ، بل اننا كنا من المدينة واننا ننتمي الى الطبقة الوسطى . كان صدى كلمات العمال في شارع السنيين لا يزال يطن في ذاكرتي. نحن عمال ، نحن عمال .

كانت زيبلا هي تجربتي في صميم واعماق كردستان . وعلى الرغم من ان اراضي دستان وخوشخان ومانوا اكثر غنى من زيبلا فان معظم اهالي هذه القرى لا يعيشون مثل الخانات الذين زراهم هناك . لم يكن لديهم جرارات او سيارات لاندروفر او مولدات كهربائية مثلما كان لدى الحاج اسماعيل . انهم لا يمتلكون الارض التي يعملون فيها او يسيطرون على مصدر المياه الذي يحتاجونه لانماء الحبوب ، حتى ان معظم الاكراد القرويين هم اشد فقرا من شيرو وموسى ، كانوا يستمتعون بتفكيك سياراتنا في دستان وخوشخان ومانوا ، وفي زيبلا ولكن مضيفينا منعوهم عن ذلك بطريقة مؤثرة .

كانت زيبلا تمثل كردستان وهي مجردة من الاوهام والصور الخادعة . لم ار هناك سوى ارض طينية قاحلة تشير الرهبة في النفس ، ومساكن طينية موشكة على السقوط ، وضربا من اليأس يدفع الى أخذ الأحصنة الى تركيا لبيع اي شيء في ساحات اسواق ايران التي تعاني من التضخم. لدى عودتي الى ريزاي المريحة وبعهد ان اصغيت الى القصص التي جمعتها ادركت ان اناس زيبلا كانوا اغنياء بطريقة واحدة ولو انهم كانوا فقراء ووسخين باقسى ما يمكن ان تحمله المعاني . كانت ارضهم فقيرة لاقيمة لها ولكن تهريب المخدرات يمكن ان يفضي بهم الى السجن . وحتى ان تبادل الاحاديث

الثورة عن كيفية عدم تقديم الحكومة المساعدة لهم كانت  
اكثر خطورة .

كل ما ترك لهم كانت الحكايا . في المساء وتحت ضوء  
الكيروسين او في ايام الشتاء الطويلة المعتمة ، نسج القرويون  
هذه الحكايا كانوا يتبادلونها ويوشونها كأنفس الانسجة . لقد  
استغرقت اسابيع من العمل مع دارا قبل ان افهم . كل الحيكات المعقدة  
والحوار . ولكني عندما فهمتها تمنيت لو انه باستطاعتني ان  
اذهب الى زيلا ثانية لافتش عن المزيد .

اردت ان افهم على نحو افضل من اين اتت هذه الثنائيات  
والاميرات الشجاعات والساحرات . تشير القصص التي جمعتها الدهول  
بالكلام غير المعتشم وبالمبالغة والخيال الذهبي الذي تتضمنه . لقد  
اجبرتني على أن ارى هو الا الرجال نصف الجائعين تحت ضوء روعية  
جديدة على انهم كائنات بشرية تنتصر على بيضة عدائية ، وانهم  
استطاعوا الاحتمال ليس بمعونة السمام او تجهيزات المزرعة  
بل بمعونة اخيلتهم الخصبة .



## الفصل السابع عشر

من الواضح ان السافاك قد قضى فترة في التفكير مليا فـ في صورة فامفة كان صديق في الولايات المتحدة قد ارسلها لنـسا . وعندما تلقينا الطرد البريدي بعد اسابيع عديدة من وصوله الى ريزاي ، تفحصناه لدقيقة او اثنتين مقلبين اياه لتلقي نظرة عليه من جميع الزوايا ، محاولين بذلك ان نكشف فيه الشيء الذي اثار اهتمام البوليس السري . ومن ثم حدد جبرود بدقة البحر الازرق الغامق المشكل على هيئة حصان في الزاوية اليمنى عاليا ، بعدد اعط البقع البيضاء الظاهرة في التغضنات السوداء البادية مثل اوردة ، شكلا جليا لدى تمييزنا التلال المغطاة بالثلوج الواقعة مند سفوح الجبال وقمم زافروس في الشتاء . لقد كانت صورة لكردستان مأخوذة من قمر اصطناعي . والبحر الازرق الغامق الشبيه بالحصان كان بحيرة ريزاي الداخلة العريضة التي تعوم على نحو فامض في الزاوية الشمالية الغربية المغورة فـسي مساحة واسعة من الارض المعروفة بايران .

يحق انه كان في ايران اكثر من بحر ملحي داخلي واحد ، لكن هذه البحار قد تحولت الآن الى صحارى ، وعلى الرغم من ان بحيرة ريزاي لازالت واسعة ، فانها تجف ببطء . وعلى الرغم من احتواؤها على نسبة عالية من الاملاح المهلكة ، فان البحيرة تعتبر بحرا سخيا في منطقة ينقصها الماء مثل ايران ، يسمى الاكراد المنطقة الواقعة بين المدينة والبحيرة بـ"محمستان" ، أي ارض العجم وكانوا عبر القرون قد قاموا باكثر من محاولة للسيطرة عليها . يقع قسم من اخب الاراضي في الدريجان الغربية فـسرب البحيرة ، ولكن في الوقت الراهن - ومثلما كان من قبل - لازالت الارض في ايد هير كردية من اترك وكذلك بعض الارمن والاشوريين ويقتصر الاكراد الساكنون في الجبال على القيام برحلات سنوية

ما استطاعوا الى ذلك سبيلا للانتجاع في مياه البحيرة الصحية  
ووصلها الكبريتي الدوائي .

ان الاكراد ليسوا الناس الوحيدين الذين يترددون على  
بحيرة ريزاي في الصيف ، والمسماة الآن " بحيرة اورميا " . لا يمكن  
ان تجد الاتراك والاكرد ، الرجال والنساء ، المسيحيين والمسلمين  
من الذين يستعمون في البحيرة في يوم حار في شهر تير الايراني  
بهذا القرب الشديد في اي مكان الا في البازار ، ولكن في البازار  
يكون كل شخص مغطى او بالاهرى متسترا جيدا . ليس هناك مكان في  
جميع انحاء اذربيجان الغربية شبيه بهذه البحيرة ، فهنا ،  
وللمانة ، تصل ايران الى اقصى حالات عريها .

كنت انا وجيرد نشكو مثل بقية السكان غير الموسميين من  
الازدهام في حركة المرور في فصل الصيف ومن تضخم الاسعار التي  
يسببها السياح ولكن الحقيقة الأسوأ من ذلك هي ان البحيرة لم  
تعد تظو من الناس . بذلك لم يعد باستطاعتنا الخروج الى  
الشاطئ دون ان نرى احدا مثلما كنا نتجول على الهضاب نلتقط  
الخشخاش او خارجا فوق الرصيف الممتد في البحر لنراقب وصول  
المركب القديم المسمى " نوح " من رحلته الى تبريز . كان حشد  
الحافلات وسيارات الاجرة والسيارات الخاصة يشغل هذا الطريق ما  
يقارب العشرة كيلومترات . وقد تبعثت على الطريق العام المعبد  
الذي يعاди معامل اللبن والخمر وسجن ريزاي حيث تجد جث كلاب  
واغنام بائسة مبعثرة هناك . ومع ذلك فقد كنا لانزال انا وجيرد  
ننجح في الاجتياز بسلام في الذهاب الى مكان ابعد . فقد كنا  
نسير بجانب شاطئ المدينة الرملي العام ، وشاطئ بوي سكوت  
ونادي الضباط المقتصر عليهم فقط ، الى ان نخرج الى جانب صخور  
حيث كان يندم في تلك المنطقة الرمل والسباحون . كانت خديجة  
تعاتب شاكية من ان الخوض نحو الداخل الى منطقة الصخور ليس  
سليما وذلك لعدة مرات عندما كنت اذهب معها . بما ان الاكراد  
لم يكونوا سباحين ماهرين فقد كان سطح الشاطئ المنظور مهمما

لهم اكثر مما كان بالنسبة لي . ولكن السبب الحقيقي لاعتراضات ومخاوف حديثة ونسرين ايضا كان يكمن في شيء آخر ، ولم اكن اعلم ابن ، الى ان قصبت اخرا يوما لابنسي في مدينة رزاي .

بدأت الرحلة من منزل في المدينة كانت عايشة وعبداللله بخريزان بعضا من اشك مرلهمما فيه . وكان الوقت آنثذ اواخسر حزيران وقد سلخ ذروسه الموسمة في البهيرة وكان الاكراد اللبين تسمح لهم قدراتهم ولطروفهم ينزلون من الحمال للاغسال ولبسس بحبا عن المتعة . وعاشة وعبدالله كانا بروران المدنة اكثر من اى كردي آخر ، وكان الترف يبلوح عليهما في اسفارهما . فعندما وصلنا الى مكان لغاشنا معهما وحدنا ما لايقبل عن نصف درينة من الخدم يساعدون في تميميل سيارة اللاندروفر الكبيرة . كان هنالك العديدين القدور المعدنية الضخمة الملفوفة في مناشف واسيسق شاي صيني وكوهوس شاي صعبرة مع اطباقها وكذلك سلال محشو فيهما اقدية غير معروفة وادوات واواني اخرى . كان هنالك بالاضافة الى الخدم ستة اشخاص ، عايشة ، عبدالله ، خبيطة ، خيرد وانسا وسرسن التي كان الحاج اسماعيل قد سمح لها بمغادرة دستان لهذه المناسبة الخاصة .

لدى وصولنا الى الحيرة حصل مواقف بينم عن السهدت ، حيث سئلنا انا وحيرد عن المكان الذي نرف ان نسح فيه ، وبما انه كان لدى احساس داخلي بما يمكن ان يكون عليه الشاطيء العسام ، فقد اقترحت السبعة المعروله التي كنا نذهب اليها عادة ، راق اخباري للشيخ عبدالله ولكي تعابير من الطزع صدرت عن حديثاتي فلغالب سرسن :

- ان المكان الذي شريد مارغرب الذهب انه مكان رهيب .

ولد وافغها على ذلك حديث . لذلك سرنا عبر ممرات شاطيء رزاي العام الضيقة حيث المنرب منا بعض الانراك ذوى الملابس الرثة ، سبما كاسوا ينتظرون السيارة لتتوقف . تفاوص الشيخ

عبد الله معهم على استئجار ثلاثة اكواخ اذا صح التعبير. لقد كانت أسوأ نوع من المنتجات ، فقد كانت مبنية من السواح خشبية مع الخيش وارضيات من الورق المقوى القذر . ويعتقد ان توزعنا على اكواخنا على هذا النحو : الخدم في احد الاكواخ وانا والنساء الاخريات في كوخ آخر وجيرد والشيخ في الثالث ، قررنا ان نمضي نحو الماء مباشرة . ذهبت النساء في اتجاه والشيخ وجيرد في اتجاه آخر . ومكث معظم الخدم في اماكنهم لاعداد الطعام . عندما وصلنا بقعة اعتبرتها عائثة مناسبة ، بدأت النساء جميعا ، بخلع ملابسهن وصولا الى القمصان الداخية القطنية او النايلونية الرقيقة . كانت جميعها تحت " الفستان والكراس " واما اني كنت قد ارتديت لباس السباحة تحت فستان طويل فقد انتهيت من خلع ملابسي قبلهن . وبينما وقفت انتظر ، رأيت عددا من الذكور الكاملي اللباس يجوبون الشاطئ على مهل ذهابا وايابا ، على الرغم من اننا كنا لانزال في مطلع الصباح ولم تكن المكاتب في المدينة قد توقفت عن العمل بعد في هذا النهار . ماذا كان يفعل جميع هؤلاء الرجال ؟ .

اخيرا تقدمت النساء صوب الماء بخلط وقورة ، يغطسهن انفسهن تدريجيا . وفي رأبي ان اللباس المبطل ، كان فاضحا اكثر من بذلة السباحة التي ارتديتها ، ومهما يكن فان ذلك لم يبد متناقضا لاحد غييري . ولا أظن ان احدى هؤلاء النساء الكردييات قد فكرت بارتداء لباس السباحة والذي يقال له " مايل-سوت " بالفارسية لأن ذلك سيكشف عن سيقانها العارية والأسوأ من ذلك كان سيشير الى انها تمارس السباحة كرياضة ولن تعتبر مجرد زيارة سنوية للبحيرة ، لاغراض علاجية بحتة .

بينما كنا نعوم جميعا ونبلل انفسنا في الهاء الصالح ، سيج بالقرب منا شابان ذوا شعر اسود ويتحدثان التركية ، كانا يرتديان بنطلونين اسودين قصيرين للريافة ، نظرت اليهما وقد ملأني الرعب ، وتساءلت عما يمكن ان تقوله النساء ، توقعت ان

يهمل الرجال ببرود على اقل تقدير ، ولكن وما اشار دهشتني ، ان نسرين بدأت تفحك معهما وعلى ما يبدو مشحمة الرجلين لسبقاء قرينا . وتصرفت خديجة على نحو ابدت فيه المودة ، وحتى عائشة المتكلمة بالجد والاحتشام والتي اضطرت لان تتناول طعامها في نفس الحجرة التي كان فيها زوجي لم تند مضايقة من انسراب الرجلين التركيين ، وهما في وضعهما المشترك من العري ، من الصعب علي تصديق ان هؤلاء النسوة اللواتي كن يفضن عيادة مستترات في شوارع ريزاي كن الآن في البسه فاضحة وبينما كان الرجلان التركيبان العربيان يسبحان بالقرب منهن .

التفت و بدأت بالسباحة مستعدة عنهما وبقيت النساء فسي اماكنهن بيناديينني كي اعود ، لقد كان الماء خطرا وبالتاكيد سافرق . كانت صديقاتي يفرمن من العرق ، على الرغم من ان نسوة ملوحة ماء الحرة بحسبانية - جيد . لاء م الانسار . مثالا . فليئة . كان سهلا عليهن ان يمشين بحواص الوهاد الشديسسه الانحدار ، والتي كانت تجعلني ارتعد من الخوف ، ولكن الماء لم يكن المحيط الملائم لهن ، بدأ الرجلان بالسباحة متقدمين موسي وكنت متأكدة تماما من ان دافعهما الي ذلك لم يكن الخوف على سلامتي . لقد كان امرا طبيعيا ان يمشيا مع جماعة من النساء الكردييات ولكن الساعة الحقيقية كان وجود امرأة غريبة في لباس الساحة المشير للعريبة الجنسية .

سختت من خرد عسر الماء وسحب مسرعة سانحاه ، وبذلك ظلت الرجلين وراثي تدرجسا . وعندما وصلت قرب خرد جهرت بشكواي . لم يكن هذا الشاطئ مليئا بالرجال الذين كان غرضهم الوحيد يكمن في الماء بطرقه على خرد اسوى فحب وهو فاسد متهومة ، ربما بعد السام من الحبات السائد في الشارع ، بل ان الماء نفسه كان قذرا . فقد كان من الضروري الساحة بعيدا جدا لنجنب البقاعات التي تلتقي قرب الشاطئ تماما . ولم نكس الثيابات بلقي على المحور التي اهدنا الذهبات اليها ايدا .



بالسباحة قربنا ، محاولين ان يلقوا نظرة عليّ من قـــــــرب  
ويخاطبوننا بانكليزية بسيطة ومكسرة .

حالما خرجنا من الماء ثانية وقد كستنا قشرة من الملح  
اشتكت خديجة من ان دورتها الشهرية قد بدأت ، هذا هو ما كنت  
افتش عنه ، فاقترحت ان نسير بها الى المنزل حالا . كنت ابحث  
عن اي مبرر لكي نغادر . قبلت خديجة عرضي ممتنة ، ولكن اصوات  
غامضة تعبر عن عدم الموافقة صدرت عن نسرين . وقد تركت لسدي  
انصباعا بأنها تعتقد ان على خديجة الا تسافر وحدها مع امسراة  
اجنبية وزوجها الخطر ، او انها ربما ارادت فقط مبررا لتذهب  
معنا ، على اية حال صرحت انها هي ايضا ستغادر ، نظر الينسا  
الشيخ عبدالله ، وقد بدا عليه الاحباط ، لماذا سنده بهـــــــذه  
السرعة ؟ كان من المستحيل ان نوضح السبب الحقيقي .

ها نحن الآن ، فرييون رغبوا في السباحة ، وكثيرا ما عبروا  
عن مدى السرور الذي تشيره البحيرة في نفوسهم ، هانحن بالقرب  
من البحيرة او بالاحرى عند شاطئ المدينة نواجه مشهد اجتماعي  
ايراني وهو في قمة فظاظته ، كان المشهد يبدو كما لو ان اعددا  
قد قلب شوارع ريزاي رأسها على عقبها ، وجعل باطنها ظاهرها .  
كانت النساء في شوارع المدينة متسترات ، بينما كان الرجال  
يرتدون مايرغبون فيه . اما هنا فالرجال كانوا سكامل لباسهم  
بينما كانت النساء نصف عاريات . ولدى عودتنا الى القرية كان  
مهّمًا لنسرين ألا يقول احد عنها انها قد ركبت السيارة وحدها  
معني ومع جيرد ، ولكن لا احد سبظهر قلقه عن كيفية ظهورها امام  
سباحين تركيين .

– دعيتا نتشمى لبضع دقائق .

اقترحت نسرين وخديجة ذلك تماما ، قبل ان نهم بالمفسادة  
وبما ان جيرد والشيخ عبدالله بدوا مستغرقين في محادثة ، لم  
يكن لسدي مبرر للرفض ، تجولت معهما على مضض يدا سيد ، اشاهد  
الناس وهم بدورهم بيروني ، لقد كان هنا لقاء الاكراد والعجم

الحقيقي الذي شهدته خلال اقامتي في ريزاي . كان فيه شيء من الموضوعية ، مثل الاختلاط في الكلية ، مشهد اجتماعي نشأ من باطن اليأس ، مشهد عذراوات وزوجات كرويات ما زلن تحت الوصاية وقد تركن للخروج من فراهن لبعضه ايام ، ورجال يعيشون في مجتمع لا يقدر العديد منهم على تحمل اعباء الزواج الى ان يبلغوا الثلاثين او الاربعين من العمر .

كان كل شيء ممتعا جدا ومنورا للعقل عدا شيء واحد ، وهو انني لم ابق على البقاء مجرد متأمل متعقبة . وكما هو الحال دائما ، فان سلوكي الحقيقي وملاسي لعللاقة لهما بالموضوع . ففستاني الطويل وبذلة السباحة الشبيهة ببذلة عمل لم تكن تشير الى شيء الا الى امرأة اجنبية غريبة . فاذا كانت النساء الكرويات قد مضين الى ذلك الهدون على الشاطئ فالى أي مدى يمكن لامرأة امريكية ان تمضي بالنسبة لي . فقد آثرت مياه " درمان آغا " غير غير الملوثة بالنفايات ونظوها من الاتراك البلهاء غير اللبقيين . اما بالنسبة للخديجة ونسرين فدردمان آغا تفتقر الى ما هو مدهش ومثير ، وتفكيرهما هذا ينطوي على الهزل اذا قارناه . مسح حياتهما اليومية الرتيبة . اما ريزاي فهي حلم قد انبعثت فيه الحياة ، كنت قد شعرت بالتناقضات الجنسية في المجتمع الايراني حتى منذ مطلع اقامتي في ريزاي . فلأن الجنس محرم بشدة لذا تراه قابعا في فكر كل امرئ على نحو مستمر . وبغض النظر ممن كنت اتحدث معه فقد كنت اشعر به مستفحلا .

كان هوشنغ وشهرزاد يعلمانني ذات يوم لعب الورق ودعاني هوشنغ لآكون شريكته ، ومن ثم بدأ بالضحك المكتوم واطاف فقط في اللعبة " ،ويمكنني القول ان طلابي الجامعيين كانوا يقهقهون على نحو هستيري لدى ذكر اي شيء يمت بصلة ولو بعيدة الى الجنس او عند ذكر المواضيع الجنسية او معالجتها في الانب . ولكن من جهة ثانية هناك جانب رومانسي في هذا الهاجس . فالايرانيون يحبون الشعر والاغاني اكثر من اي شعب آخر قبيض لي اللقاء به .



فحتى رئيس الشرطة في سراي كان قد علق قصيدة للشاعر الفارسي الكبير سعدي ، على حائط مكتبه . ان قصائد الحب والمآسي تظنق متنفسا للاحباط الجنسي بطريقة ما وينحلق هذا على نحو مماثل في الحي الأحمر ، وهذا ذلك فهناك النساء الاجبيبات بأحلاتهن المعروفة جدا منذ عقود من الهولبود والافلام الاوربية النسبي تعرض في ايران .

يقول الاكتراد مفتخرين انه لبس لديهم كلمة اهلبه مرادفة لكلمة " داعرة " فهذه العبارة المألوفة مقلبة من العربية ، ان القنرى لبست كبيرة يحتم كاف ليسمح فيها بسيوت للدمعارة ، ولكننا لو اخذنا كردستان الاكثر طهارة من الناحية الاجتماعية من ايران المتعدنة ، على حدة ، فقد شعرت بأن الجنس كان أقل استحوادا على تفكير الرجال الذين التفتبت بهم . ربما كان ذلك نتيجة الزيحات المبكرة او سبب قبول تعدد الروحات ، على الرغم من أن الحاج اسماعيل كان يتوق للحديث معي ، فلم اشعر ابسدا بأن ذلك الاهتمام الداعر الذي ينم عن سلوك الرجال الايرانيين بهدرمنه ، ولكن ما هو شعور روحات الحاج نحوه ؟ هل كن محطات وممتعضات منه ؟ لطالما راودني ذلك السؤال .

حوت المعادشة السالبة في احد الابهام بييني وبين طه وتسد بدأت سلسلة اسئلتي بهذا السؤال :

— هل صبح ان اتحاد اكثر من زوجتين في ايران هو عمل ضد القانون وان الروحة الاولى يجب ان تدلي بموافقتها على الثانية ؟

أوما طه برأسه مؤكدا ذلك ، وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه ، كنا كلاسا نعرف اني قد طرحت سوء البلاغيا ، بما انني وطه كنا مدركين تماما لقانون حماية الاسرة الذي كان الشاه قد سنه ، وكان ذلك جزءا من المراسيم التي شُرمت لمنح النساء حقوقهن التي لا يتمتعن بها تحت ظل الشريعة الاسلامية . فقد سمح القرآن للرجل سانحاذ اربع روحات وطلاق يمكن ان يحدث في أي لحظة . كانت السبل ننعدم امام المرأة في الماضي لاعرار الطلاق

إذا لم يرغب زوجها بتركها . وكان الشاه قد غير كل ذلك نظريا .  
سألت طه على نحو جدي :  
- ماذا ستفعلون إذا أتى الدرك الى دستان وسألوا والدك  
عن كل زوجاته ؟ .  
فكشفت عن ابتسامة واجاب :  
- سندعوهم الى الديوانخانة ونقدم لهم الشاي .  
- وبعد ذلك ؟  
- وبعد ذلك سيمضون في طريقهم .

لم تشكل كلمات طه مفاجأة مثيرة للدهشة ، بعد فضاء اشهر  
عديدة في ايران ، لم يكن لقانون حماية الاسرة وحقوق النساء  
الأولوية ، بل بالاهرى كان قد ورد في آخر قائمة القوانين التي  
ارادت الحكومة فرضها على ايران . ومع ذلك فقد كنت قد سمعت  
من العديد من الايرانيين عما يبدى بتحرر المرأة ، ذلك الحدث  
الذي كانت الحكومة تحتفل به كل سنة في "يوم تحرير المرأة"  
والذي لم استطع مقاومة السوء ال عنه . كان طه يبدو بالنسبة  
لخديجة التي اصبحت زوجة منذ اقل من سنة ، راغبا في اتخاذ  
فتاة اعجمية كزوجة اخرى له .

يبدو ان الرجال الاكراد ينظرون الى قوانين الزواج نفس  
نظرتهم الى الحدود الدولية ، على انها امور يمكن مخاطلتها .  
لقد اقرت تشريعات في كل من تركيا وايران لتحديد تعددية الزواج  
والمكان الوحيد الذي يتم فيه خرق هذه القوانين في كلا البلدين  
على الاغلب هو القرى الكردية .

قدمت الى دستان في مطلع الصيف مرة ومعني مسحلتني ، وقد  
عزمت على ان يكون موضوع المقابلات التي سأجرها هو الزواج  
ومرشد سوس خانم ، روضة الحاج الأتلي . انها كانت من البالد  
عشره من عمرنا عندما وعد والدها ، سارا ، ان يزوجها لي .  
على نحو محلف عن برواها ماوا المده ، لم يسبق لي ان  
تلقى في النار . وقد هربت مع الحاج اسماعيل الذي كاسب سد

رأته مرة في عرس محلي لتتجنب ذلك المصير الرهيب . بعد هروبها لم يتكلم معها والدها لفترة طويلة ، لأن قبيلتيهما كانتا عدوتين . حاولت ان اتصل سوس المريضة ذات الوزن المفرط وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ، ولكن خيالي لم يسعفني . تساءلت فيما اذا كان الحاج مع زوجاته اللاهفات قد فكر مرة سوسن وهي قابعة دون حركة ساعة بعد ساعة في حجرتها . هل يشعر بأي عاطفة تجاهها او يسترجع بعضا من ذكريات الماضي ؟ ام انه كان مستغرقا كلياً في زوجاته الجديديات الاكثر شباباً؟

بما ان مريم زوجة الحاج الثانية كانت غائبة عن الحجرة لذا لم استطع ان أسأل عن زواجها ، وعبرت زينب ، الزوجة الاخرى المتحفظة عادة ، عن رأيها بغير تردد او خوف . فقالت وهي تهز رأسها وتضحك :

— لم ارغب في الزواج من الحاج . لقد كنت تعيسة جداً .  
ولم تغل اكثر من ذلك \*

كالعادة لم نكن كلنا الزوجتين الحديثتين موجودتين في المحرمة . ساءلنا اس كائنا تفضيان وفيهما . من الواضح ان الزوجات الثلاث الاوليات المنحدرات جميعاً من اسرة اهل مكة كى يعسرن الروحاني الاحمرسي اهل مكة مسهين . لذلك ماكنس نعمس علاقات اجتماعية معهن ، وقبل ان اعادر اسراي تماماً وفي وقت لاحق عندما عدت ، لمحت سرفه ، الزوجة الحامسة مرتبسن وكانت حاملاً في اسهرها الاخير ومهملة قللاً في كلا المرتبسن وقد رمفتني بنظرات ساخرة ، واكد لي النساء الاخرات بأنه ليس لدينا الشيء الكثير لنفعله معاً .

طلبت من الحاج في اليوم الذي احضرت فيه مسجلتي ان يروي قصة هروبه مع سوسن خانم ، فنظر اليّ وقد ملأه الرعب ورفض بصراحة ان يتحدث عنها فائلاً ان ذلك شيء معيب ومن ثم وعدني سأل بدلي بحديث مداول رمذوع عن مدى تدين عائلته .

حتى لو ان زينب وسوسن لم ترغبا في التحدث عن الماضي باسهاب او عن مشاعرهما تجاه الحاج اسماعيل ، فقد حدث شيء في دستان في ذلك اليوم جعلني أتأكد الى اي مدى كانت نساء القرية خارج حماية القانون المشرع في طهران على بعد ستمائة ميل، فبينما كنا جالسات في حجرة الحربم بعد تناول الغداء والميكرفون ينتقل على مهل من يد ليد ليضيف كل شخص طرفة او حكاية ، اذ بالمرأة ذات الملامح الحادة بوشمها الأزرق المنقط على حكها تبدأ بالحديث . كانت تلك ، فاطمة نعتس المرأة التي اشارت اليها خديجة قبل عدة اشهر على انها والدة احدى روحتي الحاج الاخيرتين ، تلك المرأة التي لا يحمها احد . كانت فاطمة تتحدث بصوت جاف وحاد عن مسألة عدم امنلاكها لسقف يأويها وعن سفرها ساحثة عن مكان لها وعن عمرها المسارف على نهايته . لم أقو على متابعة ما كانت تقوله لسبب ما ، ولكن خيل اليّ انه لامنزل لها . واخيرا وعندما توقفت عن الحديث لرفة عن روايتها المشيرة للشفقة . سألت عما كانت تتحدث عنه . فخم الصمت على الحجرة ، واخيرا اجابتنني سرين :

- لقد اتخذ زوجها ، زوحة جديدة .

راقنت النساء ملامحي ، بينما كنت اسنجم في تفكيـري احزان فاطمة بصمت ، من الواضح انها لم توافق زوجها على اتخاذ زوجة اخرى ، وان زوجها لم يكن غنيا او عادلا بما فيه الكفاية ليوم من منزلين منفصلين للزوجتين . عند ذلك شعرت فاطمة باقصائها عن منزلها ، نظرت اليها متعاطفة ، ولكن الحجرة بدت وكأنها تمور باستهجان مريم . فقد شعرت وكان مضيعتنا كانت ترغب في ان تخرس هذه المرأة او ان تمنعها من عرض مشاكلها في مسجلتي على الملاء . ولكنني كنت ضيفة ، لذلك لم تقل مريم شيئا . هل كان ذلك لمحرد ان فاطمة هي والدة احدى زوجات الحاج المستخف بهن . ام انه شمة سبب آخر لعدم وجود شعبية لها .

لم تكن قد مرت فترة طويلة على سرد فاطمة لحكايتها عندما

سرعنا بتوديع مضيفينا في ذلك اليوم ، حيث اتت فاطمة وسألت هامسة اذا كان بإمكانها الذهاب معنا في سيارتنا الى المدينة فأجبتها :

- طبعاً .

بدا من الطريقة التي كانت فاطمة ترشق فيها مريم بنظراتها والتي لم تكن قريبة على نحو كاف لتسمع ما يدور من حديث ، بدا انها كانت تحاول ان تبقي طلبها سرا . وبينما ذهبت الى منزل مريم لاحضار شيء ما . حضرت خديجة وطه الى القرب من نافذة السيارة وتحديثت معي خديجة قائلة :

- مارغريت ، لن تأخذى تلك المرأة معك ، أليس كذلك ؟

- بلى ، ولم لا ؟

- بسبب وجود صدامات بينها وبين زوجها ، لا يريدان ان تذهب الى ريزاي . يجب الا تفعلنى ماتقولهُ .

اوضعت خديجة ذلك وقد لاح عليها القلق .

- لن يسبب ذلك مشكلة لنا . فهناك متسع كافى في السيارة .

قلت ذلك رافضة ان اتوصل الى النتيجة التي تودها خديجة وتابعت قائلة :

- اذا كانت على نزاع مع زوجها فهذا ليس من شأننا .

فقلت خديجة وهي تنظر بقلق الى مافوق الهضبة باتجاه مسكن والد زوجها :

- ولكن يامارغريت هذا من شأن الحاج ، فزوج هذه المرأة فرد من قبيلة الحاج ، وانت صيفة الحاج ، واذا اخذت المرأة الى المدينة فان روحها سيلوم الحاج وهذا سيتسبب في خلق مشكلة .

لمحت المرأة الموسومة من راوية نظرى وهي نتدرج بسطء . اربسا ، ولد ، اربسا ، رأ ، دسحة وهي سهدت الى نوعت منراه . ماتك سارفض للسهها صراحه ، على الاطلاق ، وكل ما كان على ان اعلمهُ هو الادعاء لطلب خديجة . ولدى عودتنا الى المنزل

راودني في الطريق شعور بالذنب وتساءلت عما كان يتوجب علي ان افعله ، هل أتسب في ثورة غضب ؟ وهل احدثت ضغينة اورط فيها الحاج اسماعيل الذي اظهر لنا كل اللطف والمودة في قريته ؟ ولكن ماذا عن فاطمة ؟ الى اي درجة بالغت من اليأس قد وصلت لتلجأ الى طلب المساعدة من اجنبيين باخراجها من قريتها ؟ ام انها كانت تحاول عن سابق تصميم ولصوران ترك الحاج اسماعيل؟ لماذا تكن لها مريم كل هذا الحقد ؟ هل كان ذلك ، لأنه توجس على مريم نفسها ان تعيش تجربة اتخاذ زوجة اخرى واحضارها الى منزلها ؟ لربما ان مريم لاتبد تعاطفا تجاه النساء اللواتي لايتحملن ما كانت تتعمله هي نفسها .

لقد شعرت في مريم - التي كانت اكثر المضيفات تهذيبا واكثر الامهات هنانا - قساوة ، اظهرت نفسها في تعاملها مع كنانها . كانت مريم ، مثل الحاج اسماعيل تعتبر نفسها متدينة جدا فقد كانت تصلي خمس مرات في اليوم ، وتقرأ القرآن باطراد وانا متأكدة من انها وعلى الرغم من اعتدادها بنفسها واستقلالها قد قبلت القوانين الاسلامية المتعلقة بالمرأة . ومن المحتمل جدا ان مريم كانت تنظر الى فاطمة كامرأة شاكية ضعيفة تخلق المشاكل لنفسها وللبقية في دستان .

ولكن لم تكن الزوجات وحدهن مسجونات في دستان ، فكل كانت الفتيات غير المتزوجات اقل حرية بكثير . وعندما بدأنا انا وجيرد نسلم بأن النساء الكرديات هن اقل ضيقا في افق التفكير من نظيراتهن الفارسيات والتركيات المتمدنيات ، وقع حادث في دستان اظهر لنا مدى فهمنا الناقص . وبالطبع فسان دستان لاتمثل كل قرية والحاج اسماعيل لايمثل كل اب .

لم تكن خديجة قد نشأت مثلما نشأت عليه بنات الحجاج اسماعيل وكانت قريتها بعيدة جدا وطريقة والدها في الحياة كانت لاتزال نصف مترحلة . وعلى نحو مغاير عن سلفاتها المنفصلات

كانت خديجة قد قضت الكثير من الوقت فوق ظهر الفرس ومن الواضح ان عائلتها لم تكن تهتم بحماية عفتها لدرجة متناهية وكذلك كان واضحا ان فتيات زبلا ماكن قد نشأن مثل أمينة وآلال ولكن الحاج اسماعيل لم يرتكب اخطاء بقدر ما كان الموضوع يمت الى نساغه بصلة .

كان الوقت يصادف أواخر حزيران عندما سرنا صوب فناء دار الحاج اسماعيل ، حيث ظهرت اهرامات ضخمة من القش عند مدخل القرية . أوقفنا سيارتنا ونزلنا منها ، وتقدمنا نحو الامسام باتجاه حجرة الحريم التي لم نر فيها ابدا ، ولم نبصر الحشد المألوف من الاطفال الرثي الملابس ، لا الخدم ولا الخادومات ، وحتى ولا كلب ، كانت سيارة الحاج اسماعيل اللاندروفر الخضراء غائبة ، ولاح الفناء الخالي غريبا تحت اشعة الشمس المحرقة . وتمامسا عندما بدأ الشعور بالندم يراودنا لقرارانا التلقائي ، للقيام بهذه الرحلة القصيرة غير المعلن عنها ، ظهرت أمينة وآلال فسي الردهة فنادتاني قائلتين :

- أهلا مارغريت . كيف حالك ؟ أهلا وسهلا .

فأجبتهن :

- سلام آلال . سلام أمينة .

ومى ثم وبطريقة غير متفنة سألت عن مكان الحاج اسماعيل

فأحابتني أمينة :

- انه بعيد عن المنزل ، منشغل بالحصاد . هل تحتاجين

لرؤيته .

تنامى شعوري بالانزعاج اكثر من ذي قبل. بالتاكيد نحسن

لانحتاج رؤية الحاج اسماعيل . وفي الحقيقة لا يوجد سبب مقنع

لوجودنا في دستان ، ولاداعي لمناداة الحاج اسماعيل من هـذا

البعد وصرفه عن عمله . سألت غير عالمة بما يمكن ان اقول غير

ذلك :

- كم يمكن ان نحده .

فأحابت امينة مشرة باصعها :

- ربما يكون هناك .

لم أر علامات على وجود بشر ولم ابصر سوى السهل الذهبي  
الواسع الممتد نحو الاسفل .

- لماذا لاتدخلان وتجلسان ، فالمكان هنا لطيف .

اقترحت امينة ذلك ولم تقل آلال شيئا . ووقفت تحديقاً فسيئاً  
بعينين واسعتين مسدوهتين .

ألقيت نظرة على جيرد الذي كان واقفاً على مسافة قريبة،  
لم تكن الفتاتان قد خاطبته وماكنت اعلم انهما تعلمان بوجوده،  
في هذا الموقف الغريب مع وجود امينة وآلال فقط في المنزل  
وعدم وجود احد في الديوانخانة خطر ببالي ان جيرد لم يدخل  
حجرة الحريم من قبل ابدا ، فاقترحت عليه قائلة :

- لماذا لا تنتظر في الخارج الى ان ارى ماذا يحدث ؟

أوما جيرد رأسه تحت اشعة الشمس المسهرة . كانت درجة  
الحرارة مرتفعة جدا في الفناء الخالي من الظلال . تبعست  
الفتاتين الى حجرة جلوس النساء ذات البرودة الهادئة والجدران  
السميكة وحسنا على الأرض .

- ابن والد تاكما ؟

سألت الفتاتين متعجبة لعدم جلوس سوسن خانم في مكانها  
المعتاد وعكازتها بجانبها . فأحابت آلال وهي تفتح فمها لأول  
مرة منذ محيثي :

- انهما في الخارج تحت الاشجار ، تحاولان ان نلتفنا بالبرودة

واضافت قائلة :

- لم تعرفا انكما قادمان .

فقلت وانا اهم بالنهوض :

- اذا لربما يتوح علينا المغادرة . اظن ان هذا الوقت

لم يكن مناسباً للمجيء .



فقالتم امبنة التي كانت تتمتع بكياسة اجتماعية اكثر من ابنة عمها :

- لا ، لا ، لا لن تستطيعي الذهاب . لقد وصلت للتو .

ومن ثم فالت لاحدى أخواتها :

- اذهبي الى البستان واخري والدتي ان مارغريت وزوجها

هنا .

عندما اشارت الى حضور جيرد ألقىت نظرة عليه عبر قضبان

النافذة ورأيته واقفا تحت الشمس الحارة يتحرك مقتربا مسن

النافذة ، فناديته :

- كيف الحال معك ياجيرد ؟

فهدق في جيرد وقال :

- حقا ان الجو حار هنا . ماذا تفعلين هناك ؟ هل تظنين

انه بإمكانني المجيء الى الداخل ؟ ام ان هذا سيشكل تهديدا

لسموهما ؟

لم تفهم امينة وآلال الجالستان في النهاية الاخرى من الغرفة

الانكليزية ، ولكنهما أحستا بقلقي ويدأتا بالتهامس مع بعضهما

وتجرات امينة فائلة :

- لماذا لاتدعين زوجك للدخول ؟

فقلت لجيرد من خلال القضبان :

- انهما تدعوانك للدخول .

بعد لحظة كان جيرد واقفا عند مدخل حجرة الجلوس ولسدى

وصوله تراجعتم امينة وآلال قليلا الى الزاوية وسحبنا غطاءيهما

على وجهيهما وبدأتا بالهمس بفزع . عندئذ جلست بين الفتاتيين

وزوجي المسيء . دأبت امينة وآلال على التحدث بانفعال بين الفينة

والاخرى وكانتا احبانا تحاولان ان تكونا مهذبتيين وذلك بشأن

تقوما بادلاء ملاحظة او باخرى اليي . ولكنهما كانتا تتجاهلان

جيرد عن عمد . وكنت املم ان جيرد كان متضايقا في نفسه علسى

الرغم من اظهاره الأدب . وكنت اعرف منشأ غضه فقد كنت انسا  
وجيرد نعتبر ولاشهر منتالية شخصين حنسيين منبوذين في شوارع  
ايران . فبينما كانوا يعتبرونني عاهرة ممكن بلوغها من قبل  
اي رجل ايراني عابر ، فقد كانت النساء تترجل من الحافلات  
الريفية التي كن قد ركبها مسبقا بدلا من الركوب في نفس وسيلة  
النقل مع جيرد . ولو حدث ان لمس جيرد امرأة ايرانية ، لربما  
كانت نهايته السجن ، اذا لم تكن الموت المحتم . لقد كان  
موقفا لا يطاق ولا يمكن للمرء ان يهونه ليطيعه مع انقضاء الزمن  
ولكننا في دستان كنا نُعامل دائما كأناس عاديين . فقد جلس  
جيرد في حجرة مريم ، معها ومع ابنتها وكنتها ، ولم ينظر السي  
قط رجل نظرة فيها تساؤل . ولكني كنت اعرف منشأ قلق امينة  
والآل ايضا ، فلكونهما فتاتين عذراوين ، فهما لى تعتملا أقل  
اشارة توجه اليهما . ابرز الموقف مشكلة كامنة لدى الاكراة .  
فمن جهة ، فان حسن استقبال الضيف امر الزامي ، ومن الجهة  
الاخرى من المفترض الا تظهر الفتيات امام رجل ، غير مصحوبات  
بفرد من العائلة .

لمسن الحظ ، عادت والدة آلل حالا من تحت الاشجار ورافقتنا  
الى المنزل الذي كان اخوها الحاج اسماعيل قد بناه لها في  
احد جوانب فناء دار الحرير . كانت كلاويژ خانم في اواخر  
الاربعينات من عمرها ولستين ظلت متزوجة من كردي عراقي ميسال  
للتعددية الزوجية . ولكنه لدى اتخاذه زوجة اخرى انفصل هو  
وكلاويژ عن بعضهما واتت هي لتعيش مع اخها في دستان . من  
الواضح ان جيرد لم بشكل تهدبدا لسمعتها . ولم نكن مريم نخش  
البقاء وحدها مع رجل احنبي . ولكونها متزوجة ، فقد ظن هذا  
اختلافا علاوة على كبر سنها واستقلالها النسبي مع أولاد سُمان .  
كانت مريم وكلاويژ تبدوان مرتاحتين مع جيرد اكثر من زينسا  
بكثير . ولكن خارج كردستان فحنى النساء المتزوجات ما كسن  
يفامن بالبقاء وحدهن مع جيرد . فعلى الرغم من كل تعلمهن

وكل الفرص العصرية الملائمة ، فان النساء الفارسيات والتركييات ماكن بتحدثن او يتصرفن بسلوك متحرر مثل نظيراتهن الكرديات . فمثلا قام جيرد مرة بزيارة قصيرة الى جيراننا ليسلم رسالة للسيد امين زادة . وهو مدرس في الكلية . وقد اجابت زوجته نازي نفس نازي التي تحظت عني ونحن في طريقنا معا الى البازار قبل عدة اشهر بوساطة الاتصال الداخلي ان زوجها ليس في المنزل ولكنه سيعود حالا ، ومن ثم دعيت جيرد للدخول قائلة :

— "بفرماييد" وتعني تفضل بالدخول . فانتظر جيرد معتقدا انها ستفتح الباب وان زوجها سيأتي ويسلم الرسالة له شخصيا وعندما لم يحدث شيء دق الجرس ثانية ، وكررت المرأة دعوتها " بفرماييد " وانتظر جيرد ثانية . ولم يحدث شيء ثانية ، عندها وقف هناك وقد غامره شعور بالغباء محاولا ان يفهم بماذا كانت منهمكة . اخيرا اكتشفت انها لاتنوي ادخاله ، فقد كانت دعوتها مجرد شكليات . كانت نازي تعمل خارج منزلها وهي خريجة كلية ، متزوجة من استاذ رياضيات . ولكن كان من غير الوارد ان يخطو جيرد ويعبر الباب الخارجي في غياب زوجها ، حتى لو كان مقرررا في برنامحه انه سيعود في خلال خمس دقائق .

حدث موقف شبه مماثل لهذا في يوم آخر ، عندما ذهب جيرد ليتحدث مع زوج امرأة مع ولديها ، كنت قد قضيت وقتنا معها ، وهي امرأة كهلة ، ذات منزلة اجتماعية ، مع ان السيدة جام تلك ، لم تكن داخل منزلها ، بل كانت تشرف على الخدم في فناء الدار ، فلم يسمح لجيرد بالدخول الى البوابة الامامية ليبلغ رسالة . فقد قالت السيدة جام بصراحة :

— عد عندما يكون زوجي في المنزل . وبعدئذ اغلقت البوابة . لم يكن توقف العمال في شارعنا عن وضع القوميد ، كي يحدقوا في نوافذنا مجرد دعاية ، عندما كان دارا يتردد على منزلنا . من الواضح انه لاتوجد امرأة محترمة اخرى في المدينة تغامر بعفتها على هذا النحو .

بلغت دراستنا لسلوك النساء في الفرية وفي المدينة الهدد الاقصى عندما لاحظنا ان الحاج اسماعيل كان يتأملنا عن كثب، فقد كنا في احدى فترات العصر نقوم بزيارة لدستان عندما قررت العودة الى المنزل ، فبعد ساعات من الجلوس في حجرة الحریم وانا اصغي الى القبل والقال الذي لاجدوى فيه ،هاجمني الشهور بالملل والاختناق ايضا من شمس الصيف الحارة . فالتبقات الموضومة فوق بعضها البعض من الاقمشة الموءلفة لملايسي الكردية لم تكن تمتص العرق على الاطلاق .

وقفت فجأة وانا اعرف اني ارتكب زلة في سلوكي الاجتماعي واعلنت اني ذاهبة الى الديوانخانة ، حيث كان جيرد يتنـسـاول الغذاء مع الحاج ، هدقت النساء في متحيرات عندما سرت الـى خارج حرة الحریم ،ورمقني خادم الحاج اسماعيل الطويل بنظرة عندما وصلت الى مدخل الردهة من مسكن الرجال .

عند مدخل الباب اوضحت لجيرد سبب مجيئي ، بينما كان الحاج اسماعيل يراقبنا . اجاب جيرد بأنه يريد البقاء لأن الحاج اسماعيل طلب منه ان يرافقه للمصيد ولكني قلت بكلمات مضطربة اني اريد الذهاب . لم تكن لدي وسيلة لبقة لأنضم لحملة صيد مع الرجال وكنت ايضا قد امضيت وقتا كافيا مع الحریم في ذلك اليوم .كل ما كنت اريد ان اقوم به هو ان اذهب للمنزل وانزع ملايسي وأخذ حماما سريعا . سأل الحاج بفضول :

– ماذا تقولين ؟

فأوضح جيرد اني ارغب في المعادرة ، عند ذلك حث الحاج جيرد على البقاء وقد بدت عليه الخبة ، واخيرا كان لرأيي الغلبة ، فنظر الينا الحاج كما لو أنه يحسب حسابا دقيقا وقال:

– انها هي التي تفرر ، أليس كذلك ؟

لم يكن ذلك اتهاما ، بل ملاحظة وقد احدثت وقفة للتفكير بأن الحاج اسماعيل كان يحاول فهمنا بقدر ما كنا نحن ايضا

نحاول فهمه . عند العودة الى مجلس الحريم لم ترغب النساء في ان بريمني اغادر ولكنهن افترضن انها كانت رغبة روجي . ولم احبرهن بحقيقة الأمر .

على الرغم من انه كان امرا طبيعيا ان اعمم الاشياء، نتيجة لتحاربي في دستان ، فقد كان علي ان اذكر نفسي ان الحاج لا يمثل كل الرجال وان دستان لاتمثل كل القرى الكردية . ففد بدت بعض الاماكن في كردستان اقرب الى ان تكون مثل ريزاي فسي معاملة الرجال لي ومعاملتهم لنسائهم . كانت مانوا هي احدى القرى التي لم يجلس فيها جيرد مع فتيات او نساء كرديات ابدا وقد حاول فيها الرجال ان يقنعوا جيرد باتخاذ زوجة ثانية .

حالما اتضحت لي روية دستان اكثر ، اصحت ذكرياتي عن مانوا اكثر ضبابية . فقد تراءى لي كما لو اني كنت قد سافرت الى تيرغاوار البعيدة منذ عدة سنوات وليس منذ عدة اشهر — بمرافقة السيد ظيلي وسائقه في الوقت الذي كنت فيه اكساد لا أتكلم الكردية ولم اكن اعرف بعد شيئا عن العادات الكردية ولم افهم على الاطلاق ان جميع نساء القرية كن بعيديات ينظمن عرس بروانة المسكينة ، تلك الفتاة التي ألقت بنفسها في النار . فكرت لفترة فبصرة بمصير بروانة ولكنها تلاشت عن تفكيري تدريجيا . كان العرس في زيلا لراشدبن متعقبن في الرأي على الأقل ، على الرغم من غرسته ، كان عمر العروس ثمانين سنة ولم اقدر ان استسيغ انها قد هربت دون ان تحمل اي عاطفة نحو الرجل الذي تزوجته . لم اسمع عن فتيات شابات في دستان انهن القيين بأنفسهن في النار على هذا النحو ، ولكن من كان سيدكر لي مثل هذه الاحداث ؟ .

ابدت شيرين وبروانة الود في ذلك اليوم الذي ظى فسي مانوا ولكنهما لم تحتاني على العودة الى قريتهما ولم يطلب مني السيد ظيلي ابدا ان اذهب معه ثانية ، ولو لم تحدث زيارتي لمانوا بالصدفة ، ماكنت سأراها ابدا .

لقد خلصت الى نتيجة في وقت ما ، ان المجموعات الكردية التي التفتت بها متميرة تماما ، بما فيهم اللاهثون العراقيون عائلة الحاح اسماعيل وحسد مانوا واكراد تركا . ولكني عرفست تدريجيا انهم جميعا ينسكلون جزءا من كل اكبر ، وان العدسد منهم كانوا يعرفون بعضهم البعض .

كانت الحرب قد وضعت اوزارها وحل فصل الصيف ، ولكن مدرسة اللاهثين في ريزاي اسلمرت في دوامها . كانت سلطات الشاه قد نقلت مدرسة الاكراد الى مسكن آحر وقد ترك ذلك لدى انطباعا انهم كانوا يحاولون ان يخلقوا المضابقات قدر المسلسل للاحثين كي لايسلمروا في ادارة مدرستهم . لقد كان موقفا محفوقا بالمخاطر بالنسبة لكل الاكراد اللاهثين الذين كانوا لابلالون في ايران . وعلى نحو ينذر بالسوء ، ادعت الحكومة الابرائية حينئذ انها على وفاق مع الحكومة العراقية ، وفي احسن الاحوال كان الاكراد العراقيون الذين ساعدتهم ابران ذات يوم يشكلون عاثقا امامهما . وفي أسوأ الاحوال سعلبرون ذوي تأثير خطير على اكراد ايران ذاتها . كانت السلطات الابرائية تدرك جيدا ان الاكراد العراقيين الذين بقوا في ايران معرضون للهجوم لانهم كانوا بخشون العودة الى بلدهم عندما طلب منهم العراق ذلك . كان العديد منهم يأمل في الهجرة الى امريكا واوروبا أو أي مكان آخر ، ولكن الحكومة الابرائية كانت في ذلك الحسن ترفض مغادرتهم البلاد ، ولم تكن امريكا نبدى اي اهتمام في مسألة اخذهم ايضا . لقد خرجت فيتنام من يدها للتو ، وعلى الرغم من ان هولاء الاكراد كانوا سيشكلون مجموعه فضيلة بالمفارنة مع تدفق اللاهثين الفيتناميين الى الولايات المتحدة فان مسوولا ما في واشنطن كان قد اصدر القرار برفض الاكراد .

كانت هيئة التدريس والادارة في مدرسة اللاهثين قد تغبرت بمحملها نقرسا . فبدلا من وجود حريحي كلييات او مدرسين متمرسين كان هالك الكشير من السنا والعدبد منهم كانوا في الجامعة عندما اندلعت الحرب الكردية ، كان هولاء المدرسون

ومعظمهم من الرجال - هم الاكثر كفاءة والممكن الاستفادة منهم في هذا الوقت . كان قواد اللاجئيين قد قرروا ان يعلموا اطفالهم الكردية ، الى ان يمنعههم الايرانيون عن ذلك بالقوة وقد ابلى الطلبة ان يواظبوا على المجيء خلال فترة الصيف للتعويض عن الوقت الذي تبدد لدى توقف الدراسة بعد هدنة وقف اطلاق النار . بدأت بالذهاب الى الصف الثاني وشرعت بتعليم الانكليزية للطلاب ذوي المستوى الاعلى . ولكني كنت اشعر بالضييق يزداد رويدا رويدا في المدرسة . كانت مجموعة المدرسين الجدد يعلمون في ناغادة ، وهي مدينة تقع بالقرب من مهباد التي الجنوب من ريزاي ، حيث كان البرزاني قد اتخذها مقرا للقيادة لم يكن احد من المدرسين يعرفني من قبل سوى مدرسة الرياضة ، الاشورية وقد اوضحوا لي انهم لم يصدقوا ولو ثانية ان هويتي هي كما اوضحتها لهم .

في احد الابام ذكر مسعود مدرس الصف الثاني ، وهو رجل قارع الطول يناهز التاسعة عشرة من عمره ، ذكر في حجرة المدرسين انه ذاهب الى مانوا في نهاية الاسبوع . فسألته بفضول :

- ماذا هنالك في مانوا ؟

رمقني نظرة فيها من الشك الكثير وقال :

- ماذا تعرفين عن مانوا ؟

- لقد فمت بزيارة لها في الخريف الفائت .

قلبت ذلك ، مع قبولي حقا انه سيكون من الصعب علي من الآن فصاعدا الحصول على جواب مباشر من لاجيء ، كانت الاسئلة تحاب دائما بالاسئلة . وبما ان المجموعة الجديدة كان معظمها من الرجال تقريبا ، فقد حزمت في تفكيري ان هذا يشكل جزءا من المشكلة . لقد رفضت حتى ولو مدرسة واحدة ذات كفاءة عالية ، كانت في المدرسة قبل انتهاء الحرب ، ان تعود اليها الآن كان وجود عدد من المدرسات الاناث وكذلك وجود مديرة المدرسة يخلق جوا مختلفا تماما وبذلك ازعجتني النبوة المتعجرفة التي

طلب فيها مسعود مني معرفة من الذي اخذني الى مانوا . فأجبتة  
بنزق :

— لا أحد تعرفه .

عند ذلك شدّد بنظره اليّ ، فاستدركت ما قلته — فلو رغبت  
في العودة الى مانوا وقمت بذلك ، فلن اقدر ان اصرف نظري  
عن مسعود الذي يمكن ان يبرهن في النهاية انه شاهد لي هناك  
فأجبتة طوعيا :

— لقد اخذني الى هناك السيد خليلي الذي يعمل في محطة  
الاداعة ، عندما كان يقوم بتحقيق صحفي .

أوما مسعود برأسه وقد نفذ صبره ، كما لو انه لم يهتم  
حقيقة بالمعلومات قط . وسألته :

— ولماذا انت ذاهب الى هناك ؟

فقال :

— عائلتي تسكن في مانوا .

— اذا فأنت هركي ؟

— نعم ، انا هركي .

تأملت وجه مسعود الممتلئ بشوته الساحبة وعبدت  
الرمادسبن . لقد اوحى اليّ احداهم ولم اعد اذكر من هـــــــــــــــــ  
الهركسن لم يكونوا وراء البراءة بل انهم هم الذين اخبروا  
الذي جرى في العراق . وهذا مجرد اشارة خلفهما انه سار  
جمهوريه مهاساد . ولكني ان اذكر اعام قبل ذلك سوف اهركبس  
في الطلاق في المدرسة . في الامس كان الحدس من هــــــــــــــ  
الانراد من ان لدرجة اسعدنا اننا سعتونون ساسدنا انهم  
والسالة والسم والسب الى اي هـــــــــــــ . ان سسود هو المثال  
الأول الذي سمعت عنه ، على وجود رابطة سن لاحق عرافي والاكراد  
في قرية ايرانية . وقد تساءلت كثيرا عن كيفية احتيال الحكومة  
الايرانية للسيطرة على هذه الضروب من العلاقات . فقد كان واضحا  
انهم يرغبون في الحد من التواصل ما أمكن بين الاكراد المحليين



واللاجئين وكانت هناك اشاعات منذ وقف اطلاق النار تقوّل ان الحكومة ستنقل جميع اللاجئين العراقيين بعيدا عن الحدود الغربية التي تمكنهم من ان يكونوا على اتصال مع الاكــــراد الايرانيين . ولكن حتى ذلك الحين لم يحدث شيء من هذا القبيل . سألت مسعود :

- هل تظن انه بإمكانني الذهاب معك ؟

وعندما احسست انه على وشك الرفض اضفت على نحو سريع :

- لدينا سيارة ، لدينا سيارة ، لذلك بإمكاننا ان نأخذك

الى هناك .

شرعنا انا وجيرد ومسعود في الجمعة التالية بالرحلة الى مانوا . وعندما وصلنا وتجمع الرجال ليرحبوا بنا ، اشار مسعود باصبعه باتجاه حجرة الحریم وقال لي :

- انت ، اذهبي مع النساء

رمقته بنظرة احتقار وفكرت في البقاء لفترة وجيزة مع الرجال لأزعه . كان مسعود يرتدي دائما بذلة رمادية ذات تفصيلات حسنة . كان يتحدث القليل من الانكليزية . ومن الواضح انه كان قد انتقل للسنة الاخيرة في الكلية ضمن نظام الجامعة العراقية قبل ان يضطر للفرار ، لم تكن ملابسه وثقافته توهيان بشيء يمت بصلة للقرية . ولكن سلوكه معي كامرأة كان مزعجا وجنسيا اكثر من اي رجل كردي قبليّ التقيت به . عندما وصلت الى داخل احدى حجرات الحریم ، اقتربت مني فتاة نحيفة ، ذات شعر عسلي وقصدت جفلت عندما رأيتها . لقد كانت صورة طبق الأصل عن بروانه . ربما ان العرس لم يحدث فط ؟ ا ولكن لا . لقد كانت تلك اخت بروانسة . كانتا تقريبا بنفس العمر وكانتا تبدوان مثل توأمين ، دهشت كيف كان لوالدهما ان يختار واحدة منهما ليلقيها في النار :

سألت اخت بروانة :

- اين هي . ا . ا .

- اسها في العراق .

- العراق ؟ ا

— نعم ، تحتم عليها ان تلحق زوجها الى هناك بعد ان انتهت الحرب . لقد بكت كثيرا ولكنهم اجبروها على الرحيل .

لم اكن اعلم ان عريس بروانة العجوز هو عراقي فضلا عن وجود علل اخرى فيه ، فكرت في بروانة اللطيفة ، الخجولة وهي تنكر انها على وشك الزواج . وهاهي الآن قد اجبرت على ان تغادر ارضها الأم . ربما لن يحدث ان ترى اسرتها ثانية ابداء . فقد كان محتملا ان الهجرة الهركية السنوية لن تحدث ثانية قط مع نشوء العلاقة الجديدة المشتركة بين ايران والعراق واتخاذ اجراءات صارمة بشأن الاكراد .

اخرجت اخت بروانة ، ألبوم الصور وارتنني صور عرس بروانة والصورة التي انطبعت في ذهني ، كانت بروانة وهي تتكأ على نافذة صغيرة في الطابق العلوي في مسكن ميرخان في المدينة ، وقد بدت الفتاة الصغيرة حبيسة ولاح عليها اليأس ، داخل ذلك المنزل الكبير ، مثل اميرة في حكايا الجان . ولكن لم تكن لهذه الحكاية نهاية سعيدة .

مضى بقية ذلك اليوم في سبيله ، وكان ذلك اليوم شيئا في ظاهره بيوم في دستان . حيث مكث جيرد مع الرجال ، بينما بقيت انا في دار الحرير مع النساء وقد خاطرت بالخروج في جولـة برفقة اخت بروانة الشبيهة بها . و ميرخان نفسه كان غائبا عن مانوا تلك الليلة .

قبل ان تغادر في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم ، ذهبت الى الخارج وسألت جيرد ، اذا كان بإمكانه استخدام آلة تصويره في التقاط صور للنساء في الداخل . لأن الاضاءة هناك لم تكن كافية تماما لآلة التصوير التي بعودتي . فأشار جيرد انه يجب عليّ ألا اطلب منه ذلك ، بل من السادة الذين حل عليهم فيفـا . وعندما اعدت طلبي ، موجهة آياه للرجال ، نظروا الى بعضهم وهم يتفاحكون .

— لم لا ، لم لا ؟

اجاب اكبرهم سنا متحمسا لذلك .

لقد كانوا جميعها مستعدين لبعض التسليية المنعثة ، مضت المجموعة محتشدة وهي تصعد السلام الى دار الحريم ، وجيرد في مقدمتهم ، ولكن النساء انكمشن على انفسهن من الدهر عندما رأين جميع الرجال عند المدخل ، فقال الرجل الذي أعطاننا الأذن بالتصوير :

— أتري ؟ ان الامر على ما بهرام بالنسبة لنا ، ولكن النساء هن اللواتي لا يرهبن في ذلك .

التقط جيرد بعض الصور ومن ثم انسحب بسرعة والرجسـال يتقهقرون وراءه .

عندما كان أوان الرحيل ، ذهبتني النساء للقضاء الليلة هناك وقد أمراني ذلك ولكن كان على مسعود العرالي ان يعود الى ريزاي ليمارس التعليم في اليوم التالي . لقد شعرت بالسعادة لتوفر هذه العجة ، فقد بدا لي ان مير خان ليس ماغيها في جعلنا نخوض تجربة مطابقة لتجربتنا مع الحاج اسماعيل ، على الرغم من اني لم التثق معه ، كانت اشياء عديده في مانوا منظوية على سمات متناقضة ، ابتداءً بقعة زواج بروانة وانتهاءً بالطريقة التي ترك فيها الرجال جيرد لهللتقاط صور للنساء دون استئذانهن لم يحدث شيء من هذا القبيل مع الحاج اسماعيل قط .

قمنا بمرحلة اخرى الى مانوا ، وذلك لأن مسعود فضل سيارتنا اكثر بكثير على الحافلة الريفيه وايضا لأن النساء كن قسود رجونني كي اعود . ولكن لدى مودتي في التاربخ الذي حددناه لم ارهن . ان شيئاً مثل هذا لم يكن وارد حدوثه على الاطلاق . لسو أنه حدث فان الحاج اسماعيل وابنه طه كانا سيحرصان اكثر منا على مراعاة المواعيد .

اظهر مسعود تزمته ثانية عندما اخذناه الى قرية اسرتسه

وهذه المرة لم يأمرني بالذهاب الى دار الحريم ، بل بدلا من ذلك تركز أنتباهه على مسجلتي التي احضرتها معي حيث اشارت فرعه ، فسأل :

— ماذا تفعلين بتلك ؟

— سأسجل بها قصصا .

— كان عليك ألا تحضريها . يجب ان تتركها في السيارة .

حاول جيرد التحدث ويمكنني ان اقول اننا كنا علي وشسك صدام شامل ، لقد تعب جيرد من تعجرف مسعود الشديد مثلي تماما . اخبرت مسعود ان تسجيل القصص هو من ضمن عملي وعزمت علي ان اواكب التسجيل دون اخذ أي اعتبار لشكوكه . ولكن لعدم رغبتني في ان اتسبب في فورة غضب ، قررت ترك الآلة تحت مقعد السيارة لذلك الحين على ان استردها بعدئذ عندما يبتعد مسعود عن هذه الانحاء .

وجدت الأشياء في مسكن النساء كما كانت عليها في المرة الاولى التي زرت فيها فائوا . ومعظم النساء غائبات . وكانت الفتيات ، شبرين واخواتها قد ذهبن ايضا الى بحيرة ريزاي وبذلك اصبحت في مهدة احدى زوجات ميرخان ، وهي امرأة فارعة الطول ، ذات شعر اسود ، بسيطة في سلوكها . جلست معها في حجرة كبيرة ، كان عدد من الخادومات يتناولن اللقم الاخيرة من الفطور المكون من الخبز واللبن ، رأيت امرأتين تجلسان امام قواعد طينية وتستخدمان مطارق صغيرة لتقطع قطع السكر المخروطية الشكل الى كتل بحجم القضة التي يحتاجها الشاي . قالت احدى المرأتين انها تعرف قصة سترويها ضمن مجموعتي ، فشرعت في مفادرة الحجرة لأحضر مسجلتي . فسألتنني مضيقتني الى ابن كنت ذاهبة ، فأجبته :

— الى سيارتي .

— خانم ، سيارتك ليست هناك .

انها مخطئة بالتأكيد ، اسرعت الى النافذة ونظرت نحو

الاسفل الى الفناء . وجدت المكان الذي تقف فيه سيارتنا ارضاً خالية . فسألت بصوت مرتعش .

- أين هي ؟

- لقد اخذها الرجال وذهبوا للصيد .

قالت ذلك المرأة ذات الشعر القاتم ، فلم اصدق ان جبرد قد مضى بمسجلتي دون قول اية كلمة ، انه يعرف جيداً اني كنت قد عزمت على استخدامها ذلك الصباح .

أجلت بنظري في المعجزة الصمثلة بنساء لم أرهن من قبل ابداً وشعرت اني قد وقعت في شرك . كنت قد تجاوزت مرحلة الجلوس والتحدث وعلى نحو خاص مع هؤلاء النساء . لقد اتيت لمانسوا متوقعة ان اعمل بدأب ، وكم سيطول الوقت قبل ان يعود الرجال ؟ هب ان السمك والماء اصابا مسجلتي ؟

فقدت القصة التي كنت انوي تسجيلها سلفاً ، لأنه توجب على المرأة التي تطوعت بأن تسردها ان تذهب خارجاً وتخزن الخبز في التنور . ولكنني كنت اعلم انه يمكنني الحصول على قصص اخرى لو ان المسجلة كانت معي فقط . ان الذي اقلقني هو الطريقة التي اخذت فيها السيارة ببساطة دون ارجاع مسجلتي . هل كان خطاً من التعاون معي وخذاع مسعود امام ناظره ؟ حاولت ان اوضح سبب قلقي لهؤلاء النساء ، ولكنهن كئن ينظرن الي باندهاش . فكيف لامرأة ان تناقش رغبة زوجها ؟ ولرغبة مضيفتي في تحسين مزاجي اخرجتني في جولة في القرية للقيام بزيارة الى زوجة الملا .

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم وبعد ان عاد الرجال ، حيث كنت جالسة مع مضيفتي في حجرة نومها ، ومسجلتي تقبع بأمان الى جانبي ، اقترحت عليها انه بإمكاننا العضي في رحلة قصيرة الى النهر الذي ذهب اليه الرجال للصيد ، فسألت وهي تضحك :

- ولكن كيف يا خانم ؟

فأجبتها :

- بامكاني السيرالى هناك ؟

سألتنى وقد اتسعت عينها :

- بدون زوجك ؟

فقلت :

- نعم

لكنني حالما اقترحت القيام بهذه الرحلة ، ادركت اني لم اكن ارجب في الذهاب وانني اردت فقط ان اظهر انه بامكاني أخذ السيارة انا ايضا . ولسوء الحظ لم يتوفر المجال لوضع هذه المسألة موضع نقاش ما او تسلية وفي مثل هذا التظاهر مع هذه المرأة ، فقد اخبرتنى مسبقا انها لاتسبح او تصيد السمك وانها تخشى السلاحف . كنت متأكدة من انها ستأخذ خمسة اشخاص آخرين معها للحفاظ على عفافها .

ابلغتها اني ماضية الى الديوانخانة متظاهرة اني احتساج الى استئذان زوجي ولكن رغبتي كانت ضعيفة في الذهاب الى النهر . أوامات المرأة برأسها ، وبدأت بهبوط الدرج حتى عبرت الفنساء . قابلت ميرخان في حجرة الجلوس للمرة الاولى . وكما قال جيرد كان يشبه الى حد بعيد موظف تأمين من الغرب المتوسط في الولايات المتحدة بعينييه الزرقاوين ووجهه الناعم وجسمه الممتلئ . لم يظهر سلوك هيرخان شيء من الانفعال العصبي الذي كان يتميز به الحاج اسماعيل . كان الرجل يضح بالثقة وبرودة الاعصاب وينظر اليّ بامعان دون ان يبتسم .

كان في محفظتي صور شيرين وبيروانة التي كنت قد التقطتها خلال زيارتي الاولى لمانوا في الخريف الفائت . كنت قد اعطيت السيد ظيلي مجموعة من هذه الصور منذ زمن مضى ليعطيها لشخص ما كان في طريقه الى تيرغاوار ولكنها كانت قد اختفت دون ان يشير ذلك دهشتي . وفي زيارتي الاخيرة قالت شيرين انها لم ترها ابدا . والان لدى مجموعة اخرى لاعطيها لشيرين الغائبة عن القرية . ولعدم معرفتي النساء اللواتي يمتن بصلة قرابة الى

شيرين شرددت في تسليمهن الصور . وحيث انني واقفة وجها لوجه مع ميرخان ادركت انها فرصتي الاخيرة ، ولكني عندما سلمتسه الصور وطلبت منه ان يعطيها لشيرين شككت في انها سترها يوما ما . وماذا بهم رجل ، كان قد زوّج ابنة ذات خمس عشرة سنة ، من رجل عجوز له زوجتان اخريان ، ولماذا يرمع نفسه بوصول او عدم وصول صور لابنته كان شخص ما قد تركها لها .

تماما عندما هممنا بالمغادرة ، بدأ ميرخان وعلى نحو مفاجيء يتصرف بعناية كمضيف مهتم وقدم لنا قطعة كبيرة من البطيخ . تناولناها ونحن واقفان في الخارج ومن ثم سعدنا السياق تساءلت عن ماهية الرأي الذي كونه عنا اميرخان . هل كان مقتنعا مثل مسعود باننا جواسيس ؟

كان من المحتمل جدا انه اعتبرنا شخصين غير مهمين ودون فائدة له او لأي شخص مهم آخر . كان ميرخان رجلا سياسيا محنكا وكما اخبرنا بنفسه كان قد طار لتوه الى طهران لحضور المؤتمر الاول لـ " رستاخيز " حزب الشاه السياسي الجديد . كان واضحا تماما لي ولجيرد ، الاختلاف الجذري في اسلوب الحاج اسماعيل و ميرخان . كان الحاج يظهر ولاء كلاميا لحكومة الشاه للحفاظ على حياته . ولكنه لم يمش بعيدا لدرجة يصبح فيها مناصرا متحمسا لـ " رستاخيز " فضلا عن ذلك لم اسمع بزيجات مثل زواج بروانة في عائلته ، على الرغم من ان الحاج لم يكن يعامل بناته معاملة حسنة تماما . فكل صورة كنت قد ارسلتها مؤخرا من امريكا لخديجة ونسرين او مريم - ويحرص من الحاج كانت قد سلمت كما ينبغي . من الواضح ان ميرخان هو رجل الاعمال الهادى ، الاعصاب المتميز في اية ظروف متفابيرة . بينما كان الحاج اسماعيل انسانا حالما ، حاد الطبع ، مستبدا في احيان كثيرة ومعبا في احيان اخرى . ان الاختلافات من وجهة نظرنا بين الرجلين الكرديين ، ظهرت بوضوح من خلال تعاملهما معنا . لقد جعلنا اميرخان ندرك اكثر من قبل كم كنا محظوظين للقاءنا مع الحاج اسماعيل .

## الفصل الثامن عشر

عندما تستخدم النساء الكرديات تعبير " سرجاغا " فانهن يلفظن هذا الترحيب التقليدي والوداعي بنبرات رصينة ورزينة وميونهن مسدلة نحو الأرض ، عندما سمعت ورأيت هذا السلوك للمرة الاولى ، فزمت قليلا ، لماذا كن على هذه الدرجة من الجدية ؟ ولكنني فهمت ذلك مؤخرا عندما ترددت على البيسوت الكردية ، وألفت هذه العبارة لتكرارها مئات المرات . لاتنطق " سرجاغا " باستخفاف ، وتعني حرفيا ، على عيني . وتستخدم في ابرام الوعود وكذلك للدلالة على الحل والترحال . ولدى الفرس تعبير مشابه وهو " چشم " ، وكان قد اقصي نوعا ما ، مثل العديد من التعابير الفارسية القديمة . بينما تعني " چشم ( بلغة سائقي سيارات الاجرة الغربية والخدم ، حسنا ، او انني موافق ياسيدي فان تعبير سرجاغا يعتبر شيئا مختلفا تماما . وكلمة " سرجاغا " بالنسبة للأكراد ليست مجرد زوج من الكلمات ، بل تشكل ايضا عهدا ، والعهود لاتعنت بسهولة في كردستان .

مهما كانت تحمل كلمة " سرجاغا " من معاني بالنسبة لمضيفتي فقد كنت اسمعها بما تعنيه حرفيا ، وليس فقط ضمن الشكليات التقليدية ، وعندما شعرت بأن وقتي في كردستان يمضي بسرمة ، بدأت افهم ماتعنيه " سرجاغا " ، عندما آن اوان سماعها من خديجة وماثشة والحاج اسماعيل والبقية في الوداع الاخير . " على عيني " سيبقى دائما منظر نسرين وخديجة وهما على الصخور قرب البحيرة وملابسهما تتلاطم على الامواج مثل نبات خشخاش عملاق ، وقد تلبست ضميراتها بقشرة مالحة ، وخديجة وهي تجلس القرفصاء بجانب كومة من لبوب المشمش التالف ، وتكسرهما وترمي الشمرة . " على عيني " سيكون الحاج اسماعيل وهو يحدق



بنا بعينين مطرفتين تحت ضوء الشمس خارج ديوانخانته ،ملحاً  
في محاولته فهم لغتنا الانكليزية ،وذلك كي يفهم جيرد ويفهمني  
ويفهم علاقتنا ببعضنا البعض ويه ،سينطبع السيدظيلي بنحافته  
في ذاكرتي وهو جالس بجانبني فوق الكراسي المعدنية ،في محطة  
الاذاعة ، بينما كنت اتابع قراءته المشوبة بالعواطف ،للملحمة  
الكردية العظيمة " مم وزين " . لن انسى ابدا الملابس القوس  
قزحية في الينابيع الخالية المثلوجة وهي تسيل هزيلة من فوق  
السفوح الجبلية ،مياه البحيرة الضارب في الزرقة ، زرقة السماء  
الكردية الصافية ، وزرقة عيني الحاج اسماعيل ومريم . لن  
انساه ابدا .

كنت اعرف اني لن ابقى في كردستان دائما ،ومع ذلك فقد  
تقلص ببقية العالم امامي بقدر ما كنت افتقدها احيانا ،لم اعد  
افكر بالمغادرة الى امريكا كل اسبوع مثلما حصل معي خلال  
ايام الشناء المعتمة بعد حادث المصباح الكهربائي . لم اعد  
انتظر البريد يائسة من عدم وجود احد ما قريبا مني لادمه  
صديقي . لقد تمكنت من بلوغ كردستان . وكنت قد بدأت اشفق  
بريزاي وبقية ايران واسلم بها جدلا . بدأ سلوك الناس يتبرأ  
لي اقل غرابة . كانت الحياة موهلة من آلاف الاشياء غيرالمريحة  
التي كانت قد بدأت بطريقة ما تعني لي شيئا ،مثل احتساء  
الشاي وانتظار موظفي الجمارك لامطائي احزمتي ، والمساومة في  
البازار والمضي الى عميد الكلية للتحديث معه والجلوس في  
حجرة الانتظار لمدة ساعة مع امين السر . لم تعد القرى الكردية  
تبدو لي ملوثة لدرجة كبيرة ، واتخذت صفوف الوجوه المتسمة  
برسمية بالغة في اليوم الصور معنى ما ، ومرفت الرد المناسب  
لتعبير " سرجاا " عندما كان احدهم يبادرني به .  
ولكن حتى لو اننا اعتدنا على محيطنا ، ولو بعد طول  
انتظار ، كنا نعرف انهم لاينتمون الينا ونحن لاننتمي اليهم  
وكنا نعرف اننا سنشكل جزءا من الحضور الامريكى الاكبر في  
ايران طوال مدة اقامتنا ، لم يقدم لنا طلابنا الدعوات،وتمنوا

لو اننا لم نأت على الاطلاق . ولدى اطلاقنا على الحالة غير السوية للجامعات ، لم نقدر ان نأمل بتعليم احد الشيء الكثير من العلم . فتح هذا المجال امامنا لممارسة بعض الفعاليات الخاصة ، مثل تجميع وسحب اموالنا ، وكان هذا نشاطا مقبولا لدى العديد من الموظفين الاجانب ولكنه لم يكن يعود علينا بالفائدة المرجوة .

كان جيرد مستعدا للمغادرة ، ولكني كنت لا ازال مترددة . كنت اريد معرفة المزيد عن الناس هنا . اردت تعلم جميع اللغات فهناك لغات معكية حول ريزاي تستغرق دراستها اضعاف من حياة المرء . ولكن جيراني كانوا يوهنون عزيمتي اكثر فأكثر حتى مع مقاومتي الرحيل . فقد كان الايرانيون المتمدنون ، الغربيون ظاهريا وعلى نحو مخادع ، ينظرون الينا كأجانب ميثوس منهم ، بغض النظر عن مدى محاولتنا لتغيير ذلك .

والامر الاكثر تشبيها لعزيمتنا كانت علاقتنا بالجفرين ، ولم يكن سهلا تسميتهما بـ " رهاب " الاجانب وكرههم . كان ايرانيون آخرون يعتقدون ان اعتراض جيرانا علينا منطقي ، لاننا اجانب . ولكن الجفرين كانوا قد قاموا باشياء اكثر من مجرد التسامح معنا . لقد رحبوا بنا واباهم مفتوح لنا ، اخذونا الى انحاء ريفية عديمة ، قدموا لنا وجبات الطعام واعرونا اثاث المنزل . ومع ذلك فقد فسدت العلاقة بيننا شيئا فشيئا .

كان شعورنا الودي الاولي يتناقض مع موقف بقية الجيران الذين كانوا يرتابون فينا منذ البداية . كان السلك الهوائي الذي مده لنا صديق امريكي لمذياعي ذي الموجات القصيرة مصدر قلق مبكر ، وعندما ظهر ، اتانا حالا رجل جار من منزل في احد الجوانب وقال ان السلك يسبب له صدمة كهربائية عن طريق انبوب التبريد ، وفي اشهر لاحقة ادق جار لنا في الجانب الاخر ان السلك يسبب صدمات لزوجته العامل عن طريق السياج المحيط بدرج

مسكنهم في الطابق الثاني . كانت ايضا حاتنا بأن هذا الهواشي خال من النيارتقابل بعدم التصديق ، وبدأت اشعر ان الكهرياء كانت حقا شكلا من اشكال السحر الاسود بالنسبة لهؤلاء الناس المتعلمين ظاهريا وان لدى الاجانب اشباح تسبب الصدمات للناس .

ألقيت باللائمة على نفسي وعلى شهرزاد للطريقة التسيي انتهت فيها علاقتنا ، وفكرت في نفسي انه لولا دأبي ومشاربتي لهذه الدرجة على لقائي بالاكراذ لريما كان الامر مختلفا . ولكن كان هنالك اناس ألقىت اللوم برمته على كاهلهم لهدم الثقة والاحترام بيننا . والسيدة جام هي احدى هؤلاء الناس . انها المرأة ذات الثمانية والثلاثين عاما والتي لم ترغب في ادخال جيرد الى فناء دارها عندما كان زوجها غائبا . لقد تحملت لساعات وساعات اشاعات السيدة جام وأقوالها المشيرة للبغضاء عن الجميع من اجانب ومحليين وعلى نحو خاص من شهرزاد وحتسى عن اقاربها هي نفسها . كنت امتقد انها تتسلى وقد ثمنت المرات التي دمتنا فيها انا وجيرد لتناول الغداء مندها . وعرفانا بهذا الجميل ، ارتكبت خطأ باعطاء عنوان ورقم هاتف اختسي لابنها ذي الثلاثة والعشرين عاما الذي كان في طريقه للولايات المتحدة . حتى انني كتبت لأختي احثها على تقديم المساعدة لهذا الشاب على نحو خاص ، حيث تراءى لي متعلقا بوالدته لسدى مشاهدتي ابيه في ايران . وفكرت في احتمال مواجهته صعوبات بفرد في امريكا فلم تكن بعد لدى تجربة كبيرة مع شنائي ايراني مكون من ام وابنها .

بعد عدة اسابيع من ذلك نقل الشاب لوالدته رسالة نقدية تتعلق بحياة اختي الاجتماعية والجنسية ، حيث اتت الام بعدها الى منزلي تريد معرفة متى ستزوج اختي . اخبرني هذه الام الخرفة تقريبا ان ابنها كان يتوقع من اختي ان تصبح صديقة له . وبعد ذكر هذا الموضوع مرات عديدة خلصت الى نتيجة حاسمة وهي ان الصديقة بالنسبة للسيدة جام وابنها تعني " عاهرة " بعدد

كتبت لي اختي وطلبت مني الا ارسل اي شباب آخرين اليها ، لان هذا الابن لم يتوقف عن ازواج صديق لها .

اتفقنا انا وجيرد ان نغادر ايران اخيرا في نهاية الصيف وحددنا موعدا لاخبار العميد بذلك ليكون بإمكانه البدء فسي ترتب من سيحل محلنا ، ومن الواضح انها لم تكن مهمة سهلة بما أن اجرتنا كانت مليئة بالتأخيرات والوعود المحنت بها حيث كان من المحتمل ألا يأتي بسببها احد ، اقل تصميمنا منا الى ريزاي قط . كان رد فعل العميد لسماع اخبارنا عبارة من غضب مكجوح ، وازداد اشارة باطراد . وذلك بأن هددنا بقطع راتبنا الصيفي الذي كنا نحسبه ضمن ما سنستلمه ، لقد صعدنا لذلك ، وقرر العميد ابمأته تلك بقوله اننا قد تعهدنا بالبقاء لمدة سنتين على الأقل ؛ ولكن عقدنا حدد سنة واحدة فقط وحتى انه لم يطالبنا بأن ننوه الى اننا عازمين على البقاء خارجا ، تلك السنة . وهذه ايضا نهاية اخرى سيئة وغير متوقعة لعلاقتنا مع العميد .

لم يكن شمة انصاف قانوني للطريقة التي انهى بها العميد عقودنا . كان العميد من ابناء نفس المدينة الايرانية الواقعة في الشمال الشرقي التي اثنى منها رئيس الوزراء . وكان الناس يقولون ان ذلك جعله اقوى من حاكم اذربيجان نفسه . لم تكن تلك هي المرة الاولى التي شعرنا فيها بالهجز في ايران . ولم يبال زملاؤنا في الكلية ولا جيراننا بنا ، عندما اخبرناهم بذلك ، ألم تكن نعرف ان نتعامل مع العميد بطريقة افضل من هذا الاسلوب المباشر ؟ وكان عادة كان رد فعل الأكراد مختلفنا . فهم ايضا يمثلون " الآخرين " في ايران . كانوا يفهمون اساليب العجم المشيرة للجنون وكانوا قد سئموا من الشاه حتى قبل ان نولد بأمد بعيد . اصغى الأكراد الى قصة العميد بغضب متعاطف معنا ، ولكني ادركت انهم كانوا قد فهموها على نحو مختلف تماما مما كانت عليه . وذلك عندما اخبرتهم بها . فبغير قصد مني

ولعدم رغبتني بالاعتراف بأنني قد اخترت طوعيا مغادرة كردستان جعلتها تبدو كما لو أن العميد قد اقالنا دون ان يبلغنا بذلك. لم أقو على مواجهة الحاج اسماعيل ، الحاج الذي غالبا ما كان يردد ان القرية هي قريتي ، وان اخبره اننا قد قررنا - وعلى نحو يعوزه الحماس - المغادرة بعد اجل قصير .  
- ولكن لماذا ؟

سأل الشيخ عبدالله . كان قد استوعب سلسلة الاحداث كما هي ، وحقيقة اننا كنا قد توقفنا عن العمل فعليا . وكان يعرف ايضا انه توجد مشكلة بطالة جدية في الولايات المتحدة . فسأل بطريقته التي ننم عن نضوج فكري :  
- ماذا ستفعلان عندما تعودان الى هناك ؟ ألن يكون من الأفضل لكما البقاء هنا ؟

سأل الحاج اسماعيل عن رحيلنا هو ايضا ، ولكن ليس ملى اسما هو مفيد لنا . فهو كسيد اقطاعي ، قَبِل تفوق الغرب . وأنه من الطبيعي ان نرغب في العودة الى وطننا ، ولكن هل ثمة مايدعمو للعودة بهذه العجلة ؟ . ترك الحاج الحصادة لحين ليرانا قبيل ان يغادر لأنه قد بقي لنا بضعة ايام فقط للمكوث هنا .

خرجنا في أحد الايام الى الموقع الذي كانت تقف فيه سيارة اللاندروفر بجانب ميزان وكومة من اكياس القمح . وجدنا الحاج بيناور بتحرك حصادته العملاقة تحت اشعة الشمس الساطعة فوق حقل القمح .

- اصعد الى هنا يا جيرد .  
قال ذلك ساعيا للفت الانتظار الى آلتة الضخمة .  
- هلا التقطت لنا صورة بامارغريت خانم ؟

كانت هذه هي المرة الاولى والوحيدة التي طلب فيها الحاج ان التقط له صورة . كان قد سمح بأخذ صور له في القرية امام ديوانخانته ، ولكن هذه هي الطريقة التي ارادنا ان نتذكره بها في امريكا ، على انه مزارع عصري .

كانت خديجة تحثني دائما على المجيء وقضاء جل ايامي معها في منزل الحاج في المدينة . ولكن لم يكن باستطاعتني الذهاب كلما رغبت في ذلك . فقد كنت مشغولة ببيع المقتنيات التي جمعناها خلال اقامتنا لتأثيث شقتنا الجرداء . كان من الصعب التمييز بين المشتريين الحقيقيين والاشخاص غير الجادين وكما تبين لي فان بلوغ السعر النهائي للمبيعات والمشتريات في عملية البيع الجارية في ايران كانت مثبطة لعريضة المسء . اتت احدى النساء وتنبأت ان يصيب النعمس مجموعة من الاطباق لم تكن نرغب في بيعها بسعر بخس زاعمة انها ستتكسر عالما تغادر .

كانت خديجة تود ان ابقى معها ، لأنها لن تكون في ريزاي او دستان عندما يحين اوان رحيلنا . كانت تخطط منذ شهرس تقريبا للعودة الى قرية طفولتها ، لتقوم بزيارتها الاولى منذ زواجها في الصيف الفائت . ستحملها الى هناك سيارة اللاندروفر برفقة اخي طه ، والقابلة كلبهار واشخاص آخرين عديدين . لم يكن مسموحا لطفه نفسه الذهاب ، وذلك بموجب الاعراف والتقاليد ولكنه هو ومريم قد عزمنا على ارسال خديجة مع جبل من الهدايا وعلب الحلوى واشواب من القماش ، ليعرفنا اعمام خديجة العشرة مدى تقدير الاسرة الجديدة لعروسها .

كانت خديجة تحاول ان تبدو رزينة في يوم وصولها الى منزل الحاج اسماعيل لترحل منه لقريتها . فهداه لم تكن مناسبة تستلزم الجدية فحسب بما انها الزيارة الاولى لعروس بعد زواجها بل ايضا لأن احد اقارب خديجة قد توفي حديثا . وقد فسر ذلك ، لون فستانها الاخضر الداكن والنقص الواضح في الذهب السذي كانت ترتديه فوق مئزرها . وهناك رحيلي ايضا الذي يسبب لها الحزن . جلسنا معا وقد مسكت الواحدة منا بيد الاخرى نراقب الصخب حولنا ، بينما احضر المزيد من علب الحلوى والاقمشة من البازار وايضا سيارة اجرة ريفية لتعمل كل هذه الهدايا . لم يكن لي وسعنا كلينا ان نستجمع الحزن الذي كانت تتطلبه المناسبة

على الرغم من محاولتنا الحثيثة لذلك . فرحلة خديجة المتوقع  
لها التيسير كانت مبهجة جدا اما رحيلي فكان لإيزال بعد عدة  
اسباع ، ولا اعتقد ان اخذانا كانت تصدق ما افقت اليه الامور .  
- مارغريت ، انا حزينة جدا لرحيلك لترحلي ، امكثي هنا .

قالت ذلك وهي تبتسم وتشد على يدي :

- سأعود وسأزورك .

قلت ذلك بمرح ، فيبر راضية في التركيز على حقيقة ان العودة

لن تكون مثل الإقامة هنا بعد ذاتها .

مشى الجميع بما فيهم طه وجيرد وخديجة هابطين السدرج  
الى خارج الباب الا مامي حيث كانت ملب الهدايا قد حملت في  
سيارة فولكا حمراء وبيضاء . معد اخو طه الى جانب سائق  
سيارة اللاندروفرن وخديجة الى يمينه ومباثتها السوداء المخرمة  
مستقرة على رأسها . وجلس بقية المرافقين في ظفية اللاندروفرن  
لومنا جميعا بأيدينا عندما انطلقوا في سبهم ومن ثم وقفنا  
انا وجيردوطه في الشارع المغبر نجدق في منزل الحاج اسماعيل  
لقد فرغ الآن تماما . فقد كانت زينب والأولاد والخدم والقرويون  
جميعهم في دستان لقضاء فترة الصيف هناك .

سيستيقظ طه وحده كل صباح ويمضي الى عمله في المدينة  
ويعود كل عصر وحده ليحضر غداه . لم تكن هذه حياة بالنسبة  
لكردية .

- هل تظنون اني قد فعلت الصواب لسماحي لها بالعودة ،

فالثلاثة اسابيع هي مدة طويلة ؟

سأل ذلك بين الهزل والجد .

- طبعاً لقد فعلت الصواب .

قلت ذلك لأعيد اليه الطمأنينة ولرغبتني في ان احببه لأنه قد

اصبح زوجاً مهتماً اكثر مما كان عليه من قبل .

لقد آن اوائ رحلتنا الاخيرة الى دستان ، لنودع الحجاج

اسماعيل وحريمه ونسرين ووالدتها . ذهبنا بالحافلة لأننا كنا قد بعنا سيارتنا . كانت هذه الرحلة تجربة بحد ذاتها . لأننا ركبنا احدى الحافلات المعطوبة التي كنا نراها تحمل الركاب الى ميرغاوار ، مارة بالكليية عدة مرات في اليوم ، تميل على نحو خطر الى احد الجانبين بسبب الثقل وبسبب حاجتها الى الصيانة ، بعد وصولنا الى موقف حافلة تيرغاوار كان علينا ان نمشي عدة مئات من الiardات عبر ساحة ممتلئة بالنباتات الشائكة والاشجار الصغيرة لنصل منزل مريم .

لامتني مضيفتي لعدم اخبارنا اياهم بأننا كنا بدون سيارة لكي يأتي ادهم الى المدينة ويأخذنا معه ، عندما جلست مع مريم ونسرين اخذتا ثقتاني باصرار على ان اعيد النظر في قرار المغادرة . قالت مريم :

— لو أنك تمكثين سنة اخرى بامارغريت ، فانك ستتقنين لغتنا وستصبحين كردية بحق .

وارادت نسرين ان تعرف اشياء ، فسألتنى :

— كيف ستواظبين على عدم نسيانك الكردية في امريكا ؟

فقلت معترفة :

— ربما سانسى القليل .

فقلت امينة ، حيث كانت قد حضرت لمنزل مريم لروءيتي :

— اذا ، علمي لغتنا لوالدتك ووالدك ، وبذلك يمكنك ان

تمارسي التحدث بها معهما .

وابدت نسرين اقتراحا :

— نعم والبسي ملابسك الكردية ليرى الامريكان كم هي جميلة .

خامرني شعور غريب لدى التحدث عما سأفعله في امريكا ، فقد تراءى لي الاكراد ودستان منفصلين تماما عن بقية هياتي . ولم افكر بما سأفعله باللغة الكردية لدى عودتي الى امريكا بعد استخدامها كموضوع للاطروحة . لقد هالني التفكير بأن الكردية لن تكون ذات نفع كبير في المعادشات اليومية ، ماذا سأفعل بملابسي



الكرديّة ؟ خطر ببالي ان اقلع عليها في صندوق الشياح لا أريها لاحفادي . لن ارتديها ثانية ابدا كملابس مناسبة ، لأنها ستشكل مجرد عادة دخيلة وغريبة .

خلال وجودي في دستان في يومنا الاخير اقتترنت اشياء عديدة ببعضها في فكري ، منها والدتي ومعرفتي للكرديّة ، اخلاقيات المرأة الغربية واللاجئين .

لم اسمع الاكراد قط يبذون آراءهم في لا اخلاقيات المرأة الغربية مثل السيدة جام . وعلى الأقل لم يتحدث اكراد دستان عن هذا الموضوع ابدا . اما اليوم فقد حضرت من طهران ابنة سوسن الوسطى في زيارة لدستان ، حيث تقيم مع زوجها الطالب هناك . كانت تعرف كل شيء عن الغربيات ، عن كيفية تقبيلهن الرجال الآخرين امام ازواجهن . لم تسألني مثلما فعلت السيدة جام فيما اذا كنت قد قمت بمثل هذه الاشياء ، بما انها كانت قد سمعت من مائلتها مسبقا ان سلوكي هو على مايرام ، ولكن شجبتها العفوي لنساء اجنبيات اخريات جعلني اكثر ادراكا من قبل لشعور القرويين الودي المتقلقل ، ولو انهم كانوا متمدنين على نحو مشابه لاتراك لربما انعدم مكان في ايران يمكن لمرأة اجنبية ان تشعر فيه بالراحة .

لم اتوقع ان ارى المزيد من اللاجئين بقدر عدم توقعي المعادثة عن تقبيل الرجال الآخرين . فبعد ظهورهم في الأفق تماما ذكرت امينة ونسرين عرضيا ان مجموعات من العراقيين قد أتت مشيا الى دستان منذ اسابيع مضت . كانت الحكومة العراقية قد طردت هو٤٦٤ القبليين الباشيين من قراهم الواقعة في أقصى الشمال الغربي . لقد استمرت الحكومة العراقية باتباع سياستها التي بدأتها قبل الحرب على الرغم من انها كانت قد وعدت بالعفو العام لجميع الاكراد في نهاية الحرب وذلك بنقلهم عنوة من اراضيهم في الجبال الشمالية وتوطينهم في معسكرات في صحراء جنوب العراق . ويعدّذ تعطى الاراضي الكرديّة الخصبة للعرب ومن

المفترض ان كل هذه الاجراءات تتخذ للتأكد من ان يوما ما لن يكون ثمة تمركز للأكراد في اي مكان قريب من النفط العراقي وبذلك لن يتمكن الاكراد ابدا من المطالبة بأي من الفوائد التي يجنيها العراق من الشروات الكامنة في باطن كردستان .

اشار وصول اللاجئين بعض الاهتياج في دستان . فقد سار اللاجئين في الجبال لمدة اثني عشر يوما ، يتجنبون الجنود والأراضي المملوكة بطريقة ما على طول الحدود العراقية والتركية والایرانية . قدم لهم خدم مريم الشاي والسجائر وارسل لهم الحاج اسماعيل شاحنة مباشرة لتعملهم الى معسكر اللاجئين . ولكن لم يول احد اهتماما كبيرا بمعاناتهم . ونسرين التي بسدت متأثرة ومهتاجة في تصرفاتها لوصولهم في البداية لم تتحدث معهم ابدا ، بل وقفت معي ومع امينة تحديق فيهم من على بعد ، وهم يجلسون تحت اشجار بستان المشمش ، تساءلت عن سبب توقعي توجيه المزيد من التعاطف نحو هؤلاء اللاجئين المنهوكي القوى وقد لوت الشمس وجوههم وعلى ظهورهم الالبسة الرثة ، والاطفال الرضع في احضانهم ، حيث كان ذلك كل ما يملكون في العالم ، من دون ريب كنت افكر بمكان غير كردستان لدى شعوري بالخيبة لأن كل ما فعلته نسرين كان مجرد التحديق فيهم ، ولأن احدا لم يعاقبهم او يواسيهم او حتى يفكر بعدم تحويلهم مباشرة الى معسكر اللاجئين المغزوم من قبل السافاك ، دون شك كنت افكر بكردستان مثالية ، لايشكل فيها الفارق الطبقي او القبلي عائقا ولا يعتبر فيها الزيباريون ، المساكين غرباء بالنسبة لأكراد دستان فس كردستان يستقبل فيها الاكراد بأنفسهم الاكراد اللاجئين بدلا من السافاك .

وقفت مضطربة قليلا وانا اراقب المشهد امامي ، كانت مريم بلفاعها الملتف باحكام حول رأسها على سجادة الصلاة المفروشة امام منزلها ، كانت نسرين وامينة واقفتين في احد الجوانب تحديقان من بعيد ، واللاجئون يتحركون هنا وهناك بصورة عشوائية

ينظرون بقلق الى الدستوريين . نظرت الى ساعتى وساورنى قلق حول امكانية عدم لحاقنا بالحافلة ، لقد آن اوان المضي الى دار الحرير لتوديعهن . كانت مصافحتنا هناك فاترة على نحو مشير للفضول والتساؤل . كنت اعرف انى غير مضدقة بانى راحلة حقا ، اظن ان شعورى قد ترجم نفسه : شعرت بالخزي ، ودون شك كان ذلك نابعا من ذاتى لاعتقادي انى لاسحق حقيقة توديعنا افضل لاننى انا نفسى اخترت الرحيل ، اختلفت الامور نوعا ما عند مريم ، فقد قبلت نسرين وجهي وبدأت بالنشيج ، وقبلتنى مريم ايضا ومن ثم التفتت الى ابنتها لتهدئها ، حضر الحاج اسماعيل ليعيدنا الى المدينة وبدأ هو ايضا خزينا ، صعدت بسيارة اللاندروفر وقد خامرنى شعور بالخطر .

تأملت المنحنيات الظليلة للجبال عند الشفق ، وتدفق مياه النهر ، والطريقة التي يمشي فيها الرعاة جنبا الى جنب ، لاننا سرنا هذه المرة خلال الممر من ميرغاوار الى سهل ريزاي ، كان محتملا ألا اعود الى المكان النائي ابدا ، وألا ابصر هذه الجبال ثانية وألا اركب مع الحاج اسماعيل بعد هذا قط ، وربما هذه آخر مرة ارى فيها نسرين ، تلك الفتاة القروية العاطفية الحالمة بالفرار مع رجل قبلي برزاني ، لأنى كنت وسيلة اتصال بالمدينة وبالعالم الواسع الذي كانت ترقب في امضاء حياتها فيه .

تأملت كل شيء بابتهاج محاولة ان اطبعه في ذاكرتى بحيث يتعذر محوه ، لم اصدق ان ايران ستبقى هنا دائما تنتظرني كسي اعود اليها ، على الرغم من اعتقاد الحكومة الامريكية ان حكم الشاه سيدوم لمئات السنين . ومع ان دستان نفسها قد شهدت منذ اقل من قرن خلا ، فان الأكراد كانوا يجوبون المنطقة ولايزالون منذ آلاف السنين . لم يكن ثمة سبب معقول للاعتقاد بأنهم لسن يكونوا هنا . ومع ذلك فقد افضى اسلوب حياتى الموءقت الى الاعتقاد بأن لاشيء سيبقى كما كان .

يبعد مطار ريزاي عن كردستان مليون ميل في القلب والقالب ،

فهو يقع على بعد عدة اميال الى الشمال الشرقي من المدينة  
وبذلك يشكل جزءاً من بلاد العجم جغرافياً وكذلك ثقافياً  
واقتصادياً . عندما اندفعت انا وطه وجيرد فاتحين الأبواب  
الزجاجية لقاعة الانتظار ذات الجدران الرخامية التي تعتبر  
احدى روائع الشاه المحلية ، كان علينا ان نتخذ سبيلاً ملتويماً  
بين حشد ضخم لا يتيسر العبور ، لم تكن هنالك ارتال حقيقية امام  
طاولة تسجيل الاسماء ، بل مجرد كتل متدافعة ، كان الموظف يحاول  
خدمتها كلها دفعة واحدة . كنت بعيدة بتفكيري عن هذا المكان  
حتى قبل جلوسي ، متناسمة زاوية ذات مقعد اسود بلاستيكي مع  
جيرد والحشد يتحرك على نحو عشوائي حولنا ، كان زمن الاقلاع قد  
انقضى منذ مدة قصيرة والناس لا يزالون يتدافعون لدى دخولهم قاعة  
الانتظار ، بعضهم يذهب مباشرة الى مطعم المطار لطلب الطرخا  
المشوية على فحم الكوك او الهمبرغر ، وآخرون يسجلون اسماءهم  
بينما يقف هؤلاء الذين يلتقون بأناس او يرونهم صدمة وهم في  
طريق سفرهم فيتحدثون مع بعضهم بأصوات عالية ، كان المشهد امامي  
اقرب ما يكون الى حفلة كوكتيل ضخمة خالية من الشراب .

كان جيرد وطه قد استغرقا في محادثة لم اقدر على سماعها  
بسبب الضجيج الذي كان يصم الاذان ، كنت افكر بكل الامور التي  
يجب القيام بها في طهران وفي انكلترا ، حيث كنا ذاهبين لحضور  
مؤتمر اكاديمي هناك ، شعرت كما لو اني كنت قد غادرت ريزاي  
من قبل ، على الرغم من تواصل الاعلانات بأن طاشرتنا ستصل في  
اية لحظة . واخيراً كنت قد تحولت الى ايرانية تماماً لامتنفادي  
انها ستاتي في آخر الأمر .

بينما كنت انتظر ، نظرت حولي وشعرت بالدهول الذي ينتاب  
المرء لدى ادراكه كنه الشيء ، لقد كنت اعرف العديد من هؤلاء  
الناس . لم يكونوا الغرباء الذين رأيتهم لدى وصولي الى  
ريزاي في مطلع العام ، ولا الاشخاص المجهولين المنتمين الى الطبقة  
الوسطى والعليا في طهران . كان هؤلاء جيراني وزملائي الذين

قضيت سنتي معهم ، كانوا اشخاصا تناولت وجبات غذاء معهم  
وتعادتت معهم كثيرا ، انتابني شعور بالكآبة ومع ذلك فقد كنت  
قد سحرت وتسمرت في مكاني وظللت أتأملهم ، وهم يحدثون فسِّي  
وينتظرونني كي الاحظهم .

قدمت شهرزاد من احد الجوانب وقد برزت شفتاها الملونتان  
بمستحضرات التجميل بابتسامتها المترفة ، تلك التي كنت  
الاحظها مرتسمة على وجهها دوما في الفترة الاخيرة ، اندفعت  
واقفة على قدمي بينما كان جيرد وطه غافلين مستغرقين فسِّي  
محادثتهما ويد احدهما بيد الآخر .  
- اتمنى لك رحلة سالمة .

قالت شهرزاد ذلك بابتسامة متكلفة ، رافضة النظر في عيني  
بما ان نبرتها كانت تنم عن سلوك تقليدي شكلي ، اعربت لها عن  
شكري ، ثم ابتعدت بخطوات متكلفة الاناقة ، وتساءلت في نفسي  
هل سيبادر آخر بالتحدث معي . وبعد برهة وصلت السيدة جام ،  
- مارغريت ، لماذا لم تحضري الى منزلي لتوديعي؟ وددت لو  
تاخذي بعض الاغراض لولدي في الولايات المتحدة .

لم يعد توبيخ السيدة جام يباغتني ، فقد كنت متيقظة لسه  
وقلت :

- أنا آسفة ، لم يكن هناك متسع في حقيبتني ، وكما تعلمين  
نحن راحلون من ايران .

بعد ان جلت بنظري حولي اكثر ، رأيت ضابطين من جيوش  
الولايات المتحدة ، والجواهري الذي افسد مفاجأة جيرد في عيسد  
الميلاد ، ووالد الصبي - الذي اتمنى ان لا يرى سرا - الذي كان  
قد شهد حادثة المصباح الكهربائي . وعميد الكلية وأعضاء  
عديدين من الكلية وشخص آخر كنت اعرفه . ولم ارجب في التحدث  
معه .

اخيرا ، نهضنا انا وجيرد لدى الاعلان عن موعد الطيران.

نظرت الى طه كما لو اني لم أراه من قبل . كان قد انتظرنا خلال معظم فترة العصر ،على الرغم من انه كان من المفترض ان يكون في مكتبه طوال اليوم . كنت قد سمعت لنفسي بأن اتسمر مندهشة بهذا الحشدة من العجم ، بدلا من التفكير في اخلاص طه غيرالمتذبذب وفي التوديعات في دستان .  
- وداعا طه ،شكرا .

قلت ذلك وانا انظر في عينيه الزرقاوين الضاريتين الـى الخضرة . أردت قول المزيد ،لأعبر عن ذلك الشعور الذي يتصاعد متفجرا ،فيّ ،ومن حقيقة ان هذا الرجل وعائلته لم يطلبوا منسا شيئا سوى ان نكون اصدقاء لهم . تصافعنا ،ومشينا انا وجيـرد نحو الطائرة ،وبينما كنت اصعد على متنها، نظرت ورائي للحظة فرأيت ان طه كان لايزال ينتظر هناك وسط حشد العجم ليشهد اقلع الطائرة بأمان وسلام .

سيكون من السهل افتقاد اثر الاكراد ،لدى العودة الـى امريكا، وكتابة اطروحة عن اللغة الكردية جعلتهم يتراوون لـى اقل حقيقة . بدلا من ان يبدو حقيقة مكشفة امامي . كان لابـد للتجربة برمتها وللعاطفة ان ينجليا لأتمكن من التركيز على الاصوات التي دونتها على الورق وسجلتها فـسي المسجلة .كنت أتساءل في نفسي احيانا كثيرة ، فيما اذا كان شمة حاج اسماعيل او دا را أو خديجة حقيقيون . كانت أصواتهم مسجلة ولكن أيـن هم الآن ؟ انهم في ذهني ، الذي أمضى وقتا صعبا في التسوية بين جو الجامعة العقيم وحضور كردستان المكثف .

يوجد أكراد في الولايات المتحدة ،وكنت أعرف أن حوالـى خمسين من الرجال الاكراد قد قدموا دفعة واحدة ومكثوا هنـا، أما بالنسبة لآلاف اللاجئين في ايران ،الذين كانوا يرغبون فيـي المجيء الى الولايات المتحدة ،فقد عرفت انه سمح لمجموعة ضئيلة منهم بالدخول الى أمريكا . كان الطبيب المتعاون مع السافاك

هنا . وكان أناس آخرون عديدون قد نجحوا بوسائل مختلفة فسي  
المرور عن طريق دائرة الهجرة التابعة للولايات المتحدة .

قبض على رجل كنت قد التقيت به في ابران في مطار كيندي  
لاستخدامه جواز سفر مزيف والى جانبه زوجته الشاحبة المفرومة  
وفي حضنها طفل ذو سنة أشهر . تلقيت مكالمة من حجرة فسي  
فندق نيويورك الذي كانوا فيه ، خاشفين من أن يبت القرار فسي  
وضعهم . هل ستسمح لهم حكومة الولايات المتحدة بالبقاء ؟ لم يكن  
قد صرح رسميا ابدا باعتبار الاكرد لاجئين ، وعندما حاول  
هذا الرجل أن يتصل بأشخاص من الولايات المتحدة كان قد التقي  
بهم في العراق ، اصروا على عدم معرفتهم به . كانت ثمة ضغوط  
غامضة من مواقع عدة مبهمة في واشنطن تصر على عدم قبول هذا  
الرجل داخل الولايات المتحدة .

في غضون ذلك ، كنت أكتب اطروحتي بهمع معرفتي بأنني  
عاجزة عن فعل الكثير . بدا أن لأحد في امريكا يعرف شيئا  
عن دورالسي . أي في مكان لم يسمع به بدعي كردستان . بعدات  
الرسائل تصل الواحدة تلو الاخرى من الحاج اسماعيل ، دارا والشيخ ،  
عبدالله وهم يعيشون بتحتياتهم الجارة ، وبنهاون من مومند  
عودتي ، عند النساء سمعت الأخبار من اذاعة محلية ، وقد نقلت  
ان الحكومة الامريكية كانت على وشك تلقي صدمة بسبب التفرير  
الصادر عن لجنة بايك التابعة للكونغرس ، والذي يبحث فسي دور  
المخابرات المركزية الامريكية بطريقة سرية في الوقت الراهن ،  
ليس في أماكن معروفة جيدا مثل انغولا ، وايطاليا ، فحسب بسبل  
ايضا بين مجموعة عرقية مناهضة لسياسة الدولة المسيطرة عليها  
وتدعى الاكرد ، في النهاية ظهر تقرير بايك وقيم الدليل على  
ادعاءات الطيب الكردي المتذبذبة اخيرا . عندئذ تساءلت عن  
مدى معرفة الحاج اسماعيل والشيخ عبدالله والبقية بالافضاح ، هل  
سيرحب بالامريكان يوما ما ثانية في كردستان .

يتألف الجزء المتعلق بالاكرد من تقرير لجنة بايك فقط من عمودين موجزين من صفحة مطبوعة ، ويصف التقرير في تعابير محددة كيف ان الولايات المتحدة والتي تعمل بتوجيهات من الشاه شجعت الاكرد لبدء ثورتهم سنة ١٩٧٤ لأن ايران ارادت ان تترك العراق . وتصف ايضا هنري كيسنجر وهو يوجه القيادة الكردية ضد المصالح الكردية لصالح الشاه ويستمر هذان العمودان في سرد كيفية ان الولايات المتحدة ادارت ظهرها ببساطة من ثلاثة ملايين من الاكرد المعاقين في العراق ومشتي ألف من اللاجئين المعجوزين داخل الحدود الايرانية عندما قامت العراق باعطاء " امتيازيسن " لا وزن لهما على سبيل التهدة والوصول الى اتفاق . وحسب اقوال اللجنة المنبثقة عن الهيئة التشريعية العليا ، الكونغرس " فان ماقمنا به كان مشروما نابعا من سلوك تهيمن عليه مصالحنا الذاتية وحدها حتى لو كان ضمن محيط العمل السري " .

لم أكن مستعدة بعد لتصديق ما هو أسوأ ، وكذلك كان صديق لي كردي قد هاجر الى امريكا منذ اكثر من عقد مضى ، أخذنا معا نسخة من تقرير بايك وذهبنا الى محاضرة كان يلقيها موظف ذو رتبة عالية متخصص في قسم الشرق الاوسط التابع لادارة حكومية . انتظرنا بصبر الى أن انتهت المحاضرة وأعيدت افكار متسمة بالتكرار من الحرب العربية الاسرائيلية على نحو شامل . بعد ذلك رفع أسد ، الكردي يده وسأل بلغته الإنكليزية المشددة :

— ماذا بشأن تورط الامريكان مع الاكرد ؟

عدق موظف الادارة الحكومية فينا ، بينما التفت الحشد الاكاديمي ليرى الشخص الذي طرح هذا السؤال .

— الأكراد ؟

قال الموظف باندهاش . عند ذلك تذكرت الموقف لدى ذهبي لروية العميد بشأن دارا .

— ماذا عنهم ؟ ماذا لديك لتقلوه حول الطريقة التي

عاملتهم بها امريكا ، باستخدامها لهم ومن ثم تركهم يواجهون مصيرا فظيما ؟ .



كان تنفس الموظف مسموعا في مكبر الصوت .  
- لا أعرف بماذا تنوه ، ليس لأمريكا علاقات مباشرة مع الأكراد .  
رفع أسد نسخة تقرير بايك لرجل الإدارة الامريكية ليراه . فصرف  
الحاضرون انظارهم عنه . كنت اعرف ما كانوا يفكرون فيه . ففقد  
كانوا يعتبرونه مجرد مجنون شرق أوسطي آخر . وكذلك هو ليس  
فلسطينيا ذا علاقات مع الطبقات الاجتماعية العليا .

صرخ أسد بصوت عال وقد دكن وجهه من الغضب :

- ماذا عن تقرير بايك ؟

- ان تقرير بايك مليء بأمور غير دقيقة .

ولم يحسم بعد او يسمح له بالنشر بالمعنى الضيق للكلمة

ولاشيء فيه يمكن ان يؤخذ على انه حقيقي على نحو موكد .

احاب الرجل على سوء ال طرحه شخص آخر ، جلس أسد بعدئذ بهدوء

وهمس باتجاهنا من بعيد احد الحضور ، وهو واحد من خبراء الجامعة

في شؤون الشرق الأوسط غير الناضجين وقال :

- ما حدث للأكراد هو نتيجة خطئهم تماما . لقد سمعنا

لانفسهم بأن يستغلهم الآخرون .

حلمت بعاشة وهي تعذب بعد هذا بمدة وجيزة ، حاولت ان ابعد

الاکراد عن تفكيري وان اركز على اطروحتي ولكن ذلك كان صعبا .

هتف لي اللاجيء الموجود في نيويورك ثانية وقال انه قد منح حق

اللجوء السياسي . ونقل التي مقتطفات من اخبار طيبة محدودة ،

حيث قال انه سيسمح لسبعمائة من اللاجئين الاكراد بالمجيء من

ايران الى امريكا . سبعمائة لاجيء من أصل ٢٠٠.٠٠٠ وما يقارب

من ١٠٠.٠٠٠ لاجيء فيبيتنامي و ٧٠٠ كردي ، تمنيت لو تنقل مسألة

الاکراد كاملة في اخبار ال C.B.S سي . بي . اس . هيثمة

الاذاعة الامريكية .

ذهبت في يوم شتوي قارس جدا لزيارة الرجل الذي كان قد

جاء بجواز سفر مزور وأبعد تقريبا ، لأن الاكراد لم يكونوا

لاجئين وسميين . كانت زوجته قد نجحت في ايجاد كل اساسيات طبخة لتعد وجبة كردية مشكلة من الارز والمعكرونة والخبز والشاي والفاكهة . تناولنا فداءنا ونحن جالسون على أرضية حجرة الفندق في مكان ضيق عند نهايات الاسرة ، ووضع الطعام فوق اعداد قديمة من جريدة النيويورك تايمز ، ابلغني الرجل انه كان يتفحص بدقة وقلق الجرائد ،بحشا عن اخبار عن الاكراد .

كان وجه الرجل غير حليق وملفتا للانظار ،بدا هو وزوجته مبتهجين لرومية شخص يعرفانه مسبقا ،قبل التغيير الذي طرأ على حياتهما التي كانت اكثر سعادة . سألتهما :  
- ماذا ستفعلان الآن ؟  
ابنسم الرجل بحزن وقال :  
- لانعرف .

شعرت انهما كانا ينتظرانني لأقدم لهما اقتراحا مساعدا أو عرضا بما . ولكنني كنت اقتنيت ثقة صغيرة ولم تكن لدى اتصالات لاساعد هذا الرجل ليحصل على عمل . حاولت ان اوضح هذه الحقائق له ولكن ابتمامته اتسعت اكثر ،وقال :  
- نعم ، انا افهمك ، حسنا ، لابس في ذلك .

مضت ثلاث سنوات قبل عودتي الى كردستان . كان صيف سنة ١٩٧٨ فترة تصفية حسابات بالنسبة لايوان فترة لتسوية الحسابات مع الشاه ووالده الذي سلب ثروات الأمة بقدر ما يمكن ان تتذكره أغلبية الشعب . تلاشت الحواجز وسمعنا انا وجيرد اصدقاء لنا في طهران يتحدثون بعلنية اكثر ضد حكومتهم اكثر مما كانوا يجرون عليه في أي وقت مضى حتى في الولايات المتحدة . وبقدر مايتعلق بهذه الحواجز ، فان افواه الاكراد الذين كنا نعرفهم جيدا لم تتوقف عن الحديث بشأنها ابدا . لقد افسحوا عما يجيش في صدورهم من مشاعر الحقد تجاه الشاه ووالده ولم يبق شيء منها خفيا .

كانت لغتي الكردية قد تحسنت فعلا بعد كل هذه الأشهر مسمين

الاصغاء الى الاشرطة التي سجلتها والرجوع للتدقيق في القاموس الذي كانت ابنة نانا على وشك اثلافه . كان عليّ ان اتعلم ان حسن الاستقبال والحماسة التي شعرنا بها لدى وجودنا موءخرا فيدستان لم تكن شيئا مختلفا من خيالنا . كان لايزال شمة ترحيب ينتظر عودتنا وحتى يمكن ان يكون اكثر حرارة .

كان رأسي لايزال يفضج من الرحلة الطويلة التي قمنا بها في الحافلة الى ريزاي ، الى ان انعطفت سيارة الاجرة البرتقالية نحو قرية الحاج اسماعيل . التغيير الأول الذي لاحظته هو وجود اعمدة كهرباء . وكانت تتفرع على نحو منحرف من خطوط الاسلاك الكهربائية الممتدة على طول الطريق الموءدي الى الحدود العراقية . لقد بات يوم الكهرباء قريبا ، على الرغم من عدم وجود اسلاك على هذه الاعمدة الممتدة الى دستان . والتغيير الثاني الواضح والمباشر في دستان كان انجاب خديجة وطه ولدا ، بحيث قد ولد بعد فتسرة وجيزة من مغادرتنا كردستان وهو الآن طفل ذو سنتين ، مدلل جدا وحبيب جدته . كان طه اخيرا قد تخطى عن كليته ، ظننا انه كان قد حل مسألة الاختيار بين كونه طالبا ذا خصسة وعشرين عاما في السنة الاخيرة في المدرسة العليا ، وبين اتخاذه مكانه كسييد مأمول لاحدى اغنى القرى في كردستان الايرانية . اما خديجة فهي في الوقت الراهن تحت اشراف عماتها لأن زوجها قد انتقل الى القرية . لم تكن تلك خديجة الخالية من الهم التي اذكروها ، وذلك بسبب ضغط واجباتها المنزلية وواجباتها تجاه طفلها . كانت في حالة نزق دائم وتشكو من الصداع ، ولكن بالطبع ، كل ذلك كان دون ما هو ظاهر ، ولم الحظه في البداية ، اخفت دوامة حسن الاستقبال كل شيء سوى الابهتاج الواضح على مضيئينا لوصولنا . وكما يقول المثل الايراني : الضيوف احباب الله . كان الاكسراد يجعلوننا نشعر بالمودة اكثر من أي مضيئين آخرين التقينا بهم .

رافقنا الحاج اسماعيل الى " درمان آغا " بسيارته التويوتا واقيمت ولافم في ديوانخانته ، حيث احضر الحاج اسماعيل آلة التصوير

الفوري واظهرني في صور عديدة كان التركيز فيها علي ضيلا ،  
ليحتفي بهذه المناسبة الخاصة . فعلت اكثر مما كنت أريد فسي  
دستان ، ربما لأن هذه كانت رحلتي الثانية ، وكنت اشعر بالثقة  
اكتر في نفسي مع الاكتراد ، فقد شهرت بحرية اكتر في مداعبة  
مضيفاتي عندما كن هن أيضا يفعلن ذلك وقررت ان اتسلق الجبل  
الذي يرتفع خلفدستان على طول الطريق ، حتى الحدود التركية ، وقد  
شكل هذا صدمة للحاج اسماعيل ومريم .

كنت الانشى الوحيدة في فريق مؤلف من ثمانية من أولاد الحاج  
اسماعيل وأولاد اخته وجيرد . لقد كان الاكتراد لطفاء معي بقدر  
ما يستطيعون . فقد حملوا كامرتي بدلا عني وعندما ظهر رجلان  
كهلان بجانب الممر الضيق يقودان احصنة في الاتجاه الذي كنا  
نسير فيه ، طلب مضيفونا عصانين لنركبهما انا وجيرد . وبفضل  
منايتهم المفرطة كنت قد انهكت فقط ولم امت ، لدى بلوغنا الثلج  
والمعسكر الصيفي للقربة الذي يقضي الشتاءات في سهل ميرغاوارقرب  
دستان . عرفت سبب عدم اعتبار الحاج هذا التسلق رياضة ولماذا  
حاول بشدة ان يفلتنا بالتخلي منه . ان التسلق عمل مطلوب من  
الرعاة واسرهم ، الذين يأخذون الاغنام الى مراعي تقع في اماكن  
اعلى ، بعيدا عن مشب السهل الجاف ، انه ليس امرا يفعله معظم  
الشبان للتسلية . ومع ذلك ، وكالعادة ، فقد تفهل علينا الاكتراد  
بتحقيق رغباتنا واخذونا الى حيث كنا نريد .

اصبح التسلق اكثر امتاما برفقة محمد ، كنت اسمع منذ  
زيارتي الاولى لدستان عن محمد ، عندما اخبرتني والدته واخت  
الحاج اسماعيل ، ان لها ابنا يتحدث الانكليزية بطلاقة وانه يدرس  
العلوم في احدى الجامعات الايرانية ، وبالنظر الى بيثة دستان  
بدا ذلك غير ممكن الى حد بعيد ، حتى اني تساءلت اذا لم تكن  
تبالغ قليلا ، وعلى كل حال ألم تظن خديجة ان روسيا الشيخ عبيد  
الله وامر بيتهتي كانتا نفس المكان ؟ .

ولكن محمدا كان حقيقيا تماما وتقريبا افضل من الحقيقيا

بكثير . كانت انكليزته ظاهرة غريبة بالنسبة لشخص لم يخرج من ايران ابدا . على الرغم - وبالتأكيد - من انه لم يكن ابرع ممن الحاج اسماعيل فقد كان من المدهش ان ترى اهتمام كردي مولود في القرية موجها نحو علم الاهياء ودراسة اللغات على نحو رسمي بدلا من ان يوجه نحو الزراعة وصيد الغزلان والسياسات القبلية . ان وجود محمد في القرية احدث اختلافا كبيرا في أمر بقائنا . فلم يكن ثمة شخص في دستان يمكننا التحدث معه بالانكليزية قسط . ولكن اللغة لم تكن السبب الرئيسي والفعلي ، بما اننا كنا نتقدم جيدا في الكردية والفارسية ، ولم نكن نحتاج لمساعدته في الترجمة . ان المظهر الثقافي هو الذي احدث هذا الاختلاف بالتحليلات التي كان يبديها والاجوبة الجوهرية التي يجيبها عن القرية وعن اسرة كان قد اقام معها لمدة عشر سنوات ومن ثم فادرها الى مسدة اميال عنها . لقد كان من نواح عدة شخصا مريحا ، ومن نواح اخرى كان وجوده هنا بيئة نشير المصادمات . ولكن في النهاية كان حضوره يثير التساؤلات اكثر مما يجيب عليها .

اشياء مودتي الى ايران تحدث الي شخصان فقط حول تورط امريكا في الحرب الكردية الاخيرة . كان احدهما الشيخ عبدالله الذي اشار الى السي . آي . اي . على نحو غير مباشر . لقد اتضح لي الآن ان الشيخ عبدالله يعرف وكان قد عرف كل شيء جار ، على الرغم من انسحابه الرسمي الاضطراري ، اما الشخص الآخر الذي كان يعرف السي ، آي ، اي . والذي لم يترك مجال العفو ابدا ، هو السيد خليلي ، صديقي في محطة الاذاعة والذي كان قد قدمني اصلا الى عائلة الحاج اسماعيل .

فحسب رواية السيد خليلي فان السي . آي . اي . لم تكن مسؤولة عن قتل الاكراد العراقيين الذين اشتركوا في القتال فحسب ، بل من جميع الاكراد الذين طوتهم الحكومتان في ايران وتركيا . وفي الحقيقة بدا انه ليس هناك حدود لقوة وقدرة امريكا في نظر السيد خليلي . الثقتنا انا والسيد خليلي وجيرد في احدى الليالي وجلسنا على مقعد في احدى الحدائق . بدت الحديفة مشل

اماكن عديدة جميلة في ايران ،وكأنها قد تحولت الى موقــــف للسيارات ،التي كانت تسيـــــر بمعاذاتنا تماما في ممر ضيق مخصص للمشي . وعندما ابديت استيائي من ذلك للسيد خليلي قال بمســــا معناه ان دمار هذه الحديقة هو خطأ الولايات المتحدة كما كانت وبنفس القدر هي السبب في خراب الزراعة الايرانية ايضا .

كان بعضمما يقوله السيد خليلي صحيحا على نحو مطلق ،ولكن تدمره بصورة عامة كان شبيها بالمسوءولية المتعذر السيطــــرة عليها والتي كان العديد من الايرانيين يرغبون في رمي ثقلها على كاهل امريكا . فحتى الآن يبظن العديد من الايرانيين الليبراليين ان الولايات المتحدة هي التي كانت وراء تسلّم آية الله الخميني السلطة ، ان كل امر سيء يمكن ان يحدث في ايران ،ولو فســــي حداثها ،يمكن ان يلقي امام عتبة امريكا .

جلت بنظري نحو البدر بعيدا عن وجه السيد خليلي المنفعــــل . شعرت بالانزعاج لتسلط هذه الفكرة على السيد خليلي ومن ثم انتابني شعور بالخجل من نفسي لاهساسي بالانزعاج ، ماذا يريد منا السيد خليلي ؟ ماذا نريد منه نحن ايضا ؟ كان السيد خليلي يثير قلقي اكثر من اي شخص آخر التقيت به في ايران ، عندما غادرنا ريزاي بعد اقامتنا فيها ، كانت صحته الجسدية والنفسية في حالة واهنة لدرجة اني تساءلت فيما اذا كنت سأراه حيا في زيارة اخرى . لقد تراءى لي مجسدا وعمي كردستان وضميرها ،والآن وبعد ان قضيت فترة مع اللاجئين في امريكا لاحظت كم يشبههم السيد خليلي في طريقة تفكيرهم وحديثهم . لقد كان لاجئا في ارضه الأم . ولسم يقدر السيد خليلي ان يتأكد ابدأ من أننا لسنا عناصر من السي آي . اي . فعلا ،على نحو مفاير عن الشيخ عبدالله .

كان تقبل انتقاد السيد خليلي اكثر صعوبة من انتقاد كردي آخر ، قومي متحدث وهو محمد ابن اخت الحاج اسماعيل . وقــــد قضيت معظم وقتي في دستان برفقة محمد . اتحدث من كل شي تقريبا . بدا انه لا توجد محظورات عند محمد ،وفي جو الروح الــــجدر . . . . . السائدة في اب ان والروح الحرة الكردية التقليدية ،ان حوضنا

مناقشة طويلة حول عزمه على السفر الى تركيا والى جميع انحاء  
كردستان في مهمة لتثقيف وتنظيم اخوانه الاكراد سياسيا لم تشر  
في تفكيري الا بعقل الاستغراب . لم يتحدث الي احد لبدا بتلك  
الحرية ولكن من ناحية لم يكن ثمة شبهة لمحمد .

هدم عبدالله كل ما كونه من آراء حول محمد في احد الايام  
بعد مضيهِ الى عمله في طهران ، فلقد سألتني :

- انك تتحدثين مع محمد كثيرا ، اليس كذلك ؟

تأملت وجهه متسائلة فيما ، اذا كان قلنا مثل خديجة رسول  
مسألة ملاءمة قضاء الكثير من الوقت مع رجل هو ليس بزوجي ، وأردف  
قائلا وقد ارتسمت علي وجهه ابتسامة خفيفة :

- أتعلمين ان بعض الناس يقولون ان محمدا يكتب تقارير  
للساقا ؟

انتابتني فورة من الغضب لهول المفاجأة ، ثمة اناس آخرون  
يوجهون ضروب الاتهامات هذه بسهولة ولكن ليس الشيخ عبدالله وبأسر  
بمس قريبه . سألت بحدة متمسكة - على نحو يئس - بثقة وود  
ببتلاشان بسرعة رهيبية . انقلبت الحقيقة في لحظة رأسا على عقب  
ولن تعود الصداقة مثلما كانت ابدا . لقد ادركت لتوي من الشعور  
المرضي في معدتي انني حقا في ابران ثانية . وازاف الشيخ عبدالله  
غير مبال :

- لا أعرف . ولكنني ظننت انه لزام علي اخبارك بذلك .

عندما عدنا الى طهران من زيارتنا الى كردستان ، تسرددت  
ولكني بعدد هتفت لمحمد في مكان عمله ، نزولا عند طلبه . تسأل  
انه متلف ليرينا انحاء المدينة أو أن يساعدنا بأي طريقة  
ممكنة . تعطلت فعالياتي لدى سماع صوته ثانية . كان محمد يذكروني  
بالهاج اسماعيل من نواح عدة ، وفي الحقيقة كان محمد قد حدثني  
عن مدى حبه واحترامه لخاله على الرغم من كل اساليب الحجاج  
المتحفظة .

التقينا بمحمد في المتحف الايراني للفن الحديث ، وهو مؤسسة

بدأت انها تعكس اهتمام الامبراطورة فرح في الرسم الفرنسي. كان محمد برفقة امرأة زميلة له في العمل . وتساءلت فيما اذا كان كلاهما يعملان للسافاك في وقت لاحق وبعد ان تأملنا مجموعة الفن بامعان ، اخذنا محمد الى منزل احد اقاربه في شمال طهران. لقد اشار زواج محمد من زميلة له في الجامعة بدلا من زواجه من كردية، اشار انطباعا غامضا لدي .

بدأ الشك يراودني ثانية ،عندما قادنا عبر الفناء ومن ثم الى قاعة الاستقبال الايرانية المؤهثة على نحو فاخر ،كان جميع افراد اسرة زوجته يشادونه بمحمد خان . وقد بدأ ذلك فريبا للغاية ،بما انهم ليسوا اكراد . لماذا يكتون هذا الاحترام البالغ لابن قائد قبلي ،مولود في القرية ؟ في غضون ذلك المساء قدم لي محمد زوجا من الصنادل البلوجية ،المصنوعة من الياق شجر النخيل . عند العودة الى دستان روى لي كيف ان عمله قد اخذه الى جميع انحاء ايران. كان محمد قد قام بزيارات لاماكن فقيسة ومتخلفة الى حد لا يصدق ، اماكن كانت تجعل القرى الكردية تسدو مثل ضواحي ويستجستر ،كانت الحالة المتأزمة للبلوجيين في الجنوب الشرقي من ايران قد اثرت في محمد بشدة ،ربما لأن بلوجستان هي مثل كردستان ،مجزأة بين بلدان عدة ، مع كل المحاولات الايرانية والباكستانية للقيام ما باستطاعتها لاعاقة القومية البلوجية .

- تغلبي هذا الصندوق .

قال ذلك محمد وهو يناولني اياه ،اخبرني في دستان انه مازم على تقديم هذه الذكرى لي من بلوجستان . ومع ذلك فقسد حرمتم في نفسي في طهران ،انه قد اعطاني اياه على سبيل الشكليات فحسب . لذلك تركته قابعا على طاولة المقهى عندما مضيت الى المنزل

رأينا محمد ثانية في احد الايام ،ولفت نظري كيفية تدبره امره في الذهاب والاياب من عمله بهذه السهولة ،ولكن محمدا كان متحمسا كما هو دوما . وتبعنا الى مكتبة روسية تقع في الجانب الاخر من جامعة طهران ،حيث تصفحت كتبنا بحثا عن بعض الكتب الروسية



من الاكراد . وطبعاً لم نعثر على اي شيء . وكنا قد قمنا بزيارات عديدة اليها ولم نجد شيئاً قط .

التقى بنا محمد مرة اخرى ليودعنا . وكان في يده الصندوق المصنوع من الياق النخيل . وقال متحيراً :  
- لم تأخذه . لقد اهديتك اياه ، ألا تريدونه ؟

شعرت بالاضطراب لذلك ، لماذا كنت متأكدة انه لم يكن يقصد اعطائي اياه ؟ لم يكن هناك شيء بينم عن سلوك شكلي وتقليدي في ماداته . ربما كان ذلك ماتمنيته فعلاً . فعلى الأقل لخطت الرسميات لدي مبرراً لاكرهه .

تساءلت حينئذ ، كما أتساءل الآن ، فيما اذا كان محمد قد احس بفتورنا الغريب . وقد فتحت فمي اكثر من مرة لاتكلم وأوضح الموقف ولكن ارادتي خائنتني فالذي ابلغنا من محمد هو الشيخ عبدالله .

ذكري محمد عندما وقفنا في الشارع في طهران نتصافح بأنه مارم علي المجهي الى امريكا وانه ينوي الحصول على الجنسية هناك واهاف :

- انها الطريقة الوحيدة كي اكون حراً في مساعدة ابناء جلدتي . فقلت له موحية :

- ولكنك ستنسى الاكراد ، عندما تذهب الى امريكا ، لن تفكر في العودة الى كردستان ، فنظر الي بوجه مارم وقال :  
- ان والدي ووالده وجدته قد كرسوا حياتهم لقضية كردستان فتساءلت في نفسي ، هل يمكن أن تكون هذه كلمات عميل للساناك .

انتهينا من المصافحة ومضى هو بخطوات واسعة سريعة نحو الشارع .

- انتظر ، انتظر يا محمد .

قلت ذلك وأنا أصرخ وراءه تقريبا ، بعدئذ لغني الصمت ولم أتفوه بكلمة ، ووقفت اراقبه بحزن وهو يرحل عن الطريق .

## كلمة اخيرة

كنت خائفة في البداية ، لدى شروعي في تدوين تجاربي في كردستان ، فلم يكن قد مضى شهر بعد على عودتي من ايران حتى بدأت أشعر بعيون السافاك السرية ، تثقل كاهلي ، حتى في أمريكا وارتأيت بعدئذ ، انه ليس من الحكمة الكشف عن الحقائق الواقعية والممتعة ، ووضع أصدقائي الاكراد في خطر . لذلك فقد غيـرت الاسماء والأماكن وبعض التفاصيل ، لاختفاء هوية كل شخص ورد ذكره في الكتاب ، منذ البداية تقريبا .

عندما أكره الشاه على الخروج من ايران ، شعرت بانزويح هذا الثقل ، اذ لم يعد هناك ما يسمى بالسافاك على الأقل ، كان من المعجب علي أن ابدي حماسا تجاه مفهوم دولة خافعة لحكم رجال الدين الشيعة ، على الرغم من ميلي المتعاطف مع الأقليات العرقية والدينية في ايران ، ولكنني أملت مع آخرين عديدين ، أن البوليس السري ومراقبة المطبوعات ، وتوجيه الاتهامات - حتى بالشك فقط - ستصبح ذكريات من ماضٍ وحشي مرعب . لم أعرف أبدا رأي أصدقائي الاكراد بآية الله الخميني ، اذ بعد مغادرتي ايران صيف ١٩٧٨ أصبحت الاغرابات في مراكز البريد مستمرة و اشتدت عمليات الاخلال بالأمن مما جعل المراسلات المتبادلة داخل وحول ريزاي مستحيلة . وبالإضافة الى ذلك لم أكن قادرة على معرفة ما حدث لهم في هذه السنة من العنف المتجدد .

انه لمن السخرية المريرة ، أن يحظى الاكراد الآن فقط بتغطية في الصفحات الاولى من الصحف الأمريكية . ففي حرب سنة ١٩٧٤ في العراق التي ذهب ضحيتها آلاف لا تحصى من الاكراد لم تتلق قضيتهم وكفاحهم القدر المماثل من الاعلان والدمامية المتدفقة عنهم من ايران يوميا في الوقت الراهن . سيعلم القليل القليل ، ذلك

الذي يقرأ التقارير عن المعارك ويتفحص بدقة صور الأكراد المصطفين لينفذ حكم الاعدام فيهم، وتبدو الصحافة الأمريكية متلهفة لنقل ان احدا ما يقاوم آية الله الخميني، حتى ولو أنه واحد من المجموعات القبلية، إلا وهم "الأكراد"، ومعظم التقارير الاخبارية تتجاهل او تشوش حقيقة وجود امة كبيرة ومتماسكة في ارض كردستان المجزأة والخاضعة للحكومات في انقرة وبغداد وطهران .

هناك روية نامية حول كردستان موحدة في الشرق الأوسط هذه السنة اكثر من اي سنة اخرى في الذاكرة القريبة، والحدود التي تفصل الاكراد عن بعضهم غير مسيطر عليها، لأن الحكومات في ايران والعراق وتركيا كلها مزعومة . لا أحد يعرف اذا كان الخميني سيقدر على حشد جيش وترسيخ حكومة، لتسيطر على تلك الأرض الواسعة بشعوبها المتباينة . كانت العراق حديثا قد شهدت محاولة انقلاب ثانية وكان قد اعدم فريق فخم آخر من المسوءولين في حزب البعث، وتبدو تركيا دوما على حافة الافلاس ويتولى الجيش والقوات المسلحة السلطة فيها .

أتساءل فيما اذا كان لدى الاكراد الذين دمتهم سنة ١٩٧٨ معرفة طفيفة او حس داخلي باحتمال توفر مناخ جديد لهم، وانفتاح مجال واسع امامهم، جاء رحيلي الأول من ايران في غضون الاثار الكارثية لحرب ١٩٧٤ المشؤومة . بدا كل شخص حزينا، ليس الاكراد اللاجئين الذين كانوا يدرسون القرار للبقاء في المنفى أو العودة الى تعذيب وموت ممكن في العراق فحسب، بل جميع الاكراد في ايران، في تركيا وفي جميع انحاء العالم . سارت الهيئات واستمرت على ما كانت عليه في ايران وتركيا التي لم يكن فيها للأكراد ضمان للحقوق الثقافية، اما في العراق فلم يعد هناك سبب كي يقدم النظام تنازلات للأكراد، بما ان كيسنجر والشاه قد قطعا عنهم الدعم من الخلف، نُظمت اعدامات جماعية، وشلت الممثلة الكردية في الحكومة العراقية واقصيت اللغة الكردية كوسيط للتعليم في المدارس والجامعات في كردستان العراق .

وملاوة على ذلك نتجت آثار غير مباشرة أيضا بالنسبة للأكراد بسبب أحداث سنتي ٧٤-٧٥، فالعالم لم يكن متعاطفا مع القضية الكردية ابدا . وقد تقدم التقدميون الاكراد بطلب رسمي سنة ١٩٦٠ لعبد الناصر ، كي يرفع قضيتهم مع العراقيين الى هيئات دولية وقد امتذر عبدالناصر عن ذلك ، لا أحد في القاهرة او في اي بلد آخر حينذاك وفي الوقت الجاري ، قدر أو يقدر ان يفهم ايئة نزاعات يمكن ان تحدث في المنطقة . ان صداقات الاكراد ذات الاختيار السيء مع امريكا وشاه ايران ، خفت اي ومضة ضئيلة من التعاطف ، كان من الممكن ان يجدها الاكراد بين اليساريين والمسلمين او القومييين العرب . على الرغم من انه شيء قابل للجدل ان تقول : ما كان لغير هذا ان يحدث اي تغيير في الموقف - حيث لم يقدم احد من هذه الجماعات الدعم للأكراد علنيا ابدا - فقد قدم هذا الأمر التسهيلات للحكومة العراقية كثيرا كي تقوم بالابادات الجماعية ، حيث اجبر في الوقت الجاري حوالي ٥٠٠,٠٠٠ الى ١٠٠,٠٠٠ من الأكراد قسرا على الإقامة في المعسكرات في الصحراء الجنوبية العراقية ، بعد ان أجلوا تحت ضغط فوهية البندقية من قراهم في كردستان العراق . ويفرغ العراقيون رقعة من الارض يبلغ اتساعها مائتيارب عشرين الى ثلاثين كيلومترا على طول حدودهم مع ايران وتركيا وبذلك يحدثون ارضا بلا شعب ، فقد ابيدت الاشجار والمنازل والمحاصيل عن بكرة ابيها . ان الجزء الأكثر اخضرارا وخصوبة في كردستان يقع ضمن حدود العراق ولكن الينابيع الجبلية قد سدت بالاسمنت المسلح وصبت السوائل الكيماوية على النباتات الطبيعية .

ومع كل هذا فان الحكومة العراقية غير قادرة على قتل كل الاكراد في العراق ، كما لم يستطع الشاه ان يجعل من نفسه شخصا لايقهر بقتل كل ايراني . ان جيل الاكراد الذين عرفتهم في مدرسة اللاجئين عند العودة الى ريزاي ، ليس مستعدا للعودة الى عراق يحكمه نظام عنصري ، لقد نشؤوا في كردستان ، حيث كانت لغنة الكتاب الأولى لتعلم القراءة والكتابة ونصوص الفيزياء بالكردية وليس بالعربية .

لا يزال القتال مستمرا في العراق ولكن القليل منه مما يلفت الانتباه في الصحف الامريكية ، وقبل عدة اشهر وافت المنية الملا مصطفى البرزاني ، رجل الثورة الكردية المتمرس بعدمعركة دامت خمس سنوات مع السرطان ، لقد مضى مسعود البرزاني ذو الخمس والثلاثين سنة لتوه الى ايران ، بعد ان شهد احتضار والده على فراش الموت في واشنطن في امريكا ، حيث جمع القوات القديمة التابعة لوالده ، من البرزانيين ، وقادهم عائدا الى العراق عبر الحدود وقد نقل ان مسعود اصبح الامين العام للحزب الديمقراطي الكردستاني ، تلك المنظمة التي تلقت المساعدة من امريكا وايران . ان اسم "أوك" الاتحاد الوطني الكردستاني ليس معروفا في امريكا ، ومع ذلك فقد شرع في القتال وحده منذ الوقت الذي امر فيه البرزاني وجنرالاته رجالهم بوضع السلاح سنة ١٩٧٥ . وقد عاد الى العراق جلال الطالباني وآخرون من الذين كانوا قد اقصوا عن ح.د.ك. ما بين سنوات ١٩٦٠ و ١٩٧٠ . اني افكر بالشيخ مبدالله واتساءل فيما اذا كانت هذه الاحداث قد خطرت ببالسه لاحقا ام لا .

ابلغني اصدقاء لي في امريكا انهم عرفوا اكرادا عراقيين ظهوروا على شاشات التلفزيون وعلى صفحات الصحف الواردة من كردستان الايرانية ، حيث ان سياسة الارض المحروقة الجارية في كردستان العراق لاتزال قائمة . كان الاكراد قد عادوا الى ادارة بلادهم مع مطلع حكم الشاه ، تماما كما بسطوا سيطرتهم عليها خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما كان الجيش الفارسي منشغلا في مكان آخر . وكما كان من قبل في جنوب ريزاي ، فان هذا الحكم يبدو شرعيا تماما ، اكرادا يحكمون اكرادا . ولكن تدفقا من تقارير مشوشة عن اترك " أي اترك؟" يقاتلون اكرادا في منطقة ريزاي - ناغادة ، خلقت مفهوما معيننا لدى معظم الامريكان ، كما فعلته مع مراسلي الصحف الذين كانوا يقومون بتغطيتها . من على هذا البعد ليس باستطاعتي الا ان افرض

الى هذا الافتراض وهو أن الدائرة القديمة من النزاع والانتقام بين العجم والكرد قد استوءفت في غياب القمع الحكومي ، أو ربما معدت في وجه الخميني لحضه للاغلبية الشيعية في إيران لحل الأزمة الكردية بالدم اذا اقتضى الأمر .

لا يستطيع الاكراد أن يبسطوا سيطرتهم على ريزاي ، لأنها مدينة تركية ، ولكن تقارير نشرت أن " الغارديان " نقلت أن الاكراد استولوا على مخفر الشرطة في سيرو ، التي عبرناها الى مقاطعة هكاري في كردستان تركيا قبل أربع سنوات وتمت خلقت . وفي الوقت الراهن من الممكن ألا نقدر على الذهاب الى تركيا الشرقية على الاطلاق ، بسبب الاحكام العرفية السارية هناك . ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون سهلة . فربما يستطيع طه أخذنا الى هناك بسيارته اللاندروفر بدون مضايقات جوازات السفر أو التأشيرات . وتقول الاشاعات أن الاكراد في تركيا قد حبروا مناطق بأكملها ، وأنهم يعبرون الحدود بالآلاف ليأتوا لمساعدة اخوانهم الايرانيين .

وقد نعت مسوول ايراني الاكراد - وعلى نحو رسمي - بأنهم شعب رديء وبأنهم أدوات للشيطان . وكان قد أرسل آية الله الخليلي ليهتمدق باحقاق الحق في كردستان . ويحتل الجيش ايراني مدن كردستان مدينة مدينة ابتداء من سندانج وساقز ومهاباد وبوكان وبيرانشهر ، وصولا الى بانه ، وقد نقل أن معظمهم قد لادوا بالفرار فالأكراد كما يتعين على الايرانيين اكتشافه - ليسوا ، طهرانيين ويأمل الاكراد أن يصدوا في الجبال لأمسـ طويل ، كما حدث في حرب ١٩٦١ في العراق .

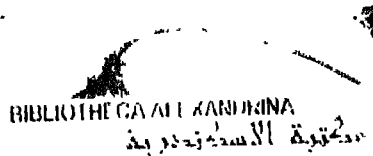
ثمة تهديد وهو موجود دوما ، بأن الفرصة المناسبة للأكراد ستنقضي . وحكومة الولايات المتحدة بحاجة شديدة - بشكل يثير الفقول - لبيع السلاح لجهة ما ، لذلك ربما يكون الايرانيون قادرين على استكمال المخزون الذي ورثوه من الشاه ، ليصبوا المزيد من السم والنار على كردستان .

تحدث الرئيس التركي الحالي على نحو فظ ، لدينا الأكراد ،  
اذ يندر أن يفعل الأتراك ذلك ، عندما يتعلق الأمر بالأكراد ،  
وذلك في كلمة له ألقاها في الذكرى السنوية للانتصار التركي  
على اليونان سنة ١٩٢٢ ، وصرح قائلاً : " ليس هناك حيز للمناطق  
وضروب النشاطات التحريرية التي تستهدف الاختلافات اللغوية ،  
العرقية ، الطبقية أو الطائفية في وطننا ، وستوقع الحكومة  
الهزيمة بهذا الداء وستسحق رؤوس بعضهم " .

لو لم أكن مؤيدة للأكراد ، لما خلقت مضايقات لنفسي  
بالكتابة عنهم ، ولكن لو حدث وعرف مزيد من الناس عن وضع  
الأكراد فانهم سيولون عناية كافية للتعبير عن آرائهم بحرية  
في الوقت الذي يحول فيه النظام العراقي كردستان الى أرض  
خراب ، وسيهتمون بمساعدة الأكراد لاسماع صوتهم في الأمم المتحدة  
الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، وسيهتمون كذلك  
بالاحتجاج والادانة ، عندما تستخدم الأسلحة الامريكية ضد الأكراد  
في ايران والعراق وتركيا .

ليس للأكراد أصدقاء ، هو مثل أستشهد به أحيانا كثيرة  
للزوار الذين كانوا قد وصلوا الى كردستان أثناء المعارك .  
ولكن موقفا جديدا قد نشأ في كردستان في الوقت الراهن ، بعد  
درس سنة ١٩٧٤ وهو : أن الأكراد لا يحتاجون الى أصدقاء . فهم  
بقدرتهم على البقاء والاستمرار قد تفوقوا على اليونانيين  
والرومان والمنغوليين والعثمانيين والآن على الأمريكيين ، لذلك  
ربما يكون موقفهم ماثبا .

كاليفورنيا ، أيلول ١٩٧٩



## بعض مما قيل في الكتاب

" ان ابناء الجن ، هو مقدمة ضرورية جدا عن شعب شجاع وجدير  
بالاهتمام "

- وليم سيفر

لا أظن ان احدا قد مسح " أفرغ في قالب مسرحي " فجوة  
الجهل والتشوش وسوء الفهم بين شعوب من الغرب ، حيث المجتمعات  
الصناعية ، وشعوب من المجتمعات الاسلامية على نحو افضل من هذا .  
فالمرء هنا لا يرى الاكراذ فحسب ، بل ايضا امبراطورية ايـران  
الشاه المقسمة المتداعية للسقوط ، تنجح السيدة كان ، في الاحتفاظ  
بعنفوان وتوهج دهشتها الأصلية بهؤلاء الناس وبتلك المناطق  
الطبيعية على نحو لم يمسهما أي تغيير في كتاب مفعم باهتياج  
الثورة والحرب الاهلية كتاب متعقب ظسة وخفية نشاطات السافك  
والمخابرات المركزية الامريكية ، انها قصة تتوزع بين الرومانسية  
والرعب ، قصة تزيد من معرفتنا وتنورنا اكثر ، وهي مقروعة  
والاقبال عليها شديد .

- جوناثان رابان

مؤلف : رحلة في المتاهة



## الفهرس

٧	استهلال
٩	مقدمة المؤلفه
الجزء الأول - خارج كردستان	
١٧	الفصل الأول
٣٦	الفصل الثاني
٥٥	الفصل الثالث
٧١	الفصل الرابع
٩٨	الفصل الخامس
١٢٢	الفصل السادس
الجزء الثاني - على تخوم كردستان	
١٥٥	الفصل السابع
١٧٤	الفصل الثامن
١٩٦	الفصل التاسع
٢٢٢	الفصل العاشر
٢٤٠	الفصل الحادي عشر
٢٦٧	الفصل الثاني عشر
٢٨٢	الفصل الثالث عشر
الجزء الثالث - داخل كردستان	
٣٠١	الفصل الرابع عشر
٣٢١	الفصل الخامس عشر
٣٣٩	الفصل السادس عشر
٣٧٦	الفصل السابع عشر
٤٠٧	الفصل الثامن عشر
٤٣٣	كلمة أخيرة
٤٣٩	بعض مما قيل في الكتاب
٤٤٠	الفهرس

لقد كانت الجبال للأكراد، كالصحارى للمغرب تماماً . فهي مأواهم  
ومعاشهم في السلم، وهي ملجؤهم في الحرب إذا مالت عليهم الحرب  
صاحبون وفي شعابها يجتمعون . وكثيراً ما تحدث الرواة في كتب التاريخ عن  
العزوات التي كانت تحتاج كردستان قديماً فيروون أن الأكراد كانوا يكتمون  
في بطون جبالهم، يتصدون غزاهم، حتى إذا صاروا في المرامي فاجؤوهم  
كالجن من شقوق الجبال، وانقضوا عليهم خثافاً  
لعل اختفاء الجن عن أنظار الناس، وعزلة الأكراد الطويلة في جبالهم،  
واختفاءهم في بطونها عن أنظار مهاجميهم، لعل هذا القاسم المشترك بين  
الجن والأكراد هو الذي شد الأكراد إلى الجن . شدتهم إلى حد الالتصاق  
ببل إلى حد الانتساب .  
ولعل هذا القاسم المشترك، إضافة إلى بعض الصفات السلوكية  
والخلفية مجتمعة، هي التي دفعت الرواة آنذاك أن يتوهوا في الأكراد ما  
توهوا، وأن يسجوا حول أصلهم الخرافات والأساطير، فيعتقدون أنهم  
من الجن أو فيهم بعض ما في الجن والافمن أين للأكراد أن يكونوا «أبناء  
الجن»؟ ومن أين انتقلت إليهم مورثات الحسناوات الأوريبات اللاتي  
اخذنهن جان سليمان - كما تعقب الباحثة على الأسطورة، عاقلة وجوه  
الشبه بين ملامح النساء الكرديات والأوريبات؟

دحام عبد التبارك



E-Pirtûk

[www.kurdme.com](http://www.kurdme.com)

[www.all-kurd.com](http://www.all-kurd.com)

[www.kurdefrin.com](http://www.kurdefrin.com)

